نظرات جديدة في إعجاز القرآن

إعداد

د/ محمد أمين محمد أبو شهبة

تقديم

أ.د/ عبد العظيم المطعنى

2007

مكتبة بستان المعرفة

لطباعة ونشر وتوزيع الكتب

كفر الدوار- الحدائق ☎: ٠٤٥/٢٢٢٤٢٢٨ & ٠١٢١١٥١٢٣٧

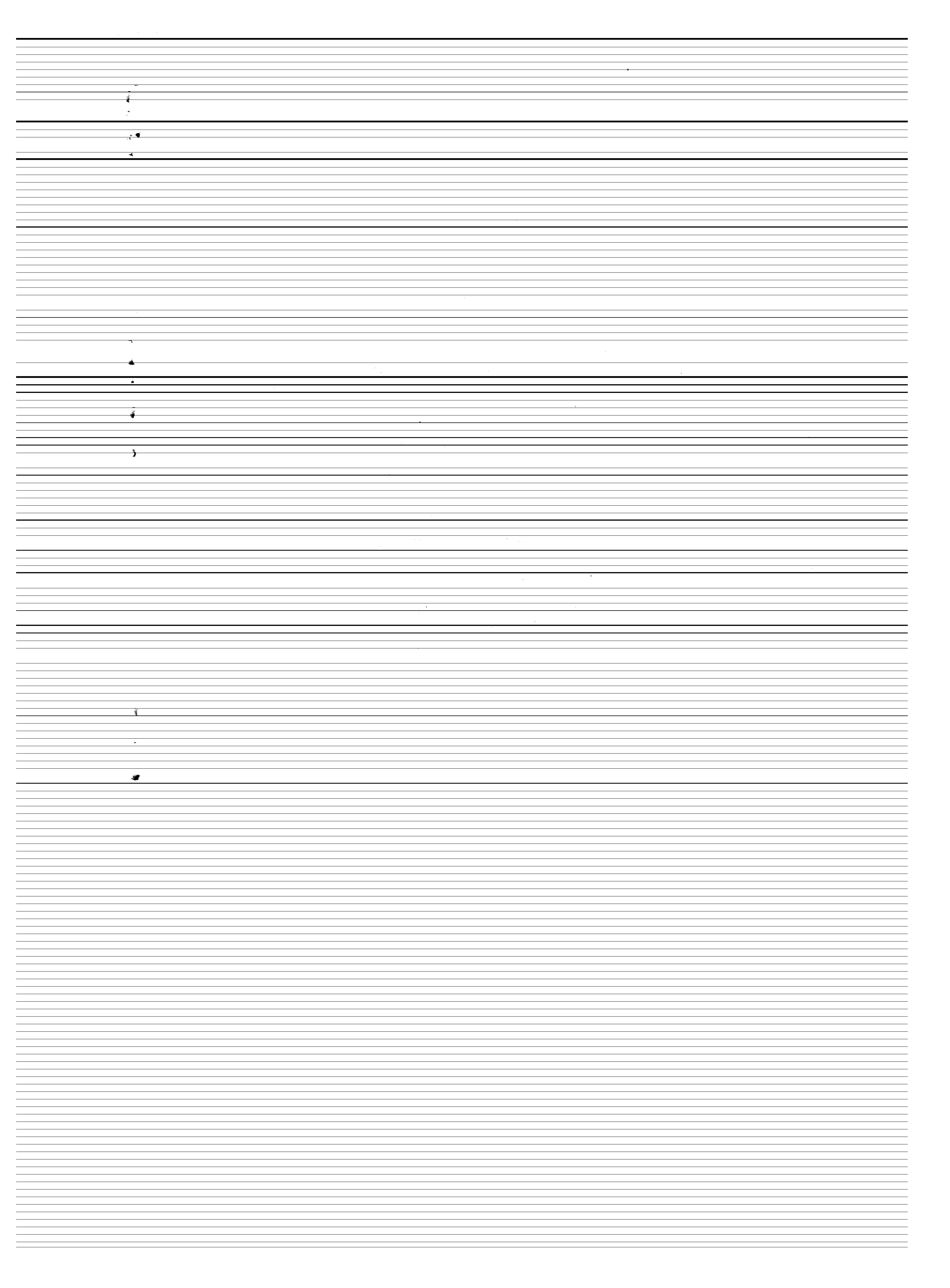
العنوان	نظرات جديدة فى إعجاز القرآن
اسم المؤلف	د. محمد أمين محمد أبو شهبة
رقم الإيداع	٢٣٤٣١ /٢٠٠٦
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977 - 393- 078 -5
الناشر	مكتبة بستان المعرفة

كفر الدوار ــ الحدائق ــ ٦٧ ش الحدائق بجوار نقابة التطبيقيين
☎: ٠٤٥/٢٢٢٤٢٢٨ الإسكندرية ٠١٢١١٥١٢٣٧
Email: bostan_elma3rafa @ yahoo.com

نظرات جديدة
فى إعجـــاز القـــرآن



بسم الله الرحمن الرحيم



الإهـــداء

إلى من ربياني صغيراً ، وعلماني كبيرًا ، وكان رضاهما نورًا يضيء
لي الطريق ، وطوقا يعصمني من الغرق في أمواج الحياة العاتية
إلى والدي الكريمين

وإلى روح أختي الطاهرة في قلبي وعقلي وضميري

ـ أهدي هذا البحث

تقديم

أ.د. عبد العظيم إبراهيم المطعنى

تقديم

الشيخ الإمام الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز من ألمع وأبرز شيوخ الأزهر، وعلماء الإسلام فى العصر الحديث، عالماً موهوباً مطبوعاً تقياً ورعاً، مارس العمل فى مجال الدعوة وهو طالب فى المرحلة الثانوية فى معاهد الأزهر الشريف، وخاض تجارب عميقة فى الزود عن الإسلام، وتجلية محاسنه، وصفاء موارده، وإعجاز كتاب الإسلام الخالد "القرآن العظيم" والدفاع عن الإسلام، أمام المناوئين له فى الداخل والخارج، ومؤلفاته ومقالاته التى أخرجها للناس، وحفظها الله من الزوال، تشهد له بعبقرية فذة اضفت على مأثوراته كلها طابع الأصالة والابتكار وأسهمت — بحق — فى الفكر الإسلامى والعالمى بأكبر نصيب.

إذا قرأت له كتاباً مرة قادتك قراءته الأولى إلى أعادة قراءته مرات وأنت واجد فى كل مرة جديداً مفيداً، لما فى عبارات الشيخ من إحكام، وفى طريقة إيداعه المعانى فى التراكيب — من ذكاء فهو ملك البيان فى مفرداته وجمله، ومعانيه فى دانيها وقاصيها.

وما من كتاب وصفه الشيخ أو مقال، أو خاطرة، إلا وتشهد له بأنه كان ينزح من ينابيع ما يروع وما يروق.

فالشيخ الإمام — محمد عبدالله دراز — رحمه الله رحمة واسعة — كان يعمد إلى ابكار المعانى، ولا يحفل بزخرفة الألفاظ، وعندما يعبر عن معانيه تنقاد له لغة التعبير بكل ما فيها من خصائص الإبانة، ودقائق الإيحاء وإمكانات البيان، فيجتمع له جمال العرض من كل جهة:

الجزالة مع الرقة، والإمتاع مع الإقناع، والبيان مع الإجمال ، والبسط مع الإيجاز، والإلماح مع الإفصاح، وهذه الأنماط لا تجتمع إلا لصفوة من الموهوبين الأفذا وقليل من ما هم.

وقد قيض الله — حتى الآن — لتراث شيخنا الجليل أثنين نابهين من شباب العلماء، الذين نهلوا من معين الأزهر الشريف "كهف العربية وحصن الإسلام" فأسهما فى خدمة ما تركه الشيخ الأمام من كنوز العلم والمعرفة.

اما احدهما، فهو الشيخ احمد فضلية، الذى اخذ على عاتقه — رغم مشاغله العملية — إعادة نشر كتب الشيخ الإمام محمد عبد الله، وجمع تناثر ولم ينشر من بحوثه السيارة، ومراسلات، وأحاديثه التى كان يلقيها فى الإذاعة، وردوده على ما كان يقال عن الإسلام فى حياته فى الداخل والخارج. وبعث ذلك كله فى اخراج جديد، وثوب قشيب، يتوالى صدوره تباعاً عن دار القلم القاهرة، إحدى دور النشر العربية الرائدة لترابط جيل الإسلام الحاضر، بما تركه عباقرة الفكر المرموقين، وأعلام النهضة الإسلامية، لأن من نسى ماضيه نسى نفسه، ومن غفل عن حاضره ضاع فى مهب الرياح.

واما الثانى فهو الباحث محمد بن أمين محمد أبو شهبة. ومن شباب الأزهر "الواعد" المدرس المساعد — الآن — فى كلية اللغة العربية، فرع إيتاى البارود، جامعة الأزهر.

وقد عرفته طالباً ذكياً مجداً محباً للعلم، وخبرته عن كثب طالباً فى تمهيدى الماجستير لمدة سنتين، فتوسكت فيه النجابة، ولم يخيب الله لى فيه ظناً. وشاهدى على هذا هو الكتاب الذى بين يدى القارئ الكريم الآن، وهو:

نظرات جديدة فى إعجاز القرآن

وهو البحث الذى أعده للحصول على درجة التخصص (الماجستير) فى البلاغة والنقد. وقد سعدت بقراءة هذا البحث بعناية حيث كنت عضواً فى هيئة (لجنة) التحكيم والمناقشة. وكان التقدير الذى اقترحته "الهيئة المحكمة" الذى حصل عليه

الباحث "النجيب" وهو "الامتياز" على ما بذل فيه من جهد دءوب موفق، فقد عاش الباحث "محمد أبو شهبة" مع تراث الشيخ الإمام، وبخاصة فى كتابه "النبأ العظيم" الذى وضعه الشيخ الإمام فى بيان "إعجاز القرآن" ناهجاً فيه نهجاً جديداً مبتكراً لا عهد لدراسات الإعجاز به عند الأقدمين والمحدثين على حد سواء.

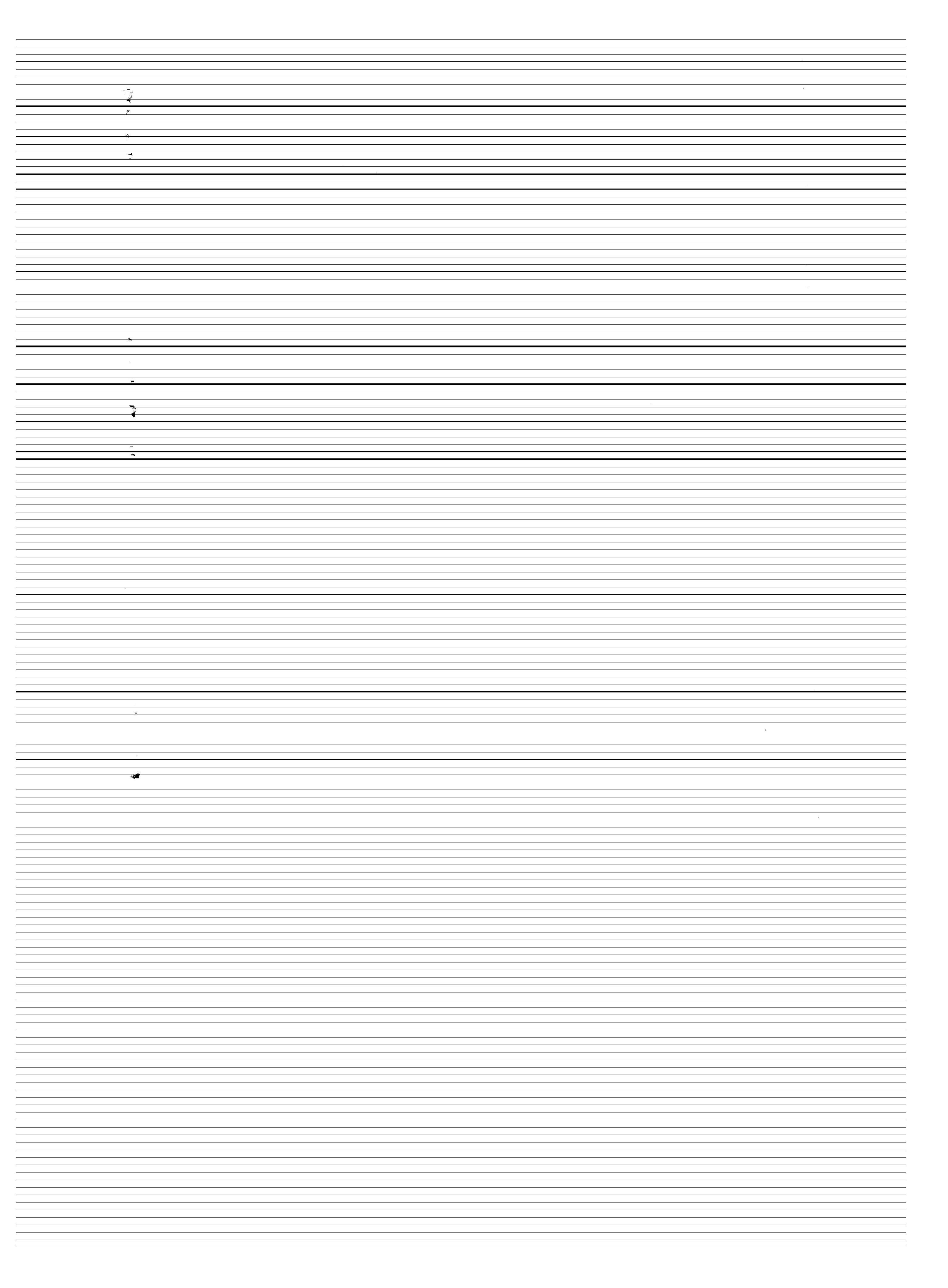
عاش الباحث بمثابة "قناص ماهر" أو "غواص باهر" يتتبع الشوارد فلا يخطئ الرمى، ويجمع اللآلئ والجواهر فلا يخيب مسعاه.

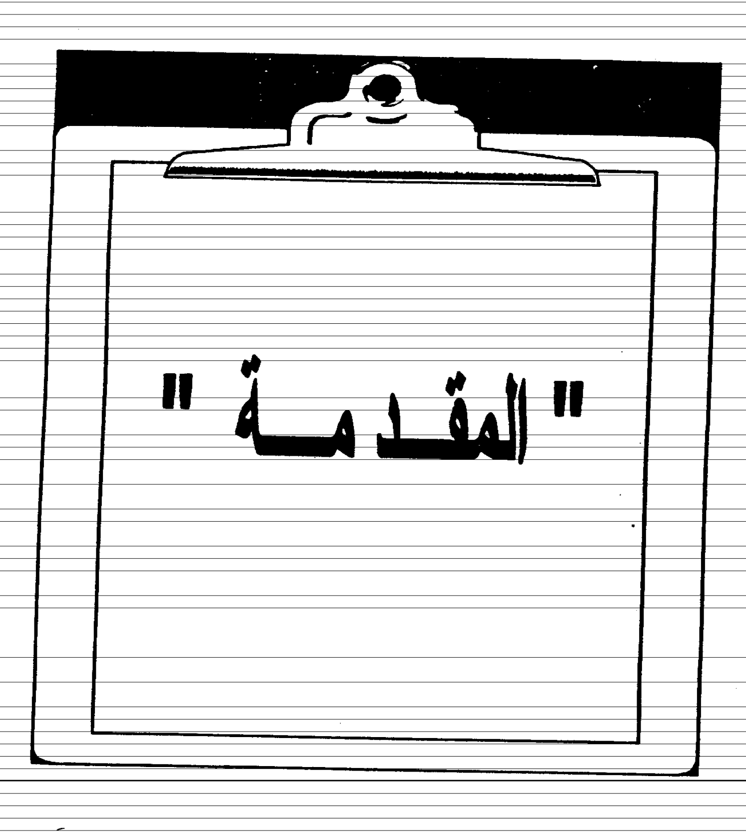
وإذا كان – كما فى الأمثال، ليس كل من اعتلى المنبر خطيباً، ولا كل من امتطى الجواد فارساً – فإن باحثنا والحق يقال أعد نفسه لهذا العمل الجليل فأجاد وأحسن، وأقنع وأمتع، ورصد كل ما عن له من إلماحات بلاغية فى تراث الشيخ الإمام مع ما فى جهوده من مفاجآت سبق إليها، وما فيها من إضافات لها فى مجال الإعجاز البيانى كل وزن وتقدير.

كما لم يفت الباحث أن يلم بتاريخ الشيخ الإمام مولده، ونشأته ودراسات، وملامح فكره، وإسهاماته فى الحياة، ومكانته بين العلماء.

وسوف يتبين القارئ قيمة هذا العمل الذى قدمنا له، ثم من هو الشيخ الإمام محمد عبدالله دراز ابن الأزهر العبقرى البار، والداعية الربانى الذى لم – ولن – يشق له غبار. فاللهم انفع بهذا العمل أبناء الإسلام، وبارك الله لنا فيه، ولا ترم الدعوة من أمثال شيخنا الإمام محمد عبد الله دراز، ومن كان على شاكلته علماً وأخلاقاً وخلقاً وورعاً، اللهم استجب. اللهم آمين

أ.د. عبد العظيم إبراهيم المطعنى




"المقدمة"

مقـــدمــــة

الحمـــدلله • خلــق الإنســان وهــداه ، ومنحــه عقــلا يميــط به اللثــام عن ســر الحياة ، ولســانا هــو لعقلــه ترجمان ، ولفكــره رســول بيان ، وبالعقــل واللسان مــيز الله الإنســان من ســائر الحيوان ، ونبــه على ذلك فى أعظــم بيان فقـــــا ل :

" الرحمــن * علــم القــرآن * خلــق الإنسان * علمه البيان " • {الرحمن /١ـ٤}•

وأشهـــد أن لا إلـــه إلا الله وحــده لاشــريك له •

وأشهــد أن سيدنا محمدا عــبده ورســوله ، أيده ربه بالقرآن فكـــان خلقـــه ، ووصيتـــه ، وميراثـــه • اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الديــن •

وبعـــــــــــد••

فالقــرآن معجــزة الله الخالدة ، وشمسه التى لاتغيب ، وكونه الناطق بالحق المبيــن• أنزلــه الله إلى هــذه الأرض هدى ، وضياء ، وذكــرا للمتقين ، ونهجا يقيم حركة الحيـــاة والأحياء ، ونبعــا بيانيا تحدى به أرباب الفصاحة والبيان أن يأتوا ولو بسورة مـــن مثلـــه ، فخرست ألسنتهم ، ونكست رؤوسهم ، وخروا لفصاحته ساجدين ، وظلت الأجيال المســـلمة تحيا بنوره ، وتستقى من نبع بيانه عــذب البيان ، كما استوقدت من نهجه نور الإيمان •

وقــد زخر تراث الأمــة الإسلامية بحشــد حاشد من الدراسات التى قامت حــول القرآن الكريم ، وكان إعجاز القرآن من أخطر الجوانب التى اهتم بها العلماء قديما وحديثــا ؛ ذلك أنه قضــيه تهــم كل مســلم ، وتمثــل جــزءا من بناء عقيــدته •فالإعجاز برهـــان النبوة، والأســاس الذى بنى عليه صلى الله عليه وسلم دعوته بأنه رســول الله ، وبيــن أن آيته عجــز الخلائق على الإتيان بشىء من مثل هذا القرآن ، وظل يتحدى العرب بذلـــك ، ولكن حسهم البيانى كان أوعى من أن يرمى بهم فى حومة المعارضة، وهم يدركـــون أنـــه بيان لاقبل لهم به ، فصـــار أمر الإعجــاز محســوما فى نفوســـهم •

ومع اتساع رقعة الإسلام ، ودخول الشعوب المختلفة لغة ، وفكرا ، وثقافة ـ ضعفت السليقة العربية ، وبدأ حسها البياني يتوارى تحت ركام هذا الضعف ، وكان من بين هذه الشعوب طوائف دخلت الإسلام بلسانها وفي قلبها، حقد حاقد على الإسلام وأهله ، فبدأوا ينفثون سمومهم ، ويبثون مطاعنهم في إعجاز القرآن ٠

وحين زادت هذه المطاعن نهض فريق من العلماء للرد عليها ، ودارت رحى المعارك بين هؤلاء وأولئك ، فكانت ميدانا خصبا دفع بقضية الإعجاز إلى الظهور ، فاستحوذت على قدر كبير من اهتمام علماء الأمة : الذين حرصوا على إثبات أن القرآن من عند الله ، كما كشفوا عن جوانب كثيرة من إعجازه ، وكان إعجازه البياني من أبرز هذه الجوانب؛ لأنه مناط التحدي، ولأنه ماثل في كل آية من كتاب الله ٠

وتتوالى العصور والأجيال ، ليقدم كل قرن أعلاما كبارا قيضهم الله لرد هذه المطاعن ، ومواجهة موجات الحقد التي لاتزال قائمة إلى عصرنا ، بإبراز جوانب الكمال والجمال البياني لكتاب الله ، وقد قال كل كلمته ثم مضى ، وترك الباب مفتوحا لخلفه ليقول كلمته ، وسيظل القرآن شامخا بإعجازه ، متحديا ببيانه كل العصور والأزمان ، وسيظل الإعجاز نبعا فياضا يعطي كل عصر مايلائمه ، حتى ينتهي الزمن دون أن يقول كلمته الأخيرة في أمر هذا البيان ٠

والدكتور دراز ـ رحمه الله ـ واحد من الذين قيضهم الله لخدمة بلاغة القرآن وبيان أسرار إعجازه ، والرد على من زعم أن القرآن ليس من عند الله ، فقد سطر في ذلك الميدان صفحات بارزة تعكس جهده البلاغي ، وفكره البياني المتميز الجدير بالبحث والتقدير ، ذلك أنه شغل بالبحث عن الخصائص البيانية التي انفرد بها القرآن وباين بها أسلوب البشر، وهو مايعطي هذه الصفحات أهميتها، وعظمتها المستمدة من عظمة البحث في كتاب الله ، فإذا انضاف إلى ذلك طبيعة الشيخ فكرا ، وذوقا ، وقدرة على الفهم والتحليل والمحاورة ، فقد تجلت أهمية هذا البحث ٠

وقـد وقـع اختيارى على هذا الموضوع بتوفيق الله لعدة أسباب أهمها :

١ـ أنه على الرغـم من وضوح جهد الشيخ ، وملامح فكره المتميز ، وعلى الرغـم مـن إفادة كثير من أساتذنا المعاصرين من آرائـه البلاغية ـ فلم تقـم دراسـة مسـتقلة لخدمـة هـذا الجهـد عرضا وتحلـيلا ، ونقـدا وتأصـيلا ، وذلك باسـتثناء صفحـات قدمـها أستاذنا الدكتور محمـد رجب البيومى عن رأى الشـيخ فـى الإعجـاز ، وفـى وحـدة الموضوع فى السورة ،(١) وصفحات أخرى قدمها أستاذنا الدكتور عبد العظيم المطعنى· استـعرض فيها ـ فى إيجاز ـ خصائص أسلوب القـرآن عند الشـيخ(٢) ، كماكتـب الأستاذ الدكتـور عبد الغنى بركـة فصـلا عن الإعجاز عنـد الدكتـور دراز ، ولكنـه اقتصر على عرض ماكتب الشيخ دون تدخـل منه بشرح أو تحليل أو نقـد أو تـأصيل ؛ ذلك أنه كان بصـدد التأريخ لقضية الإعجاز (٣) ولكنى أفدت منها فى كتابة هذه الرسـالة ، كما أفـدت من كثير من أسـاتذتنا الذين ناقشوا آراء الشيخ فى كتبهم ، وعلى رأس هـؤلاء الأستاذ الدكتـور: محمد أبوموسـى ، وأستاذى الدكتور: صبـاح دراز ·

٢ـ أن جهـد الشيخ يتعلق بالبحث فى كتاب الله عن البلاغة الغائبـة فـى بيـان البشـر، والسمات التى انفرد بها القرآن ، وهو بهذا ابن بار من أبناء مدرسة البلاغة القرآنية ، تلـك التى تمثل بستانا نديـا اقتطف سلفنا من جنباته ثمرات ، وساروا فـى رحابـه خطـوات ، ومازال غضا طريا يفتح بابه لكل باحث يتعشق العيش فى ظـلال البيان الإلهـى ·

٣ـ إيمانى العميق بأن دراسة هذا الفكر البلاغى المتعلق بقضايا البيان القـرآنى سـيقربنى خطوات من البحـث فى جمال القرآن ذاته ، والعيش فى رحاب سوره وآياته ، وهو الأمـل الذى أدعوه سبحانه أن يبلغنى إياه وأن يرزقـنى الإخلاص والرشـاد ·

---

(١) يراجع البيان القرآنى : د محمد رجب البيومى ط : مجمع البحوث الإسلامية ، السـنة الثالثـة الكتاب الواحد والثلاثون ربيع الثانى ١٣٩١هـ ١٩٧١م صـ٢٥٣ـ صـ٢٥٨، وصـ١٩١ ·

(٢) يراجع : خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية د: عبدالعظيم المطعنى ـ مكتبـة وهـبة · الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م صـ١٦٢ ـ صـ١٦٤ ·

(٣)انظر :الإعجاز القرآنى وجوهه وأسراره د· عبدالغنى بركة · مطابع المختار الإسلامى ·الطبعـة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م من صـ ٢٦٤ ـ صـ ٢٩٦ ·

وقد اخترت أن تكون دراسة جهد الشيخ في صورة قضايا ، بدلا من دراستها حسب تقسيم علوم البلاغة عند المتأخرين ـ لأن هذا أمكن في إبراز جهد الشيخ ، ولأن بعضا من جهده لايدخل تحت مصطلح من مصطلحات متون البلاغة عند المتأخرين ٠

وقد اقتضت طبيعة هذه البحث أن يأتي بعد المقدمة في تمهيد ، وأربعة فصول وخاتمة ، ثم أعقبت ذلك بالمراجع والفهارس

التمهيد : ويضم مبحثين :

الأول : لمحات عن عصره ٠

الثاني : حياة الدكتور دراز ٠

الفصل الأول : الإعجاز اللغوي عند الدكتور دراز ، وهو يضم ستة مباحث ٠

الأول : لمحة عن الإعجاز ٠

الثاني :أمور فرق بينها الشيخ قبل الحديث عن الإعجاز اللغوي ٠

الثالث : الإعجاز اللغوي بين الذوق والمعرفة .

الرابع : وقفات مع الحائرين في أمر الإعجاز اللغوي ٠

الخامس : الإعجاز اللغوي وعلى أي وجه أداره الشيخ ٠

السادس : من جوانب الإعجاز اللغوي عند الشيخ ٠

الفصـــل الثـــانى : قضـية الإيجاز عند الدكتور دراز ، وهو يضم خمسة مباحث:

الأو ل : مفهوم الإيجاز فى مدرسة السكاكى " تقريـر ونقـد "•

الثانـــى : مفهوم الإيجاز عند الدكتور دراز " دراسة وتطـبيق "•

الثالـث : دلائل الإيجاز القرآنى عند الدكتور دراز •

الرابـــع : الإيجـاز بين الدكتور دراز ومدرسـة السكاكـى •

الخامس : وجهـة الشـيخ "تأصـيل ونقـد"•

الفصـــل الثالـــث : إنكار الزيادة فى القرآن عند الدكتور دراز ، وهو يضم ثلاثة مباحث:

الأ و ل : زيـادة الحرف فى القرآن بين التأييـد والرفض •

الثانـــى : الدكتور دراز وإنكـار الزيـادة •

الثالـث : من تطـبيقات الشيخ فى القضـية •

الفصـــل الرابـــع : التناسب عند الدكتور دراز، وهـو يضـم سـتة مباحـث :

الأول : التناسب مـن الفطـرة إلى التأليـف •

الثانـــى : التناسب والسورة القرآنية فى نظر الشـيخ •

الثالـث : وجهة الشيخ فى دراسة التناسب " دراسة وتطـبيق " •

الرابـــع : وجهـة الشيخ " تأصـيل ونقـد " •

الخامس : الدكتور دراز وموقفه من "وحدة الموضوع " فىالسورة القرآنية •

السادس : مـن سـبل الشيخ فى اسـتنباط المعانـى •

الخاتمة ، وقد أجملت فيها أبرز ماتوصل إليه البحث من نتائج وتوصيات ، ثم أعقبت ذلك ثبتا بالمصادر والمراجع ، ثم ختمت البحث بخمسة فهارس . الأول : للآيات القرآنية ، والثاني للأحاديث النبوية والثالث للشواهد الشعرية، والرابع للأعلام ، والأخير للموضوعات .

ولايسعني في نهاية هذا الحديث إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى قمة شامخة تقف وراء هذا البحث بفهمها وعلمها ، ذللت صعبه ، وألانت عصيه، إلى من أخذ بيدي فأدبني ، وعلمني معنى الحياة في ظلال القرآن ، وضرب لي المثل الأعلى في البصيرة البيانية التي ترى بنور الله ، إلى والدي وأستاذي الدكتور صباح دراز المشرف على هذه الرسالة ، وقد كانت له على البحث وصاحبه أياد بيضاء أعد منها ولا أعددها .

كما أتقدم بخالص التقدير والعرفان لأستاذي الدكتور:عبدالعظيم المطعني ، وأستاذي الدكتور فريد بدوي النكلاوي على قبولهما مناقشة هذا البحث ، وأدعوه سبحانه أن ينفعني بعلمهم وحسن تأديبهم .

كما أشكر جميع أساتذتي ، وإخواني على تعاونهم في إخراج هذا البحث .

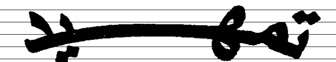
كما أشكر كل من أسهم بجهده في بناء هذا البحث ، وأدعوه سبحانه أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم ، وأخص من هؤلاء أستاذي الدكتور:سلامة داود، والشيخ : أحمد فضيلة ، وأبناء المرحوم الدكتور دراز ، وعلى رأسهم سعادة السفير: فتحي دراز ، والأستاذ الدكتور : سعيد دراز .

وبعد

فهذا جهد متواضع أضعه بين يدي القارئ ، وأدعوه سبحانه أن يوفقني، وأن يلهمني رشدي ، ويقيني شر نفسي ، والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين .

الباحث

محمد أمين أبوشهبة



تمهيد

الدكتـــور : محمد عبد الله دراز

سـيرة حـياة

ويضـم مبحثـين :

١ـ المبحـث الأول : لمحــات عـن عصــره

٢ ــ المبحــث الثانى : حياة الدكتــور : محمد عبدالله دراز

المبحـــــث الأول

لمحـــات عـــن عصــــــره

١ــ الجانـــب السـياســى

٢ــ الجانـــب الاجتماعـــى

٣ــ الجانـــب الاقتصـــادى

٤ــ الجانـــب الثقافــــــى

الجانب السياسى :

مكثت مصر أمدًا طويلا تحت وطأة الاحتلال ، ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى بفوز الحلفاء ـ أعلن " ولسن " الرئيس الأمريكى فى يناير ١٩١٨م مبادىء هامة مثلت أملا لكل أمة مستضعفة ؛ حيث صرح بأن لكل شعب حقه فى تقرير مصيره ، والسياسة التى تتفق معه.لافرق بين شعب قوى وضعيف ، ثم ازدادت هذه الآمال مع تأييد انجلترا وفرنسا لمبادىء " ولسن " وتصريحهما بضرورة إنصاف الشعوب العربية التى كانت تخضع للحكم العثمانى(١) فتعالت أصوات الحرية بعد ما كتمت حوادث الحرب أنفاسها ٠

انفجرت ثورة ١٩١٩ إثر القبض على سعد زغلول ت ١٩٢٧م(٢) ورفاقه ثم أفرج عنهم بضغط الثورة ، وأذن لهم بالسفر إلى " باريس " لعرض مطالب بلدهم على مؤتمر السلام المنعقد هناك وظلت المفاوضات تتوقف ، وتستأنف ، وتعود فتفشل حتى كان تصريح فبراير ١٩٢٢م باستقلال مصر، فبدأ نفوذ المستعمر فى التقلص،ثم ازداد تقلصا بمعاهدة ١٩٣٦م٠ إلا أنه نشب صراع مرير بين القصر ومعاونيه من جانب،وبين السلطة الشعبية ممثلة فى حزب الوفد من جانب آخر فكانت فترة اضطراب وصراعات ، كما كانت مسرحا فى الغالب لأحزاب الأقليات ولم يتول الوفد الحكم إلافترات قصيرة أكثرها كان رغم أنف الملك ٠ ويكفى لندرك مدى الاضطراب أن نعلم أنه توالى على حكم مصر فى المدة من ١٩٢٢إلى عام ١٩٥٢م ـ إحدى وأربعين وزارة منها مابقيت فى الحكم شهرًا واحدًا أو أقل ٠(٣)

(١) انظر مصر فى الحرب العالمية الأولى د: لطيفة سالم ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤صـ٧٠

(٢) سعد بن ابراهيم زغلول زعيم نهضة مصر السياسية وأكبر خطبائها فى عصره ولد فى " ابيانة " من قرى الغربية، تعلم بالأزهر وعمل بالصحافة، ثم تولى وزارة المعارف وانتخب فى ١٩١٩م لرئاسة الوفد المصرى للمطالبة بالإستقلال وتوفى بالقاهرة فى ١٩٢٧م الأعلام (١٣١/٣)٠

(٣) يراجع " سعد زغلول يفاوض الاستعمار " للمستشار طارق البشرى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٣٠ وكتاب التاريخ الإسلامى للأستاذ محمود شاكر ط المكتب الإسلامى الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م جـ١٣ صـ ٩٦ ٠

وكانت آخر وزارة للوفد تولت الحكم في سنة ١٩٥٠م إثر كارثة فلسطين ١٩٤٨م وبقيت هذه الوزارة مايقرب من عامين قامت خلالهما بأعمال جليلة منها :

نشر الحريات العامة واحترامها إلى أبعد حد فألغيت الأحكام العرفية والرقابة على الصحف ٠

صار التعليم الابتدائي والثانوي بالمجان ، ووضع مشروع لتعميم مياه الشرب في القرى خلال خمس سنوات ، بالإضافة إلى مكافحة الغلاء وتحمل فروق الأسعار ٠ وهو مأدى إلى إتهام حكومة الوفد بالشيوعية وكان يقصد بذلك إثارة الملك على حزب الوفد ٠

ثم اتفق الملك والمستعمرون على حريق القاهرة ليجدوا مبررا لإقالة الوفد وتم لهم ما أرادوا ٠

ولكن الأمور لم تستقر بعد ، بل كانت أنفاس الناس أشد لهيبا من النيران التى التهمت العاصمة فقامت في أعقاب ذلك ثورة يوليو ١٩٥٢م التى غيرت مجرى الحياة ؛ فأجبرت الملك على التنازل عن العرش ومغادرة البلاد، وتولى مجلس قيادة الثورة حكم مصر فقاموا بعدة إصلاحات ، ثم دب الخلاف بين أعضاء مجلس القيادة ٠

وشهد عصر الثورة كثيرا من الأحداث منها " حل جماعة كبار العلماء" ، في سبتمبر ١٩٥٢م ،"وحل جماعة الإخوان المسلمين " في يناير ١٩٥٤م ، ثم قرار تأميم قناه السويس في يوليو ١٩٥٦م ، وجاء العدوان الثلاثي ردا على هذا القرار في أكتوبر ١٩٥٦م فذاقت مصر منه الأمرين ٠(١)

---

(١)انظر موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور: أحمد شلبى ط : نهضة مصر جـ٩ صـ٥٧ـصـ٦٣، صـ١٨٨، صـ٣٤٤، ويراجع كذلك التاريخ الإسلامي للأستاذ محمود شاكر جـ٩ صـ ١٣١ ٠

وفـى الجانـب الاجتمـاعى كانت مخالب الاحتلال تسيطر على مقـدرات الشـعب ورجاله ، ويسخر ذلك كلـه لخدمـته فى الحرب ، فاستخدم المحتلـون المرافـق العامـة والسكك الحديديـة ، وحولوا المدارس إلى مستشفيات للعـلاج ، وتحكمـوا فـى أسـعار الزروع والثمار، وزاحـموا الأهلـين فى طعامهـم وشـرابهـم٠(١)

ولـذا كان الفقـر من أهـم المظاهر الاجتماعية التى عانى منها المجتمع المصـرى فى فترة الحرب العالمـية الأولـى نتيجـة للظروف التى فرضـتها علـى مصـر ، وزاد على أثـر هـذه الحرب عـدد الوفيات ، كما انتشـرت الجرائـم ، وكثـر القتل وسـفك الدمـاء ، وأصـيب المجتمع بداء الرشـوة فانتشرت فى المصالح الحكومية، وبين الأفـراد العاديـين ؛ إذ خلفـت ظروف الحرب العوامـل التى ساعدت على تفاقمهـا٠ (٢)

ومـع انتهاء الحرب ، وقيام ثـورة ١٩١٩م بدأ العنصر المصرى يبرز فـى محيـط الحياة الاجتماعية من جميع نواحيها ، ومع بـروز المصريين يختفى الأجانب شيئا فشـيئا ؛ لأن ريـح الحريـة لم تكـن جـوا مناسبا لهم ؛ فـهم لايحيـون إلا بحمايـة الاسـتعمار والامتيازات الأجنبية التى قضت الثورة مضجعها ، ثم أكملـت معـاهدة ١٩٣٦م الشـوط فبناءعلى هذه المعاهدة كان من الممكن إلغاءالوجود الأجنبى فى الجيش والشرطة والقضاء٠

---

(١)انظر العالم الإسلامى فى الحرب العالمية الأولى د٠ السيد رزق حجاج مطبعة الأمانة٠الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م صـ ٩٤ ٠

(٢)يراجع الفصل الخاص بالحياة الاجتماعية فى مصر أثناء الحرب العالمية الأولى ــ للدكتورة لطيفة السـيد صـ ١٥٨ ٠

وكانت الطبقة المتوسطة أكثر الطبقات حاجة إلى أن ينظر إليها المجتمع بعين العناية والرعاية فى ظل المتغيرات الاجتماعية التى أعقبت قيام الثورة ، فبرز الاهتمام بهم ، وظل ساريا إلى أمد طويل فكثرت المصانع والمزارع ، وصار التعليم بالمجان ، وخففت الضرائب على صغار الملاك ، وكان لهذا كله صداه فى الحياة الاجتماعية .

وفى الجانب الاقتصادى نجد النشاط الاقتصادى مرتكزا فى أيدى العناصر الأجنبية.وبقيام الحرب توقفت حركة الواردات ،وفقدت مصر بعض أسواق تصريف محاصيلها ، كما توقف ورود بعض الأصناف المصنوعة ، فارتفع ثمنها ارتفاعا كبيرًا فكان ذلك باعثا على إيقاظ العقل المصرى وحكومته ، وحملهم على التفكير فى سر النقص الذى شعروا به حين رأوا أنفسهم عالة على غيرهم ، وليس لهم كيان اقتصادى مستقل(١)

ومع قيام ثورة ١٩١٩، وإعلان استقلال مصر اتجهت الحكومة إلى إنشاء بنك مصر وشركاته ، ثم تطورت بالاقتصاد تطورًا هائلا ، وقامت أنواع من الصناعات المصرية الراقية التى نافست صناعات الأجانب . وقد تركز هذا النشاط الاقتصادى فى يد شركات مساهمة غالبا ، استطاعت هذه الشركات جذب مدخرات الأفراد ودفعها إلى ميدان هذا النشاط ،حيث كان دعامة النشاط الاقتصادى فى هذه الفترة فى أيدى الأفراد أوالشركات ، ولم يكن فى نطاق ماعرف بالقطاع العام . وتحقق نجاح هائل للمستثمرين وللشعب المصرى .

وبدأ عدد الملاك الأجانب فى التناقص ، ثم تزايد نقصانهم بتوقيع معاهدة ١٩٣٦م، ثم بإلغاء الامتيازات الأجنبية ، ثم كانت الضربة القاضية التى أعلنتها حكومة الوفد ١٩٥١م

---

(١) انظر مصر فى الحرب العالمية الأولى د. لطيفة السيد صـ ١٢٤ ـ صـ١٢٦ .

بإصدار قانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٥١م ونصه : " يحظر على غير المصريين سواء أكانوا أشخاصا طبيعين أو اعتباريين اكتساب ملكية الأراضي الزراعية ، والأراضي القابلة للزراعة ، والأراضي الصحراوية بمصر " (١)

ثم كان قانون الإصلاح الزراعي الذى نزع ملكية الإقطاعيين ، وحول كثيرا من هذه الأراضي إلى العمال والفلاحين ، وكان لذلك صداه فى الجانب الاقتصادى والاجتماعى .

وفى الجانب الثقافى :

شهد العصر نهضة ثقافية وثورة أدبية واسعة النطاق - وإن خفتت أثناء الاحتلال وقيام الحرب العالمية الأولى - ثم قويت بعد ذلك ؛ وكان وراء هذه النهضة الثقافية عوامل عدة أهمها :

- نمو النزعة القومية التى بدأت فى الظهور مع مجيء الحملة الفرنسية التى لفتت الأذهان إلى العالم الغربى وما يزخر به من ألوان الفكر وضروب الثقافات والتيارات الأدبية ، كما أثارت هذه الحملة الحمية إلى رفض الاستسلام أمام قوة أوربية . ثم قوى هذا الشعور مع رحيل الحملة ، ثم قيام الثورات وتوالى الأحداث التى أمدت بذرة القومية بالقوة والنماء (٢)

---

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى د. أحمد شلبى جـ٩ صـ٥٣ـ صـ٥٥ .

(٢) يراجع فى الأدب المعاصر د: إبراهيم عوضين الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م صـ٣٧ .

• ومنها اتساع قاعدة التعليم اتساعا شاملا فأنشئت المدارس الابتدائية ، والثانوية ، ومدارس البنات ، ثم جمعت تبرعات ضخمة لإنشاء الجامعة المصرية،وفتحت الجامعة أبوابها فى عام ١٩٠٨ م ، وألقيت فيها محاضرات التاريخ والأدب والفلسفة من أساتذة مصريين وأوربيين ٠ ولم تلبث الجامعة أن أرسلت بطلابها إلى أوربا لاستكمال البحث والدراسة فدخلوا ميادين العلم هناك بقوة وروح عظيمة ٠

ثم تطورت الجامعة المصرية بعد ثورة ١٩١٩م فوضعت تحت إشراف الحكومة فى عام ١٩٢٥م، واتسعت فشملت بجانب الآداب ــ الطب ، والعلوم ، والحقوق ، ثم الهندسة ، والزراعة ، والتجارة ٠ وكثرت مع ذلك حركة الترجمة للعلوم والفنون وعيون الأدب الغربى (١) وهو ماانعكس بدوره على طبيعة الحياة الثقافية فى هذا العصر ٠

• كذلك ازدهرت حركة الطباعة،وكانت عاملا خطيرا فى إيقاظ العقل المصرى وتوجيهه إلى مثل جديدة فى الفكر واللغة ؛ حيث أتاحت لجمهور كبير من الشعب أن يطلع ويفيد مما نشر من الكتب التراثية القديمة ، والكتب المترجمة عن الغرب علما وأدبا، وقصة، ورواية ٠ ولم تعد هذه الكتب حبيسة على طائفة بعينها ومما زاد أهمية الدور الذى لعبته الطباعة– اتساع دائرة التعليم فكثر الجمهور القارىء الذى تخاطبه ، وقربت المسافة بين الأدباء ، وقرائهم ، بل بين الشعوب بعضها وبعض ٠ وكان لذلك تأثيره الواسع فى حياتنا الأدبية والثقافية٠ (٢)

---

(١) انظر الأدب العربى المعاصرفى مصر ٠ د٠ شوقى ضيف ط: دار المعارف الطبعة العاشرة ص٢٦،٢٧
(٢) انظر : السابق ص ٣٠ ٠

وسهلت حركة الطباعة إصدار الصحف وإذاعتها فقامت الصحافة بدورها أيضا فى إثراء الحياة الثقافية • وقد ازداد هذا النشاط الصحفى توقدا واشتعالا حين اتسع نطاق الخلافات السياسية ، وتعددت الأحزاب بسبب الانقسامات ، وتعددت وجهات النظر لاسيما بعد وفاة سعد زغلول • فتبارى الزعماء والكتاب على صفحات الجرائد الحزبية ، كما تباروا بخطبهم فى المحافل والنوادى السياسية •

وفى أواخر النصف الأول من القرن العشرين وقبل قيام ثورة ١٩٥٢م كانت الصحافة قد بلغت الغاية فى النضج والاكتمال ، وكاد الكتاب يبلغون بأساليبهم درجة الإبداع والإبتكار حين ظهر جماعة من الكتاب المتخصصين فى مجالات الفكر والأدب• فعنى الكتاب بالمضمون والصورة فيما ينشئون ، وظهرت المقالة الصحفية البالغة حد الجودة والاكتمال الفنى (١) •

• ولم يكن الأزهر الشريف بمعزل عن الحركة الثقافية فى هذا العصر؛ فعلى الرغم من اضطلاعه بدوره فى الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية ، والوقوف فى وجه كل محاولة تقصد إلى نزع العرب والمسلمين من ثقافتهم – فقد شارك الأزهر فى هذه النهضة :فأوفد أبناءه فى بعثات علمية إلى أوربا لدراسة العقل الغربى والإفادة من الروافد الثقافية المختلفة هناك ، والتعرف على مدى إمكانية تطويع هذه الروافد لخدمة بنائنا الثقافى وتطويره بما يوائم روح العصر •

كما خطا الأزهر خطوات واسعة فى طريق الإصلاح، وأدخلت فى مناهجه العلوم الحديثة من الحساب، والهندسة، والجغرافيا ، والتاريخ والفلسفة ، والمنطق، وعلم النفس •

وأمام هذا التشعب المطرد ، والتنوع المتزايد فى كل مجموعة من العلوم – عجز المتعلمون عن الجمع بين التعمق والاستيعاب لجميع المواد فلجأ الأزهرإلى فكرة التخصص وأنشئت أقسام التخصص ، وكانت بعد شهادة (العالية) ، ثم أنشئت الكليات الأزهرية وأصبح التخصص بعد الشهادة الثانوية •وكان ذلك استجابة لهذه الثورة الثقافية ، ورغبة فى إعداد طلاب قادرين على استيعاب الحركة الثقافية والتأثير فيها•(٢)

---

(١)يراجع تاريخ الأدب الحديث د حامد حفنى داود، ط : دارالطباعة المحمدية ، الطبعة الأولى١٣٨٧هـ ١٩٦٧م صـ ٨٣ •

(٢)الأزهر الجامعة القديمة الحديثة د: محمد عبد الله دراز بحث نشر بمجلة الأزهر جـ ٢٣ عدد ١٣٧١هـ المقالة الثانية صـ ٣٩٨ •

وكان لهذه العوامل أثرها في تعدد المدارس الشعرية والنقدية بين الواقعية ، ورومانسية ، ومدرسة الديوان ، وجماعة " أبولو " وغيرها مما أوجد حركة أدبية خصبة ، زادتها المعارك النقدية ، والخصومات الأدبية خصوبة وثراء .(١)

---

(١)انظر الأدب العربى المعاصر فى مصر" د: شوقى ضيف صـ٥٠ـ صـ٥٨ و الأدب العربى المعاصر د: إبراهيم عوضين . من صـ٤٥ ـ صـ ٦٩

المبحـــــث الثانــــــى

حــياة الدكتــور محمد عبد الله دراز

ويضــم عــدة نقــاط :

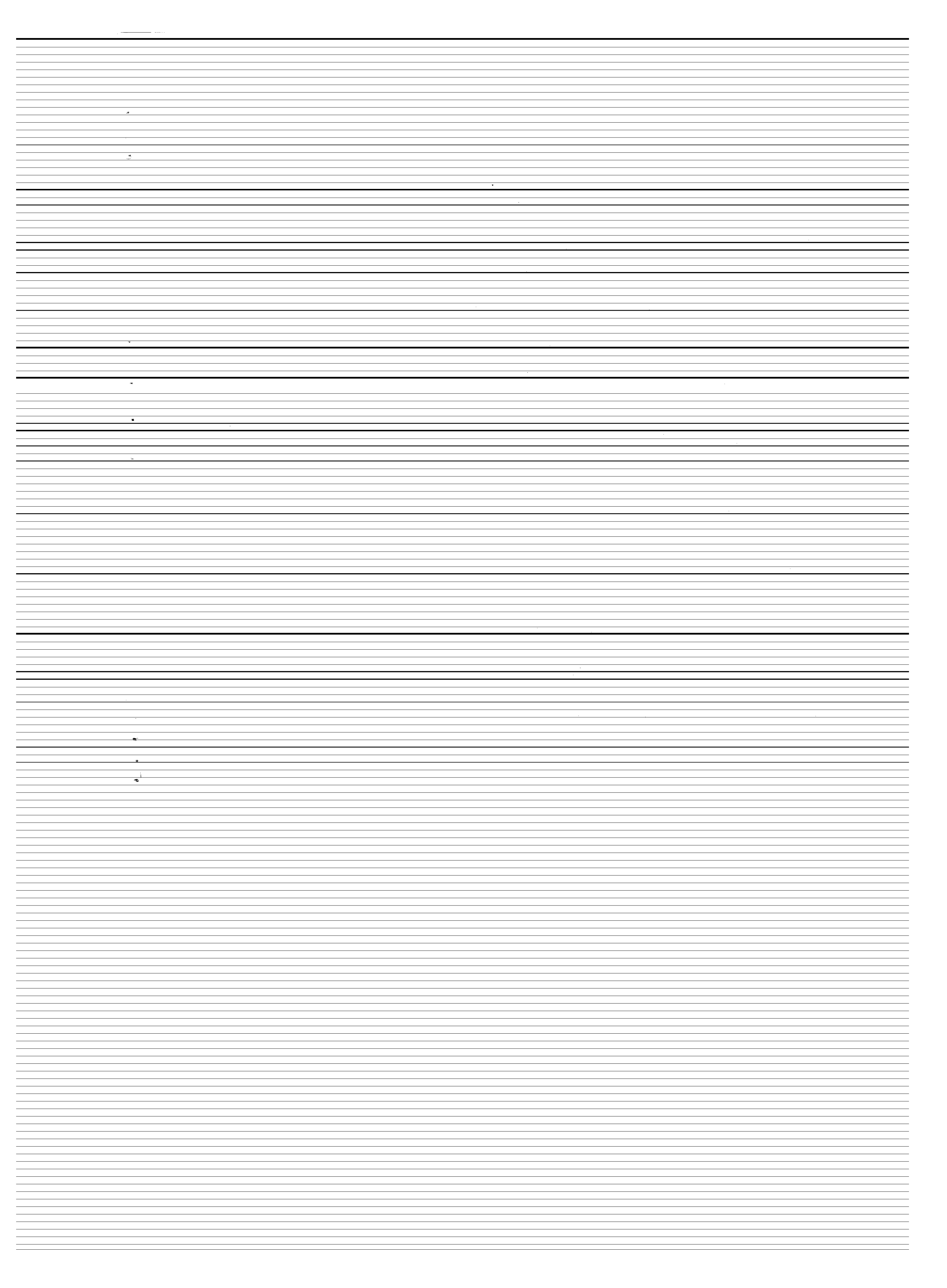
١ـ مــولــده ونشـــأتــه ٠

٢ـ تعليمـــــه ٠

٣ـ تراثـــه العلمــى ٠

٤ـ سمات الشــخصية التى وراء هــذا التراث ٠

٥ـ وفاتـــــه ٠



مولــــده ونشـــأتــه ٠

في ظـل هـذا العصـر ولـد الشيخ محمد عبد الله دراز ٠ وهو محمد بن عبـدالله بن محمد بن حسـنين دراز الأديب الباحث المحدث الفقـيه المالكي المذهب ٠ ولـد فـي الثامن من شهـر نوفمبر لعام أربعـة وتسعين وثمانمائة وألف بقريـة " محلـة دياي " مـن أعمال مركز دسـوق (١)٠ وقـد اشتهرت القرية بالعلم ، وأمَّها الطلاب للتزود من علـوم اللغة والشريعـة حيث كانت الدروس التي يلقيهـا جـداه الشـيخ " محمـد " والشـيخ " أحمـد " ، ووالدهـما الشيخ " حسـنين " في المسجد العمـري ٠

وكـان والده الشيخ عبد الله دراز (٢) أكثر انتفاعـا بـدروس جـده ٠ وأطـول ملازمـة له ، وبـدا أثر ذلك واضحا في تربيـته لأولاده ٠ وهكـذا كان البيت بيت علـم توارثـوه كابـرا عن كابـر وفي رحاب هذا البيت ولـد الشـيخ محمـد " وسـرعان ماتفتحت عينـه على زمـلاء أبيـه يغشـون منزله كل ليلـة لدراسـة كتـب العلـم ، والحديث في مسائل الإصـلاح الديـني ٠

وكـان الوالـد الكريـم يأخـذ أبنـاءه بآداب التقـوى يـؤم أهلـه فـي صلاتـي العشـاء والفجر ، ويقـرأ صحيح البخاري في ليالي رمضـان ، ويسهر علـى تثقـيف أولاده وتعويدهـم سنن الخير صـلاة وصياما وزكـاة وحبـا للمعـروف وبعـدا عـن الدنايا " (٣) ٠

---

(١)تراجـع ترجمة الشيخ في الأعلام للزركلي (٢٤٦/٦) ط دار العلم للملايـن ، ومعجـم المؤلفين لكحالة(٢١٢/١٠) والنهضـة الإسلامية في سير أعلامها د:رجب البيومي جـ٥/١٦٤، ومقال الشيخ الطاهر الزنكلوني بمجلة الأزهر جـ٨ عدد شعابن ١٤٠٣هـ مايو ١٩٨٣، بالإضافة إلى ترجمـة كتبهـا الشيخ عن نفسه ومنها صـورة مثبتـة في هـذا البحـث ٠

(٢)تراجع ترجمة الشيخ في كتاب الفتح المبين في طبقات الأصوليين " للشيخ عبدالله مصطفى المراغـي طـ : دار الكتب العلمية الطبعة الثانية جـ٣ : صـ١٧٣ ٠

(٣)النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين د: محمد رجب البيومي سلسلة البحوث الإسلاميـة السنة الثامنة عشرة الكتاب الأول ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م جـ٥ صـ ١٦٥ ٠

ومثل هذه البيوت العلمية تمثل نمطا يكاد يتوارى فى زماننا تحت ركام الحياة ومشكلاتها ٠ على الرغم من أنها أقوى الوسائل وأنفعها فى تكوين الفكر وبناء العقول والقلوب أمام قصور المناهج العلمية والأدبية وخلوها مما يقيم أود الفكر ،أويعين على مواجهة تحديات الزمن والحروب القائمة على دين الله كتابا، وسنة، ولغة ٠ فمن من العلماء يجلس مع أبنائه يعلمهم كتاب الله وسنة رسوله وتراث أمته ؟ ومن منهم يموت فيرث أبناؤه العلم قبل أن يرثوا الدينار والدرهم ؟ ٠

تعليمه :

كان من الطبيعى أن يكون لهذه النشأة أثرها فى توجيه الشيخ وجهة التعليم الدينى فأتم القرآن وهو دون العشر سنين ، ثم انتقل إلى الأسكندرية حيث كان والده الشيخ عبدالله ممن اختارهم الإمام محمد عبده ١٩٠٥م(١) لتأسيس الدراسة الأزهرية النظامية فى الثغر السكندرى ٠ فكان الشيخ " محمد " من أوائل الطلبة المنتسبين إلى هذا المعهد ، ونال منه الشهادة الابتدائية بعد أربع سنوات ١٩٠٨م ٠ وحين عين والده وكيلا لمعهد طنطا لرغبة أولى الأمر فى إعادة تلك

---

(١) محمد عبده بن حسن خيرالله فقيه مفسر متكلم حكيم أديب لغوى نشأ فى " محلة نصر " بالبحيرة ،وتعلم بالجامع الأحمدى وعمل فى التعليم ،وتولى تحرير" الوقائع المصرية" توفى فى ١٩٠٥م من تصانيفه تفسير القرآن الكريم ، " وشرح مقامات بديع الزمان الهمذانى " ٠
معجم المؤلفين (٢٧٢/٥) ٠

التجربة الناجحة ، ونقل صورة من النظام الذى جرب فى معهد الإسكندرية إلى الجامع الأحمدى — انتقل الشيخ فى صحبة والده إلى الجامع الأحمدى ونال منه الشهادة الثانوية عام ١٩١٢م وكان أول الناجحين (١) ٠

وحين عاد والده وكيلا لمعهد الأسكندرية عاد معه إلى المعهد الذى نشأ فيه فقضى القسم العالى ، وحصل فى نهايته على شهادة "العالمية" فى الأزهر ، وكان أول المتخرجين من الطلاب جميعا فى ١٩١٦م ، وعين فى المعهد ذاته بعد تخرجه ، ثم اتجه لتعلم اللغة الفرنسية حتى حصل على شهادة القسم العالى بعد ثلاث سنوات ١٩١٩م ، وكان ترتيبه الأول أيضا (٢)

ولم يكن تعلمه للغة الفرنسية من باب الترف ، أو شغل الوقت ، بل كان يعد نفسه لليوم الذى تطأ فيه قدمه أرض الغرب لنشر الإسلام وإعلاء دعوته ٠ يقول الدكتور السيد بدوى : "لمست عن كثب الجهود والخطط التى رسمها الشيخ منذ أمد بعيد لنشر رسالة الإسلام فى العالم الغربى فعرفت أنه أتقن الفرنسية إبان طلبه للعلم فى الأزهر الشريف استعدادا لهذا اليوم الذى يقوم فيه بواجبه العلمى والدينى"٠ (٣)

---

(١)من ترجمة الشيخ عن نفسه وهو يذكر أنه حصل على الشهادة الثانوية من معهد طنطا ، وقد ذكر الشيخ الزنكلونى فى مقاله المشار إليه فى مجلة الأزهر انه حصل عليها من الأسكندرية وهو مخالف لما ذكر الشيخ ٠

(٢)من ترجمة الشيخ عن نفسه صـ٢ ٠

(٣)من مقدمة الدكتور سيد بدوى لرسالة الدكتور دراز "دستور الأخلاق فى القرآن" ، ترجمة د : عبد الصبور شاهين ط : مؤسسة الرسالة الطبعة التاسعة ١٤١٦ — ١٩٩٦م ٠ صـ ح ٠

واستمر الشيخ مدرسا بمعهد الأسكندرية حتى عام ١٩٢٨م ، ثم وقع الاختيار عليه مع بعض زملائه للتدريس بالقسم العالى بالأزهر ، ثم اختير فى العالم التالى للتدريس بقسم التخصص • وحين أنشئت الكليات الأزهرية عام ١٩٣٠م وافتتحت رسميا فى مارس ١٩٣٣م ـ اختير الشيخ للتدريس بكلية أصول الدين ، ثم بقسم التخصص بها (١) •

بعثته إلى فرنسا •

وفى عام ١٩٣٦م اختير الشيخ مع بعض زملائه لبعثة أزهرية إلى فرنسا للتحضير لدرجة " الدكتوراة " • ووقف الشيخ المراغى ت ١٩٤٥(٢) يخطب فى أبناء البعثة يذكرهم برسالتهم تجاه الإسلام ودعوته ، ويبين لهم أنهم ذاهبون فى فتح إسلامى • وكان مما قال : " إذا كان رجال السياسة لايحجمون عن فتح البلدان وسفك الدماء بدعوى تمدين هذه البلدان ، فكيف يتوانى رجال الدين عن فتح سلمى لايسفك فيه دم ،ولايطعن فيه برمح وماهى إلا موعظة حسنة ، ونصيحة لله ورسوله ، وإرشاد إلى الفضائل والخير ••• أرسلكم الأزهر وهو ينتظر وقلبه يخفق

---

(١)من ترجمة الشيخ عن نفسه صـ ٢ وبحث له بعنوان : الأزهر الجامعة القديمة ، نشر بمجلة الأزهر جـ٢٣ عدد جمادى الأولى ١٣٧١هـ • المقالة الثانية صـ ٣٩٩ •

(٢)محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر ولد بمراغة ١٨٨١م أرسله والده إلى الأزهر فاتصل بالشيخ محمد عبده وتأثر بفكره وانتفع بمحاضراته وشارك فى أحداث عصره حتى ولى مشيخة الأزهر فى ١٩٢٨م وقام بأعمال جليلة من كتبه : " الأولياء والمحجورون " ، ومسائل لغوية بلاغية" توفى فى ١٩٤٥م •
انظر : المؤتمر العاشر لمجمع البحوث الاسلامية صفر ١٤٠٦هـ •

وأنا واثــق من أنكم ستكونون بهديكم بقولكم وأعمالكــم وسمتكــم أحسن الأمثلة لخريجــي الأزهر الشريف ، وستكونون بجدكم فى تحصيل العلم ، وتفهم الأساليب ، ومعرفـــة طـــرق البحث ، ودراسة العقليات الغربية ــ من المجاهديــن والصابريــن(١)٠

وقــد حمــل الشيخ الأمانـــة ووفى بها أعظــم وفاء ؛ لأنها كانت فى أعماقه منـــــذ ســلك سبيل العلــم ، فما إن وطئــت قدمــه أرض فرنســا ــ حتى بـــدأ فـــى تحقيــق هدفـــه ، ولــم يلجــأ إلى التحضير لدرجـــة " الدكتوراة " بدايـــة ــ علـــى الرغـــم مـــن إتقانـــه الفرنسـيـة ، بل ســلك الطريق من بدايتــه فالتحــق بالســــــوربون للتحضـير لدرجـــة " الليسانـــس " ودرس الفلســفة والمنطــق ، والأخلاق ، وعلــم النفــس ، وعلــم الاجتمــاع ٠ وبــد ا أثــر ذلك واضحا فى رســالته (٢) ٠

ثــم اتجــه للتحضير لدرجـــة "الدكتوراة " ، فقامت الحرب العالميـــة الثانيـــة ، ممـــا أطال فـــترة مكثـــه هناك إلى ســنة ١٩٤٧م حيث نـــال درجـــة "الدكتـــوراة "بمرتبـــة الشرف العليا بعــد مناقشــه رسالتــه " دســتور الأخـــلاق فى القـــرآن " ، مــع رســالة فرعية أخرى بعنوان " مدخــل إلى القــرآن الكريـــم " ٠

وضرب الشيخ بذلك المثل الأعلى للعالم الذى يخرج وفى كيانه هدف يعيش له ، فلــم تؤثر الرحلة فى تدينه والتزامه،بل ظــل قابضا على دينه وسط تيـــارات اللــهو والمجــون والترف ، وعاد إلى وطنه وقد زادته الرحلة إيمانا إلى إيمانه ، وثقافة إلى ثقافته ، حيث ألــم بملامح العقل الغربى ، ومناهج تفكيره وثقافته، كما بعث هو فيهم دعوة الإســلام ومنهجــه الخلقى من خلال رسالته التى أبرزت صفحة من صفحات الإسلام الخالــدة ٠

---

(١) من خطاب الشيخ المراغى للبعثة الأزهرية مخطوط صــ٢،صــ٣، لدى الباحث نسخه منه ٠

(٢) انظر مقدمـــة الدكتور سيد بدوى لرسالة الشيخ " دستور الأخلاق فى القرآن " صــ ح ٠

وحين عاد الشيخ إلى مصر فى ١٥ مارس ١٩٤٨م بدأ رحلة العلم والجهاد فندب لتدريس "تاريخ الأديان" فى كلية الآداب جامعة القاهرة ، ثم لتدريس " التفسير " فى كلية دار العلوم ، ولإلقاء محاضرات ثقافية وأخلاقية فى كلية البوليس ، كما درس " التفسير " فى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، ونال عضوية جماعة كبار العلماء فى نوفمبر ١٩٤٩م(١) ٠

وبالإضافة إلى تدريسه فى الجامعات أسندت إليه مناصب أخرى منها :

١ـ مراقبة الامتحانات العامة بالأزهر ٠

٢ـ عضوية اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر ٠

٣ـ عضوية اللجنة العليا لسياسة التعليم ٠

٤ـ مندوب الأزهر فى المؤتمرات العلمية والدينية ٠ وكان من أهم المؤتمرات التى حضرها الشيخ : (٢) ٠

مؤتمر الأديان بباريس ١٩٣٠م وتحدث فيه عن "السلام فى الأديان " (٣)

مؤتمر الشريعة الإسلامية في باريس ١٩٥١م٠ وقد أعد الشيخ بحثه "أثناء انعقاد المؤتمر وهو بعنوان " الربا فى نظر القانون الإسلامى " ٠ (٤)

المؤتمر الدولى للدراسات الإسلامية " بلاهور " باكستان ١٩٥٨م : وهو آخر المؤتمرات التى حضرها الشيخ ، وفاضت روحه أثناء انعقاده ، فأُلقِى فيه بحثه عن " علاقة الإسلام بالأديان الأخرى " (٥) ٠

(١) انظر ترجمة الشيخ عن نفسه صـ٢ ٠

(٢) ترجمة الشيخ صـ ١ ٠

(٤)نشرهذه المؤتمر ضمن بحوث عدة فى كتابه : دراسات إسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية" من منشورات دار القلم الطبعة الرابعة ١٤١٤، ١٩٩٤م صـ ١٢٩ ٠

(٤) نشر نص هذا المؤتمر فى الكتاب السابق أيضا صـ ١٤٩ ٠

(٥) نشرهذا المؤتمر بمجلة "لواء الاسلام " عدد رجب ١٣٧٧هـ فبراير ١٩٥٨م صـ٦٨١، كما كتبت مجلة "رسالة الباكستان " كلمة عن البحث فى عددها رقم ١٩١ السنة التاسعة ٢٦جمادى ١٣٧٧ـ ١٦ يناير١٩٥٨م وذكرت أنه ألقى فى جلسة الثلاثاء ٧يناير على لسان أحد أعضاء الوفد المصرى ٠ص٦

تراثــــه العلمـــــى .

تــرك الشــيخ تراثــا علميا يروع الناظــر ؛ إذ يــرى تنوع وتعــدد ميادين هـــذا التراث الذى تركــه ، ويرى مع ذلك قوتــه واقتــداره على هضــم، وفهـــم ،وتحليــل مسائل العلم . وكان مما تــرك الشـــيخ :

أولا : المؤلفـــات .(١)

١ــ المخــتار من كنــوز السنة : وهو شــرح أربعين حديثا من كلامه ــ صلـــى الله عليه وســلم ــ ألفــه الشيخ حــين أســند إليه تدريس مادة"الحديث" لطلاب كليـــة أصــول الدين . وهــو يعالج فى أكثر الأحاديث قضــايا المتشابــه فى السُّنَّة مما يمــس أصـــول العقيدة وكان ســببا فى أن اشــتطت بعــض الفرق الإسلامــية عــن جادة الصــواب ، وصاروا بيــن مفرِط ومفــرِّط " وهــو حين يركــز على هذه النوعية - إنما يريـــد أن يســد مداخــل الفتــن ، ويكــبح جمــاح الشيطان ، ويضمـــن لقرائــه الأمــن والأمانــة والأمــان ، وأن يجلى أن الديــن لايســاس بالعقــول "(٢)

٢ــ دســتور الأخــلاق فى القــرآن :

وهـــى الرسالة التى تقــدم بها لنيل درجــة الدكتوراة واستغرقت منه مـــايقرب من ست سنوات ، ثم نوقشت أمام لجنة من خمسة أســاتذة من السوربون ، والكوليـــج دى فرانس " فى ١٩٤٧/١٢/١٥م .والهدف الرئيسى من الرسالة هـــو إبــراز الطـــابع العـــام للأخــــــلاق التى تستمد من القــرآن الكريـــم من الناحيتــين : النظريـــة والعلميـــة .

---

(١) ذكر الأستاذ رضا كحالة خمسة مؤلفات للدكتور دراز وهى " الدين " ، " مبادىء علم الأخلاق " و" تاريخ آداب اللغة العربية "، و " مناهل العرفان فى تقويم البلدان " ، " تفسير آيات الأحكام " . والواقع أنه لايسلم للدكتور دراز إلا الكتابان الأولان ، أما الثالث والرابع فهما من تأليف والده الشـــيخ عبدالله دراز ، ويبقى الكتاب الأخير وهو من تأليف الشيخ عبد المجيد عبدالله دراز ، شقيق الشـــيخ محمد . فرأيــت التنبيــه إلى ذلك . يراجع معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة ، ط : دار احيـــاء التراث العربى بيروت جــ١٠ صـــ ٢١٢ .

(٢) الكتاب طبعته دار الأنصار الطبعة الثانية ١٣٩٨ــ ١٩٧٨م بتقديم الشيخ بخارى أحمــد عبده .

وترجع أهميتها إلى أنها لم تسبق بدراسة وضعت منهجا متكاملا للنظرية الأخلاقية في القرآن . وكان كتاب الغرب حين يكتبون عن نظرية الأخلاق ـ يمرون بالعصر الإسلامي مرورًا عابرًا لأنه ـ من وجهة نظرهم ـ لم يقدم نظرية كاملة للأخلاق .(١)

٣ـ مدخل إلى القرآن الكريم :

وهي الرسالة الفرعية التي تقدم بها الشيخ مع رسالته السابقة لنيل درجة "الدكتوراة " وهي تشتمل على ثلاث أبوب : الأول : عن حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم . وجمع القرآن وكيفية تبليغه ، والباب الثاني : يتناول القرآن من جوانبه الدينية والأخلاقية والجمالية . أما الباب الثالث : فقد تحدث عن مصدر القرآن ، ثم ختم بأهم النتائج التي وصل إليها (٢) .

٤ـ الدين " بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ".

وقد ألفه حين أسند إليه تدريس مادة " تاريخ الأديان " بكلية الآداب جامعة الملك فؤاد .وهو مبني على مقدمة،وأربعة فصول،وخاتمة . تناول في المقدمة عرضا سريعا لتاريخ الأديان من العصر الفرعوني إلى نهضة أوربا الحديثة.

وفي الفصل الأول: تناول تحديد دلالة الدين في اللغة والعرف ، وتحليل الفكرة الدينية في نظر المتدينين من الوجهة الموضوعية والنفسية .

---

(١) ترجم الدكتور عبدالصبور شاهين هذه الرسالة بعد ربع قرن من مناقشتها،وقدم لها الدكتور.السيد بدوي تلميذ الشيخ وصهره .

(٢) ترجم الأستاذ محمد عبدالعظيم علي هذا الكتاب إلى العربية، وقد طبع عدة مرات آخرها طبعة دار القلم ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م .

وفى الفصـل الثانـى : تنـاول علاقـة الديـن بأنـواع الثقافـة والتهذيب ، وبالأخلاق ، والفلسـفة ، وسـائر العلوم . وتحدث فى الفصل الثالث عن نزعـة التدين وأصالتها فـى الفطرة ، ووظيفـة الدين فى المجتمع . أما الفصـل الأخير فهـو للحديـث عـن نشـأة العقيدة الإلهيـة فى العقـل الغرزى . ثم ختم البحث بنظـرة جامعة بيـن فيـها موقـف الإسلام من الأديـان الأخـرى (١) .

٥ـ المـيزان بين السُـنَّة والبدعـة .

وقـد تحـدث فيه عن معنى السـنة والبدعة والفرق بينهما ، وعن منزلة هذا العلـم من علوم الدين ، ثم بين صعوبة تطبيـق حـدّى السنة والبدعة واشـتباه الأمر فيهما علـى كثير من الناس ، ثم خصص فصـلا كبيرا للحديث عن منشأ الابتداع فى الدين والأصـول التى بنى عليها أهـل البـدع (٢) .

٦ـ النبـأ العظـيم :

وهـى محاضرات ألقاهـا الشيخ على طلابـه فى الأزهر ، ولكنها لم تطبع إلا بعـد عشرين سنة ؛ حيث حال دون ذلك سفر الشيخ إلى فرنسا ، ثم انشغاله بالشئون العلمية التـى نيطت به . وقد بين الشيخ فى مقدمته الفرق بين القرآن ، والحديث القدسـى ، والنبوى .

---

(١) طبعـت دار القلم الكتاب عدة مرات ، وكتب الأستاذ فتحى عثمان مقالا عنه نشر بمجلة المجلة عدد رقـم ١٠ لسنة ١٩٥٨م .

(٢) هذا البحث فى طور التحقيـق من أحد الباحثين وهو فى طريقـه إلى الظهور قريبـا .

ثم بحث بعد ذلك عن مصدر القرآن الكريم وإثبات أنه من عند الله . وقد مر هذا البحث بأربع مراحل :

الأولى : للرد على من زعم أن القرآن من عند محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ،

والثانية : للرد على من زعم أنه أخذه من معلم غير الله ،

والثالثة : للبحث في ظروف الوحي وملابساته عن مصدر القرآن .

والرابعة : للبحث في جوهر القرآن نفسه عن حقيقة مصدره وهي التي شرح فيها خصائص الإعجاز اللغوي على وجه يضع دراسته على جبين الدراسات الباحثة في إعجاز القرآن (١)

٧ـ بحث مكتوب عليه الجزء الثاني من النبأ العظيم " لم ينشر"

إذ وعد الشيخ في الجزء الأول بأنه سيتحدث عن الخصائص البيانية للقرآن في قطعة قطعة منه ، وفي سورة سورة ، وفيما بين سورة وسورة ، وفي جملته . لكنه لم يتحدث إلا عن الأمرين الأولين منهما . أما الأمران الأخيران فقد تحدث عنهما الشيخ حديثا مقتضبا في هذا الجزء ، ويبدو أنها مسودات كان يعدها الشيخ ، كما جمع هذا الجزء بحوثا أخرى(٢) .

---

(١) طبع الكتاب عدة طبعات ، وطبعته دار القلم سبع مرات آخرها عام ١٤١٣ ـ ١٩٩٣م .

(٢) سلمني هذا البحث الشيخ أحمد فضلية من يد ابن الشيخ " السفير فتحي محمد عبد الله دراز " وهو يضم عشرة أبحاث مكتوب على أعلى الصفحة الأولى منها :"الجزء الثاني من النبأ العظيم"وبعد قراءة هذا البحث ومراجعته تبين لي أن ما يخص النبأ العظيم هما البحثان اللذان ذكرتهما أما بقية الأبحاث فمنها ما هو مسودات النبأ العظيم ، ومنها ما هو مستقل بذاته مثل " أسباب النزول " و " المكي والمدني " ، و " اختلاف القراءات " وأظن أنها كانت مقدمات بين يدي التفسير الذي كان يدرسه في الأزهر، ودار العلوم .

٨ ـ مجموعة أحاديث إذاعية وطبعت فى أربعة كتب :

{ أ } : نظرات فى الإسلام :

وهـى أول أحاديث إذاعية طبعت للشيخ ويقف فيها مع عناصر الإسلام عقائد ، ومعاملات ، وعلاقـات مبينا عن ملامح التفرد التى جعلت من الإسلام شريعة خالـدة كاعتدالـه ، واحترامه لكرامة الفرد ، ومحاربته الرق ، وحرصه على السلام (١) ٠

{ ب } : فى الديـن والأخلاق والقوميـة :

وهى الأحاديث التى جمعها الدكتور : سيد بدوى ، وقدم لها ، وكثير منها مطبوع فى كتاب " نظرات فى الإسلام " إلا أنه أضاف إليها ما يتعلق بآداب القـرآن فى السلوك ، وما قالـه الشيخ أثناء الأعتداء الغاشم على مصر ١٩٥٦ ليستنفـر به الهمم ، ويستفز الرأى العام ضد هذا العدوان (٢) ٠

{ جـ } : وثيابـك فطهر :

وقـد تحدث فيه الشيخ عن منابع الكسب فى القرآن ، وأهدافه وقانونه ، وآدابه ، ووجوهه ، وأسلوبه ٠ إلى غير ذلك من الأحاديث التى أمتع بها سامعيه (٣) ٠

---

(١) طبعه المكتب الفنى للنشر الطبعة الأولى جمادى الأخر ١٣٧٧ هـ ـ يناير ١٩٥٨ م ٠

(٢) قـدم لهـذا الكتاب الدكتور سيد بدوى فى عام ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م ٠ وهذه الأحاديث ألقاها الشيخ على فترات منتظمة فى المدة من عام ١٩٥٣ ـ إلى ١٩٥٧ م ولدى الباحث بيان بميعاد وعنوان كل حديث أذاعـته الإذاعـة ٠

(٣) طبعت دار الأنصار الكتاب الطبعة الأولى فى رمضان ١٣٩٨ هـ ـ أغسطس ١٩٧٨ م، بتقديم الأستاذ صالح عشماوى ٠

{ د } : الصــوم تربية وجهاد :

وفيه يتحدث الشيخ عن فضل شهر رمضان ، واستقباله ، والمعانى التى فيه ، كما تحـدث عن الأعياد الإسلامية والفرق بينها وبين غيرها من الأعياد ٠ وكثير من هذه الأحاديث موجود فى كتابه " نظرات فى الإسلام " (١) ٠

١٢ـ دراسات إسلامية فى العلاقات الإجتماعية والدولية :

وفيه بحوث عدة تتعلق بالقرآن الكريم ، والإسلام وكرامة الفرد ، والإســـلام والـــرق ، والمسئولية فى الإسلام ، وكلمات فى مبادئ علم الأخلاق والقانون الدولى ، والربا فى نظـــر الإسلام ، واصلاحات الإمام : محمد عبده (٢) ٠

ثانيــا : البحوث والمقالات :

١ـ **أصــل الإسلام** : وهو فصل من كتاب " الإسلام الصراط المستقيم " الذى كتب فصوله عديـــدٌ من أساتـــذة مصر والعالم الإسلامى ، وقد كتب بالفرنسية ثم ترجم إلى العربية (٣)

---

(١) طبعـــــه المجلــس الأعلى للشئون الإسلامية ضمن ٠سلسلة دراسات إسلامية عدد شعبان ١٤١٧ ، ديسمبر ١٩٩٦ عدد رقم " ١٣ " ٠

(٢) طبـــع الكتاب أربـــــع مرات آخرهـــا عام ١٩٩٤ نشر:دار القلم ٠ وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بحث : المسئولية فى الإسلام ضمـــن سلسلة دراسات إسلامية : ذو الحجة ١٤١٨ ، أبريل ١٩٩٨ عـــدد ٢٩ ٠

(٣) ترجمــــه إلى العربية محمود عبد الله يعقوب ، ونور الدين الواعظ بإشراف : كنيث ومورغان " أستاذ الأديان بجامعة " كولجيت " ونشرته شركة النبراس للنشر والتوزيع بالاشتراك مع مؤسسة فرنكـــلين المساهمة للطباعة والنشر " ٠

٢ــ الأزهر الجامعة القديمة الحديثة : وهــــو بحـــث تناول فيه تاريخ الأزهر العمرانى ، والثقافى ، والتطورات التى دخلت عليه ٠ وقد نشر فى ثلاث مقالات بمجلة الأزهر (١) ٠

٣ــ أسباب النزول : وهو بحث مقدم لجماعة كبار العلماء ٠ (٢)

٤ــ رأى الإسلام فى القتـــال ٠ (٣)

٥ــ حضارة الإسلام وأثرها فى الحضارة الحديثة ٠ (٤)

٦ــ نظرات فى فاتحة الكتاب٠ (٥)

٧ــ طعــم الإيمان ٠ (٦)

هــذاإلى ماجمـــع فى كتابه " دراسات إسلامية " ، ثم تفسيره لسورة "يس " و"الملـك" و" القلـــم " ٠ وهـــو مخطـــوط فى طريقـــه إلى الطبـــع ٠

---

(١)نشرت المقالة الأولى فى عدد ربيع الأول ١٣٧١ هــ جــ٢٣ ، والثانية فى عدد جمادى الأولى ، والأخيرة في جمادى الاخرة فى العام نفسه ٠

(٢)كان ذلك تنفيذا لقرار الجماعة فى جلستها يوم ٢٥ محرم ١٣٧٢ ــ أكتوبر ١٩٥٢ م ٠

(٣)نشر هذا المقال بمجلة الأزهر جــ١ غرة المحرم١٩٧٢م، سبتمبر ١٩٥٢م ٠

(٤)نشر هذا البحث فى مجلة " المجلة " رمضان ١٣٧٦هــ ٠أبريل ١٩٥٧م عدد رقم ٤ ٠

(٥)نشر هذا المقال فىمجلة " المجلة " عدد رقم:٧ ذو الحجة ١٣٧٦، يوليو ١٩٥٧م ٠

(٦)وهو بحث شرح فيه حديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ " ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًـــا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَرَسُولاً " وهو منشور بمجلة لواء الإســـلام عدد رقم ٩ جمادى الأولى ١٣٧٥ــ ديسمبر ١٩٥٥م ٠

سمات الشخصية التى وراء هذا التراث .

لعل مما يلفت النظر فى مؤلفات الشيخ وبحوثه - تنوع ميادين البحث والتأليف فهو يكتب فى التفسير ، والحديث ، وفلسفة الأخلاق ، وتاريخ الأديان ، وعلوم القرآن ، ومبادىء القانون الدولى ، وإعجاز القرآن ، وغير ذلك مما يلفت إلى هذا العقل الذى استوعب هذه الميادين فى قوة واقتدار .

والحقيقة أن وراء هذا العقل شخصية حوت من الملامح والدوافع ما أهلها لهذه المكانة العلياء ؛ فهو ينشأ فى بيت من بيوت العلم ، وفى عصر حافل بألوان الثقافات والتيارات الفكرية والأدبية والنقدية ، ثم يجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، من خلال تعليمه فى الأزهر الشريف ثم بعثته إلى فرنسا . وقد جمعت هذه الشخصية سمات عدة أولها :

الإيمان العميق بأن العلم ماء الحياة :

كان وراء هذا الفهم العلمي والقدرة المستوعبة - إيمان عميق بأن هذا الكون ميدان واسع لايحرز قصب السبق فيه إلا من أعد له عدته من علوم الدين والدنيا ، ومن خبرة الحياة وتجاربها . وقد ترسخ هذا الإيمان فى أعماقه منذ صباه ، وكان ثمرة لوقفته المتأملة فى هذا الكون محاولا إزالة إبهامه ورسم ملامحه ، ليضع لنفسه منهجا يبلغه مأمنه ويكفيه بوائقه . وهذا مابدا فى خطابه الذى أرسله إلى والده يطلب منه النصح وهو على بداية طريق الحياة **فيقول :** " أى والدى العزيز ، منذ عامين أو ثلاثة أتيح لى يوم أخذت فيه مضجعي ، وسرحت نظرى إلى هذا الكون الضخم ، والعالم العظيم ، وعلاقة الناس به عموما ، وعلاقتى به خصوصا فإذا هو ميدان واسع لا يحرز قصب السبق فيه إلا من أعد له عدتين : أما إحداهما : فأن يتزود من علومه الدينية والدنيوية ويملأ منها وطابه ، وأما الأخرى : فأن يطيل ممارسته ويكثر من خبرته وتجربيه حتى يعرف سننه وقواعده ، ويميز نفعه من ضرره،وصفوه من كدره، وحتى يسلم من بوائقه"(١)

---

(١)من خطاب الشيخ إلى والدة فى١٩شعبان١٣١٣،٢٣يوليو١٩١٣م وكان ابن تسع عشرة سنة .

ثانيـا : تقديـر مخاطـر الطـريـق

ومـع إيمانه العميق بأن علم الدين والدنيا وخبرة الحياة وتجاربها همـا مداد المرء الذى يسطر به صفحات حياته فى كتاب هذا الكون ، وسفينته التى يبحر بها فى أمواجه العاتية ـ فهو كذلك يؤمن بمخاطر هذا الطريق ويقدر المصاعب التى تحف به ، وأنه لايعطى مقادته إلا لمن اعتلا ذروته ، لامن يمر بمسائله مر الكرام على لغو الكلام فهو يقول لوالده :

" وها نحن أبصرنا مايحف بهذا الطريق من المخاطر والمخاوف لمن يتعدد ركبه ، ويركب ذروته ، ويبلغ غايته ٠ وأنَّى لنا بهاتيك المكانة القعساء ؟ من لنا بها ".٠ (١)

ولم يدفعه إدراكه لهذه المخاطر إلى النكوص أو التراجع عن سلوك هذا السبيل واقتعاد ركبه ، بل دفعه إلى اقتحام صعابه وتخطى عقباته ، وأعانه على ذلك سمة أخرى فى بناء شخصيته هى ٠

ثالثـا : الصبر على مشاق العلم :

فبعد حصوله علىالعالمية فى الأزهر يمكث ثلاث سنوات فى دراسة الفرنسية ، ومع ذلك حين يذهب إلى فرنسا لايقصد إلى " الدكتوراة " بداية ، وإنما يختار بدء الطريق من أوله فيمكث أربع سنوات يدرس علوم الغرب ؛ حتى يتمكن من رسم صورة واضحة المعالم لهذه الدراسة قبل الانطلاق إلى دراسته وهو مامكنه من المقارنه بين النظرية الأخلاقية فى القرآن،وبين نظريات الغرب ٠٠ مقارنة أبانت من جوانب الكمال القرآنى ماكشف جوانب النقص فى النظريات الإنسانية ٠

---

(١) من خطاب الشيخ لوالده صـ٢ ٠

كما ضرب مثلا عاليا فى التأنى والصبر وتحمل المشاق فى رسالته " دستور الأخلاق قبل القرآن " التى استغرقت ست سنوات عاش منها أياما عصيبة فى الحرب العالمية الثانية كان يكتب فى رسالته تحت قذائف المدافع، وأصوات القنابل ليرسلها صرخة فى أولئك الذين مزقوا أشلاء الأخلاق تحت أقدامهم ، ولم يهرب من الميدان ، أو يحاول الرجوع إلى مصر على الرغم من احتمال اعتقاله مع سائر المصريين ، وعلى الرغم من وجود أسرته معه .

يقول الدكتور السيد بدوى :

" أذكر أنه اضطر أثناء هجوم الحلفاء لتحرير فرنسا لقضاء أيام طويلة مع أسرته فى مخبأ تحت الأرض كان يجمع فيه أوراقه التى يحرص عليها ، ويشتغل وسط القنابل التى كانت تدوى من حوله تحت ضوء شمعة أومصباح خافت"(١)

فأى إنسان هذا الذى تدوى القنابل من حوله ومعه أسرته ، ثم هو يشتغل ببحثه عن أخلاق القرآن ؟ لاريب أنه لايقوى على هذا إلا إنسان يحمل فى كيانه غاية وهدفا يريد تحقيقه مهما كلفه . فأى هم كان يحمله الشيخ فى فؤاده ؟ وأى هدف يغامر بحياته وأسرته فى سبيل تحقيقه ؟ .

---

(١) من مقدمة الدكتور السيد بدوى لرسالة الشيخ " دستور الأخلاق فى القرآن " .

رابعا : هو الإسلام يملك عليه كيانه :

لاريب أن هم الإسلام هو الذى ملك على الشيخ قلبه وعقله وضميره ، فأراد أن يبرز صفحته الخالدة ، ويرفع نقاب الشبه والشكوك التى لف بها الغرب وجه الإسلام ليحولوا بين الناس وبين حقيقته ٠ وكان هذا الهم قوة دفعت الشيخ إلى إتقان كل مايعينه على فهم الإسلام وخصائصه ، ومعالم منهجه التى جعلت الناس يدخلون فيه أفواجا ٠

هذا الهم جعله يتقن الفرنسية ، كما فجر ينابيع المعرفة بين يديه فنهل منها ، واستوعب وتفكر وتأمل وتدبر ، ثم أخرج هذا التراث العلمى الذى يدور حول محور واحد : هو الإسلام ـ إبرازًا لروعته ، ودفعا لما يثار حوله . ٠

ويضرب لنا المثل الأعلى للعالم الحريص على تفجير أنهار الثقافة فى بيداء الغرب الذى لايعرف أكثره عن الإسلام غير اسمه ـ وذلك حين زار فرنسا ١٩٥١م مندوبا عن الأزهر فى " مؤتمر الشريعة الإسلامية " فدخل أحد المساجد هناك ، وهاله خلو المسجد فى مركز ثقافى يحفظ للمسلمين لغتهم وإسلامهم ٠ فرفع تقريرًا لمشيخة الأزهر الجليلة يقول فيه :

" إن المؤسسات الإسلامية التى تفخر بها مدينة باريس ـ تبرز فيها فجوة كبيرة تشوه جمالها ، بل تغض قيمتها ، وتجعل بنيانها الشاهق آيلا للسقوط بعد حين ، تلك الفجوة هى خلو هذه المؤسسات من العنصر الثقافى العربى والإسلامى، ولن يكتب الخلود لهذا البناء مادامت فيه هذه الثغرة " ٠ (١)

---

(١) من تقرير مرفوع إلى مشيخة الأزهر الجليلة عن المهمات التى قام بها الشيخ فى رحلته إلى باريس مندوبا عن الأزهر فى شهر يوليو ١٩٥١م طبع بمطابع الأزهر عام ١٩٥٢م ٠

ثم اقترح على مدير المسجد إنشاء معهد لتعليم أبناء المسلمين اللغة العربية ، والدين الإسلامي على قطعة بجوار المسجد ، وحدث سفير مصر هناك فأبدى سروره ، ثم هاب الشيخ بالأزهر وبالملك فاروق لتدعيم المشروع ٠

خامسا : ملكة بيانية راسخة :

وقد جمع الشيخ إلى هذه السمات السالفة ٠ ملكة بيانية راسخة وذوقا قادرًا على التحلول والاستنباط ٠ ويدلنا على تأصل هذه الملكة البيانية فى نفسه منذ صغره وتمكنه من الإبانة عن مكنون نفسه ــ ذلك الخطاب الذى أرسله لوالده وهو ابن تسع عشرة سنة ٠ وقد وضعته فى هذا البحث لنرى نموذجا عاليا يعكس قوة الشيخ واقتداره على صوغ العبارة ، وتمكنه من اختيار الألفاظ المبينة القادرة على استخراج معانيه ، ثم استخدامه للصورة البيانية ، والمحسنات البديعية فى سهولة ولين طبع دون أدنى تكلف أو اصطناع ٠

سادسا : مشاركته فى أحداث عصره :

لم يعزل الشيخ نفسه عن واقعه ، أو يحبسها على العلم فحسب ، وإنما رمى بها فى غمار الحياة وشارك في أحداث عصره مشاركة ، واضحة ، فكان فى مقدمة النخبة المختارة من المثقفين للاتصال بالسفارات والقنصليات الأجنبية فى ثورة ١٩١٩م ، وخطب خطابا حماسيا بالفرنسية أمام قنصل فرنسا بالأسكندرية (١)٠

---

(١) ترجمة الشيخ عن نفسه صـ ١ ٠

(٤)

أو نبهنا عليها معتقداً أن الذي عرفت أقل مما جهلت ، على قاعدة :
لعين تبصر منها ما نأى ودنا ولا ترى نفسها الا بمرآة
وربما وقعت أنت التذييلات على مرآى منك ولا أرى نكراناً عليها الارشاد
الى الصواب فيها حتى كأنما عمدت لتسلمني الى معترك الأيام ليريني ما
ما تريني بياناً ..
بيد الرأي ونعما هو ، بيد أنه شيء يطول مرآسه وطريق واسع ينبغي اختزاله
لا سيما على ناشئ مثلي ليس له سعة من الوقت وتقدم السن ووفور الحلم
ما يؤهله لهذه الخبرة والابتلاء اللذين قد تفنى فيهما الأعمار ولا يهتدي اليهما
إلا من شاء الله ،
لذا وأنت يا أبت قد عرفت من زمن ما لم يعرفه غيرك وخبرت ما لم يخبره
أنداؤك فضلاً عن سواهم . فلهذا وذاك لجأت إلى هذا القرطاس فبعثته
رسول سلام وسفير استرحام وأنا على رجاء أكيد وأمل وطيد في أكرام
وفادته والسلام عليكم من

ولدكم
محمد

١٦ شعبان سنة ١٣٣١ هـ
١٢ يوليه سنة ١٩١٣ م

(١)

سيدي الوالد العزيز !
أحييك بما أنت أهله وأسألك من الله طول البقاء ،
وبعد فإن هذا الخجل الواضح ....
ولم يأذن لي .... من صحيفة الفؤاد الى قرطاس المداد الا في هذا الوقت ....
أي والدي العزيز !
منذ أيام أو بالأحرى أعوام أتيح لي يوم أخذت فيه بنفسي ....
العيون الفاحصة .... العالم العظيم .... خصوصاً ....
ميدان واسع لا يجوز فيه قصب السبق الا من أعدّ له عدتين .... أن يتزود
من العلوم الدينية والدنيوية .... وأما الأخرى ....
من خبرة وتجربة حتى يعرف .... من ضرره ....
، وحتى يسلم من بوائقه ويسلك سبيله السوي ،
هنالك رأيتني بإزاء أشياء جمة ومسائل متشعبة كثير منها ما أنكره ....
ما أنكر باطنه وأعرف ظاهره وقليل ما كشفت سره وسبرت غوره
ورأيتني كذلك في حاجة الى التوقي ونازعتني نفسي أن ألتمس من عباب ......
وأقتبس من شهاب تجاريبكم جذوة علني أروى بالأولى غلتي وأمشي بالثانية ظلمتي
فأهتدي بها سراجاً منيراً . فلما جئت بي .... الرغبة ....
كأن ضاق صدري ولم ينطلق لساني حيثما أشفقت ألا أكون .... وكففت
من الدخول فيها عساه أن يخجلني أو يرجعني .

كان ذلك حينئذ . ... الان وقد زال بعض هذا الإشفاق وصرت أرانى
حقيقا بذلك الالتماس لا لعلمى بعلو المكانة وسمو المنزلة عن ذى قبل ولكن لأنى
صيغت فيما سمعت من أقوال الشعراء الحكماء قول القائل :

قد ينفع الحدثَ التأديبُ فى صغر ،، وليس ينفع بعد الشيبة الأدب
ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ،، ولن يلين اذا قومته الخشب

لك ولحذرى من أن يجئ يوم أتمام الدراسة وأنا لا أتقن مدرّقتى . فلا أرى
بذاك منبعا لسؤال ولا يسعنى الا الصبر على مضاضة الأقلال .
فالآن وفى هذه الحال ـ قد يحق لى أن أبدى لكم ما بدالى فأما قبولا حسنا وأما صفحا
جميلا :

أى والدى !

إن سلكت سبيل العلم مع من سلكه من أترابى وأقرانى ولم نزل نقطع صحاريه
ونطوى فيافيه حتى انقضى جله ولم يبق الا أقله ثم ... كم غادرنا فيه من
وديان وشعوب لم نقف على دقائقها ولم نكتنه حقائقها اذ كان مرنا عليها مر
الكرام على لغو الكلام أو مر خياله الطيف وسحابة الصيف . وأخرى لم نتعرف
وليتها الهم ولم يلجأ بما سأقدم فرضينا فيها من الغنيمة بالأياب .
ها نحن أولاء أبصرنا ما يحف بهذا الطريق من المخاطر والمخاوف لمن لم يقتعد
ركبه ويركب ذروته ويبلغ غايته . وأنى لنا بهاتيك المكانة القعساء ؟
من لنا بها ؟

يا أبت ان ذهنى على قصوره ليس يرى وسيلة لتخطى هذه العقبات
بعزم وحزم الا الاستمداد من خزائنكم الثمينة والتزود من نصائحكم الثمينة
فهى فى ملتى واعتقادى السلم الوحيد الذى بتوالى مدارجه وتتابع معارجه
يمكننى أن أجتاز هذا السبيل بأمان بل هى ماء الحياة الطيب الذى بطول
استقائه وكثرة تعهدى به أستطيع أن أقضى بعز الحياة الكبرى وأتمتع
بنسيمها اللذيذ هنيئا مريئا اه نعم ولقد كنت كلما ذكرت قدكم ملتقية الأدب
ـ حسنين محمد حسنين ـ (احفظ هذا الخطاب والنسخ على منواله) كان فؤادى
أسى وأسفا وفاضت نفسى غيظا وغبطة على هذه الحظوظ التى فاز بها الأجنبى
البعيد وحرمها المنسوب القريب غير أنى كنت أطمئنها برجاء المستقبل
وأقول لها : اصبرى فعسى يوما أن تبوئى هذه المنزلة : يا أبت أفلم يأن
لها أن تحلها ؟

هذا . وأنى أرى بين عدتى الأخرى بضاعة مزجاة وتجارة كاسدة ما كان أحوجنى
فيها الى القوة والنفاد ، تلك تجاريب الرجال وسبل الحزم فى الأعمال و
واستنباط العواقب ومعرفة أخلاق الناس وحسن معاملتهم وطريق الجمع بين
رضا الله ورضاهم . الخ . الخ . فأنى لهذا الشباب الذى لم يعد العشرين وهو
لا يزال عاكفا على الدرس فى مسجده والتحصيل فى حجرته ـ أنى له ـ أن يعرف
من ذلك قليلا أو كثيرا الا ما سنح له سنوحا . وفاجأه مفاجأة ،
على أننى كنت أحسب على نفسى غلطات اجتماعية وعدم حزم فى أعمال جزئية

كمـا شـارك في أحـداث الثورة ووقـف يخطـب فى الشعب يثير حفيظتـه تـارة، ويوصـيه بالتأنـى أخـرى.ومـن ذلك خطابـه بعـد الإفـراج عـن الوفـد المصـرى والسماح بسفره إلى فرنسـا فهـو يقـول فيه : " يا قـوم لقـد آن لقيـود الذل أن تكسـر ولأغـلاله أن تفـك ٠ لقـد آن لقـيد الاسـتعباد أن يرفـع ٠ لقـد آن لأقفاص الأسـر أن تحطـم ، نعم لقـد آن الأوان وحـان الحين ٠ وهاهـى الفرصـة سـانحة فانتـهزوها ٠ والنار موقـدة فأضرموها ٠ انفخوا فيـها بكـير العزيمـة،وأشـعلوها بحطـب الاستماتة٠ وإياكـم والنكوص على الأعقـاب ٠ واحذروا فشـل العزيمـة وإلا عـدتم لشرمما كنتم فيـه ٠ اذكروا ذلك جيدًا ،واعلموا أنكم على باب حيـاة أو مـوت فإمـا أن تعيشوا كراما ، أو تموتـوا كرامـا" (١) ٠

ونلحـظ فى لغـة الشيخ كلمات محاربة ، وحروفـا تكسر ذل القيود ، وكأنها حمم تخرج من بركان يريـد إحـراق الاحتلال مما يعكس بوضوح إيمانـه بقضـية بـلاده ، ورغبته في إزاحـة الهمـوم التى أثقلت صدرها ، وكدرت صفو حياتهـا ٠

وفى عـام ١٩٣٩م قامت الحرب العالمـية وهو فى فرنسـا فاعتقـل الألمان كثـيرًا من المصريين ، وكان الإنـذار بالاعتقال سـاريا على المصريين جميعا هناك ٠ ولكن ذلـك لم يمنعـه من الاحتجاج ومقابلة الرؤساء العسكريين بنفسـه مـرارًا حتـى أفـرج عـن المعتقلـين جميعـا (٢)

---

(١) من خطاب حماسى للشيخ ألقاه بعد الإفراج عن الوفد المصرى والسماح له بالخروج إلى فرنسـا للمفاوضة من أجل الاسـتقلال ، وهـو مخطـوط ٠

(٢) ترجمـة الشـيخ عن نفسـه صـ ١ ٠

وفى عـام ١٩٥٢م وقبل قيام الثورة بأيام ــ وكانت الأوضاع قد ساءت إلى الغايـة ــ نجد الشيخ يقوم بواجبه فـى النصـح للحكـام فيتقـدم إلـى رئيـس الديـوان الملكـى فى١٩ يونيو١٩٥٢م يشرح سـوء الحالة العامة ، وتحول القدوة الحسنة التى كـانت للملـك قديما إلى قـدوة غير صالحة ورجا تصحيح الأوضاع ، ولم تمنعـه هيبـة الملـك مـن الصدوع بالحق ٠ وماهى إلا أيام ثم قامت الثـورة ٠ (١)

وحـين قـدم العدوان الثلاثـى إلى مصـر ١٩٥٦م واحتل القناة ــ نـهض الشـيخ للمقاومـة فحرص على تعبئـة الشعب المصرى من خلال أحاديثه الإذاعـية التى نـددت بالاعـتداء ، ونادت بالتحـرر والمقاومـة " ومن يقـرأ هذه الأحاديث يدرك إسهام الشيخ فى تعبئـة النفوس ضـد الاحتلال ، وحرصه على حرية بـلاده وكونـها فـى مقدمـة الموكـب الحضـارى ٠(٢)

وإن شخصـية تحمل هـم الإسـلام فى ضميرها ، وتبذل كل غـال فى تعلـم كـل علم يخـدم هـدفها ، وتغامـر بحياتهـا وحياة أسرتهـا فى سـبيل هذا الدين ، وتملـك مع ذلك عقـلا مفكـرًا متدبـرًا ، وذوقـا بيانيـا قـادرًا علـى اسـتخراج الدقائـق واللطائف، ولاتتخلـى عن دورهـا فى أحداث عصرها ــ لهى شخصية جديـرة بـالتقدير والبحث ٠ ولو كان للعمـر سوق لاشترينا ما نملك لنقذف به فى عمر هذا الرجل ليظـل فى خدمـة الإسـلام وكتابـه الخالد٠ ولكن الله لايؤخر نفسا إذا جاء أجلهـا ٠

---

(١) ترجمـة الشيخ عـن نفسـه صـ ١

(٢) تراجع هذه الأحاديث فى كتاب " الدين والأخلاق والقومية " للشـيخ ٠

وفاته :

في يناير عام ١٩٥٨ م ذهب الشيخ مع بعض زملائه إلى المؤتمر الدولي للأديان بمدينة " لا هور " " باكستان " وكان من المقرر أن يلقى بحثا عن " الإسلام وعلاقته بالأديان الأخرى " ولكنه في مساء الأثنين ١٦ جمادى الآخرة ١٣٧٧ هـ الموافق ٥ يناير ١٩٥٨ م ــ شكا وجعا فاستدعى له الطبيب ، وتداعى له الإخوان من سائر الحجرات . وهو يتلو مع الآلآم أدعيته الضارعة لطلب مرضاة الله ، ثم دعى طبيب آخر وصف دواء فسبقت المنية الدواء،وكانت آخر كلمات نطق بها " يا رب إن كنت راضيا عنى فلا أبالى " (١) .

ثم وصل جسده الطاهر صباح التاسع من يناير إلى مطار القاهرة ونقل للأزهر للصلاة عليه ،ثم حمل نعشه على الأعناق يتقدمه مندوب رئيس الجمهورية والسادة الوزراء ، وتحفه الجموع والدموع حتى وصل إلى مدفن العائلة . ونعت مصر كلها علما من أعلامها وأعلام الإسلام الخالدة ونعته الصحف والمجلات والمعاهد والكليات ، ورثاه كثير من العلماء والشعراء . فرثاه الدكتور : محمد سليمان بدير بقصيدة منها :

يَا رَافِعَاً لِلدِّينِ رَايَةَ مَجْدِهِ ** خَفَّاقَةً فِى سَائِرِ الأَجْوَاءِ
إِنَّ الْحَنِيفَةَ عِنْدَ مَوْتِكَ نَكَّسَتْ ** يَوْمَ الْحِدَادِ عَلَيْكَ كُلَّ لِوَاءِ
لَوْ يَمْلِكُ الْمَحْزُونَ غَيْرَ دُمُوعِهِ ** صَاغَ الرِّثَاءَ الْيَوْمَ كَالْخَنْسَاءِ
وَالدَّمْعَ أَفْصَحَ مِنْ لِسَانِي مَنْطِقًا ** عِنْدَ الْفَجِيعَةِ إِنْ أَرَدْتُ رِثَائِى (٢)

---

(١) من مقال الشيخ محمد أبو زهرة بمجلة " لواء الإسلام " العدد الحادى عشر رجب ١٣٧٧ ــ فبراير ١٩٥٨ صـ ٦٩١ وكان الشيخ أبو زهرة من أعضاء الوفد المصرى،وحضر وفاة الشيخ رحمه الله .

(٢) نشرت القصيدة بمجلة الأزهر عدد رجب سنة ١٣٧٧ هـ صـ ٦٢٨ .

كما رثاه الأستاذ حسن جاد بقصيدة طويلة وكان مما قال :

سَلِ الأَزْهَرَ المَعْمُورَ مَا بَالُهُ اغْتَدَى ** مِنَ الهَوْلِ مَغْشِيًا عَلَيْهِ وَغَاشِيَا
تَلَاطَمَ فِيهِ الدَّمْعُ حَتَّى كَأَنَّمَا ** مَآذِنُهُ أَيْدٍ تَصُدُّ الأَوَاذِيَا
تَلَقَّاهُ مَحْمُولاً مُسَجَّى وَكَمْ غَدَا ** إِلَى سَاحِهِ بِالأَمْسِ جَذْلَانَ سَاعِيَا
مَضَى بِاسْمِهِ مَنْ رَاحَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ ** وَيَنْفَحُ بَاكِسْتَانَ مِنْهُ غَوَالِيَا
فَفِي ذِمَّةِ الرَّحْمَنِ سَاعٍ لِرَبِّهِ ** لِيَلْقَاهُ مَرْضِيًا عَلَيْهِ وَرَاضِيَا(١)

رحم الله الشيخ رحمة واسعة وجزاه عن دينه خير الجزاء

. . . .

---

(١) نشرت القصيدة بمجلة الأزهر عدد رجب سنة ١٣٧٧هـ صـ ٦٢٩، صـ ٦٣٠ .

الفصـــــل الأول

الإعجـاز ا للغـوى للقرآن

عنـد

الدكتـور : دراز

ويشتمل على ستة مباحث

المبحث الأول :ـ لمحـة عن الإعجـاز

المبحث الثانى :ـ أمور فرق بينها الشيخ قبل الحديث عن الإعجاز اللغوى

المبحث الثالث :ـ الإعجاز اللغوى بين الذوق والمعرفة

المبحث الرابع :ـ وقفات مع الحائرين فى أمر الإعجاز اللغوى

المبحث الخامس:ـ الإعجاز اللغوى وعلى أى وجـه أداره الشيخ

المبحث السادس:ـ من جوانب الإعجاز اللغوى عند الشيخ

أ ـ البناء الصوتى " القشرة السطحية "

ب ـ البناء المعنوى للقرآن فى قطعة قطعة منه،وخصائصه البيانية٠

المبحث الأول

لمحة "عن الإعجاز"

الإعجاز حجـة القرآن ، ولسانه المنادى بألوهية مصدره، وهو سمة كامنة فى بنائه منذ نزل وإلى أن يقضى الله أمره؛ ذلك أن الله أنزله معجزة للأولين والآخرين تحدى به صناع الكلام ، وفرسان البيان ٠ فدعاهم إلى الإتيان ولو بسورة من مثله ، ولكنهم أيقنوا منذ نزل أنه ليس صنعة إنسانية ، وإنما هـو رسالة بيانية أرسلتها السماء لهداية البشريـة ولاسبيل لمعارضتها، وبذا صار أمر الإعجاز محسوما فى نفوسهم ، فآثروا حرب السيف على حرب البيان، وكان أعظم همهـم ٠ أن يحولوا دون سماع هذا القرآن الذى أخذ يبسط سلطانـه حيث يصل صـدى صـوته ٠

وكان صمتهم أمام هذا التحدى أبـرز دليل على إدراكهم لإعجاز القـرآن ، ومباينـة أسلوبه لأساليبهم ، بل ربما كان هذا الإدراك الفطرى وراء تأخـر البحث فى أمر الإعجاز؛ إذ لم يتعرض له الصحابة ، والتابعون ــ رضوان الله عليهم ــ؛ لأن إدراكـه كـان أمرًا مغروسا فى نفوسهم،ولأنهم "كانوا ينظرون إلى القرآن نظرة إجلال وتقديس وتهيب لمقامه وصون لذاتـه"(١)

أما البحث فى الإعجاز، وتحوله إلى قضية تعددت فيها الآراء والأقوال ــ فقد ابتدأ منذ أواخر القرن الثانى الهجرى تقريبا ؛ حيث " سرت إلى الأمـة عوامل التشكيك فى عظمتها وعقيدتـها بفعل التنافس بين أصحاب هذا المجـد ، وبين أبناء الأمم ،واستعار الحركـة العنصرية التى عرفت بالشعوبية ، والنشاط الفكرى الذى أثاره امتزاج الثقافات"(٢) وزادت الطعون من الملاحدة فى إعجاز القرآن ، فزعموا أن لافرق بينه وبين كلام العرب حتى " "أفضت الجرأة يوما إلى رجل من أواخر الدولة الأموية يقـال له : الجعد بن درهـم"٠٠(٣)

---

(١) مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجـرى د٠ أحمد جمال العمرى ط: دارالمعارف صـ ٤٣ (د/ت)٠

(٢) البيان العربى ،دراسة تاريخية فنـية فى أصول البلاغة العربية ،د/بدوى طبانة، مطبعة الرسالة الطبعة الثانية ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م صـ١٤ ٠

(٣) مؤدب مروان الحمار وكان الجعد أول من تفوه بأن الله لايتكلم ٠ وقد هرب إلى الشام ويقـال إن الجهم بن صفوان أخذ عنه مقالة خلق القرآن ،وأصله من "حران" وقد أخذ الجعد عن أبـان بن سمعان، وأخذ أبان عن "طالوت" اليهودى،وأخذ طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودى، وكان يقو ل بخلق التوراة وقد ذبح خالد القسرى الجَعْدَ بن درهم فى حدود ١٢٠هـ (الوافى بالوفيات /١١ـ٨٦)

فكذب القرآن فى إتخاذ إبراهـيم خليلا ؟ وفى تكليم موسى ، وكان من قوله : إن فصاحـة القرآن غـير معجزة ، وإن الناس قادرون على مثلها ، وأحسن منها" (١)٠ وهو ماعـرف بمذهب " الصَّرْفَـة " الذى يزعـم أصحابه أنه لولا صرف الله الناس عن معارضة القرآن لأتـوا بكـلام مثلـه أو يفوقـه ٠

وبعـد ظهور مذهب " الصرفـة " الذى يسلب القرآن أعظم سماته وهو " الإعجاز البيانى ـ نهض العلماء لرده ، وكان أعظم رد هو ابراز بلاغة القرآن العالية التى فـاق بـها بلاغة العرب ؛ لأن ابـراز هـذه البلاغة دحض لمذهب الصرفة ٠ كما ظهر بجوار الصرفـة مذاهب أخرى دفعـت بقضية الإعجاز إلى الظهور على ساحـة الفكر فى هذا العصر ، فأخذت تحتل مساحة واسعة من فكـر وتأليف علماء الأمة ، ومامن قرن إلا أسهم علماؤه بجهـدهم فى القضـية ٠

ففى القرن الثالث وضع الجاحظ ت ٢٥٥هـ(٢) كتابه " نظم القرآن " ، كما وضـع أبو عبد الله الواسطى (٣) ٣٠٦هـ كتابه "إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه" وهما مفقودان ٠

وفى القرن الرابع خصص القاضى عبد الجبار ت ٣١٥هـ (٤) جزءًا من كتابـه " المغنى " لشرح إعجاز القرآن ومايتعلق به، ثم ألف الرمانـى ت ٣٨٤هـ (٥) كتابـه

---

(١) مقدمة الشيخ محمود شاكر لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبى ط دار الفكر بيروت الطبعة الرابعـة ١٤٠٧ ١٩٨٧م صـ ٤٢ ٠

(٢) عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء أبو عثمان الشهير بالجاحظ كبير أئمـة الأدب له تصانيف كثيرة منها ـ "الحيوان " " البيان والتبين " مولده ووفاته فى البصرة مات والكتاب على صدره وتوفى عـام ٢٥٥هـ ٠ وفيات الأعيان ٣/٤٧٠ ـ الأعلام (٥ / ٢٣٩) ٠

(٣) محمد بن زيد بن على بن الحسين الواسطى البغدادى " أبو عبد الله " كان من كبار المعتزلة أخذ عـن أبى على الجبائى وكان فى زمانه عالـى الصيت وتوفى بعـد أبى على بأربع سنين قبل سـنة ست وثلاثمائة وله كتاب " إعجاز القرآن فى نظمـه وتأليفـه " وكتاب " الإمامـة " الوافى بالوفيات (٣/٨٢) معجم المؤلفين (١٠/١٣)٠

(٤) عبد الجبار بن أحمد بن عبدالجبار الهمذانى٠ قاض أصولى؛كان شيخ المعتزلة فى عصره وهم يلقبونه قاضى القضاة ولى قضاء "الـرى" ومات فيها وله تصانيف كثيرة منها"تنزيه القرآن عن المطاعـن" و" الأمالـى وتوفى عام ٣١٥هـ الأعـلام (٤/٤٧) ٠

(٥) على بن عيسى بن على بن عبدالله ابوالحسن الرمانى باحث معتزلى مفسر من كبار النحاة أصلـه من "سامراء" ومولده ووفاته "ببغداد ، وله نحو مائة مصنف منها " معانى الحروف " " المعلوم والمجهول" ولـد عـام ٢٩٦هـ، وتوفى فى ٣٨٤ هـ ٠ وفيات الأعيان (٣/٢٩٩) والأعلام (٥/١٣٤) ٠

" النكـت فى إعجاز القرآن " ، وألف الخطابى (١) ٣٨٨هـ " بـيان إعـجاز القرآن " ثم جاء الإمام الباقـلانى ت ٤٠٣هـ (٢) فوضع كتابه "إعجاز القرآن " الذى عـده بعضهم أفضـل ماكتب فى الإعجاز فى عصـره ٠

وفى القرن الخامس يأتى الإمام عبد القاهر ت ٤٧١هـ (٣) على هامة المهتمين بأمر الإعجاز ؛ حيث وضع كتـابه " دلائل الإعجاز" خدمـة للقضية ٠ ثم يلخـص الرازى فى القرن السادس ت ٦٠٦هـ(٤) جهد الإمام عبدالقاهر ويضيف إليه فى كتابه " نهاية الإيـجاز فى درايـة الإعجـاز" ٠

وفى القرن السابع قـدم ابن أبى الإصبع ت٦٥٤هـ(٥) كتابه : " بد يـع القـرآن" ٠ ثم يهل القرن الثامن ليلخص بدر الدين الزركشى ٧٠٨هـ(٦) أقوال العلماء فى الإعجـاز فى كتابه:"البرهان فى علوم القرآن " ، ويكتب العلوى ت ٧٤٩هـ(٧) " الطراز المتضمن لأسرار البلاغـة وحقائـق الإعجـاز " ٠

(١)حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستى أبو سليمان فقيه محدث من نسل زيدالخطاب أخى عمر بن الخطاب له " معالم السنن " وبيان إعجاز القرآن " ولد عام ٣١٩هـ وتوفى عام ٣٨٨هـ
وفيات الأعـيان (٦٩/٢) والأعـلام (٢ ٣٠٤)

(٢)محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر قاض من كبارعلماء الكلام انتهت إليه الرياسة فى مذهب الأشاعرة ولد فى "البصرة "وسكن بغداد فتوفى فيها ومن كتبه " إعجاز القرآن " ، ودقائق الكلام " وغيرهـا ولد عام ٣٣٨ هـ وتوفى ٤٠٣هـ ٠ وفيات الأعـيان (٢٦٩/٤) والأعـلام (٤٦/٧)

(٣) عبدالقاهربن عبدالرحمن بن محمد الجرجانى ،واضع أصول البلاغة،كان من أئمة اللغة من أهـل " جرجان " ومن كتبه (أسرارالبلاغة) و(دلائل الإعجازتوفى فى عام ٤٧١ الأعلام(١٧٤/٤)٠

(٤) أبو جعفر محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الحسن الرازى المولد الملقب بفخر الدين،فاق أهـل زمانه فى علم الكلام والمعقولات،له التصانيف المفيدة فى فنون عديدة منها" تفسير القرآ ن الكريـم " ونهاية العقول " ولد عـام ٥٤٤ وتوفى فى ٦٠٦هـ ٠ وفيات الأعـيان (٤/ ٢٤٨)

(٥) عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبى الإصبع العدوانى،شاعر من العلماء بالأدب،مولـده ووفاته " بمصر" له تصانيف حسنة منها " بديع القرآن " و" تحرير التحبير" ولد عام٥٨٥هـ وتوفى عام٦٥٤ه
الأعـلام (١٥٦/٤)

(٦) محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشى أبو عبدالله بدرالدين،عالم بفقه الشافعية والأصول،تركـى الأصل مصرى المولد والوفاة، له تصانيف كثيرة فى عدة فنون منها" البحر المحيط"والبرهان فى علوم القرآن" وغيرها توفـى فى ٧٩٤هـ الأعـلام (٢٨٦/٦)

(٧) يحيى بن حمزة بن ابراهيم الحسينى العلوى،من أكابر أئمة الزيدية وعلمائهم فى اليمن،ولد فى " صنعاء" وأظهر الدعوة بعد وفاة المهدى،له مؤلفات منها" الطراز المتضمن لأسرار البلاغة والإعجاز " ولـد عام ٦٦٩ وتوفى فى ٧٤٥هـ الأعـلام (١٧٤/٩)

وفى القرن التاسع ينقل الإمام السيوطى ت ٩١١هـ(١) كلام العلماء فى الإعجاز فى كتابيه " الإتقان فى علوم القرآن " " ومعترك الأقران فى إعجاز القرآن " ٠

وفى العصر الحديث يأتى على هامة الباحثين فى أمر الإعجاز الإمام محمد عبده ١٩٠٥ ، والإمام الرافعى ١٩٣٧م(٢)، والدكتور محمد عبدالله درلز، مع كوكبة أخرى من علماء العصر٠(٣) ٠

ولم يكتب أحد في أمر الإعجاز إلا وهو يستقل جهد من تقدمه ، ويظن أنه لم يروغلة ولم يكشف عما يلتبس فى القضية ، ثم يحاول هو أن يكشف ماعجز غيره عن كشفه ٠ إلا أن أمر الإعجاز أكبر من أن يحيط به عقل ، أو يضع يده عليه باحث ٠ وهذا من وجوه إعجاز القرآن ٠(٤)

---

(١)عبدالرحمن بن أبى بكربن محمد بن سابق الدين الخضيرى إمام حافظ مورخ أديب له نحو ٦٠٠مصنف منها الكتاب الكبير نشأ فى القاهرة يتيما من كتبه " الإتقان فى علوم القرآن " و " الأشباه والنظائر" ولد فى ٨٤٩ وتوفى عام ٩١١هـ ٠ الأعلام (٧١/٤)

(٢) مصطفى صادق بن عبدالرازق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعى عالم بالأدب ، من كبار الكتاب مولده ووفاته " بمصر " أصيب بصمم فكان يكتب له مايراد مخاطبته به ـ له" ديوان شعر وتاريخ آداب العربية " . الأعلام (١٣٣/٨)

(٣) يراجع فى التاريخ لقضية الإعجاز مقدمة الإعجاز البيانى د عائشة عبد الرحمن ط دار المعارف من صـ٢٠ ـ صـ٣١ ، ومقدمة د حفنى شرف لكتاب بديع القرآن لابن أبى الإصبع من صـ٣٤ـ٥٦، ومقدمة الشيخ شاكر للظاهرة القرآنية من صـ٢٧ـ صـ٥٠، وغيرها٠

(٤) يراجع مقدمة كتاب " من الإعجاز البلاغى للقرآن " أ٠د: صباح دراز ط دار التوفيقية للطباعة والنشر

والدكتــور دراز واحــد مــن الذين أراد لهــم القــدر أن يسهموا بجهدهم فى كشف جوانب من جلال وجمال إعجاز القرآن. وما أصعبها مهمة؛لأن صعوبتها نابعة من طبيعة الموضوع الذى تعالجه " الإعجاز "، فهو موضوع يحتاج باحثا عالما متذوقا ناقدًا قادرًا على الإفــادة من تجارب السابقين ، لاسيما أنه أمر توالت عليه أقلام العلماء . وقد أحــس الدكتور دراز بصعوبة هذه المهمــة ولذلك نجده يقول لمن يطلب منه أن يبرز الخصائص البيانيـــة التى انفــرد بها القــرآن :

" والله طلبت مــنا جسيما ، وكلفتنا مراما بعيــدًا ، لمثله انتدب العلماء والأدباء مــن قبلنا ، وفى عصرنا فحفيت دونه أقلامهم ، ولم يزيدوا على أن ضربوا له الأمثال، واعترفوا بأن ما خفى عليــــهم أكثر مما فطنوا له ، وأن الذى وصفوه مما أدركوا أقل مما ضاقت به عباراتهــم ولــم تقف به إشاراتهــم" (١)

وهــذا النص يفصح لنا عن جلال الموضوع وخطورة البحث فيه ، كما يوضح رأيه فى جهد من تقدمه : فهو لا يعد و ضرب الأمثال ، ووصف الإحساس — وهذا لايعنى أنه ينتقص جهــد هؤلاء الأئمــة ، وإنما يريد الإبانــة عن وعــورة المسلك، وخفاء معالمه. وقــد ذكر هــو أنه ليس بدعا من هؤلاء ولن يسلك سبيلا غير سبيلهم فقال رحــمه الله :—

" ونحــن وقد أفضت إلينا النوبة من بعدهم هل تحسب أننا سنسلك سبيلا غيرسبيلهم فنزعم أننا فى هذه العجالة سنبرز لك سر الإعجاز جملة ؟ كــلا ، ولا استقراء ماكشفـــه الناس من جوانبه ، كلا، ولاستقصاء مانحسه نحن من تلك الجوانب ، وإنما نريد أن نصور لك بعض تلك الخصائص التى تلاقينا من كتاب الله كلما سمعناه ، أو تلوناه وتدبرناه "(٢)

وكلامه لا يعنى أنه كان مقلدًا ، أو لم يأت بجديد فى قضية الإعجاز ؛ لأن سلوك سبيل المتقدمين لا يقتضى التقــيد بما ذكروا. فالأهم من ذلك طبيعة السالكين ، واختــلاف مناهجهم وقدراتهم على الكشف عن خصائص الإعجاز؛ وفى هذا يكون مناط التفاوت بين عالم وآخر ، وإن اتفقــوا جميعا فى عجزهم عن إبراز سر الإعجاز أو استقراء جوانبـــه، أو استقصاء مايحسه كل واحــد منهــم من هــذه الجوانب .

---

(١) النبأ العظيم ط دار القلم . الطبعة السابعة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م صـ١٠١ .

(٢) السابق ، الصفحة ذاتهــا .

المبحث الثانى

أمور فرق بينها الشيخ قبل الحديث عن الإعجاز اللغوى

أ – بين الإعجاز ودلائل أخرى على مصدر القرآن

ب – بين الإعجاز والتحدى .

بين الإعجاز ودلائل أخرى على مصدر القرآن

يفصل الشيخ في حديثه بين الإعجاز وبين دلائل إثبات كون القرآن من عند الله، كما يفصل بين جهة الإعجاز وجهة التحدي؛ ذلك أنه كتب عن القرآن وعينه على أمرين : الأول : الوصول إلى الحق في شأن هذا القرآن ، والثاني : نعت القرآن بحليته ،وخصائصه ورسم الخطة التي ينبغي سلوكها في دراسته (١)

فمن أجل الوصول إلى الحق في شأن القرآن وبيان أنه من عند الله ــ ذكر من الدلائل ــ والبراهين مايقطع بألوهية مصدره ، سواء أكانت هذه الدلائل نابعة من اعترافه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأنه بشر يتبع مايوحى إليه ، أم كانت نابعة من حياته الخلقية ، أو سيرته الذاتية ، أوصلاته العلمية ، أو من سائر الظروف العامة والخاصة بنزول القرآن (٢)٠

---

(١) يراجع مقدمة النبأ العظيم صـ ٨، ٩ ٠

(٢) ذكر الشيخ في كتابه " النبأ العظيم " من الدلائل القاطعة ، مايكاد ينفرد به ، فمن هذه الدلائل: اعترافه ــ صلى الله عليه وسلم بأنه بشر يتبع مايوحى إليه ، ومنها أنه كانت تنزل به النوازل من شأنها أن تحفزه على القول لو كان القرآن من عنده كما حدث عندما اتهمت زوجه عائشه ــ رضي الله عنها ــ بالزنا وتأخر الوحي شهرًا والنبي صامت لايقدر على الرد ولو كان القرآن من عنده لأخرس ألسنتهم بكلمة واحدة صـ٢٣، ٢٤ ، ومنها آيات التقريع والعتاب له ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولو كان القرآن من عنده لأخفاها عن الناس ولكنه الوحي لايستطيع إخفاءه صـ٢٥، ومنها أنه كان يجيئه الأمر المجمل لايتبين تأويله حتى ينزل الله عليه بيانه كما في قصة " الحديبية " ، وكما حدث من الصحابة عند نزول قوله تعالى" لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ " (البقرة/٢٨٤) فشق ذلك على الصحابة فاشتكوا لرسول الله فأمرهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا فأخذوا يتضرعون حتى أنزل الله " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ــ الى آخر السورة، فأي عاقل توحى اليه نفسه كلا ما لايفهم هو معناه؟ صـ٢٨، ٢٩ ٠ كذلك بعض النبوءات التي تتعلق بمستقبل الإسلام في نفسه أو شخصه ، أوكتابه ، أو مايتعلق بمستقبل الحزبين : المؤمنين والكافرين، وكلها نبوءات ليست من جنس ماتوحي به الفراسة والألمعية صـ٤١، ٤٢، إلى غير ذلك من الدلائل القاطعة ٠

وهـى دلائل يقبلها كل عقل ناقد باحث عن الحق بإنصاف ، ويكاد ينفرد بذكرها الشـيخ٠
وإن كان الإمام الباقلانـى ٤٠٣هـ قد دلل ـ من قبل ـ على كون القرآن من عنـد الله اعتماداً "على النقل المتواتر الذى يقع عنده العلم الضرورى وعلى قيامه ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فى المواقف المختلفة ، وكتابته به إلى البلاد ثم قال : " ولن يتشكك أحد ولا يجـوز له ان يتشكك مـع وجود هذه الأسباب فى أنه أتى بهذا القرآن من عند الله ٠ فهذا أصل (١)
إلا إن دلائل الإمام الباقلانى ربما لاتكون كافية حين نواجه مـن ينكـرون النقـل ويعتمدون على العقل وحده فى حسم قضاياهم ، ولذلك ارتكز الدكتور دراز علـى الدلائـل العقلية والمنطقيـة التى لاتتطلب من القارىء أكثر من إنصافه فى طلب الحـق ٠

والمهم أن هذه الدلائل لاتمس حقيقة الإعجاز ولا تكشف عن جهته ، وإنما تكفى فـى التدليل على مصدر هذا القرآن ، ولذا يقول الشيخ بعدما عرض لهذه الدلائل :
" وبعـد فإننا فى هذا المنهج الذى سلكناه من أول البحث إلى هذا الحد ، لـم نُـرد أن نعرض للقرآن فى جوهره ، بل كان قصارى ماصنعناه : أننا درسنا الطريـق الـذى جـاء منها، فما وجدنا فى اعترافات صاحبه ، ولا فى حياته الخلقية ، ولا فى وسائله ،وصلاتـه العلمية ، ولافى سائر الظروف العامة والخاصة التى ظهر فيها القرآن ـ إلا شواهد ناطقـة بأن القرآن ليس على ظهر الأرض أب ننسـبه إليه من دون الله ، وتلـك كلـها دراسـات خارجية إنما يسلكها رجل وقف معنا علـى طـرف صـالح مـن هـذه الحيـاة النبويـة وملابساتها"(٢)
فهى ـ كما نرى ـ دلائل خارجة عن جوهر القرآن لا تبين عـن إعجـازه، وهـى تتطلب من المخاطب بها أن يكون على علم بحياة النبوة وملابساتها؛ حتى يضع الأمر فـى نصابه، ويؤمن بالنبى ومصدركتابه ،كما أنها دلائل صالحة للحديث مع الملاحدة والطاعنين؛ لأن بيان خصائص الإعجاز لايصلح فـى مواجهتـهم ؛ فـهم لايؤمنـون بـأصل القـرآن ولابمصدره٠

---

(١) إعجاز القرآن للإمام الباقلانى شرح وتعليق د محمد عبدالمنعم خفاجى ط دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م صـ٦٤،صـ ٦٥
(٢) النبأ العظيم صـ ٧٦، صـ ٧٧ ٠

أما الإعجاز فهو أمر آخر تابع من القرآن وليس خارجا عنه ؛ فهو حجة القــرآن مــن نفسه لنفسه وصوته المنادى بأنه ليس من صنع البشر" حتى إنه لو وجد فى الصحراء لأيقــن الناظر فيه أنه ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته ، وإنما كان مــن أفــق السـماء مطلعــه ومهبطه " (١)

ولهذا الإعجاز وجوه كثيرة ، منها ما يغنى فى مخاطبة العرب والعجم ، و منها مــا لا يغنى إلا فى مخاطبة أصحاب الذوق والمعرفة من العرب والمسلمين وهو: إعجازه البيـانى . وهذه التفرقة بين الدلائل ، وبين الإعجاز ـ لا تعنى أن الإعجاز لا يصلــح دليــلا علــى مصدر القرآن ، بل هو أعظم دليل من جوهر القرآن ـ على حقيقــة مصــدره ، وإن كــان إعجازه البيانى يتطلب ذوقــا وبصيرة بيانية قادرة ، ولذلك أرجـأ الشيخ الحديث فيه إلــى أن انتهى من دلائله الخارجية ، كما أن المفسرين ركزوا على جانب الإعجاز البيانى للتدليــل على مصدر القرآن ؛ لأنه الوجه الأقرب إلى سائر البلغاء .

يقــول الشيخ : " وإذا كان المفسرون التقليديون أنفسهم توصلا إلى الهدف نفسه [يريــد بيان مصدر القرآن] قد أكدوا بصورة خاصة على الجانب الأدبى من المسألة ؛ فــإن هــذا الموقف-على كل حال-يجد تفسيره وما يسوغه فى السمة الأعم للقرآن ، تلك الســمة التــى تميز هذا الأسلوب القرآنى فى جمال لا يضاهى وجلال مميز ، وبالإعتراف بــالعجز عــن الإتيان بمثله وهو الوجه الأقرب منالا لسائر البلغاء من البدو " (٢)

فالإعجاز دليل على ألوهية مصدر الكتاب الحكيم ، ومثله الدلائل الخارجيــة، ولكنــها ليست دليلا على الإعجاز .

---

(١) النبــأ العظــيم صــ ٧٧ .

(٢) مقدمة الدكتور دراز لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن بنى صــ١٠ .

{ب} بين الإعجاز والتحدى :

يفصل الشيخ كذلك بين جهة الإعجاز ، وجهة التحدى ؛ ذلك أن جهة الإعجاز واسعة تضم كثيرا من الوجوه التى أوصلها بعضهم إلى ثمانين . ذكر منها السيوطى ت ٩١١هـ خمسة وثلاثين وجها فى كتابه (معترك الأقران)، أما جهة التحدى فهى : بلاغة نظمه التى تحدى بها العرب ، ودعاهم إلى الإتيان ولو بسورة من مثله فعجزوا ، وكان عجزهم دليل إعجازه ؛ ولذا نجد الشيخ يقول بعد اختياره لثلاثة جوانب من إعجاز القرآن : " ولتكن عنايتنا أوفر بناحيته اللغوية ؛ لأنها هى التى وقع من جهتها التحدى بالقرآن جملة وتفصيلا فى كل سورة منه " (١)

وهذا يعنى أن جهة التحدى من وجوه الإعجاز ، بل هى مناط الإعجاز والتحدى ؛ أما الوجوه الأخرى فهى من إعجازه الذى لم يتحد به وفى هذا يقول الشيخ محمود شاكر : رحمه الله :ـ

" إن التحدى الذى تضمنته آيات التحدى من نحو قوله تعالى:(.. قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " (هود/١٣) ، وقوله:" قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا " (الإسراء/٨٨) إنما هو تحد بلفظ القرآن ، ونظمه ، وبيانه ، لا بشئ خارج عنه ؛ فما هو تحد بالإخبار بالغيب المكنون ، ولا بالغيب الذى يأتى تصديقه بعد دهر من تنزيله ، ولا بعلم مالا يدركه علم المخاطبين من العرب ولا بشئ مما لا يتصل بالنظم والبيان " (٢) . وجهة التحدى ماثلة فى القرآن كله جملة وتفصيلا ؛ فقد تحداهم الله أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة واحدة من مثله ، لأن مناط التحدى وهو النظم ماثل فى كل ذلك ، أما سائر أنواع إعجازه فليست بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن .

---

(١) النبأ العظيم صـ٧٦ .

(٢) مقدمة الظاهرة القرآنية . للشيخ شاكر صـ٢٥ .

وإذا كان الشيخ يرى أن الإعجاز حجة القرآن من نفسه لنفسه ، فهـذا يعنى أنه يقصد من معرفة الإعجاز ـ الإنطلاق إلى ثمرته وهدفه وهو الإيمان بهذا القـرآن ، ومصدره ، والمرسل به ، وقد ذكـر هذا والده الشيخ عبد الله دراز فى تعليقه على كـــلام الامام الشاطبى ٧٩٠ هـ (١) فقـــال :

" فالإعجاز الذى يترتب على فصاحته يقصد به أثره وهو رجوعهم بسبب العجز إلى تصديقه والتفهم فى مراده " (٢)

وإذا كان والده يجعل التصد يق والتفهم ثمرة للإعجاز المترتب على فصاحته ، فقـد جعله الدكتور دراز ثمرة للإعجاز بوجه عام ، ومقصودًا له بمعنـاه المطلق ، وإن جـاء الإعجاز البيانى على هامة وجوه الإعجاز لأنه مناط التحدى .

---

(١) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الغرناطى الشهيد بالشاطبى أصولى حافظ من أهل " غرناطـة " كان من أئمة المالكية من كتبـه " الموافقات فى أصول الشريعة " شرح كتاب البيوع من صحيح البخارى " توفى عام ٧٩٠هـ الأعـلام (٧١/١)

(٢) من كلام الشـيخ عبد الله دراز فى تحقيقه لكتاب الموافقات للإمام الشاطبى ط دار الكتـب العلمية بيروت م ٢ جـ٣ صـ ٢٨٩ (د /ت د/ط) .

المبحـــث الثالـــث

الإعجاز اللغوى بين الذوق والمعرفـــــــة.

ســـر الإعجاز ســـر لاسبيل إلى كشفه ، أولا الإحاطه بوصفه ، أو نقله مـــن نفس إلى نفس . وهذه حقيقة سجلهـــا من كتب فى الإعجاز ، ولكـــن النفس الذواقة البصـــيرة التى اختلطت أساليب العرب بدمائها قـــد تدرك شيئـــا من جوانب هذا الإعجاز وإن لم تحط به وهذا ما آمـــن به الدكتـــور دراز .رحمه الله حـــيث يقـــول :ـــ

" أتريـــد أن نبرز للناس ســـر الإعجاز جملة ؟ ذلك مالاسبيل لنقلـــه من نفـــس إلى نفس، ولامـــن حس إلى حس . وهـــل ينتقل طعم الشهـــد ، ورائحـــة الورد، وحسن النغم بوصفها لغير من وقعـــت تحت حسه وسبـــق له الإحساس بها ؟ بل نقول: هـــل يستطيع واجدهـــا أن يصفها لنفسه وصفا شافيا ويحددها تحديـــدًا تاما ؟ .. لئن كنت حقـــا تستطيع أن ترجـــع إلى نفســـك ، لقـــد وقفـــت إذن والله على بـــاب الإعجـــاز ـــ وإن خفت عليك أسراره وأسبابه حتى تحيط بها ـــ فإن كنت تطمع من وصف الواصفين فى الوقوف علـــى هـــذه الأسرار والأسباب جملـــة ، فقـــد أتيت البيـــوت من غـــير أبوابـــها ، وطلـــبت حاجـــتك عند غير أربابها"(١)

وهذا النص يحمل دلالات عديدة فى فقه معنى الإعجاز ، وسبيل إدراكه عند الشيخ وأولى هذه الدلالات : أن الإعجاز معنى تدركـــه النفس البصيرة وتحسه ، ولكن الإشكال الحقيقـــى يتمثل فى وصف هـــذا الإدراك ، أو نقله من نفس إلى نفس. فهذا مالاســـبيل إلى الإحاطه به، بل إن هذا الإدراك لايستطيع واجده أن يصفه لنفسه وصفا شافيا ،أويحدده تحديـــدًا تامـــا. وهو يومـــىء إلى ماذكر الزركشى ٧٩٤هـــ عن بعضهـــم :أنـــه ســـئل عن موضع الإعجاز من القـــرآن فقـــال :

" هـــذه مسألة حيف فيها على المفتى وذلك أنه شـــبيه بقـــولك : ماموضع الإنســـان من الإنسان ؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان بل متى أشرت إلى جملتـــه، فقد حققتـــه ودللـــت على ذاته ، كذلك القـــرآن ـــ لشرفه ـــ لايشار إلى شىء منه ـــ إلا وكـــان ذلـــك المعنى آية فى نفسه ، ومعجزة لمحاوله، وهدى لقائله وليس فى طاقة البشر الإحاطـــــة بأغراض الله فى كلامـــه وأســـراره فى كتابـــــه "(٢)

---

(١) النبـأ العظيم : تكملـة الجـزء الأول صـــ٢٠ مخطوط

(٢) البرهان فى علوم القرآن تقديم وتعليق: مصطفى عبدالقادرعطا،ط دار الفكر بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـــ ـــ ١٩٨٨م جـــ٢ صـــ ١٠٩ .

وقـد ضـرب الشيخ مثلا تقريبيا بأنه لاينتقل طعم الشهد ، ورائحه الورد ، وحسن النغـم لغير من وقعت تحت حسـه ، وقـد اختار الشيخ من المدركات مايقع على اللسان، أو الأنـف ، أو الأذن ، ولـم يختر شيئا مما يقـع تحت البصر؛ ولعـل ذلك راجع إلى أن المبصرات يسـهل على المتكلم وصفها وتحديدها ، ويسهل على السامع إدراكها، وتخيلها ؛ لأنها تقـع تحت بصـره .

ثم إنـه قـدم مايخـص الذوق على مايخـص الشـم ، والسمع ؛ لأن " حاسـة الذوق لاتعمل عملها إلا إذا مسـت المصدر الخارجي مسـا مباشـرا، ولأنها تتطلب التفاعـل الحيوى بيـن المـذوق والذائـق ، ولذلك اختارتـه سـائر شعوب الأرض دون الحواس الأخرى لترمز بـه إلى المعرفـة التى يحصلـها الإنسـان بالاتصال المباشـر بالشيء المعروف.(١)

الدلالـة الثانيـة : أن القـدرة على الرجوع إلى النفس وقـوف على باب الإعجاز، والطمع فى الوقوف على أسراره من وصف الواصفين ـ إتيان للبيت من غير بابه .

ولايكـون الرجوع إلى النفس فى أمـر الإعجاز إلا عند امتلاكـها أدوات الـذوق والمعرفة، والقـدرة على التمييز بين الأنمـاط البيانية المختلفة.وقـد جعل الشيخ هـذا الرجـوع وقوفـا على باب الإعجـاز لاعلى أسراره وأسبابـه، ـ وهو كذلك ـ ؛ لأن الرجـوع إلى النفـس باب يدخـل منه المـرء إلى النظر والموازنـة بين بيان الأرض، وكـلام الله للوقـوف على جهـة المباينـة التى عـلا بها القرآن ، وإذا طمـع أحد فى الوقوف على جهـة المباينة من وصـف أحـد الواصفـين ـ فقـد أتى البيـت من غير بابه ، وهـو أمر حرمته شريعة القـرآن ، وكـذلك محاولـة الوقـوف على الإعجـاز من غـير سبيله أمر تحرمـه شريعة البيان ولايستطيـع أن يأتيـه إنسـان .

---

(١) انظر فى فلسفة النقد د. زكى نجيب محمود ط : دار الشروق ـ الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م صـ ٢٥ ، صـ ٢٦ .

واعتبار الشـيخ الرجوع إلى النفس وقوفـا على باب الإعجاز ، ليشير إلى أن الذوق البصير الذى أصقلتـه التجربـة والإحاطـة بأساليب العرب ـ هو سبيل الوقوف علـى هذا الإعجـاز وهـى حقيقـة رددهـا من كتـب فى الإعجاز، وكـلام الشيخ يومى إلى ما أحس عبد القاهر والسكاكـى.

فالإمـام عبد القاهـر ت ٤٧١هـ يذكـر " أنه لايصادف القول فى هذا الباب موقعا من السامع،ولايجد لديه قبـولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفـة".(١)

والإمام السكا كى ت ٦٢٦هـ يقول :" ومدرك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا ، وطريق اكتسابه هو طول خدمة هذين العلمين"(٢) [يريد المعانى والبيان]

والإمـام الزمخشرى ت ٥٣٨هـ من قبل ـ قـد جعل علمى المعانى ،والبيان الأساس الذى لايقدر رجل على الغوص على لطائف القرآن ودقائق أسراره ، إلا إذا برع فيهما،وتمهـل فى ارتيادهـمـا آونـة ، وتعب فى التنقير عنهـا أزمنـة ، وبعثته علـى تتبع مظانهمـا همـة فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعـد أن يكـون آخـذا من سـائر العلـوم بحـظ." (٣)

واكتساب الذوق لايكون إلا بطول خدمة " المعانى والبيان " بمفهومها الأدبى الذوقـى الواسع المعتمد على تفرس أساليب العرب ، ومناهج بيانها وبنائها للمعانى ، أما دراستهـا " قاعدة ومثالا " فهى دراسة لاتكسب ذوقا بقدر ماتكسب ضبطا عقليا للمسائل البلاغيـة.

يقول الكتور : على العمارى : " إن هذين العلمين على ماوضعهما السكاكى لايكسبان ذوقا، بل إنهما يفقدان الذوق عند دارسهما إن كان له ذوق ... وذلك أن اكتساب الذوق يكـون عن طريق دراسة آثار العرب، وحكمهم وأمثالهم وأخبارهم دراسة واعية بعيدة عن تعقيدات وتعمقـات الفلسـفة" (٤)

---

(١) دلائـل الإعجـاز

(٢) مفتاح العلـوم للإمام السكاكى ت : نعيم زرزور ط: دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانيـة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م صـ ٤١٦ .

(٣) الكشاف للإمام الزمخشرى . ضبطه:مصطفى حسين ط: الريان للتراث الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م جـ١ صـ ن من المقدمة

(٤) قضية اللفظ والمعنى وأثرها فى تكوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكى د: على العمارى.أميرة للطباعة ، الطبعة الأولى:١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩ م صـ ٤٠٣ ، صـ ٤٠٤

وهذه هي الوجهة التي ارتآها الشيخ دراز في نظرته لقواعد البلاغة ، فهي عنده لاتمنح المرء قدرة على القول أو النقد ، وإنما هي كغيرها من قواعد العلوم، تعين وتضبط ، وتوجه وتقرب، وتضع أمام المرء عقول سلفه وتجارب حياتهم يقول الشيخ :

" فدراسة قواعد البلاغة كغيرها من قواعد العلم لاتكسب النفس ملكة الفن ، وإنما هي توجه النفس المستعدة ، وتعينها ؛ فإن في عرض تجارب السلف على الخلف وماأجمعوا على صوابه أو خطئه ، وعلى حسنه أو قبحه ـ توفيرا لمهمة الطالب وحفظا لوقته أن يضيع سدى في تجارب قد قضي فيها بالخطأ أو الصواب، أو بالقبح أو الحسن ، ليتفرغ للتهذيب والابتكار "(١)

فهو لاينكر أن يكون للبلاغة إسهامها في تكوين ملكة الفن ، أو في فهم إعجاز القرآن ، وإنما ينكر أن يقوم بهذا الدور ـ دراسة قواعد البلاغة . وفرق بين البلاغة وبين قواعد البلاغة ؛ فالبلاغة بمفهومها المتسع لدراسة أساليب العرب ومناهج بيانهم قادرةٌ على العطاء في ميدان تكوين الذوق ، وفهم الإعجاز . وكلما ازدادت خبرة الإنسان بأساليب البيان ـ كان أقدر على تقدير البيان الإلهي ، وهذا كما يقول الدكتور دراز: " قد يبدو عجيبا أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ماتتكامل فيها قوته ويتسع بها علمه ، ولكن لاعجب ؛ فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيده لايزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذ عانا لعظمتها وثقة بالعجز عنها .. ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون ".(٢)

فالذوق عند الشيخ تثقفه المعرفة وتصقله وتنير الطريق أمامه ، وهذا الذوق المثقف البصير بألوان المعارف ودروب اللغة والأدب هو الدعامة التي ارتكز عليها علماؤنا ، واعتمدوها أساسا في فهم وتفرس النصوص والوقوف على خصائصها ودقائقها، وهو كذلك المرجع الأخير في كل نقد ، وهذا ماذكره ، الجاحظ ٢٥٥ .

---

(١) النبأ العظيم تكملة الجزء الأول صـ ٩٦، صـ ٩٧

(٢) النبأ العظيم صـ ٨١

وابن سلام ت ٢٣١هـ (١) وغيرهما من النقاد القدماء والمحدثين .(٢) وعلى هذا النهج سار الدكتور دراز .

وإذا كان الذوق أساسا فى إدراك الإعجاز ، فإن إحالة المخاطب إليه فى بيان خصائص هذا الإعجاز ــ هى فى الحقيقة " إحالة إلى مبهم عانت منه قضية الإعجاز منذ الأجيال التى كان يخاطبها الباقلانى ت ٤٠٣هـ ، وعانى منه الشعر والأدب ؛ لأن الإحالة إلى النفس والاعتماد على الذوق وحده ــ هو فى جوهره موقف حيرة يلوذ به الناظر حين لايكون قادرا على أن يفصح عما يجد ، وأن يبين عن علله، أو حين يضيق به مجال الحجة ، ويصعب عليه وصول البرهان " (٣)

فلا تكفى الإحالة إلى الذوق ، وإنما لابد من وضع اليد على الخصائص، والوقوف أمامها ، وعرض تفاصيلها ؛ حتى تكون معرفة المرء معرفة الصانع الحاذق الذى يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذى فى الديباج كما يقول الإمام عبد القاهر ت ٤٧١هـ (٤) ، وهو ماحاول الدكتور دراز أن يسير عليه فى دراسته لأمر الإعجاز .

---

(١) محمد بن سلام بن عبدالله بن سالم الجمحى أبو عبدالله إمام فى الأدب من أهل " البصرة "، أسند عن حماد بن سلمة ، وروى عنه عبدالله بن الإمام أحمد وغيره توفى " ببغداد " ٢٣١ هـ له " طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين " وكتاب " الفاضل " فى الأخبار ومحاسن الشعراء .
(الوافى بالوفيات (٣/ ١١٤) الأعلام (٧/ ١٦)

(٢) يراجع البيان والتبيين ت : عبد السلام هارون مكتبة الخانجى ط الخامسة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م جـ١ صـ ٢٠٠، وكتاب طبقات فحول الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحى ت الشيخ محمود شاكر ط دار المدنى جـ١ صـ٥،٧، وكتاب تربية الذوق البلاغى . د عبد العزيز عرفة ط:دار الطباعة المحمدية . ط:الأولى ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م صـ ١٦٨ ــ صـ ١٨٠ وكتاب النقد المنهجى عند العرب د/ محمد مندور ط:دار نهضة مصر صـ ١٠٢ .

(٣) الإعجاز البلاغى دراسة تحليلية لتراث أهل العلم د/ محمد أبو موسى . مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م صـ ١٥٨ .

(٤) يراجع دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر ت : الشيخ محمود شاكر ط:دار المدنى بجدة الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م صـ ٣٧ .

المبحث الرابـــــع

وقفـات مـع الحائرين فى أمر الإعجـاز اللغـوى .

أ ـ مع من ظـن نفسه قادرا على الإتيان بمثل أسـلوب القـرآن .

ب ـ مع عاجـز لايقـر بعجـز غيـره .

جـ ـ مع من يرى الإعجاز فى أمـر خارج عن القـرآن .

د ـ مع من يقول: من لايقدرعلىالإتيان بمثل بيان غيره لايقدرعلى الإتيان بمثـل أسلوب القرآن ـ لينفى قدسـية أسـلوب القـرآن .

هـ ـ مع من يقـول : نزل القرآن بلغـة العرب فأى جـديد فى لغتـه .

كـــان لخفاء أمر الإعجاز ، وتعذر حصر وجوهـــه ـ أثره فى كثرة الكلام وتعـــدد الآراء فى القضـــية وعلى كثرة مابدأوا وأعادوا إلا أنهم لم يكشفوا بعد سر الإعجـــاز يقـــول الإمام الخطابى ت ٣٨٨هـــ ٠

" قـــد أكثر الناس الكلام فى هذا الباب قديما وحديثا ، وذهبوا كل مذهـــب من القـــــول، وماوجدناهم بعد ذلك صدروا عن رى ؛ وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز"٠(١)

ويقـــول الإمام الســـيوطى ت ٩١١هـــ : " وأنهـــى بعضهم وجوه الإعجاز إلى ثمانين ، والصواب أنه لانهاية لوجوه الإعجاز كما قـــال السكاكـــى " ٠(٢)

وقـــد ســـار الدكتور دراز مع هذا الوجهـــة التى لاترى حصـــر وجوه الإعجـــاز، بل رأى أنه لايمكن سبر أغوار وجه واحد ، فضلا عن استقراء ماكتب فيه ، أواســـتقصاء أحاسيس الناس حوله ، ولـــذا فقـــد اختار من جوانب الإعجاز مايظهر أثره فى خدمـــــة قضيتـــه التى يسعى لها وهى الوصول إلى القول الفصل فى حقيقه القرآن ، فذكر ثلاثـــة جوانب هـــى : ـ

١ـ الإعجاز اللغوى ٠ ٢ـ الإعجاز العلمـــى ٠ ٣ـ الإعجاز الأدبى التشريعـــى ٠

وفى هـــذا يقـــــول :

" هـــا نحـــن أولاء ندعو كل من يطلب الحـــق بإنصاف أن ينظر معنا فى القرآ ن من أى النواحـــى أحب . من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذى أحدثه فى العالم وغيـــر به وجه التاريخ ، أو من تلك النواحى مجتمعه ، على أن تكون الخيرة بعد ذلك: أن ينظر إليـــه فى حدود البيئة والعصر الذى ظهر فيه، أو يفترض أنه ظهر فى أرقى الأوساط والعصـــور التاريخية ، وسواء علينا أن ينظر إلى شخصية الداعى الذى جاء بـــه،

---

(١) بيان إعجاز القـــرآن ، مطبوع ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ت د: محمـــــد زغلول سلام ط دار المعارف سلسلة ذخائر العرب الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـــ ١٩٦٨ م صـــ ٥ ٠

(٢) معترك الأقران فى إعجاز القرآن للإمام السيوطى، ضبطه أحمد شمس الدين ط: دار الكتب العلمية، الطبعـــة الأولى ١٤٠٨هـــ ١٩٨٨م جـــ١ صـــ٥

أو يلتمس شخصـــا خياليـــا تجمعت فيه مرانات الأدباء ، وسلطات الزعماء ، ودراســـات العلماء .. ثـــم نسأله : هــل يجد إلا قــوة شـــاذة تغلب كل مغالـــب ؟.. ثم تنقضــى الأجـــيال والأحقاب ولاينقضـــى مافيه من عجائـــب".(١)

وعلنا نلحـــظ أن الشيخ قدم ناحية الأسلوب على ناحية العلوم ، أو الأثر الذى أحدثه فى العالم ، مع أنه لايقدر على تقديرهـــا إلا المتناهون فى البلاغة والذوق ؛ وذلك لأنهـــا منـــاط التحدى والإعجاز لأصحاب البيان ، وغيرهـــم فى هذا الأمر تابع لهـــم .

وهذه الجوانب الثلاثة التى اختارها الدكتور دراز ـ قد اختارها الرافعـــى ١٩٣٧م وجوها للإعجاز، وأضاف إليها وجوها أخرى منها: الإعجاز النفسى ، والإعجاز الأسلوبى الذى يتمثـــل فى السمات البيانية التى انفرد بها القـــرآن. وهذا الوجه الأخير عند الرافعى يقابل الإعجاز اللغوى عند الدكتور دراز، أمـــا مفهوم الإعجاز اللغوى عند الرافعى: فهو يتمثل فى الأثر الذى أحدثه القرآن فى اللغة ؛ حيث جمع العرب على لغة واحدة ، وأعجز فطرتهم اللغويـــة ؛ بأن أعطاهـــم نموذج الكمال البيانى الذى يطمحون إليه ولاينالونه(٢)

وقـــد استوقف الإعجاز اللغوى فكـــر وذوق الدكتور دراز طويلا، حتى أقام معظم كتابـــه " النبأ العظـــيم " على دراسته ؛ لانتزاع الشبه التى أثيرت حوله ،والوقوف علـــى خصائصه التى انفرد بها القرآن ، أما الإعجاز العلمى ، فلم يخصص له دراسة ولم ينـــل من جهده حظا يذكر، وإنما أشـــار إلى جانب منه يتعلـــق ببعض الكشوف العلمية الحديثه، وذلك فى كتابـــه " المدخـــل إلى القـــرآن الكريـــم " (٣)

---

(١) النبـــا العظـــيم صـــ ٧٨ ومابعدهـــا .

(٢) يراجع إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، لمصطفى صادق الرافعى ط : دار الكتاب العربى بيروت الطبعة التاسعة ١٣٩٣هـــ ١٩٧٣م صـــ ١٤، صـــ٢٤، صـــ ٩٣ . وتراجع رساله الاعجـــاز البلاغى للقرآن فى تراث الرافعى " للدكتور:فتحى فريد ، مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة رقم ٧٤٨ لسنة ١٣٩٣ هـــ ١٩٧٣ م .

(٣) يراجع " المدخل إلى القرآن الكريم " للدكتور دراز ترجمة محمد عبد العظيم على ط : دار القلـــم الطبعة الثانية ١٤١٤ هـــ ١٩٩٣م من صـــ ١٧٤ ـ صـــ ١٧٧ .

ويبقى الإعجاز التشريعى وهو مابسط القول فى الجانب الأخلاقى منه فى رسالته: " دستور الأخلاق فى القرآن ٠

ويبدأ البحث بما بدأ به الشيخ ، وهو انتزاع الشبهات التى أثيرت حول الإعجاز اللغوى ، ثم ينطلق بعد ذلك إلى الوقوف مع خصائصه البيانية التى انفرد بها القرآن ٠

ذكر الشيخ أن القرآن " معجزة لغوية " وهو أمر لا يحسه إلا كل ذواق بصير ، بينما يحار فيه كثير من الناس ؛ إذ كيف يُعجز العرب بلغته ، وهو بلغتهم ، وعلى منهجهم البيان نزل ؟ !٠ولذلك لم يهجم الشيخ على الإبانة عن خصائص الإعجاز اللغوى دفعة واحدة، وإنما استأذن المخاطب فى أن يستبين هواجس الريب التى فى صدره ليزيحها، فينزع بذلك أشواك الشك التى غرست فى طريقه إلى اليقين حتى يأتى إلى أمر الإعجاز، وليس فى نفسه منه شىء ٠

وأكثر هذه الشبهات التى ذكرها الشيخ ـ قد أشار إليها الإمام الباقلانى ٤٠٣هـ وإن لم يجمعها فى باب واحد أو يفض فى مناقشتها ، وإنما تحدث عن الإعجاز ، وكلما علت له شبهة ذكرها وردها(١)٠ أما الدكتور دراز فقد جمعها ، وأضاف إليها ، وأفاض فى مناقشة كل شبهة منها ؛ ليسكت نأمتها قبل الخوض فى غمار قضية الإعجاز ٠

أولا : مع من ظن نفسه قادراعلى الإتيان بمثل أسلوب القرآن ٠

هذا رجل يشك فى كون القرآن معجزة لغوية ، ومثار الشك عنده : " أنه زاول شيئا من صناعة الشعر أو الكتابة وآنس من نفسه اقتدارا فى البيان ؛ فوسوس له شيطان الإعجاب بنفسه ، والجهل بالقرآن أنه يستطيع أن يأتى بمثل أسلوب القرآن " (٢)

---

(١) انظر إعجاز القرآن للإمام الباقلانى صـ٧٤ ، صـ٧٥ ، صـ٧٧ بصـ٢٨٤ ٠

(٢) النبأ العظيم صـ٨٠ ٠

ومثل هذا الرجل حرى بأن يداخله الشك فى إعجاز القرآن ؛ لأنه زاول " شيئا " من صناعة الشعر أو الكتابة ، ولو عرف أسرار صناعة الشعر والكتابة كاملة وزاولها ، لكان له شأن آخر ، كما أن شيطانه المريد جمع له بين صفتين : إعجاب بنفسه ، وجهل بالقرآن . وهما جناحا الشك فى قضيته ، ولو كسر أحد الجناحين ؛ لكسر جناح الشك ، فإما أن يعرف قدر نفسه ، وإما أن يعرف قدر القرآن .

لذا دعاه الشيخ إلى " إطالة النظر فى أساليب العرب ، والاستظهار على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب ؛ حتى تستحكم عنده ملكة نقد البيان ، ثم ينظر بعد ذلك فى القرآن " (١)

هذا النظر له أثره فى معرفة قدر النفس ، وقدر القرآن ؛ لأنه يمكن الإنسان من نقد البيان ،ولذلك دعاه الشيخ إلى " إطالة " النظر فى أساليب العرب ، ولكن ذلك لا يكفى بغير استعانة على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب ؛ تعينه على معرفة مناهج العرب فى الإبانة عن أنفسهم ، .. وهاتان الخطوتان : " إطالة النظر ، ودراسة علوم الأدب " تستحكم بها ملكة النقد البيانى ، وإنما قال : " تستحكم " لأنه يتحدث مع رجل زاول شيئا من صناعة الأدب ، كما إن " ملكة النقد " مبنية على " الذوق " الذى ينبغى أن يكون مغروسا فى نفس الأديب ، وإلا كان كمن بذر بذره فى الهواء وأراد بعد ذلك خروجه إلى الحياة . وأنى له ذلك ؟ ! .

وحين " تستحكم " فى نفسه ملكة نقد البيان ، تكون كل خطوة يخطوها إزالة لجزء من إيهام قدره وحقيقة أمره ؛ " إذ يرى أنه كلما إزداد بصيرة بأسرار اللغة ، وإحسانا فى تصريف القول ... ، إزداد بقدر ذلك هضما لنفسه ، وإنكارا لقوته ، وخضوعا بكليته أمام القرآن .. فتلك سنة الله فى آياته التى يصنعها بيده ، لايزيدك العلم بها إلا إذعانا لعظمتها ، وثقة بالعجز عنها " (٢) .

---

(١) النبأ العظيم صـ ٨١ .

(٢) السابق الصفحة ذاتها .

والشيخ يتحدث إلى رجل يريد الحق ، ويطلبه بإنصاف ٠ يشك إلى حين حتى يستبين ، فإن كان كذلك، فقد هانت المسألة ، وسيكون أقدر الناس على التفرقة بين البيانين ، كما فرق سحرة فرعون بين حيلة إنسانية ، وبين صنعة إلهية ٠ فخروا سجدا لمعجزة الرحمن ، كما خر المشركون سجدا لصنعة البيان ٠

الميـــدان مفتوح وفى التاريخ عبرة :

فأما إن كان الرجل من المستكبرين الذين لا ينفعهم نظر ، ولا دراســـة ، فهذا يدعوه الشيخ إلى الميدان ليجرب نفسه فيقول له : " أخرج لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت ، أم كنت من الكاذبين ٠ غير أننا نعظه بواحدة أخرى : ألا يخرج على الناس ببضاعتـــه حتى يطيل الروية ، ويحكم الموازنة ، وحتى يستيقن الإحساس والإجادة ؛ فإنـــه إن فعـــل ذلك ، كان أدنى أن يتدارك غلطه ، ويوارى سوءته ، وإلا فقد أساء المسكين إلى نفســـه من حيث أراد الإحسان إليها " (١)

والشيخ يسير مع بذرة الشك ووسوسة الشيطان فى مراحلها المختلفة ، فينصح صاحبها أولا : بإطالة النظر والدراسة لأساليب العرب ٠ ولكـــن الرجل نظر ، ثم أدبر واستكبر ، فليثبت لنا أنه مـــن الصادقين ويتحمل عواقب تجربته ٠ ومع ذلك ينصحه الشيخ بأن يطيل الروية فى صنعته ، ويحكـــم الموازنة بينها وبين البيان الإلهى ٠ حتى يتيقن أنه أحســـن وأجاد ، وهى نصيحة ملؤهـــا الإشفاق على هذا المغـــرور ، وفيها كذلك لون من التحدى والثقة القاطعة بنتيجة هذه التجربة ٠ ومتى استمسك المنصوح بنصيحته ظهـــرت حقيقـــة أمره واستحيا مما كتب ٠

---

(١) النبأ العظيم صـــ٨١ ٠

والمعارضات نعم الواعظ :

ولا يكتفى بإسداء النصيحة ، ولكنه يكشف لهذا المغرور عن صفحات سطرها التاريخ عن أناس حاولوا مثل محاولته ، فكانت محاولتهم سبة ألصقها الدهر بهم ، وعارا كسا حياتهم فما استطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له تقبا ؛ " فقد جاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ، ولا يشبه كلام أنفسهم ٠ بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة باد عواره باق عاره وشناره ٠ فمنهم عاقل : استحيا أن يتم تجربته فحطم قلمه ومزق صحيفته ، ومنهم ماكر : وجد الناس فى زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته فطوى صحفه وأخفاها إلى حين ، ومنهم طائش: برزبها إلى الناس فكان سخرية الساخرين ومثلا للآخرين " (١) ٠

وكلام الشيخ هنا قاطع بأنه من القائلين بإثبات محاولة العرب لمعارضة القرآن ، وهو ما أنكره حديثا الدكتور : على العمارى ؛ حيث ذكر أن : هذه الروايات من افتعالات الرواة ، وتفكهات أصحاب القصص ، وأضاحيك السمار فى المجالس والمجتمعات ، وأن العرب انقطعوا عن المعارضة حقها وباطلها ، وأن مسيلمة ت١٢ هـ (٢)وغيره من أعراب البادية لا ينزل إلى هذا المستوى ، ويمخرق على قومه وهم فصحاء بلغاء بهذا الهراء ٠ ويرى أيضا : أنه ليس فى إثبات المعارضة ما يخدم القرآن لأنه فوق كل كلام (٣) ٠

وخالفه الرأى أستاذنا الدكتور : عبد العظيم المطعنى ؛ فذكر أنها وردت ، ولكنها جاءت من الحمقى والمغامرين ، وأنها تمثل طابعا فرديا لا جماعيا ، كما أن وجودها يخدم قضية الإعجاز ؛ لأننا حين نعمد إلى شئ من نصوصها ونقارنه بما يقابله من القرآن يبين لنا الفرق بين الأصالة والتقليد ، والقوة والضعف (٤) ٠

---

(١) النبأ العظيم صـ ٨٣ ٠

(٢) مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفى الوائلى،متنبئ من المعمرين،ولد ونشأ " باليمامة " ادعى النبوة ، وأكثر من وضع أسجاع يضاهى بها القرآن ، وتوفى النبى قبل القضاء على فتنته،ثم قضى على فتنته فى عهد أبى بكر وقتل فى حوالى ١٢ هـ (الأعلام : (٨/ ١٢٥) ٠

(٣) انظر حول إعجاز القرآن د: على العمارى هدية مجلة الأزهر عدد شوال ١٤١٩هـ ٠

(٤) يراجع : خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية د/ عبد العظيم المطعنى جـ ١ صـ ١٢٥.

وإن كان فى النفس شئ مما ذكره أستاذنا الدكتور المطعنى فى فائدة المعارضة ، وأن النظر فيها يبين الفرق بين الأصالة والتقليد ؛ فما بمثل هذه الحماقات يدرك الفرق بين البيان الأرضى والبيان الإلهى ، كما لا يليق أن نوازن بينها وبين القرآن ؛ فهى موازنـــة لا تقوم على ساق . فالشأن فى إعجاز القرآن أن ننطلق من النظر فى الأنماط البيانية العالـــية التى تبرز أقصى طاقات النفس الإنسانية فى البيان ، لنقف على حدودها ، ثم نبين الفرق بينـــها وبين القرآن. وهذا ما دعا إليه الإمام الباقلانى٤٠٣ هـــ حيـــن رأى أنه من أجل الوقوف على عظيم موقع شأن القرآن، ينبغى " أن نعمد إلى قصيدة متفـــق على كبر محلها، وصحة نظمها ، وجـــودة بلاغتها ومعانـــيها ، ومجمع على إبـــداع صاحبها فيها ، مع كونه : من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة ، والمعروفين بالحذق فى البراعـــة ـــ فنقفك على مواضع خللهـــا ، وعلى تفاوت نظمها، وعلى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها." (١)

فهـــو يرى أن عظـــم محل العمل الأدبى شرط ضرورى فى الموازنة ، وأما كـــلام مسليمة ونحوه فيرى الباقلانى أنه : " أخس من أن يشغل المـــرء نفسه به ، وأسخـــف من أن يفكـــر فيه ، ومانقلنـــاه إلا ليتعجب القارىء ، وليتبصر الناظر "(٢)

وإن كان من الحق أن يقال : إن الامام الباقلانى ٤٠٣هـــ قد انطلـــق فى موازناتـــه مـــن الحـــط من شأن الشعر ليرفع من منزلة القرآن ، ولايتفـــق أحد معـــه فى ذلك. وإنما المهم أن الإلمام بالبلاغـــة العالية ـ وبخاصة " الشعر الجاهلى " يوقف النفس الناقدة علـــى جلال القـــرآن وإعجازه ، وهنا مأأكـــده الإمام عبد القاهر ٤٧١هـــ حين تعـــرض للشعر الجاهلـــى فقـــال ـــ رحمه الله ـــ :

---

(١) إعجاز القرآن للامام الباقلانى صـــ ١٩٩ .

(٢) السابق الصفحـــة ذاتها .

" وإذا كنا نعلم أن الجهة التى منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت ، وبانت وبهرت، هى أنه كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ، ومنتهيا إلى غاية لايطمح إليها بالفكر، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك ، إلا من عرف الشعر الذى هو ديوان العرب، وعنوان الأدب ... ثم بحث عن العلل التى بها كان التباين فى الفضل ، وزاد بعض الشعر على بعض ـ كان الصاد عن ذلك صادا عن أن تعرف حجة الله تعالى "(١)

ولذا نجد الدكتور دراز يجعل فائدة إثبات هذه المحالاوت ـ أن تكون عبرة لمن تسول له نفسه أن يدخل الميدان ، ويعيد التجربة ؛ ليتفكر فى أمره مرات قبل أن يضع الدهر عليه ميسم الخزى والهوان .

فيقول : " فمن حدثته نفسه أن يعيد التجربة مرة أخرى ، فلينظر فى تلك العبر وليأخذ بأحسنها ، وإن لم يستح فليصنع مايشاء " (٢) وهذا قريب مما ذكر الإمام الباقلانى ٤٠٣هـ " ليتعجب القارىء ، ويتبصر الناظر" . كما إن وجود مثل هذه المحاولات يدل على دحض مذهب " الصرفة " ؛ إذ لو كان الأمر كذلك، مااقترب أحد من حمى القرآن فيعارضه لابحق ولاباطل ، ولا بجد ولاسخف .

محاكاة لامعارضة .

ومع إقرار الدكتور دراز بوجود هذه المحاولات ، إلا إنه كان منصفا حين لم يسمها " معارضات " وإنما سماها " محاكاة وإفسادا "؛ لأن للمعارضة شروطا يعرفها أهل النقد لم تتحقق فيما ورد من محاولات.لذلك نجده يقول بعد عرض كلام مسيلمة ت١٢هـ :

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٨ ، صـ٩

(٢) النبأ العظيم صـ ٨٣

" ولا يخفى أن هـذا كله ليس من المعارضة فى شئ ، بل هو المحاكاة والإفساد ، وما مثله إلا كمثـل من يستبدل بالإنسان تمثالا لاروح فيه ، وهو على ذلك تمثال ليس فيه شيء من جمال الفـن . وإنما المعارضـة : أن تعمـد إلى معنى من المعانى فتؤديه بأسلوب آخـر يوازى الأصل فى بلاغته ، أو يزيد . ومن يحاول ذلك فى المعانى القرآنية ، فإنما يحاو ل محالا ؛ والتجربة أصدق شاهد ، بل من يحاول أن يجيء بمثل أسلوب القرآن فى معانـى أخرى لايتحرى فيها الصدق والحكمة ، فقد طمع فى غير مطمع، ولذا كان من طـرق تحدى العرب ـ أن طولبوا بعشر سـور مثلـه مفتريـات "(١)

فهـذا تقويـم من الشيخ لهذه المحاولات التى سطرها التاريـخ: فهى تمثال لاروح فيه ، وهو على خلـوه من الروح ـ ليس إلا شكلا شائها ، ليس فيه من سمات التناسـق والجمال مايلفت النظر ، أو يحرك الوجدان . وهـذا مطابق لما فعله هؤلاء الحمقـى؛ فقـد أخذ مسيلمة ألفاظا من القرآن فبدلها ـ بأخرى ليس لها من الأولى إلا وزنها.وشكلها فأتى " بهراء " فاسد المعنى ، ذاهب الرونـق . وأما المعارضة بمفهومها النقدى المحـدد ـ فلم يورد لنا التاريخ شيئا منها ولاسمعنا بها فى آبائـنا الأولـين .

رأى الشـيخ فى محاكـاة مسـيلمة .

يسير الدكتور دراز مع الرافعى ت ١٩٣٧م فى أن مسيلمة كان يستهدف بكلامـه:
" استهواء قومه من ناحية أخرى : ظنها أهون عليه ، وأقرب تأثيرا ؛ ذلك أنه رأى العرب تعظم الكهان فى الجاهلية ، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذى يزعمون أنه مـن كلام الجـن ...؛ فكذلك جعل يطبع مثل هذه الأسجاع فى محاكاة القرآن ، ليوهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد ـ كأنما النبوة والكهانة ضرب واحـد "(٢)

---

(١) النبـأ العظـيم صـ ٨٢ .
(٢) السابق صـ ٨٢ ويراجع إعجاز القرآن للرافعى صـ ١٧٤ ومابعدها ، وقد ذكر الدكتور دراز أنه يرى فى ذلك مايراه الرافعـى .

وقــــد نقـــد أســـتاذنا: محمد رجب البيومــي رأى الرافعي ١٩٣٧ . الـــذى تأثــــــــره الدكتور دراز .

فقال:" إن كــلام الــرافعي قد يعقــل ، لو أن سجع الكهان ظل يحتفظ بتأثيره بعد نزول القرآن ، ولكن الواقع غير ذلك ؛ لأن مانزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليــه وسلم ــ قد رفع عن العيون غشاوات مدلهمة. كانت أسجاع الكهان إحداها فكيف يحارب مسيلمة بسلاح مفلول " (١).

ويحق لأستاذنا الدكتور البيومي أن يقول : إنه سلاح مفلول ـ وهو كذلك في نظر من يطلب الحق ، وأما من يطلب الباطل . ــ وما أكثرهم حينئذ ــ فهم يصدقون أنفسهم ، ويرتكزون على أى شئ فى هدم عقائد غيرهم. وهم قد وصفوا النبى صلى الله عليه وســلم بالسحر تــارة وبالشعــر أخرى ــ وكانوا يعلمون أنه سلاح مفلول ، ولكنهم ــ مع ذلك ــ تعلقــوا بــه تعلــق مــن أعوزتــه الحيلــة وانقطعــت بــه الحجة ــ على حــد عبارة عبد القاهــر .

وقــد يحملهــم على ذ لك عصبيــة بغيضــة لاتجـد إلا هــذا السلاح ، فتحاول قدر الإمكــان التعميــة على الجهلــة به ، وإذا كان هناك مــن عرفه ، فهناك من أعمتـــــه عصـــبيته عن كشف حقيقته ، أو كشــفه وحارب به ؛ لأن " كذاب رَبيعة أحب إليهم من صــادق مُضَــر" (٢)

---

(١) البيان القرآني د: البيومــي صـــ ٢٠ .

(٢) النبأ العظــيم صـــ ٨٣ .

ثانيا : مع عاجز لايقر بعجز غيره

أما الوقفة الثانية : فهى مع رجل يظن أن سبيل المعارضة يسير على من هو أفصح منه لسانا ، وأسحر بيانا ، ومثل هذا ينصحه الشيخ أن يعود إلى أهل الذكر من أدباء عصره ؛ ليكفوه مؤنة ما أقر هو بعجزه عنه، فإن رضوا ، فليأتوا بالدليل ، وإن عجزوا ، فلينغض رأسه قبلهم ، وليقل : " أى شيء: أكبر من العجز شهادة على الاعجاز " .(١)

والشيخ ينطلق مع الرجل من حاضره الذى يحياه ، فليبدأ بأهل الذكر من أدباء عصره ، فإذا انكشف له أمرهم ، وظهر عجزهم ، فليفتح باب التاريخ، وليعد إلى الوراء : ليرى فرسان البيان ، وقد سجل التاريخ عجزهم فى عصر نزول القرآن ، وهو كما يقول الشيخ: " أزهى عصور البيان العربى ، وأرقى أدوار التهذيب اللغوى ؛ وهل بلغت المجامع اللغوية فى أمة من الأمم ــ مابلغته الأمة العربية فى ذلك العصر من العناية بلغتها ؟ حتى أدركت هذه اللغة أشدها ، وتم لهم بقدر الطاقة تهذيبها" (٢)

هذا عصر نزول البيان ، كانت أنفاسهم من البيان ، وكانوا أحرص الناس على أن يجدوا مغمزا فى القرآن ، بل هم أقدر الناس على التماس ذلك ــ إن وجد ــ ولكن خشعت أبصارهم ، ونكست رؤسهم ، وخفتت أصواتهم .

فإن لم يكتف هذا الرجل بعصر النزول شاهدًا على إعجاز القرآن ، فليتابع حركة الزمن ، ليعلم أن التحدى ظل قائما على العصور حيث : " ورث هذه اللغة الوارثون ، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد ــ كانوا أشد عجزًا ، وأقل طمعا فى هذا المطلب . فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم،وكان برهان الإعجاز قائما أمامهم من طريقين: وجدانى ، وبرهانى. ولايزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها " (٣)

---

(١) النبأ العظيم صـ٨٣ .
(٢) السابق صـ ٨٤ .
(٣)السابق صـ ٨٥ .

وهـذه الشـبهة التى أوردها الشـيخ ــ قريبـة من التى ذكرهـا الإمام الباقلانـى ٤٠٣هـ عنـد حديثـه عمـن يمكنـه الوقـوف علـى إعجـاز القرآن ، حيث قـال :

" فإن قيـل : إن من الفصحـاء من يعلـم عجـز نفسـه عن قـول الشعر ، ولايعلـم مع ذلك ــ عجز غيره ؛ فكذلك البليـغ ، وإن علم عجز نفسـه عن مثل القرآن ، فقـد يخفـى عليه عجـز غـيره " . ويـرد الإمـام هـذه الشبهـة بأنه " مع مستقر العادة . . فمـتى علـم البليغ فى صنوف البلاغـة عجزه عن القـرآن ، علم عجز غيره ؛ لأنه كهو ولأنـه يعلـم أن حالـه ، وحـال غيره فى هـذا الباب سـواء" (١)

لكن الإمـام الباقـلانى يتحدث عن البليـغ المتناهـى فى صنوف البلاغـة ، وأما الدكتـور دراز فيطلـق الأمـر دون تحديـد ؛ فلعـل الرجل لايكون متناهيا فـى البلاغـة وهو يعلـم عجز نفسـه، ولايعلـم عجز غيره ، فهـذا له الرجوع إلى أهـل الذكـر من أدبـاء عصـره ، وإلى حكـم التاريخ على العرب فى عصر نزول القـرآن، وماوليـه من العصـور ، وهـو ماركـز عليه الشيخ فى وقفتـه .

ثالثـا : مـع من يرى الإعجـاز فى أمر خارج عن القـرآن .

أمـا الرجل الثالث ــ فهو يرى أنه ليس كل مايتركـه الناس ــ يكون خارجا عـن طاقتهم ؛ بل ربما ترك المرء مايقدر عليه ؛ لعدم قيام الأسباب الدافعة، وربما ثبط الله همته مع توفير الأسباب ، وربما عطل الله قدرته عند إحداث الفعل بعد توجه إرادته إليه .

---

(١) إعجاز القرآن ، للإمام الباقلانـى صـ ٧٥ .

وهــذه هــي الفروض الثلاثـــة التى ذكرهـا الشيخ ، ورأى أنـها قـد تحول دون المعارضـة " ويكون ترك المعارضة على الفرضيـن الأوليـن ـ قلـة اكتراث بشـأن القرآن ، لاعجـزا عنه ،وعلى الفرض الأخير فترك المعارضة عجـز ، ولكن ليس من جهة بيانه ـ بل لمانع خارجي: هو حمايـة القـدرة العليا له ، وصيانتها عن معارضـة المعارضين ، ولو أزيل المانـع لجاء الناس بمثلـه" (١)

مناقشـــة الشـيخ لهـذه الفروض ٠

ويناقـش الشـيخ الفروض الثلاثـة على ترتيبهـا مناقشـة هادئـة :٠

فالفرض الأول : وهـو عـدم قيام الأسباب الدافعـة ، فهو فرض ينفيـه الواقع التاريخى ثم الواقع النفسى لمن تحداهم القرآن ؛ فقد وبخهم القرآن ، وسفه أحلامهم، وآلهتهـم ، وهـد م عقائدهـم ، وتحداهم أن يأتوا ـ ولو بسورة من مثله " وهذا التحدى ـ وحده ـ كاف فى إثارة حفيظـة الجبان ، وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته٠فكيف لو كان المتحدى مجبـولا على الأنفة والحمية ؟٠٠ وكيف لو كان العمل الذى تتحداه إليه هو صنعته التى يفاخر بها ، والتى هو فيها المدرب الماهر؟ " (٢)

---

(١) النبأ العظـيم صـ ٨٦ ٠

(٢) السـابق ٠ الصفحة ذاتهـا ٠

أمـــا الفرض الثانـــى : وهو أن " صارفا إلهيـــا ثبـــط همتهم ، وصرف إرادتهم مع توفر الأسباب ــ فهو يختلف عن مذهب(الصَّرْفَة) ؛ لأنه تعطيل للهمة، وليس " تثبيطا" والمثبط قد تســتيقظ همته ، وخاصة مع توفــر الأسباب ، أما " المصروف " فهمتــه معطلـــة ،لاتغنى عنه شــيئا فى طلبه المعارضـــة .

وقـــد نقض الشيخ هـــذا الفرض بأن الأسباب آتــت ثمرتها بالفعل : متمثلـــة فى حروب اللطف والعنف الموجهـــة إلى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فقد خادعـــوه، وساومـــوه ، وقاطعوه ، وحاولوا حبس صوت القرآن فى نفوس المؤمنين ، وخاطروا فى سبيل ذلك بأرواحهم ومهجهم ، فهل يعقل بعد ذلك أن تكـــون همتهم مثبطـــة ، ونفوسهـــم متشاغلـــة عن معارضة هذا الكتاب الحكيم ؟! يقـــول الشـــيخ : ــ

" ولاريب أن هـــذه الحملات كلهـــا ــ لم تكن موجهـــة إلى شخص النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وأصحابه ؛ فقـــد كانت تعطفهم عليهم أرحامهم ، وتحببهم إليهم مكار م أخلاقهـــم ، كما أنها لم تكـــن موجهة إلى القرآن فى الصدور ، ولا فى داخل البيـــــوت؛ فقـــد قبلـــوا منهم : أن يعبد المرؤ ربـــه فى بيتـــه كيف شـــاء ، إنما كانت مصوبة إلى هـــدف واحد ، ومقاومـــة لخطر واحد هـــو : إعلان هذا القرآن ونشره بين العرب"(١)

أمـــا الفرض الثالـــث : وهـــو : تعطيل الهمة ، أو " الصرفة " ــ فقد ذكـــر الشيخ " أن هذا المذهب اشتهر عن النظام .ت٢٣١هـ(٢) من المعتزلة،وأنه وإن كان اعترافا بصحة الإعجاز، إلا أنه لا يقول به إلا أعجمى، أوشبهه ممن لم يذق للبلاغة طعما، ولذلك لم يتابعه الجاحـــــظ ولاأحد من علماء العربيـــة " (٣)

---

(١) النبـــأ العظـــيم صـــ ٨٨ .

(٢) إبراهيم بن سيار بن هانىء البصرى أبو إسحاق النظام من أئمة المعتزلة قال الجاحظ:الأوائل يقولون: من كل ألف سنة رجل لانظير له . فإن صح ذلك فأبو إسحاق ، وذكروا أن له كتبا كثيرة فى الفلسفة والاعتزال، توفى ٢٣١هـ (الوافى بالوافيات : (١٤/٦) والأعلام : (٣٦/١)

(٣) السابق صـــ ٨٦ .

وقــبل أن نذكــر نقــد الشــيخ لهــذا الفرض نقــف مــع كلمــته وقفــة :

فقــوله : "إنه لايقول بهــذا المذهــب إلا أعجمي أوشــبيهه ـ إلخ " لايعنى أن النظـــام ينطبق عليه هــذا الوصف ؛ فلعل تعصبه لمذهــبه، أو دخوله حومة الجدل والمناظــرة ـ هو الذى دفعــه لهــذا القول ، ولكنــه بليغ رصــين . يقول الدكتور محمــد أبو موسى : " لم يدفع أحــد أنه كان من بلغاء زمانه ، حسن المقالة ، رطب اللسان ، سريع الخاطــر، دقيــق النظــر .... ومثل هــذا البليغ المتمكن الذى عاش فى القرن الثانى ، والعربيــة باقية حــرة خالصـــة فى أفــواه الناس ـ لايغيب عنه هــذا الفرق الفائت بين كــلام الله وكــلام الناس، وإنما رمى بهذا القول فى حومـــة الجدل ولجاجة الخصومة ولم يقله عــن دراســة ومراجعــة وتمام اقتنــاع " (١)

كمــا إن الجاحظ وإن لم يتابع النظام على القول " بالصرفة " بهذا المفهوم: " تعطيل الهمة بمانع خارجى لو أزيل لأتى الناس بمثل القرآن " ـ إلا أنه يقول " بالصرفة " أيضا، ولكــن بمفهوم يغاير مفهوم النظام فقــد ذكر أن الله " " صرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمــه ، ولذلك لم نجــد أحدا طمع فيه . ولوطمع فيــه لتكلفــه ، ولو تكلف بعضــهم ذلك فجــاء بأمر فيه أدنى شبهــة ، لعظمت القصة على الأعراب ، وأشباه الأعراب ، والنساء ، وأشباه النساء ، ولألقى ذلك للمسلمين عمـــلا ، ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل والقــال " .(٢)

---

(١) الإعجــاز البلاغــى . د/ محمد أبو موسى صــ ٣٥٦ .

(٢) الحيوان ، للجاحظ ، وضع حواشيه : محمد باسل عيون ط : دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٩هــ ـ ١٩٩٨م جـ٢ صــ٣٠٥

فالصرف عنده ليس مانعا ، وإنما لولاه لطمع الناس فى القرآن ٠٠ الخ وقد وضح هذا أستاذنا الدكتورأبو موسى فقال معلقا على كلام الجاحظ ت ٢٥٥هـ:" الصرف هنا لايجوز أن نحمله على معنى أنه لولاه لجاءوا بمثله، وأنه وجه إعجاز القرآن وحجة النبوة،٠ ٠٠ وليس فى كلام الجاحظ ما يدل على ذلك، بل ولا ما يوهم به، وإنما هو قاطع فى أن الصرف هنا أغلق باب اللجاجة المتعلق " بأدنى شبهة "٠(١)

وقول الدكتور دراز بأن أحدا من علماء العرب لم يتابع النظام ـ قول لايعم كل العلماء فقد قال ابن سنان الخفاجي ت ٤٦٦هـ(٢) " بالصرفة " ، بل عدها وجه الإعجاز، وزاد على ذلك : أنّ نفى إعجاز القرآن البلاغى صراحة ، وذكر أنه لافرق بين القرآن وبين غيره من أساليب العرب فقال : " ومتى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار، وجد فى كلام العرب مايضاهى القرآن فى تأليفه"(٣)

نقد الشيخ لمذهب " الصرفة " ٠

اعتمد الشيخ فى نقده لهذه الفرض الأخير [تعطيل الهمة] على ثلاث ركائز:

الأولى : أنه لو كان العجز لعارض أصابهم ، لما استبان لهم ذلك إلا بعد أن يبسطوا إلى القرآن ألسنتهم ؛ إذ لا يشعر امرؤ بزوال قدرته عن شيء كان يقدر عليه إلابعد محاولة ، وتجربة ، وقد علمنا أنهم قعدوا عن هذه التجربة ، ولم يشرع فى هذه المحاولة إلا أقلهم عددا وأسفههم رأيا ، فكان ذلك آية على يأسهم الطبعى من أنفسهم، وعلى شعورهم بأن عجزهم عنه عجز فطرى عتيد، كعجزهم عن إزالة الجبال ، وعن تناول نجوم السماء٠(٤)

---

(١) الإعجاز البلاغى د/ محمد أبو موسى صـ ٣٦٣

(٢) عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان أبو محمد الخفاجي الحلبى ، شاعر أخذ الأدب عن أبى العلاء المعرى، وغيره له ديوان شعر وكتاب" سر الفصاحة ولد فى ٤٢٣هـ وتوفى "بحلب" سنة٤٦٦هـ الأعلام : (٢٦٦/٤)

(٣) " سر الفصاحة" لابن سنان الخفاجي ط٠ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى " د/ ت " صـ ٨٩ ٠

(٤) انظر النبأ العظيم صـ ٨٩ ٠

فإذا كان القائلون " بالصرفـــة " يرون أن ترك المعارضـــة ــ دليل على " الصرفة"، فإنه يمكــن القول بأن وقوع بعض هــذه المحالاوت ــ ينقض مذهـــب " الصرفة " ــ كما تقــدم ؛ وأن قعـــود أكثرهم ، وأعقلهـــم عن التجربة ــ دليل على أنهم أدركوا أن عجزهم فطرى وليس طارئـــا ٠ وإلا لحاول كل واحد منهم المعارضة ؛ليثبت أن العجز طارىء٠

الثانيـــة : لو كان العجز طارئا ، لتعجبوا من أنفسهم كيف عيوا به وهو منهم على طرف الثمـــام ، ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم : أى داء أصابنا فعقـــد ألسنتنا عن هذا الكـــلام الذى هو ككـــل كلام ؟٠ ولم يحـــك لنا التاريخ عن واحد منهم أنه تعجب من ضعفـــه ، أوانعقـــاد لسانه عن أمـــر كان عليها قادرا، بل كتـــب التاريخ نقيـــض ذلك ؛ إذ " كان القـــرآن مثار عجبهم ، وإعجابهم حتى إنهـــم كانوا يخـــرون ســـجدا لسماعـــه من قبل أن تمضى مهلـــة يوازنون فيها بينه وبين كلامهـــم ، بل إن منهم من كان يعلـــن هذا الشعور، فيفيض على لسانه اعترافا صحيحا : " ماهـــذا بقـــول بشـــر "٠

الثالثـــة : ثم إن هـــذا العجز إن كان أمرا طرأ عليهم بعد نزول القرآن ، فأيـــن بيان سلفهم قبل نزول القـــرآن ؟ إن العقل يقتضى ــ حينئذ ــ أن يكون فى بيـــان سلفهم ماينـاوىء بيان القرآن ، وأنه كان يجب عليهم أن يقدموا برهانهم مـــن أجدادهم ، ولكنهم كما يقول الشيخ : لم يجيئوا بقديـــم ولاجديـــد "٠ (٢)

---

(١) النبـــأ العظـــيم صـــ ٨٩ ٠

(٢) الســـابق ٠ الصفحة ذاتهـــا ٠

وهــذه الوقفـــة التى وقفها الدكتور دراز مع رجل يرى الإعجاز فى أمر خارج عــن القرآن ــ قــد وقفها الإمام الباقلانى ٤٠٣ هــ (١) من قبل ، ولعل الشيخ ناظر إليه وشارح لكلامــه ، وهــذه الفروض الثلاثة : (قصر الدواعى ، وتثبيــط الهمة ، وتعطيلها) ذكرها الباقلانى،ورد عليها حين تعرض لمذهب " الصرفة " فقــال ــ رحمه الله ــ : " فإن قيــل: إن من قــدر على جميع هــذه الوجوه البديعة ، وتوجه من هذه الطــرق الغريبة ، كــان على مثل نظــم القرآن قــادرا ، وإنما يصرفه الله ضربا من الصرف ، أو يمنعه عــــن الإتيان بمثلــه ، أو تقصر دواعيه مــع قدرتــه عليه " (٢)

فالفروض التى ذكرها الإمام ثلاثـــة :،

١ــ يصرفه الله ضربا من الصرف ــ وإن لم يبين لنا هذا الضرب-ولعل هذا الضرب هو ماذكره الدكتور دراز عــن تثبيــط الهمــة ،

٢ــ يمنعه عن الإتيان بمثله ــ وهو العجز الطارىء أو " الصرفة " عند الدكتور دراز ،

٣ــ أن تقصر دواعيه : وهو عدم قيام الأسباب الدافعــة عند الدكتور دراز ،

إلا أن الإمــام الباقلانـــى حين نقــد هــذه الفروض الثلاثة ــ جعلها من باب واحد، وردّ ردا واحــدا فقــال: " على أنه لو كانوا صرفوا " على ما ادعاه ــ لم يكـــن من قبلهــم من أهل الجاهليــة مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة ، والبلاغـــة ، وحسن النظم ، وعجيب الرصــف ؛ لأنهم لم يتحدوا ، ولم تلزمهم الحجة ، فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله،علم أن مادعاه القائــل بالصرفة ظاهر البطــلان "،(٣)

---

(١) إعجاز القرآن ــ للإمام الباقلانى صــ ٧٧ ،

(٢) الســابق صــ ٧٨ ،

أما الدكتور دراز فقد وقف مع كل فرض منها على حدة ، وأفرده بالنظروالنقد، وجاء نقده نابعا من استحضار الواقع التاريخى والواقع النفسى لزمن نزول القرآن والمعاصرين له ، وكان رد الإمام الباقلانى ٤٠٣هـ أحد الركائز الثلاثة التى اعتمدها الدكتور دراز فى رده على القائلين " بالصرفة " أو تعطيل الهمة ٠

أما الركيزة الثانية التى اعتمد عليها الدكتور دراز ، فقد لفت إليها الإمام عبدالقاهر ٤٧١هـ فى الرد على القائلين " بالصرفة " حيث يقول : " وإذا كان كذلك ، فينبغى إذا تعجب المتعجب وأكبر المكبر ، أن يقصد بتعجبه وإكباره إلى المنع الذى فيه الآية والبرهان ، لا إلى الممنوع منه ٠ وهذا واضح لايشكل "(١)

رابعا : مع من يقول: من لايقدر على الإتيان بمثل بيان غيره لايقدر على الإتيان بمثل أسلوب القرآن ٠

وهذا رجل يرى أن صنعة البيان تتفاوت بين الناس ، وأن من المحال أن يقدر أحد على أن يجىء بمثل كلام صاحبه ؛ لأن الكلام صورة النفس ، ولاتتفق نفسان فى كل شىء ٠ وإذا كان الأمر كذلك فمن المحال أن يقدر أحد على أن يجىء بمثل القرآن ٠ فكيف يعد عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن آية على قدسيته، بينما لايعد عجز كل امرىء عن الإتيان بمثل أسلوب صاحبه آية على أن ذلك الأسلوب صنع إلهى محض ، لاكسب فيه للذى جرى على لسانه ؟ ٠

---

(١) الرسالة الشافية : للإمام عبدالقاهر مطبوعة فى نهاية كتاب دلائل الإعجاز بتحقيق الشيخ شاكر صـ ٦١٩ ٠ وقد أفرد أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى مذهب الصرفة بدراسة مستقلة فى كتاب الإعجاز البلاغى من صـ ٣٥٥ إلى نهاية الكتاب ٠

ويسلم الشيخ للرجل بتفاوت الأساليب ، وعدم قدرة أحد على الإتيان بمثل كلام غيره.
ولكن الشيخ لم يطالب أحـدًا أن يجيء بنفس صورة القرآن ؛ لأن هذا محال. وهو يقول: .
" إننا حين نتحـدى الناس بالقرآن ، لانطالبهـم أن يجيئوا بنفس صورته الكلاميـة .كلا، ذلك لا مطمع فيه ، ولاندعو المعارضين إليه ، وإنما نطلب كلاما أيا كان نمطه ومنهاجه ، على النحو الذى يحسنه المتكلم أيا كانت فطرته ومزاجه . بحيث إذا قيس مع القـــرآن بمقياس الفضيلة البيانية، حاذاه أو قاربه فى ذلك المقياس وإن كان علىغير صورته.فالأمر الذى ندعوهم إلى التماثـل ، أو المقاربة فيه - هـو القدر الذى فيه يتنافس البلغاء وفيـه يتماثلون ، أو يتقاربون ، وذلك غير المعارض ، والصور المعنية التى لابد من الاختلاف فيها بيـن متكلـم ومتكلـم" (١)

فإذا كان من المحال أن يجيء التماثل فى أنماط البيان . مع اختلاف الفطر والنفوس، فمن غير المحال أن يختار القائل من المعانى مايحسن ، ومن طرق ومناهج أدائها مايجيد . والمهم أن هناك مقياسا بيانيا يحتكـم إليه الجميع ليضع كل واحد فى مكانه ، وبذا يكـون الاختلاف ،وقـد صرح الشيخ بهذا المقياس عند حديثه عن إيجاز القرآن فذكر أنه: الوفاء بحق المعنى بتأديته كامل العناصـر والحلى ، على حسـب مايدعو إليه المقام من تفصيل أو إجمال من غـير إجحاف ولاإسـراف.(٢)

وضـرب الشيخ مثـلا تقريبيا يوضح : كيف تجيء المماثلة مع الإختلاف بـ "قوم يستبقون إلى غاية محددة ، وقد اتخـذوا لذلك مجالا واسعا . لايزاحم فيه بعضهم بعضا، ولايضع أحدهم قدمه على موضع قدم صاحبه ، بل جعل كل واحد منهم يذهب فى طريقه الخاص به موازيا لقرينه فى المبدأ والوجهة ، فيكون منهم المجلى، والمصلى، والمقتفى ، والتالـى ، ويكـون من لاحظ له فى الرهـان ، ويكـون منهم المتكافئون والمتعادلون .

---

(١) النبأ العظـيم صـ ٦٥ .
(٢) انظر السابق صـ ١٢٩ .

وهكـذا تراهـم وهـم مختلفوا المنازل ـ يقع بينهـم التماثل ، كما يقع بينهم التفاضل بنسبة ما قطعه كل منهم من طريقـه إلى الغاية المشتركة . فكذلك المتنافسون فى حلبـة البيان يعمد كل واحـد منـهم إلى الغرض من الطريـق التى يرضاها ، وعلى الوجه الذى يستمليه من نفسه ، ثم يقع بينهم التماثـل أو التفاضـل ـ على قدر مايوفون بحاجة البيان، أو ينقصـون منها ، وإن اختلفت المذاهب التى انتحاها كل منهـم". (١)

فلـم يجعل الشيخ مجال التنافس الإتيان بصورة نظـم القرآن ،أومعانيه ،وإنما جعلـه قصـرا على الوفاء بحاجات البيان ، وللمتكلـم بعد ذلك أن يأتى بأى نظـم شاء ، وبأى معنى شـاء .

واستبعاد الشيخ " المعنى " عن ميدان التنافس وإظهار الفضل ـ لا يفهم منه أنه يرى أن معاني القرآن غير معجزة ؛ بل هو من القائلين بإعجازها ؛ فقد عد الإعجاز العلمي من جوانب إعجاز القرآن ، ومعلوم أن هذه العلوم التى تؤخذ من القرآن ، هى من معانيه التى لاينضب معينها . ولكن القرآن تنزل معهم فى التحدى، حتى قال : " فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ .. " (هود / ١٣)

يقول أستاذنا الدكتور : محمد أبو موسى :" والذى أفهمه من الآية أن الإعجاز قائم بالمعنى، وأنه الأقوى ، والأظهر ، وأن القرآن لما قال : " مُفْتَرَيَاتٍ " إنما كان يتنزل معهم ويمد لهم فى مجال الإمكان " (٢)

---

(١) النبـأ العظـيم صـ ٩٥ ، صـ ٩٦ .

(٢) مدخـل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى د : محمد أبو موسى : الناشر مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م صـ ١٩٦ .

خامسا : مع من يقول : نزل القرآن بلغة العرب فأى جديد فى لغته ٠

وهذا سؤال يطرحه من يرى أن القرآن لم يخرج عن معهود لسان العرب ؛ فمن حروفهم ركبت كلماته ، ومن كلماتهم ركبت جملة وآياته ، وعلى منهجهم فى التأليف جاء تأليفه ، فأى جديد جاء فى لغته حتى يكون معجزة لغوية ؟ ! ٠

ويرد الشيخ بأن مجئ القرآن على سنن العرب – أدخل فى باب الإعجاز ، وأوضح فى قطع الأعذار ،ولا يخفى على أحد أن :" مثل صنعة البيان كمثل صنعة البنيان ؛ فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن فى الأرض،ولا يخرجون فى صناعاتهم عن قواعدها العامة ،ولا يعدو أن يكون ما يصنعون جدرانا مرفوعة،وسقفا موضوعة، وأبوابا مشروعة ، ولكن تتفاضل صناعتهم وراء ذلك فى : اختيار أمتن المواد ، وأبقاها على الدهر وأكنها من الحر والقر ، وفى تعميق الأساس ، وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، و الانتفاع بالمساحات اليسيرة فى المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء بحيث يتخللها الضوء والهواء ٠٠، إلى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسى فيها تفاوتا بعيدا " (١)

وإذا كان المهندسون لا يخلقون مادة بناء من غير الأرض ، فكذلك أهل اللغة ليس لهم مادة للبيان إلا ألفاظ لغتهم ، وهم كذلك لا يخرجون عن سنن العرب ، ومناهجهم ، وقواعد لغتهم ٠ وهذا أمر يستوى فيه العامة والخاصة ، ولا مجال للتفاضل فيه ، إذ يقع التفاضل بحسن اختيار الألفاظ ، واختيار موقعها على حسب ما يدعوا إليه المقام ٠ وهذا ما يرفع البيان إلى السماء ، أو يخلده إلى الأرض ٠

---

(١) النبأ العظيم صـ٩٠ ٠

يقـــول الشـــيخ :

" كذلك ترى أهل اللغة الواحدة، يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى ؛ يتفاوت حظها فى الحسن والقبول ، وما من كلمة من كلامهم ، ولا وضع من أوضاعهم ــ بخـــارج عن مواد اللغة ، وقواعدها العامة ، ولكنه حسن الاختيار فى تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعى سمعك ، ويثلج صدرك ، ويملك قلبك . وسوء الأختيار فى شــئ من ذلك قد ينزل به حتى تمجــه أذنك ، وتغثى منه نفسك ، وينفر منه طبعك " (١) .

ونلحظ من ملامح الدقة فى كلام الشيخ :أن يذكرأنت أهل اللغة يؤدون " الغرض الواحد"، ولم يقل " المعنى الواحد "؛ لأن المعنى لا يكون واحدا ، بخلاف الغرض . وهذا الاختلاف فى طرق تأدية الأغراض هو الذى يمنح المعانى سمة الاختلاف ، ويجعل كل طريــق منها حرية بأن تنسب إلى صاحبها. كما إنه اشترط حسن الأختيار فى " المادة ،والوضع "؛ لأن اختيار المادة وحده لا يكفى ، بل لابد من اختيار الموقع المناسب لها ، حسبما يملى المقام . وإلا كان كمن يقذف الجواهر فى التراب ، أو يعلق الدر على أعناق الخنازير .

ــ كما جعل الشيخ لأختيار المادة ، وموقعها ــ أثره فى السمع قبولا وردا ؛ وهذا نابع من إيمانه بإعجاز القرآن الصوتى ، ومن إيمانه بالقيمة الصوتية ، وأثرهـــا فى البناء البيانى للنص ، وهى قيمة مكتسبة من اختيار اللفظ ، ووضعه الوضع المناسب، وهذه حقيقة يلفت إليها الإمام عبد القاهر ٤٧١ حين يتحدث عن التقديم مثلا فيقول : " ولا تزال ترى شعرا يروقك سمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ، ولطف عندك ؛ أن قدم فيه شئ ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان " (٢) . وهكــذا يمنــح اختيار اللفظ وموقعه ــ الكلام أثره فى السمع ووقعه فى الطبع .

---

(١) النبأ العظيم صـــ٩٠ .

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر صـــ١٤٦.

صعوبة الإختيار :

لكن اختيار اللفظ ، وتحديد موقعه أمر عسير غير يسير ؛ إذ يقف المرء حائرا فى عالم المفردات والتراكيب ، ماذا يأخذ ؟ وماذا يدع ؟ وأيها أمس رحما بمعناه الذى يداخله ؟ ، وأى الصور أقرب إلى استخراج كوامنه ؟ وربما يزل زلة واحدة فى الأختيار ، أو يترك حرفا واحدا ، أو يبدل به غيره ــ فيضيع بيانه ، وتهوى لغته بمعانيه فى مكان سحيق ، وربما يذكر حرفا واحدا تشرق به شمس معناه ٠ وتنكسف شمس غيره ٠٠

ويوضح لنا الشيخ السر فى صعوبة هذا الاختيار فيقول :

" ذلك أن اللغة فيها العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، وفيها العبارة ، والإشارة والفحوى والإيماء ، وفيها الخبر والإنشاء ، وفيها الجمل الإسمية والفعلية ٠٠٠ وهلم جرا ٠ ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم ٠٠٠ ، بيد أنه ليس شئ من هذه المسالك بالذى يجمل فى كل موطن ، وليس شئ منها بالذى يقبح فى كل موطن ــ إذن لهان الأمر على طالبه ولأصبحت البلاغة فى لسان الناس طعما واحدا ، وفى سمعهم نغمة واحدة٠كلا ٠ فإن الطريق الواحد قد يبلغك مأمنك حينا ، ويقصر بك عن غايتك حينا آخر ، ورب كلمة تراها فى موضع ما كالخرزة الضائعة ، ثم تراها فى موضع آخركالدرة اللامعة فالشأن إذن : فى اختيار هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك فى غرض غرض ،وأيها أقرب توصيلا إلى مقتصد مقصد " (١) ٠

وواضح أن الشيخ فيما ذكره عن الكلمة ناظر إلى الإمام عبد القاهر ٤٧١ هـ ٠ وإن لم يشر إلى ذلك ؛ فالإمام هو الذى رفض المفاضلة بين المفردات من غير أن ينظر إلى مكان تقع فيه ، ودلل على ذلك بـ " أنك ترى الكلمة تروقك ، وتؤنسك فى موضع ،

---

(١) النبأ العظيم صـ٩١ ٠

ثم تراها بعينها تثقـل عليـك ، وتوحشك فى موضع آخـر " (١) ثـم يصل بعد الإستشهاد بالشعر ــ إلى أنه : " لو كانت الكلمة إذا حسنت ، حسنت من حيث هى لفظ ، وإذا استحقت المزيـــة والشرف إستحقت ذلك فى ذاتها ، وعلى انفرادها ،دون أن يكون السبب فى ذلك حال لــها مع أخواتها المجاورة لها فى النظم ــ لما اختلف بها الحال ، ولكانت إما تحسن أبـــــدا ، أو لا تحسن أبدا " (٢) وهذا ما ردده الدكتور دراز ٠

والإمام عبد القاهر ٤٧١ هـ ينافح ليثبت أن المزية فى النظم ، وأن القرآن جاء بنظم أعجز هؤلاء العرب ، والدكتور دراز يريد أن يثبت أن مناط التفاوت بين مبين وآخر ــ هو فى اختيار الطرق البيانية المؤدية إلى الغرض ، وسلوك الطرق الأوفى منها بحاجات البيان ــ ليصل إلى أن الناحية اللغويــة جديرة " بأن تتفاوت منها القوى نازلة إلى حد العجز أوصاعدة إلى حد الإعجاز"(٣) وانطلاقامن هذه الحقيقة اتجه إلى ابراز الجديد فى لغة القرآن

الجديــد فى لغــة القرآن :

إذا كان مناط التفاوت فى البيان ، هو حسن الإختيار ، وحسن الموقع ، فقد أتى القرآن فى ذلك على الغايــة والمثل الأعلى ، ويشرح الشيخ ذلك قائــلا : " فالجديد فى لغة القرآن أنه فى كل شان يتناوله من شئون القول ــ يتخير له أشرف المواد ، وأمسها رحما بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها الذى هو أحـق بها ، وهى أحــق بــه ، بحيث لا يجـد المعنى فى لفظــه إلا مرآتــه الناصعة ،

---

(١) دلائل الاعجاز صـــ ٤٦ ٠

(٢) السابق صـــ ٤٨ ٠

(٣) النبأ العظيم ٩١ ، ٩٢ ٠

وصورتـــه الكاملة ، ولا يجد اللفـــظ فى معناه إلا وطنه الأمين ، وقراره المكين ،لا يومـــا ولا بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور ، وتجيء العصور ، فلا المكان يريد بساكنـــه بدلا ، ولاالساكن يبغـــى عن منزله حـــولا "(١) .

والشيخ فى كلامه هذا يجمل سمات الجدة فى لغة القرآن ، ويمكن أن نقف مع كلامه وقفـــة تـــبرز هـــذه الســـمات :

فالقرآن فى كل شأن يتناوله من شئون القول ــ يتخيرـــ أشرف المواد وأمسها رحما" فى كل شأن " وليس فى شأن دون شأن، ولايحل لكلمة منه أن تحل محل أخرى، ولو حاول المرء ذلك حاول محالا ، وإن فعل أفسد بلاغة النص وقطـــع أرحام المعانى .

وقـــد يتسابق إلى الذهـــن سؤال ، وهو أن الشعر ، والنثر العالى قد يصعب فيـــه تبد يـــل كلمة أخرى أوحـــذفها . فبماذا انفرد القرآن ؟ ولماذا عـــلا على كلامهم ؟ .

والجـــواب : أن هذه سمة دائمـــة فى كل شأن يتناوله القرآن ، وليس فى شأن دون شأن ، ثم إن الصعوبة غير الإحالة ؛ فقد يصعب الحذف أو التبديل فى بعض الشعر والنثر العالى ، إلا أنه ممكـــن . وهو فى القرآن محال ، كما إننا لوقلبنا الشعر العربى كلـــه لن نجـــد فيه قصيدة واحدة يتحقق فيها صعوبـــة الحذف أو التبديل ، ولكـــن ربما تحقق ذلك فى بيت من الشـــعر . وينبغى حينئذ أن ننظـــر إلى الكلمة التى يراد تغييرها ، فالكلمـــة فى الشعر قـــد تســـد تقبـــا خلف صاحبتها، أما الكلمة القرآنية فوراءها فيض من المعانى لاتقـــوى أخرى على مقاومته ، كما شـــاع ذلك عند أهـــل العلـــم .

---

(١) النبـــا العظـــيم صـــ ٩٧ .

بــل إن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو فى أعلى درج البلاغة الإنسانيــة ــ لايطاول بيانه بيان الألوهــية ،وليست فيه هذه الســمة التى عزبها القرآن ؛ لأنه إنسان من الناس ، والقول بانقطاع صلة الناس بأسلوبه جملة - هــو كما يقــول الشــيخ دراز : " أخــو القول بأن من الناس ماليس بإنسان ، أو هو التسليم بأن مايجيىء به هذا الإنســان لايكون من عمل الإنسان ؛ وذلك لأن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة والطبائع الشخصيــة تقع فيها الأشــباه والأمثال فى الشىء بعد الشىء ، وفى الواحد بعد الواحد "(١)

والدليل على ذ لك ــ أنه ربمــا قرأ الإنسان كلمــة من الحكمة فيشتبه عليه أمرهــا " أمــن كلمات النبوة هى أم من كلمات الصحابة والتابعين ــ ذلك على ماعلمنا من امتياز الأسلوب النبوى ــ ولكنه امتياز قــد يــدق على غير المنتهين فى هذا الفن ، وقد يقصر الذوق وحــده عن إدراكــه فيلجــأ إلى النقل يستعينه فى تمييز بعض الحديث المرفوع من الحديــث الموقــوف ،أو المقطــوع "٠(٢)

• والقــرآن فى كل شئونه يتخــير " أمس الكلمات رحما بالمعنى :

فالبيان موضوع للإبانــة ، والمبين البليغ الواعى هو الذى يتخير أقرب الألفاظ رحما بمعناه ، وتصويرا لمكنون نفسه ، وهذه حقيقــة نقديــة وفضيلــة بيانية دعا إليها النقــاد قديمــا وحديثــا ٠

---

(١) النبــأ العظــيم صــ ٩٧ ٠

(٢) الســابق صــ ١٠٠ ٠

فالإمام الباقلاني ٤٠٣هـ يجعل اختيار أقرب الكلمات إلى المعنى المكنون في النفس ــ أساس شرف المعنى وفضله فيقول : " إذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس التي لايمكن التوصل إليها بأنفسها، وهي محتاجة إلى مايعبر عنها ، فما كان أقرب في تصويرها ، وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد ، وأشد تحقيقا في الإيضاح عن الطلب ، وأعجب في صنعه ، وأرشق في تصرفه ، وأبرع في نظمه ــ كان أولى وأحق بأن يكون شريفا"(١)

والإمام عبد القاهر ٤٧١هـ يجعل " الإبانة " مقوم البيان ، ويجعل أفضل أنواع البيان ماكانت الإبانة فيه عن جوهر المعنى ــ أقوى وأظهر فيقول :

" وإذا كان هذا الوصف [الإبانة] مقوم ذاته ، وأخص صفاته ، كان أشرف أنواعه ماكان فيه أجلى وأظهر ، وبه أولى وأجدر . ومن هنا يتبين للمحصل ، ويتقرر في نفس المتأمل ،كيف ينبغي أن يحكم في تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان ".(٢)

والرافعي ١٩٣٧م في العصر الحديث يذكر أن :" المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لايجزىء واحد منها في موضعه عن الآخر-إن أريد شرط الفصاحة-؛ لأن لكل لفظ صوتا ربما أشبه موقعه من الكلام ، ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه والذي تساق له الجملة ، فلابد في مثل نظم القرآن من إخطار معاني الجمل ، وانتزاع جملة مايلائمها من

---

(١) إعجاز القرآن للإمام الباقلاني صـ ١٧١ .

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر . قرأه وعلق عليه: الشيخ محمود شاكر، مطبعة المدني ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م صـ٤٠ ويراجع في شرح هذا النص كتاب مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني للدكتور محمد أبو موسى صـ ٥٤ .

ألفاظ اللغة بحيث لاتند لفظة ، ولاتتخلف كلمة ، ثم استعمال أمسها رحما بالمعنى، وأفصحها في الدلالة عليه ، وأبلغها في التصوير ، وأحسنها في النسق ، وأبدعها سناء، وأكثرها غناء ، وأصفاها رونقا وماء ، ثم اطراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه، وماتضمن من أوجه الدلالة وجوه التأويل " (١)

وكلام الدكتور دراز ـ رحمه الله ـ قريب مما ذكر هؤلاء الأئمة ، وإن بدت العلاقة واضحة بين عبارته، وكلام الرافعي ؛ فالشيخ يذكر أن القرآن " يتخير أشرف المواد ، وأمسها رحما بالمعنى " والرافعي يذكر" استعمال أمسها رحما بالمعنى "، والشيخ كذلك يذكر أنه هذا " في كل شأن يتناوله القرآن من شئون القول " والرافعي يقول : " ثم اطراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه.." ولكنه يذكر بعد ذلك سمات عامة ومبهمة قد لايستطيع المرء الوقوف على مفهوم محدد لها مثل :" أبدعها سناء " وأكثرها رونقا وماء " وهي وغيرها عبارات كثيرة وردت في تراث أسلافنا دون شرح أو تحديد ، وهي وحدها مما يحتاج إلى بحث، بينما ذكر الدكتور دراز سمات يمكن للمرء وضع يده عليها في القرآن مثل :

أجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج :

فالسمة الأولى إشارة إلى خاصية الإيجاز القرآني.فألفاظه تحمل من المعاني مالاتقدر ألفاظ أخرى على حمله ، وقد شرح الشيخ هذا في حديثه عن خاصية " القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى " (٢) .

---

(١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي صـ ٢٢٦ .

(٢) يراجع الفصل الثاني من البحث صـ ١٥٣.

ولابد فى هذه المادة أن تكون أقبل المـــواد للامتزاج بصاحباتها ؛ لأن البناء البيانى عناصر، ولابد أن يحمل كل ـ عنصر منه قدرة ورغبة فى الامتزاج بحيث يطلب صاحبه، وهذه إشارة إلى خاصية أخرى من الخصائص البيانية للقــرآن هى تناسبه وامتزاج كلمـــه وآياته وسوره كأنه كلمة واحدة .

* وهذا البيان القرآنى "يضع مثقال كل ذرة فى موضعها الذى هو أحق بها وهى أحق به "

قد يفلح المبين فى اختيار مادته ، ثم يضعها فى مكان يذهب جهد اختياره هبـــاء . أما القرآن فقد وضع كل مثقال ذرة فى موضعه الذى أحق به ، وتأمل عبارة الشيخ " أحق بها ، وأحق به " وكأن كل واحد منها يطلب عند صاحبه حقـــا لا يكف عنه .

وحين يتحقق الأمران : حســن الأختيار ، وحسن الموقع ـ يكون اللفظ مرآة ناصعة للمعنى ، وصـــورة واضحة المعالم له ، كما يجد اللفظ فى المعنى ـ وطنا أمينا ، وقرارا مكينا على مـــر الدهور والعصور .

وقول الشيخ بأن القرآن يضع كل مثقال ذرة فى موضعها .. يكشف لنا عن رأيه فى قضية الترادف فى القرآن ، وإن لم يصرح به ؛ فإن بيانا يضع كل مثقال ذرة فى موضعه، كيف يستعمل لفظا مكان آخر قريب فى المعنى منه ؟ بـــل ذكر الشيخ فى موضع آخر أن استحالة إسقاط كلمة أو إبدالها بأخرى هى خصيصة من خصائص القرآن البيانية ، وإنه إذا أمكن حذفها أو إبدالها بأخرى دون إخلال بالمعنى المقصود ـ كان ذلك طعنا فى البيان (١) وكتاب الله كما يقول ابن عطية٥٤١ هـ (٢) " لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد " (٣)

(١) انظر النبأ العظيم صـ١١٢ .

(٢) عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى من محارب قيس الغرناطى أبومحمد . مفسر فقيه أندلسى من أهـــل غرناطة عارف بالأحكام والحديث . له شعر وله المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز " وتوفى " بلورقة " قيل فى تاريخ وفاته ٥٤١ ، و٥٤٦ هـ الأعلام : (٤/ ٥٣) .

(٣) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسى ت عبدالسلام عبدالشافى محمد ط : دار الكتب العلمية،بيروت الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م جـ١ صـ ٥٢ .

وقد ذكـر الإمام الخطابي ٣٨٨هـ أن " عمود البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات ــ هـو وضـع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام ــ موضعه الأخـص والأشكل به، الذي إذا أبدل به غيره ، جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون به فساد الكلام ، أو ذهاب الرونـق الذي يكون معـه سـقوط البلاغـة " .

وهـذا النص ــ على صغره ــ كان محورا مهما عند كثير ممن كتبوا في إعجـاز القرآن البياني " وعليه أدار عبد القاهر مذهبه في كون الإعجاز بالنظـم "(١) . كما تأثر به كثير من كتب في العصر الحديث وعلى رأسهم الرافعي،ودراز .

مـن تطبيقـات الشـيخ .

لـم يذكر الشـيخ في حديثـه عن الجديد في لغة القرآن من التطبيقات مايدعم رأيه، ولكنه وقف في بعض تحليلاته . في مواطن أخرى ــ أمام دلالة بعض الألفاظ مبينا عـن السر في التعبير بها ، ووضعها في موضعها المناسب . ففـي قـوله تعالـى :

" الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ "

(الملك/٣) يقف أمام اسم الله " الرَّحْمَن " ليبين سر التعبير به دون لفظ الجلالة أو غيره مـن أسماء الله الحسنى فيقـول: " لقد أشارت الجملة في الوقت نفسه إلى أن الله - جلت حكمته- لو شاء لخلقها متفاوتة متنافرة ، أو متفوتـة متداعية ، ولكن خلقها على هذا الوجـه من الإبداع الكامل ــ كان أثرا من آثار رحمته ، ونعمه ؛ إذ لولا هذا الإبداع ، والإتقان فـي الصنعة ماكان فيها عبرة لمعتبر، ولاذكر لمدكر، بل ربما اختل به العالم ، ولم يصلح معه للبقاء ، ومن هنا وضع اسم " الرَّحْمَن " في الآية موضع لفظ الجلالة وغيره "(٢) .

---

(١) الإعجاز البياني د عائشة عبد الرحمن صـ ١٠١ .

(٢) تفسير سورة الملك ، مخطوط للشيخ لوحة رقم "٥" .

وا سم الله " الرَّحْمَنُ " ومواقعه في السورة الكريمة مما يحتاج إلى نظر، فقد ذكر أربع مرات في السورة وفي كل آية منها يلفت إلى مظاهر رحمته ، ومظاهر قدرته وهيبته، أولها هذه الآية التي معنا ، والثانية : في قوله تعالى : " أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ .. " (الملك / ١٩) فهي تلفت إلى مظهر من مظاهر رحمته في جو السماء ، يتمثل في هذا الطير الذي يسبح في جو السماء لا تمسكه إلا رحمة الله وقدرته ، وفيها مع ذلك " تلويح إلى حادثه تاريخية كان الطير فيها أداة إلهية للانتقام من أعدائه : أصحاب الفيل ؛ بإرسال الحاصب عليهم من الطير الأبابيل : فكانت الآية من هذا الوجه ، بمثابة التطبيق على مضمون الإنذار الذي قبلها مباشرة ، مع ما فيها من تذكير بقدرته وعنايته في هذه الظاهرة العجيبة : ظاهرة حفظ الطير على متن الهواء في حال بسط جناحيها وقبضها ، مع مخالفة ذلك للسنن المعروفة في هذا النطاق عن الكون " (١)

ويلي هذه الآية قوله سبحانه " أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ " (الملك / ٢٠) . ففي لفظ " الرحمن " دلالة الرحمة الواسعة ، وقد جاء في الآية في معرض الإستفهام وما فيه من دلالة التحدي والنفي والإنكار لأن يكون لهم جند ينصرونهم من دونه سبحانه ، وفيه تعريض وتهديد لهؤلاء المغرورين ، ولعل في التعبير باسم الله " الرَّحْمَنُ " ما يلفت إلى أنهم وجنودهم أخف وأحقر من أن يضع الله في مقابلتهم إسما يدل على القوة والقهر ، " كالجبار " ، أو " القهار " .

ثم تأتي الآية الأخيرة لتنبه الكافرين إلى أنه لن يجيرهم من عذاب الله إلا هو برحمته حيث يقول : " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " (الملك/ ٢٨، ٢٩) .

---

(١) تفسير سورة الملك للدكتور دراز لوحة رقم ١٢

ففى الآيات تتعانق دلالات الرحمة الداعية إلى حبه وخشيته ، ودلالات القدرة والهيمنة الداعية إلى خوفـــه والحذر من عاقبة الكفر به ، وهو ما يتلاءم مع مقصد السورة الكريمة الذى ذكر الشيخ أنه " التعريف بالله وصفاته والندب إلى خشيته ، والتحذير من عاقبة الكفر به " (١)

• وفى قولـــــه تعالـــــى : " فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ " (القلم / ٤٤) يقف الشيخ أمام لفظ : " ذَرْنِى " • بإضافة ياء المتكلم — جـل وعلا — للفعل " ذر " ، ولم يقل " دع لى " ، فيجعل من يكذب " مفعولا " للفعل — ليبين عن السر فى مجئ اللفظ على هذا النحو ، ودلالته فى تصوير موقف النبى — صلى الله عليه وسلم — تجاه من يدعوهم ، وإن كذبوه • فيقول رحمه الله :

" تأمل صياغة الآية الكريمة ، فإنها لم تقل : " دع لى من يكذب " ، ولكنها تقول : " ذَرْنِى " أى : اتركنى له ، وخل بينى وبينه ، لا تمنعنى عنه بدعائك ، ولا تحل بينى وبينه بشفاعتك • وهذا هو التصوير الحقيقى لموقف الرسول — صلى الله عليه وسلم — ؛ فإنه لم يكن بصدد الدعاء عليهم ، أو بصدد استعجال العذاب لهم كمـــا ظن ، وإنما كـــان بصدد الاستعطاف عليهم ، والاسترحام لهم ، فقيل له : دعنى • كما قيل لأبيه إبراهيم : يا إبراهيم أعرض عن هذا " (٢)

والميـــدان فى حاجة إلى التطبيـــق :

على الرغم من اتفاق العلماء والبلغاء والنقاد ، على أن مناط التفاضل هو وضع كل لفظ فى موضعه الأخص به ، وعلى الرغم من تنبيهـــــهم المبكر إلى هـــذا المقياس النقـــدى

---

(١) تفسير سورة الملك لوحة رقم ١ •

(٢) تفسير سورة القلم لدكتور دراز ، مخطوط لوحة رقم ١٣ •

" عندما تحدثوا عن المعنى الكريم ، وأن من الواجب أن يلتمس له اللفظ الكريم ، وعندما لحظوا أن للمدح ألفاظا خاصة به لا ينبغى أن تستعمل مع الهجاء ، وأن للهجاء ألفاظا خاصة لا ينبغى أن تستعمل فى المدح ..،ونقدوا الكلام الذى الذى فقد التلاؤم بين لفظه ومعناه "(١) ـ على الرغم من ذلك كله ، إلا إننا حين نأتى إلى الميدان التطبيقى فى القرآن مثلا ـ لانجد ـ فيما نعلم ـ من تراث سلفنا دراسة قامت على خدمة هذا الجانب فى القرآن ، تبين لنا كيف وضع القرآن كل لفظ فى موضعه ، وكيف لا يغنى عن غيره ؟ وما السر فى ذلك ؟ ، وما علاقة ذلك بدلالة اللفظ ، وسياقه ، وسورته ، بل والقرآن كله ؟ .

ولكنهم على كل حال فتحوا الباب ، ووضحوا معالم المنهج ، ثم تركوا الأمر لخلفهم ، ليبدأوا من حيث انتهى سلفهم ؛ فقد أورد الإمام البخارى ت٢٥٦ هـ (٢) قول سيدنا سفيان ابن عيينة ت ١٩٨هـ (٣) فى تفسير قوله تعالى : " وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " .(الأنفال /٣٢) " قال ابن عيينة : ما سمى الله تعالى " مطرا " إلا عذابا ، وتسميه العرب " الغيث " وهو قوله تعالى : " وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ... " (الشورى /٢٨) (٤) .

---

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب د أحمد بدوى ط:نهضة مصر سنة ١٩٩٦ م صـ٤٧٧ .

(٢) أبو عبدالله محمد بن أبى الحسين إسماعيل بن إبراهيم البخارى ، الحافظ الإمام فى علم الحديث ، رحل فى طلب الحديث إلى أكثر محدثى مصر ، وخراسان والعراق والحجاز وشهد له بالتفرد فى علم الرواية والدراية ،ولد فى شوال ١٩٤هـ وتوفى " بخرتنك " سنة ٢٥٦ هـ وفيات الأعيان ، (١٨٨/٤) ، الأعلام : (٦/ ٢٥٨) .

(٣) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى أبو محمد ، محدث الحرم المكى ولد " بالكوفة " وسكن " مكة " وتوفى بها كان حافظا ثقة واسع العلم ، كبير القدر ولد عام ١٠٧ هـ وتوفى فى ١٩٨ هـ من كتبه "الجامع فى الحديث " وكتاب فى " التفسير " . وفيات الأعيان : (٣٩١/٢) .

(٤) صحيح البخارى كتاب التفسير . باب قوله تعالى: " وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً " .

فهذه الجملة تمثل منهجا فى فقه دلالة اللفظ القرآنى ؛ فلا يقدر على إطلاق هذا الكلام إلا من استقصى مادة " مطر " فى القرآن ، ثم نظر إلى دلالتها فى ظل سياقها وسورتها التى وردت فيها ، ثم قارن بينها وبين ما هو قريب منها فى الدلالة " الغيث " ثم يصل إلى الفرق بين الدلالة القرآنية ، والدلالة اللغوية عند العرب ·وهى الدعائم التى يمكن البناء عليها فى دراسة هذا الجانب فى البيان القرآنى ·

• كما فرق الإمام الخطابى ٣٨٨ هـ بين كلمات يظنها الناس متقاربة مثل : الصبح والفجر ، وأكل وافترس ، إلى غير ذلك من الكلمات (١) ، ولكنها إشارات على طريق لغة القرآن ·

ولعل من أوائل الدراسات الحديثة التى التفتت إلى هذا الجانب ، وتناولت الفروق الدقيقة بين بعض الألفاظ القرآنية ـ ما قدمته الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى كتابها " الإعجاز البيانى " فقد خصصت مبحثا لدراسة الفروق الدلالية بين بعض الألفاظ المتقاربة ـ مثل الرؤيا والحلم ، النأى والبعد ، والتصدع والتحطم ـ متخذة من تتبع المادة ، واستبصار سياقها فى القرآن أساسا فى هذه التفرقة ·(٢)

• ومنها ما قدمه أستاذنا الدكتور : صباح دراز : فى كتابه " من الإعجاز البلاغى للقرآن "عند حديثه عن الدقة اللفظية للقرآن حيث تأتى كل كلمة فى موضعها الذى يتطلبها ،

---

(١) انظر بيان إعجاز القرآن للخطابى من صـ ٣٠ ـ ٣٦ ·

(٢) انظر الإعجاز البيانى من صـ٢١٥ ـ صـ ٢٣٨ ·

وتحسن فيه وتدق ، ويبين ملامح هذه الدقة من خلال بعض الكلمات مثل : انفجر وانبجس ، وجعل وخلق ، ورددت ورجعت،والبطن والجوف، وغيرذلك مما يلفت إلى ثراء هذا الجانب القرآنى (١)

ثم ظـــهرت مؤخـــرا دراسات جديدة ، تقوم برأســـها على خدمة هذا الجانب ، منها : ما قدمه أستاذنا الدكتور عبد العظيم المطعنى فى كتابه " دراسات جديدة فى إعجاز القرآن ، مناهج تطبقيه فى توظيف اللغة " ، والكتاب كله لدراســـــة الفـــــروق الدلالية بين الألفاظ القرآنية المتقاربة ، وأسرار هذا الأختلاف ودواعيه السياقية (٢)

ثم ظهر بعد ذلك كتاب " الإتيان والمجئ فى القرآن " للدكتور : محمود موسى حمدان وقد اقتصر فيه على دراسة الفروق الدلالية بين المادتين ، والأسرار البيانية التى وراء ذلك ، وهــــو ما يبين لنا ثراء الجانب اللغـــــوى للقرآن ، وأنه حرى بعشرات الرسائل العلمية ، والبحوث المتخصصة من كل ذواق بصير تتعشق نفسه العيش فى رحاب الجمال القرآنى ، (٣)

---

(١) يراجع من الإعجاز البلاغى من صــ ٢٨ ــ صــ ٥٣ ،

(٢) دراسات جديدة فى إعجاز القرآن نشر مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـــ ، ١٩٩٦ م ،

(٣) الكتاب نشرته مكتبة وهبة .الطبعة الأولى:١٤١٨ هــ ١٩٩٨ م،

المبحـــــث الخامـــــس

الإعجـــاز اللغـــوى وعلى أى وجــه أداره الشيــخ

{ أ } القرآن معجزة " لغويـــة "

{ب } فكرة المباينة محـــور الشيخ فى دراسة الإعجاز •

{جـ} بناء الإعجاز على المباينة منهج له جذوره •

{ د } صعوبـــة الوصول إلى خصائص عامة للمباينة •

القرآن معجزة لغويـــــة :

لعل أول ما يلفت الذهن في كلام الشيخ ـ أنه وصف القرآن بأنه : " معجزة لغوية " . ولم يقل " بلاغية " ؛ ولعل ذلك لأن اللغة أعم من البلاغة ؛ فهى التى تتجسد فيها خصائص المبين ، بل وخصائص الأمم . ولعله حين ترك هذا الوصـــــف ـ كان يقصد " البلاغة " بمفهومها الإصطلاحى الذى يشمل علومـــها الثلاثـــة ، وكثير مـــن خصائـــص الإعجاز التى ذكرها لا تندرج تحت مصطلح من مصطلحات علوم البلاغة "

وحين بدأ فى ذكر بعض خصائص الإعجاز اللغوى قـــال : " فلنبدأ وصفنا لبعـــض خصائص القرآن البيانية "(١)، وهو ما يدل على ارتضائه لوصف الإعجاز بـــ " البيانى " ؛ لأن مفهوم البيان واسع ، واللغة أداة البيان .

فكـــرة المباينة محور الشيخ فى دراسة الإعجاز :

وقد أدار الدكتور دراز أمر الإعجاز اللغوى على فكرة تمثل المحور فى دراسته للقضية ، وهى فكرة : مباينة أسلوب القرآن لسائر الأساليب . هذه الفكرة تسيطر على دراسته لقضية الإعجاز اللغوى ابتداء من البنـــاء الصوتى وانتهاء إلى القرآن فى جملته ؛ فقد وجه الشيخ جهده إلى إبراز الخصائص التى باين بها القـــرآن بيان البشر ، واعتمد فى ذلك على النظر فى منهج الإنسان فى البيان ، وطريقه فى الإبانة عن معانيه. وكان طريقه إلى ذلك الإلمام بأساليب العرب ، وتراثهـــم الأدبى ، ثم الخبرة الطويلة بدراســـات النفس الإنسانية والتى مكنته من معرفة حدود النفس التى تتوقف عندها ، والعيوب التى لا تقـــدر على تفاديها فى بيانها بحكم إنسانيتها ، ثم يخرج من ذلك إلى النظر فى البيان القرآنى ، بعـــد أن أبرز من جوانب النقص فى البيان الإنسانى ، ما يبرز جوانب الكمال فى البيان القرآنى .

---

(١) النبأ العظيم صـــ ١٠٧ .

ولكنه لم يكتف بالقول بخلو القرآن من عيــــوب البيان البشرى ؛ لأنه أمر مسلم به ، ولكنه وضع يده على المزايا القرآنية فشرحها ، ثــــم قدم لأكثرها من التطبيقات القرآنية ما يبرزها ويفتح الطريق إلى بحثها ودراستها ٠

بناء الإعجاز على المباينة منهج له جذوره

وبناء دراسة الإعجاز البيانى على فكرة المباينة ، والبحث عن الخصائص التى انفرد بها أسلوب القرآن ــ أمــر له جذوره فى تراث علمائنا ٠ ، وإن قل من أدار أمر الإعجاز على هذا الوجه ٠

يأتى على رأس هؤلاء الأئمة ، الإمام الخطابى ٣٨٨ هــ حين نعى على من ذكر أن القرآن معجز ببلاغته ، ولكنه حين يسأل عن هذه البلاغة التى اختــص بــها القـــرآن ، يقول : هى ضرب من المعرفة لا يمكن تحديده ٠ ثم قال معقبا على هؤلاء :" وهذا لا يقنع فى مثل هذا العلم ولا يشفى من داء الجهل ، وإنما هو إشكال أحيل به على إيهــام " (١) ٠ ثم حاول هو أن يجيب عن السؤال الذى عجز عنه العلماء ، فسار خطوات قصيرة بدأ بها الطريـــــق ٠

يقول أستاذنا الدكتور : محمد أبو موسى :

" وهذا السؤال الذى انقدح فى ذهــن الخطابى ، كان يمكن أن يكون أساسا لدراسة فرعين من فروع البلاغة الأول : بلاغة البشر كيف تكون ؟ ، وما حدودها ؟ وقد انصرفت الجهود إلى هذا الفرع ، وأتقنتــه ، ولكنها لم تصل إلى تحديد

---

(١) بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابى صــ٢٥ ٠

المستوى الذى تنتهى عنده طاقة البشر ٠٠٠٠ ، والفرع الثانى : البلاغة الخاصة بالقرآن ٠ التى ليس فيها شئ من بلاغة النفس الإنسانية ٠٠٠ بمعنى البلاغة التى هى نوع من إحياء الموتى ٠٠ وكلامه صريح فى أن البلاغة القرآنية باب يتميز عن سائر البلاغات الإنسانية ، ولأجل هذا كان الخطابى أول من درس الإعجاز البلاغى — فيما نعلم — على غير الوجه الذى أداره عليه غيره ؛ فلم يتكلم عن التشبيه والاستعارة ، ولا فى التقديم ٠٠ وغير ذلك مما ألف الناس ٠ الخوض فيه حين يتكلمون عن الإعجاز البلاغى " (١)

وسار الإمام الباقلانى ٤٠٣ هـ على النهج ذاته ، فحين ذكر الوجه الثالث من الإعجاز وهو " بديع النظم وعجيب التأليف " ، فصل هذا الوجه بعشر سمات باين بها القرآن أسلوب البشر (٢) ، وأفاض فى ذلك على نحو كان له أكبر الأثر فى دراسة الدكتور دراز لقضية الإعجاز اللغوى ٠

والمهم أن الإمامين يبحثان فى القرآن عن البلاغة الغائبة فى بيان البشر ٠يقول الدكتورمحمد أبو موسى " ولا أعرف لهما ثالثا سبقهما فى تراث القدماء ، ولهذا لا نجد فى كلام الخطابى شيئا متصلا بفنون البلاغة ٠ كالتشبيه ، والمجاز ؛ لأن هذه الفنون توجد فى كل كلام ٠ إنما كان يبحث عما لا يوجد إلا فى القرآن ٠ وكذلك الحال مع أبى بكر بن الطيب : لم يتعرض لهذه الفنون إلا ليبطل قول من قال : إن إعجاز القرآن راجع إليها " (٣) ٠

---

(١) الإعجاز البلاغى د: محمد أبو موسى صـ ٤٢ وما بعدها ٠
(٢) يراجع إعجاز القرآن ، للإمام الباقلانى صـ٨٦ ٠
(٣) السابق صـ ١٩٠ ٠

لكـن الدكتور : عبد الرءوف مخلوف يزعم أن المباينة التى يراها الإمام الباقلانـى ٤٠٣هـ أسـاس الاعجاز هى المباينة فى الشكل والقالب فيقول:" والمباينة عنده فى الشكل والقالب؛ ثـم يعلق يعد ذلك على رأى الإمام قائلا :" وهو بصنيعه هذا، وذهابه ذلك المذهب يضعنا أمام أمرين : أولهما: هل التخالف فى الشكل والقالب يقتضى لذاته أن يكون بعـض القوالب أبلـغ من بعض ، حتى يكون القرآن بمجيئه على أسلوب مخالف لجميع أسـاليـب العرب معجزا ؟ . وثانيهـما : هـل واقع القرآن أنه أسلوب جديد لم تألفه العرب ؟ وليس فيه سجـع فيه إرسـال .. على غرار مانجـد فى أساليب العرب "(١)

وأظـن أن الإمام الباقلانى - رحمه الله ـ أوعى من أن يجعل الشكل أو القالـب أساس الإعجاز الذى باين به القرآن كلام البشـر؛ فإن الناظر فى كلامه يرى غير هـذا؛ فقـد ذكر الإمام كلام العلماء فى نظم القرآن ، وأنه متناه فى البلاغة إلى الحد الذى عجز عنه الخلـق ، ولكنه أحس أن ماذكره العلماء ـ مسألة مبهمة تحتاج إلى تفصيل ، فذكـر سمات عشرا ؛ يفسـر بها إبهام النظم ، ويبين جهة المباينة . وكانت المباينة فى الشكـل أو القالب إحدى هذه السمات ، وأما بقية السمات فتتعلق بمعانى القرآن ، وفصاحتـه، وعـدم تفاوتـه(٢) وفرق كبير بين أن يكون القالب وجها من وجوه الإعجاز، وبين أن يكـون هـو وجـه الإعجـاز وأسـاس المباينة. وهـذا ماالتفت إليه القاضى عيـاض ت ٥٤٤هـ(٣) حين جعل من وجوه إعجاز القرآن ، إعجاز النظم ، وإعجاز صورة النظم.

---

(١) الإمام الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن . دراسة تحليلية نقدية د/ عبدالرءوف مخلوف. منشورات دار مكتبة الحياة بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٨م صـ ١٨٩، صـ ١٩٧ .

(٢) يراجع إعجاز القرآن . للإمام الباقلانى ـ الوجة الثالث من صـ ٨٦ .

(٣) عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبى. عالـم المغرب ، وإمـام أهل الحديث فى عصره ولد بـ " سبتة " وتوفى بمراكش من تصانيفه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " وشرح صحيح مسلم وغيرها . ولد فى ٤٧٦هـ وتوفى فى ٥٤٤هـ (الأعـلام : (٥/٢٨٢) .

فالأول : يتمثـل فى : حسن تأليفه ، والتئام كلمه، وفصاحته ووجـوه إيجـازه ، وبلاغته الخارقـة عادة العرب "(١) .

أما الثانى : فيتمثل فى :" صورة نظمه العجيب وأسلوبـه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب مناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليـه "(٢)

وعلى نهج الإمامين : الخطابى ٣٣٨هـ والباقلانى٤٠٣هـ سار الدكتوردراز، فلم يبحث عن البلاغة البشرية من خلال القرآن ، وإنما بحث عن الخصائص البيانيـة التى انفرد بها القرآن ، وكانت فكرة المباينة أساسـا انطلق منه إلى آفـاق أخرى ، أرحـب مـدى ، وأوسـع نطاقـا ، فدرس بعض خصائص البيان القرآنى من جانـبين :

١ـ البنـاء الصـوتـى .   ٢ـ البنـاء المعنـوى .

صعوبـة الوصول إلى خصائص عامة للمباينـة .

وهـذه الخصائص البيانية لجانبى البناء البيانى للقرآن .. تمثل عند الشيخ ـ دعائم بنيـة القرآن الداخلية . الدالة على أنه من أصل إلهى . والوصول إلى خصائص عامـة لبيـان القـرآن - أمـر شاق وعسير ؛ لأنه يتطلب فوق التذوق والتفكر دراسة ووعـيا لمنهج الإبانـة الإنسانية، وخصائصه ، ثم الانطلاق من ذلك إلى ساحـة القرآن ومنهجـه البيانى ، والمرور بما يصل إليه الإنسان من خصائص على القـرآن كلـه ليـرى : أتلك خصيصة عامة، أم هـى جزئيـة ، نابعـة من سـياقها فحسـب ؟ .

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ت : على محمد النجار ط عيسى الحلبى وشركاه جـ١ صـ ٣٥٨ .

(٢) السـابق صـ ٣٦٩ .

وقـد ذكر المرحوم الشيخ : سـيد قطـب(١) أن جهد سلفنا قـد توقف عند خصائص النصوص مفردة ، وإدراك مواضع الجمال المتفرقة ، وتعليل كل موضع منها تعليلا منفردا " أما مرحلـة الخصائص العامة فلم يصلوا إليها أبدا ٠ لا فى الأدب ، ولا فى القـرآن ، وبذلك بقـى أهم مزايا القـرآن مغفـلا وخافيا ، وأصبح لا بد لدراسة التعبير فى هـذا الكتاب المعجز من منهج للدراسة جـديد ، ومن بحـث عن الأصول العامة للجمال الفنى، وبيان للسمات التى تميز هـذا الجمال عن كل ماعرفته العربية من قول البشر، وتفسـر الإعجاز الفنى تفسيرا يستمد من تلك السمات المتفـردة فى القـرآن " (٢)٠

ويبـدو أن الأستاذ سـيد قطب - رحمه الله - لم يقرأ كتاب الدكتور دراز ، ولـم يقف على جهده القيم فى البحث فى بعض الخصائص البيانية للقرآن ، ولايمكن أن يقـرأ هذا الجهد دون إشارة ، ويؤكـد ذلك أن كتاب الدكتور دراز " النبـأ العظيم " وإن ألـف قبـل " التصوير الفنى " إلا أنـه نشر بعده ، إذ شغل الشيخ دراز فى فرنسا بتحضـيره لدرجـة " الدكتوراة " ثم شغل بعد عودته بالأعمال التى نيطـت به ٠(٣)

---

(١) سيد ابراهيم قطب ولد فى قرية " موشا " بمحافظة أسيوط عام ١٩٠٦ ٠ عاش أكثر حياته للدفاع عن الإسلام ومحاربة خصومة وهو مع ذلك أديب ناقد شاعر من أبرز كتبه " فى ظلال القرآن الكريـم والتصوير الفنى للقرآن " وأعدم فى عام ١٩٦٥م٠
انظـر سيد قطب من القرية إلى المشنقـة ٠ د: عادل حمودة طسينا للنشر الطبعة الأولى ١٩٨٧م

(٢) التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب ط دار المعارف ، الطبعة العاشرة (د/ت) صـ ٣٢ ٠

(٣) بـدأ الشيخ فى كتابه منذ عام ١٩٣٥م تقريبا ثم سافر إلى فرنسا ، وعاد إلى مصر فظل مشغـولا بأعماله حتى نشر الكتاب فى مارس ١٩٥٧م ــ كما ذكر هو فى مقدمة كتابه صـ٨، بينما نشـر الأستاذ سيد قطب هذا البحث فى مجلة المقتطف عام ١٩٣٩، ثم أكمله وأضـاف إليه بعد سنوا ت قليلـة كما ذكر هـو فى مقدمـة التصوير الفنـى صـ٩ ٠

وعلى الرغم من تأخر كتاب الدكتور دراز في النشر، إلا أنه ليس في كلامه مايشير إلى أنه قرأ ، أو أفاد من التصوير الفني " ؛ فليس من الخصائص البيانية التي ذكرـ مايلمح إلى خصصية " التصوير الفني في القرآن "، وهي التي أقام الشيخ سيد قطب كتابه عليها . كما إن الدكتور دراز حين تحدث عن البناء الصوتي للقرآن ـ لم يقدم تطبيقا واحدًا على حديثه ، بينما أفاض الشيخ سيد قطب في التطبيق لهذا الجانب ، ولو قرأه الشيخ لألمح إليه على الأقل .

يقول أستاذنا الدكتور : محمد رجب البيومي :

" وأنا أعرف أن الكاتب الشهيد : سيد قطب ـ رحمه الله ـ قد كتب مؤلفه الرائع " التصوير الفني في القرآن " فأتى بمذهب جديد في اكتناه التعبير الفني ، لم يسبق إليه سواه . ولكن كتاب " النبأ العظيم " لم يقتصر على التصوير الفني وحده باعتباره الأداة المفضلة للتعبير، كما ذهب الأستاذ سيد قطب ـ رحمه ـ ، بل نظر إلى القرآن : فكرة، وصورة ، وتعبيرًا ، وجدلا ، وحوارًا، وبذلك يكون سالكا منهجا غير منهج التصوير الفني : ومامن الرجلين إلا له مقام مشهود "(١)

والمهم أن هم الرجلين كان واحدًا . وهو الوصول إلى الخصائص العامة للبيان القرآني ،وإن ذكر كل واحد منهما غير ماذكر الآخر، فقد انشغل المرحوم سيد قطب(٢) بخصيصة واحدة . وهي أن " التصوير الفني قاعدة التعبير القرآني المتبعة في جميع أغراضة ، حتى التشريع ، وهي الخصيصة التي لايخطئها الباحث في جميع الأجزاء" . ثم عكف على معنى التصوير،وأدواته وألوان التناسق الفني محللا ،ومستشهدًا لما يقول. بينما أقام الدكتور دراز بحثه على خصائص البناء الصوتي، ثم خصائص البناء المعنوي للقرآن في قطعة قطعة منه،وفي سورة سورة منه، وفيما بين سورة وسورة، ثم في جملته.

---

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين د: محمد رجب البيومي جـ٥ صـ١٨٣ .

(٢) التصوير الفني سيد قطب صـ ٦١ .

المبحـــث الســـادس

من جوانب الإعجـــاز اللغـــوى عند الشيخ

أ: البنـــــاء الصوتـــى

١ــ الصوت وأثره فى الإعجــاز ٠

٢ــ البناء الصوتى شكلا وجوهرا عند الشيخ ٠

٣ــ البناء الصوتى بين الجزالة والسلاســة ٠

٤ــ مغزى البناء الصوتـــى ٠

٥ــ هـــل وفى الشيخ البناء الصوتى حقـــه من الدراسة ٠

٦ــ خطوات على طريق دراســة البناء الصوتـــى ٠

١ـ الصـوت وأثـره فـي الإعجـاز

الصـوت أحـد الوسائل القادرة على أسر النفس ، وإصابة مواطن التأثير فيها، وهـو أحد الدلالات الفاعلة التى تهدى إلى ألوان من المعانى والظلال ، ماكان لها أن تخرج إلـى ساحة البيان مالم يراع المتكلم هذا التناسب الصوتى فـى بيانـه ، ولذلـك كـانت وصيـة المشركين لأنفسهم وأتباعهم : " لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ "٠فصلـت/٢٦) ؛ لأن السماع وحده قاض نافـذ الكلمة فى أمر هذا البيان ٠

وقديمـا " زعم الفلاسفة أن النغم فضل بقى من المنطق ، لم يقـدر اللسـان علـى استخراجه ، فاستخرجته الطبيعة بالألحان"(١) فهذا النغم يعبر عن معان لم يقدر اللسان على استخراجها بما منحته اللغة من ألفاظ مجردة ، وإنما يحملها النسق الصوتـى للتركـيب ٠ يقول الدكتـور : محمـد أبو موسـى

" هنـاك معان لايعبرعنها إلا بهذه المقطوعات اللغوية المنغومة ، وليس باللغة وحدهـا فارغة من هذا النغم ، فالمقام قد يفرض عليك لغـة ذات حفيف ، فهذا الحفيف لامحيد لـك عنه ولايجوز أن تبتغى به بـدلا"(٢)

والبناء الصوتى وأثره فى الإعجاز فكرة لها جذورها فى تـراث علمـاء البلاغـة والإعجاز ، وكان لجهدهم أثره الواضح فى تناول الدكتور دراز لهذه المسألة ٠

---

(١) العقد الفريد ، لأحمد بن عبد ربه الأندلسى ت:محمد سعيد العريان ط : دار الفكر (د/ط) (د/ت) جـ٧ صـ٣ ويراجع النقـد الأدبى الحديـث د محمـد غنيمى هلال ط : دار نهضـة مصر سنة ١٩٩٦م صـ٤٣٥ ٠

(٢) مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى د٠ محمد أبو موسى صـ ١٢٥، ومابعدهـا ٠

فالإمام الرماني ٣٤٨هـ من أوائل من اهتم بالقضية ؛ فقد تحدث عن التلاؤم القرآني ، وهو تعديل الحروف فى التأليف ، وذكر أنه خارق للعادة ، وأنه يحسن الكلام فى السمع ، ويسهل اللفظ ويجعل النفس تقبل المعنى . إلا أنه يرى أن التلاؤم وحده لايكفى فى إظهار أمر الإعجاز ، وإنما لابد أن يضاف إليه حسن البيان ، وصحة البرهان . فيقول : " فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان ، وصحة البرهان فى أعلى الطبقات ـ ظهر الإعجاز للجيد الطباع ، البصير بجواهر الكلام "(١)

والإمام الباقلانى ٤٠٣هـ يجعل خروج القرآن عن معهود كلام العرب من أعاريض الشعر ، وألوان السجع ، والكلام المرسل ـ وجها من وجوه إعجاز القرآن النظمى فيقول بعد بيان أقسام كلام العرب ، وخروج القرآن عنها :" فهذا إذا تأمله المتأمل تبين ـ بخروجه من أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ـ أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز . وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتميز حاصل فى جميعه" (٢).

وإمام البلاغة عبد القاهر ٤٧١هـ لاينكر أثر البناء الصوتي فى الإعجاز كمافهم البعض ، وإنما ينكر أمرا واحدا هو : أن يتعسف متعسف . فيجعل تلاؤم الحروف أصل الإعجاز . فهو يقول : " واعلم أننا لاننكر أن يكون مذاقة الحروف ، وسلامتها مما يثقل على اللسان ـ داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز، وإنما الذى ننكره ، ونفيل رأى من يذهب إليه - أن يجعله معجزا به وحده، ويجعله الأصل والعمدة"(٣)

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن ، للإمام الرماني ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن صـ ٩٦، ويراجع معه الإعجاز البلاغى د. محمد أبو موسى صـ ١٤٩ .

(٢) بيان إعجاز القرآن ، للإمام الباقلانى صـ ٨٦ .

(٣) دلائل الإعجاز صـ ٤٠١ .

ولعل كلام الإمامين: الرماني ٣٨٤هـ والباقلاني ٤٠٣هـ كان أقرب أثرا إلى نفوس المحدثين من الإمام عبد القاهر ٤٧١هـ؛ لأن الرماني جعل التلاؤم وجها من وجوه الإعجاز، فتحدث عنه ، وبين مقياسه فيه. وان اشترط أن ينضاف إليه حسن البيان وصحة البرهان ليظهر الإعجاز ، والباقلاني يجعله وحده وجها من وجوه إعجاز النظم. بينما كان عبدالقاهر بصدد الحديث عن النظم ، وأراد أن يدفع عن نفسه شبهة إنكار أثر الأصوات في تأكيد أمر الإعجاز فحسب .

وعلى منهج الرماني والباقلاني ـ يأتي الرافعي ١٩٣٧م ليذكر أن البناء الصوتي يشبه أن يكون صوت الإعجاز ، وأن القرآن رتبت حروفه في كلماته ، وكلماته في جمله على نحو أعجز العرب وأتاهم بما لاقبل لهم به ، ثم يقول :" وحسبك بهذا اعتبارا في إعجاز النظم الموسيقي للقرآن ، وأنه مما لايتعلق به أحد ، ولايتفق على ذلك الوجه الذى هو فيه ـ إلا فيه ؛ لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ، ومناسبة بعض ذلك لبعض مناسبة طبيعية ..."(١)

فإذا كان البناء الصوتي . ينهض عند الرماني بالإعجاز مضاما غيره ، فهو عند الرافعي خارق وحده ؛ وذلك لأنه يمثل الكمال النغمي فىالفطرة الإنسانية للعربي والعجمي "(٢) . ورأى الرافعي أقرب إلى رأى الإمام الباقلاني ٤٠٣هـ .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي صـ ٢١٥ .

(٢) الإعجاز البلاغي د . محمد أبو موسى صـ ١٤٩ .

ثـم جاء الدكتور دراز فاستوعـب كلام الأئمـة،ثم صاغ رأيه في القضية على نحـو جمع بين كلام هؤلاء الأئمة ، فالبناء الصوتي عنده خصيصة من خصائص الإعجاز، وليـس سمة تؤكد أمر الإعجاز كما ذكر الإمام عبد القاهر ٤٧١هـ ٠ وهـو وجـه مـن جـوه الإعجاز البياني وليس أصله ومصدره ، بل لابد أن ينظر معه إلى أمـر آخـر لايتعلـق بالألفاظ من حيث هي جرس ، ونطـق لسان ، وإنما يتعلق بها من حيث هي أداة لتصويـر المعاني ، ونقلها من نفس إلى نفس ٠ وقـد ذكر الشيخ أن هذه الناحيـة الأخـيرة " أعظـم الناحيتين أثرا في الإعجاز اللغوي ؛ لأن اللغات تتفاضل من حيث هي بيـان ــ أكـثر مـن تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغـام " (١)

فالبناء الصوتي عنده معجـز ، ولكنه لاينهض بإظهار أمر الإعجـاز البيـاني إلا إذا نظرنا مع ذلك إلى البناء المعنوي للقرآن ، ومنهجه في تصوير المعنى ونقلـه من نفس إلـى نفس ٠ ولعل هذا ماكان في نفس الإمام الرماني ٣٨٤ ،حيث اشترط أن ينضاف حسـن البيـان "٠

٢ــ البناء الصـوتي شكـلا وجـوهـرا عنـد الشـيخ

ذكر الشيخ أن " أول ما يلاقيك من أسلوب القرآن خاصية تأليفه الصوتي فـي شـكله وجوهره ٠ وقد وفق الشيخ حين قال: " يلاقيك " دون " تلقاه " ؛ لأن القرآن الكريم مصـدر التأثير، وهو تأثير نابع منه، وليس مفروضا عليه، تأثير تدركه النفس بمجرد سماعها له ٠

وللبنـاء الصوتـي شـكل وجوهـر كما ذكـر الشـيخ :

فالشكـل : ــ يتمثل في توزيع الحركات والسكنات ، والمدّات والغنّـات ، والاتصالات والسكتات، التي يميزها المرء من مكان قصي لايسمع فيه أصوات الحروف وإنمـا يسـمع نغمـا مجـردا ٠

والجوهر : ــ يتمثل في صوت الحرف من حيث مخرجه ، وترتيب وضعه مع غـيره

وقـد ذكر الشيخ أن القرآن قد أتى على الغاية في جانبي التأليف الصوتي ٠

---

(١) النبـأ العظـيم صــ ١٠٦

يقــول الشيخ عن شــكل البناء الصوتي : " دع القارىء المُجوّد يقرأ القــرآن يرتلــه ترتيلا ــ نازلا بنفســه على هوى القرآن ، وليس نازلا بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبــذ منه مكانا قصــيا لاتســمع فيه جرس حروفه ، وإنما تسمع حركاتها وســكناتها ، ومداتــها وغناتها ، واتصالاتها وسكتاتها ، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة وقد جــردت تجريــدا، وأرسلت ساذجة في الهواء ، فستجد نفسك بإزاء لحــن عجيب غريب ، لاتجده فــي كــلام آخر لو جُــرد هذا التجريد ، وجُــود هــذا التجويــد " (١)

وعلنا نلحــظ وصف الشيخ للقارىء بكونه " مجــودا "؛ إذ لاتصــح قــراءة القــرآن إلا به ، وهو الأداة التي تمنح البناء الصوتي عمله في النفس ، وهذا مايجعلنا نفهم سر إثــم من لم يجود القــرآن . وأحكام التجويد تتعلــق بصفات الحروف ومخارجها ، كما تتعلــق بالمدات والغنات الخ ولكن الشيخ يطلب من السامع ألا يلقى سمعه إلى جرس الحروف الآن

ولعــل الشيخ في اشتراطه التجويد ــ ناظر إلى ماذكر الرافعي ١٩٣٧ من أن مــادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو ســبب فــي تنويــع الصوت ..."وأننا " لو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن علــى طــرق الأداء الصحيحــة ــ لرأيناه أبلغ ماتبلغ إليه اللغات كلها في هــز الشعور ، واستثارته من أعماق النفــس ، وهــو من هذه الجهة يغلب كل طبع عربي أوعجمي ، حتى إن القاسية قلوبهم مــن أهــل الزيــغ والإلحاد ــ لتلين قلوبهم وتهتــز عند ســماعه " .(٢)

وحين يستمسك السامع بما أوصــاه الشيخ ــ يلمــح الفرق بين بيان القــرآن وبيــان الإنسان . يقــول الشــيخ :

---

(١) النبــأ العظــيم صــ ١٠٢

(٢) إعجاز القرآن للرافعي صــ ٢١٥، صــ ٢١٦

"ستجد اتساقا وائتلافا يسترعى من سمعك ماتسترعيه الموسيقى والشعر ـ على أنه ليس بأنغام الموسيقى ، ولا بأوزان الشعر ، و ستجد شيئا آخر ليس فى الموسيقى ولافى الشعر؛ ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر ، فإذا هى تتحد الأوزان فيها بيتا بيتا ، وشطرا شطرا ، وتسمع القطعة من الموسيقى ، فإذا هى تتشابه أهواؤها ، وتذهب مذهبا متقاربا ٠ فلايلبث سمعك أن يمجها ، وطبعك أن يملها ، إذا هى أعيدت ، وكررت عليك بتوقيع واحد ، بينما أنت مع القرآن أبدا فى لحن متجدد متنوع "٠(١)

فالبناء الصوتى للقرآن يفوق الموسيقى والشعر؛ لأن اتحاد الأوزان فى الشعر، وتشابه الأهواء فى الموسيقى ـ قد يمله السمع ، ويمجه الطبع مع الإعادة والتكرير ٠ أما القرآن فمتجدد متنوع ينتقل فيه المرء بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة ٠ وهذا التوزيع المعتدل المعجز للحركات والسكنات ، والمدات والغنات ، والاتصالات والسكتات ـ يفسر السر فى مقارنة العرب بين القرآن وبين الشعر دون غيره من الأنماط البيانية ٠

يقول الشيخ :

" إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية فى نظم القرآن الكريم ـ هو ذلك النظام الصوتى البديع ٠ وهذا النحو من التنظيم إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه فى أشعارها ـ فذهبت فيها إلى حد الإسراف فى الإستهواء ، ثم إلى حد الإملال فى التكرير ـ فإنها ماكانت تعهده قط ٠ ولا كان يتهيأ لها بهذه السهولة فى منثور كلامها سواء منه المرسل والمسجوع ٠٠ لاعجب إذن أن يكون أقرب الألقاب إلى هذا القرآن فى خيال العرب ـ أنه شعر؛ لأنها وجدت فى توقيعه هزة لاتجد شيئا منها إلا فى الشعر، ولاعجب أن ترجع إلى نفسها فتقول : إنه ليس بشعر؛ لأنه كما قال الوليد : ليس على أعاريض الشعر فى رجزه ولاقصيده" (٢)

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٠٣ ٠

(٢) السابق الصفحة ذاتها ٠

وكـلام الشيخ هـنا نابع من معين الرافعي ١٩٣٧ ؛ فقـد سمى هذا التنوع والتجـدد في البناء الصوتي ـ بطريقة " الاستهواء الصوتي " ، وهذا الاستهواء يتجدد ويتعالى بتجـدد الأسباب ، والأوتاد والفواصل وتنوعها ، أما حين يتكـرر ذلك دون تنوع ـ فهذا إسـراف في إستهواء النفس ، وبلوغ بها إلى حـد الإملال ٠ وطبيعة القرآن : " أنه لايسـرف علـى النفس ولايستفرغ مجهودها ، بل هو مقتصـد في كل أنواع التأثير عليها ، فلا تضـيق بـه ولاتنفر منه ولايتخوَّنُهاالملال ، ولاتزال تبتغي أكثر من حاجتها في التروح والإصغاء إليـه ، والتصرف معه والانقيـاد له "٠(١)

وهـذا التنوع هو الذي جعلهم يرجعون عن قولهم : " إنه شعر " ، ولكن المحـير أن هذا التوافق والاختلاف لايتهيأ لهم في نثرهـم ، ولعل هذه الحيرة هي التي جلعتهم يسـمونه " بالسحـر " ؛ لأنه كما يقـول الشيخ : " جمع بين طرفي الإطلاق والتقيد في حـد وسـط، فكان له من النثر جلالـه وروعته ، ومن الشعر جماله ومتعتـه" (٢)

جـوهـــر البنـاء الصوتـي :

ثم ينتقـل الشيخ إلى جوهـر البناء الصـوتي فيقول : " إذا اقتربت بأذنك قليلا قليـلا، فطرقت سمعك جواهر حروفـه خارجـةً من مخارجها الصحيحـة ـ فاجـأتك منـه لـذة أخرى في نظـم تلك الحروف ورصفها ، وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا يصـفـر، وذاك ينقر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلـق عليه النفس ، وآخر يحتبس عنده النفـس، وهلم جرا، فترى الجمال اللغوي ماثلا أمامك في مجموعـة مؤتلفـة مختلفـة، لاكركـرة ولاثرثرة ، ولارخـاوة ولا معاظلة ، ولاتناكر ولاتنافر ٠ وهكذا تراه كلاما ليس بـالحضري الفاتـر ، ولابالبـدوي الخشـن ٠

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي صـ ٢٢٣ ويراجع الفصل الخاص بالأصوات وحروفها من صـ ٢١٢ ٠

(٢) النبـأ العظـيم صـ ١٠٣ ٠

بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها وقُدّر فيها الأمران تقديرا لايبغى بعضها على بعض".(١)

وهنا يطلب الشيخ من السامع أن يترك مكانه القصى ، ثم يدنو قليلا يسمع جواهر الحروف وهى خارجة من مخارجها الصحيحة ، وسيجد اللذة هنا ماثلة فى نظم تلك الحروف وترتيب وضعها فيما بينها . وحديثه هنا ليس عن ترتيب الحروف فى اللفظ الواحد ؛ لأن هذا من وضع الواضع كما يقول الإمام عبد القاهر ٤٧١وإنما يتحدث عن البناء الصوتى للنظم كله . وإن كان هذا لاينفى المزية الصوتية فى اللفظ المفرد؛ فالتفاضل يكون فى اختياره ،واختيار موقعه الذى يبرز هذه المزية ؛ " لأن كلمات القرآن وإن كان لها فى تناسق حروفها وتلاقى مخارجها إشراق بلاغى .. إلا أنه لاينكشف ذلك الإشراق إلا بالتضام . أى أن الاشراق ذاتى ، ولكن شرط ظهوره هو تضام الكلمة مع غيرها" (٢)

وقد قرر النقد الحديث أنه : " ليس هناك كلمة توصف بأنها حسنة فى موسيقاها ـ إلا إذا أصابت مكانها اللائق بها من السياق ، كما أنهالاتستمد قدرتها الموسيقية من ذاتها ، وإنما من جملة اعتبارات أخرى بعضها يتصل بالسياق نفسه ومايضفيه على الكلمة من موسيقى ، وبعضها يتصل بتاريخ الكلمة ، وارتباطاتها، وماهو مخزون فيها من طاقات أنتجتها التجربة الإنسانية" (٣)

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٠٣ ومابعدها .

(٢) المعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ط : دار الفكر بيروت صـ ١٢٥ (د/ط) (د/ت) .

(٣) قضايا النقد والبلاغة بين القديم والحديث د. محمد زكى العشماوى ط دار الشروق. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م صـ ٣٠٤ .

ونلحظ أن الشيخ ذكر صفات الحروف ـ الهمس والجهر ـ الخ ، ولكنه لم يتعرض لمخارج الحروف وأثرها في خفه الكلمة أوثقلها . فلم يشترط ضرورة اعتدال المخارج في القرب أو البعد كما ذكر الرماني .(١)

ولم يشترط بعد المخارج كما ذكر ابن سنان الخفاجي ٤٦٦هـ(٢) ،وهما المقياسان اللذان اعتمدهما كثير من العلماء في قياس فصاحة الكلمة . وقد رفضهما ابن الأثير ت ٦٣٧هـ (٣) ، وجعل من الأذن وحدها قاضيا في ذلك بما يحسن ويقبح (٤) . ويبدو أن الشيخ دراز مع ابن الأثير؛ إذ لم يتعرض إلا لخروج الحرف من مخرجه الصحيح ؛ ولعل ذلك لما رآه من وقوع الحروف المتقاربة والمتباعدة في ألفاظ القرآن الكريم . وهي في كل أحوالها تأسر السمع ، وتستهوي النفس . والشيخ يصف مايسمع من واقع تجربته ، ولذته الذاتية .

البناء الصوتي بين الجزالة والسلاسة

ذكر الشيخ أن السامع حينئذ يجد اللذة ماثلة في مجموعة مؤتلفة مختلفة ، حيث يراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها ، برقة الحاضرة وسلاستها.

---

(١) يراجع النكت للإمام الرماني صـ ٩٦

(٢) يراجع سر الفصاحة للخفاجي صـ ٦٤

(٣) نصر الدين بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد المعروف بابن الأثير الجزري أديب كاتب من الوزراء ولد بجزيرة "ابن عمر" في شعبان ٥٥٨هـ ونشأبها، وتوفي ببغداد في ربيع الآخر ٦٣٧ من كتبه " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" و المعاني المستخرجة في صناعة الإنسان " سير أعلام النبلاء : (٧٢/٢٣) ، معجم المؤلفين : (٩٨/١٣) .

(٤) انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير : محمد محي الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية ، بيروت ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م جـ ١ صـ ٨٠ .

والقــول بامتزاج الجزالــة والسلاســة وهما متضادان ــ قول سـبق إليه الإمــام الخطابــي٣٨٨هــ ونص عليه حين ذكر أقسام البلاغة الثلاثة : البليغ الرصيـــن الجـزل ، والفصيح القريب السهل ، والجائز الطلق المرسل ، ثم قــال : " إن بلاغات القرآن حــازت من كل قسم حصــة ٠٠، فانتظـم لها بامتزاج هذه الأصناف نمط من الكلام يجمــع مــن صفتى الفخامة والعذوبــة ، وهما على الانفراد كالمتضادين ؛ لأن العذوبة نتاج الســهولة ، والجزالة والمتانــة تعالجان نوعــا من الوعــورة، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبـو كل واحد منهما عن الآخــر فضيلــة خص بها القــرآن " (١)

لكــن القــول بتعانــق الجزالة والسلاســة فى أسلوب واحد ــ قول لم يسلم من النقــد، فقــد وقــف أستاذنــا الدكتور صـباح دراز مع كلام الإمام الخطابى ناقــدا له فقــال : " إن هنــاك تسامحــا فى حكمه بتعانــق الجزالة والسهولة فى الأســاليب القرآنيــة ؛ لأن هذين المفهومين يخصان الجانب الإيقاعى للفــظ أو جرس اللفــظ ، وصورته ٠ فقد يكــون ضخما فخما جــزلا قوى الوقع شـديد السبك ٠٠٠ كما تجــد ذلك فى القرآن فى مقامــات القهر والانتقــام ، والبطش ، والتهديــد ، وتسخير قوى الكون ، وأهوال القيامة ٠٠٠، وقــد يكون الأسلوب سهــلا عذبــا بطىء الإيقــاع هادىء الوقــع كثــير المقــاطع المفتوحــة وحروف الذلاقــة ٠٠ كما نجــد ذلك فى مقامات الدعاء، والتضرع ، وآيــــات الرحمــة وأساليب الدعوة إلى الله "(٢) ٠

---

(١) بيان إعجــاز القرآن للخطابى صــ ٢٦٠

(٢)البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابى د٠ صباح دراز مطبعة الأمانة ٠ الطبعة الأولى ١٤٠٦هــ ١٩٨٦م صــ ١٥ ، ١٦ ٠

فالجزالة والسلاسة وإن كانتا وصفين للكلمة ، إلا أنهما وصفان لها باعتبار المقام الذى ترد فيه والغرض الذى تساق له ، فإذا كان المقام قويا شديدا جاءت الألفاظ كذلك ، وإذا كان هينا لينا جاءت وفقا له ،

وأظن أن تعانق الجزالة والسلاسة فى الأساليب القرآنية ـ ممكن ، وأن ذلك إن صعب تخيله فى المعنى الجزئى الذى يتمثل فى آية أو جزء منها ، فمن السهل تمثله فى سياق واحد يجمع بين الترغيب والترهيب مثلا ـ كما فى قوله تعالى :

" قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَاتُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَاأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَاتَشْعُرُونَ " . (الزمر / ٥٣ـ٥٥) .

فهذه الآيات كما أورد الإمام البخارى ٢٥٦هـ . نزلت فى أناس من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ثم أتوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ـ لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت (١)

فالخطاب فى الآية للمشركين ابتداء ، ويدخل أهل المعاصى فى ذلك من باب أولى، ونلحظ ابتداء الآية بهذا النداء الرفيق الرقيق " ياعبادى " بإضافتهم إلى ذاته ـ سبحانه ـ ثم " الذين أسرفوا " دون " المسرفين " ومافى الاسم الموصول من مد ولين ، و" لاتقنطوا من رحمة الله " بذكر الرحمة وإضافتها إلى لفظ الجلالة وماله من وقع يذيب أعظم الذنوب وإلى هنا فالأسلوب يسيل رقة وسلاسة ولينا ، ولما كان لما اقترفوه من كبائر الذنوب أثره فى استبعادهم لمغفرة الله لهم ـ اتجه الأسلوب إلى القوة والشدة والجزالة

---

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير باب قوله تعالى: " قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ـ الآية .

فعلت النبرة مؤكدة " إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم " فنجد "إن" المشددة ، ولفظ الجلالة مفخما ، و" إنه " هو الغفور الرحيم " بإن" ، وضمير الفصل، وأسلوب القصر وما يحويه من قوة ٠

بعد هذا يعود الأسلوب إلى الرقة واللين " وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له " دعوة إلى التوبة ٠ والرجوع إلى الله ٠ وفى العبارة يسر ولين يلائم يسر الرجوع إلى الله والفوز برحمته ، ٠ ثم يتجه الأسلوب إلى التخويف والانذار فيقوى الإيقاع ويشتد " من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون " ٠

فالمقامات القرآنية كثيرة ومتنوعة ، والأمر فى حاجة إلى استقصاء لأساليب القرآن وأغراضه ، ومواطن الجزالة والسهولة فيه للوصول إلى كلمة مقاربة فى بيانه القرآنى٠

مغزى البناء الصوتى

ذكر الشيخ أن شكل البناء الصوتى ، وجوهره يؤلفان معا ماسماه بـ " القشرة السطحية للجمال القرآنى " ٠ وكان بعض أساتذتنا فى حرج من هذه التسمية ٠ فقد ذكر أستاذنا الدكتور محمود توفيق سعد أنه " فى حرج من هذه التسمية ، لأنه لايعقل أن تخلو من مضمون ،٠٠ وهل دعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى الحرص على إبراز الانسجام الصوتى فى القرآن الكريم حين قال :"ليس منا من لم يتغن بالقرآن "(١) هل دعوته تلك إلا دليل قاطع على أن ثم انسجاما معنويا – روحيا احتوى عليه القرآن ، فحثنا على أن نجمع للقرآن بين الانسجامين" ٠(٢)

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن سعد بن أبى وقاص حديث رقم ١٤٧٦ ٠

(٢) التناسب عند برهان الدين البقاعى ، رسالة دكتوراة مقدمة من الدكتور محمود توفيق سعد، بإشراف الأستاذ الدكتور الكردى – بكلية اللغة العربية القاهرة مخطوط رقم ١٨٨٢ صـ ٩٧ ٠

والواقع أن الدكتور دراز لا يقصد من هذه التسمية أن البناء الصوتى مجـرد قشـرة تخلو من الفائدة ، أو ليس لها مغزى ، كما لا يفصل بين الانسـجام الصوتـى والانسـجام المعنوى · فهذا لا يعقل من الشيخ ؛ فقد نص ـ صراحة على مغـزى هـذه القشـرة فقال رحمه الله :

" إن شأنها كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ ؛ فإنه جلت قدرته قد أجـرى سـننه فى نظام العالم أن يغشى جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال ؛ ليكون ذلك مـن عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين عليها · انظر كيف جعل باعثة الغـذاء ، ورابطـة المحبة قواما لبقاء الإنسان فردا وجماعة ، فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينـا نفـائس هذه العلوم التى أودعها هذا الكتاب ـ قضت حكمته أن يختار لها صوانا يحببها إلى النـاس ، ويغريهم بطلاوته ، ويكون بمنزلة " الحداء " : يستحث النفوس على السير إليـها ، ويـهون عليها وعثاء السفر فى كمالها " (١)

فهى ستار جميل يحفظ القرآن ويحبب النفوس فى تلاوته :

ذلك أنها صدفة تخفى لؤلؤا ، وستار جميل يحفظ القـرآن ، ويحبـب إلـى النفـوس تلاوته، والدخول إلى ساحة جماله ، وجلاله ، ولو كان هذا الستار قبيحا أو ممزقـا ـ مـا تنافس أحد فى الاقتراب منه ، أو الدخول إلى ساحة الجمال القرآنى · وقد شبه الشيخ هـذه القشرة ـ لأهميتها ـ بباعثة الغذاء ، ورابطة المحبة فى : أن كل واحدة منها قـوام غايـة سامية لا تتحقق بدونها ؛ ففى " باعثة " الغذاء قوام حياة الأفراد ، وفى رابطة المحبة قـوام حياة المجتمعات· ولعلنا نلحظ أن الشيخ يشبه القشرة " بباعثة الغذاء "، وليس بالغذاء نفسـه ؛ لأن هذه الباعثة أمر نفسى ، ودافـع يدفـع المرء إلى إقامة حياتـه بالغذاء ، ولـو شبهها بالغذاء لاختلف الأمر ؛ إذ الغذاء بلا باعثة تدفع إليه لا قيمة له ؛ وربما يفقد الإنسان حياتـه حين يفقد هذه الباعثة وإن وجد الغذاء · كذلك حين يبدأ المرء فى القراءة تكون هذه القشـرة السطحية باعثة القراءة والسير إلى ساحة الذكر الحكيم ·

---

(١) النبـأ العظـيم صـ ١٠٤ ·

كما شبهها الشيخ " بالحداء " : يستحث المرء على السير ، ويهون عليه وعثاء السفر ٠

وهو فى تشبيهه هذا ناظر إلى الإمام الرافعى ١٩٣٧ هـ ٠ ويؤيد ذلك أنه عند حديثه عن جوهر التأليف الصوتى ـ طلب من القارئ أن ينظر فى كتاب الرافعى ؛ لأنه طال نفسه فى هذه المسألة ٠ (١)

يقول الرافعى :

" وطريقة نظمه قد جعلت فى تلاوته قوة الانبعاث للنفس المكدودة ، كما يكون للضرب الخالص من ضروب الموسيقى على ما هو معروف من تأثيرها فى النفس ، ووجه هذا التأثير ، بل هو للنفس العربية كالحداء للإبل العربية ؛ مهما كدها السير لم يزدها إلا إمعانا فيه ولم تستأنف منه إلا نشاطا واعتزاما " (٢)

فهى قوة إلهية صانت القرآن وحفظته ، وهى كذلك تستحث النفس على السير فى كتاب الله ليقف المرء على جماله وجلاله ، متى جمع سبل الفهم والتدبر ٠

وهى سر من أسرار الطراوة والجدة القرآنية :

كما أنها سر من أسرار الطراوة والجدة فى البيان الإلهى ٠ وفى هذا يقول الشيخ : " وأنت قد تسمع بعض المبتدئين فى تذوق الجمال القرآنى ، والبحث عن منابع جماله ، يتساءلون : ما سر تلك الحالة النفسية التى يجدها تالى القرآن وسامعه من طراوة وتجدد ونشاط مع كل مرحلة منه حتى لا يعرف الملل لهما سبيلا مهما أمعن السير فيه ؟ ؛ فنبئهم أن تلك الظاهرة العجيبة لها منابع عدة قد أشير إلى طرف منها فيما تقدم من الحديث عن الخاصية الصوتية للقرآن " (٣) ٠

---

(١) النبأ العظيم ١٠٤

(٢) إعجاز القرآن ـ للرافعى صـ ٢٢٤

(٣) السابق صـ ١٤٤ ، ومابعدها

وهى مظهر من مظاهر الغرابة القرآنية :

وهى كذلك مظهر من مظاهر الغرابة ، أو العزة القرآنية ، وهى منعة طبيعية كفت ولا تزال تكف يد الناس عن أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم ، ويبين الشيخ سر عجز الناس عن ذلك فيقول : " ماذاك إلا لأن فيه منعة طبيعية كفت ولاتزال تكف أيديهم عنه ، ولاريب أن أول ما تلاقيك هذه المنعة ــ فيما صورناه لك من غريب تأليفه فى بنيته ، وما اتخذه من رصف حروفه وكلماته ، وجمله وآياته من نظام له سمت وحده ، وطابع خاص به خرج فيه عن كل نظام تعاطاه الناس أو يتعاطونه ٠٠٠ وآية ذلك أنه لو حاول أحد من الناس أن يدخل شيئا من كلام الناس من السابقين منهم ، أو اللاحقين من الحكماء والبلغاء ، أو النبيين والمرسلين ــ لأفسد بذلك مزاجه فى فم كل قارئ ، وإذن لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل ، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفى الكير خبث الحديد " (١) ٠

والغرابة هنا لا تعنى " غريب القرآن " ، وإنما تعنى العزة والقوة التى قامت بها حجة القرآن فى التحدى والإعجاز ٠ وهذه القشرة السطحية هى إحدى مظاهر الغرابة والعزة القرآنية ٠ وتتمثل بقية المظاهر فى بنائه المعنوى النابع من نظم كلماته فى جمله ، وجمله فى آياته على نحو صار به نظما خارجا عن بيان الناس ٠

والغرابة بهذا المفهوم الذى هو مظهر من مظاهر الإعجاز ــ قد أشار إليها الإمام الباقلانى ٤٠٣ هـ فقال فى ذكره لبعض وجوه الاعجاز النظمى للقرآن : " ومنها : أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ٠٠٠ والتناسب فى البلاغة على هذا الطول ، وهذا القدر " (٢) ٠

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٠٥ ، صـ ١٠٦

(٢) إعجاز القرآن ، للإمام الباقلانى صـ ٨٧

ولكن كلمة " الغرابة " جاءت عابرة فى كلام الإمام ، فلم يقف أمامها ، ولـــم يوضـــح مقصوده بها ، أو مظاهرها . أما الرافعى ١٩٣٧م فقـــد توقف أمام الغرابة وعدها شـــطر الإعجاز ، فقال عند حديثه عن غرابة أوضاع القرآن التركيبة : " وهاهنا أمر دقيـــق لابـــد مـــن طلب وجهه ؛ لأنه شطر الإعجاز ، وسائر ماقدمناه شطر مثله : ذلك أنك حين تنظـــو فى تركيبه — لاترى إلا وضعا غريبا فى تأليف كلماته ، وفى مساق العبارة بحيث تبـــادرك غرابته من نفسها ، وطابعها بما يقطع أن هذا الوضع ، وهذا التركيب — ليـــس مـــن طبـــع الإنسان ، ولايمكن أن يتهيأ له ابتداء ، أو اختراعا ، دون تقدير علـــى وضـــع يشبـــهه ، أو احتذاء لبعـــض أمثلـــة تقابلـــــه" .(١)

وهذه الغرابة هى التى جعلت " ألفاظ القرآن بائنة بنفسها ، فحيثما وجد منـــها تركيـــب فى نســـق من الكلام دل على نفسه ، وأومأت إليه محاسنه " (٢)

وكلمـــة الرافعـــى هـــذه تلخيص دقيق لما ذكره الإمام الباقلانى ٤٠٣هـــــ فـــى الوجه الثامن من وجوه إعجاز النظم ، فهو يقـــول :" إن الكـــلام يبـــين فضلـــه ورجحانـــه وفصاحته ، بأن تذكر منه الكلمة فى تضاعيف كلام ، أو تقذف مـــابين شـــعر — فتـأخذه الأسماع، وتتشـــوق إليه النفوس ، ويرى وجـــه رونقـــه باديا غامـــرًا — سائـــر مـــايقرن به" .(٣)

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى صـــ ٢٤٩
(٢) السابق صـــ٢٥
(٣) إعجاز القرآن للإمام الباقلانى صـــ ٩٤

ونلحظ أن الإمامين : الباقلاني والرافعي جعلا الغرابة ـ قوة تجعل تركيب القرآن يبين عن نفسه حيثما وجد في نسق من الكلام . بينما نظر الدكتور دراز للأمر من جهة أخرى؛ فجعلها قوة تبين عن كل دخيل يحاول أن يقحم نفسه في بيان القرآن ، وتنفيه كما ينفي الكير خبثه ، وهي وظيفة عالية ؛ لأن أنماط البيان ملء الأرض وليس لنمط واحد من الخصائص ما يجعله يشبه مثل القرآن حتى يقحم نفسه ؛ دون أن يعلن القرآن،ويعلن المقحم عن نفسه بأنه واغل دخيل .

هل وفى الشيخ البناء الصوتي حقه من الدراسة ؟.

هذه خلاصة وافيه لحديث الشيخ عن البناء الصوتي للقرآن ، ويبدو أن هذا الجانب لازال سرا مستورا لم تتله أيدي الباحثين . فحين ننظر إلى حديث الشيخ ـ لانجده قدم نظاما أو قانونا منضبطا لهذا الجانب ، وإنما قدم انعكاسات وجدانية ، ووصفا لتجربته الذاتية التي عاشها في رحاب تلاوة القرآن وتأمله ،وهو وصف لايحس به إلا من كان على قدره في الإحساس والذوق ، وقد يحس به ولكنه لايحسن وصفه ؛ وهذا راجع إلى غموض هذا الجانب في الدراسات العربية والقرآنية ، لأنه كما يقول الدكتور محمد أبو موسى : " ليس من العناصر ذات الدلالات العقلية مثل : رجل ، وفرس ، وإنما هي أصوات مفرغة من الكلمات ، وصارت جرسا فحسب ، وهي مع ذلك مؤثرة غاية التأثير ، نافذة في النفس غاية البيان " (١)

كما أن قلة وتشتت جهد العلماء في هذا الجانب ، وعدم إفراده بدراسة وافية إلى الآن ـ كان له أثره في غموض هذا الجانب . ولذا لم يخرج الدكتور دراز عن فلك من تقدمه في هذه الناحية ، وإنما صاغ رؤيته على ضوء من كلامهم ، ونسج نسجه من خيوطهم ، وإن كان نظم تلك الجهود السابقة ، وفصل بين جانبي البناء الصوتي .

---

(١)مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني د: محمد أبو موسى صـ ١٢٢ بتصرف.

فجعله شكلا وجوهرا • وهذا قد يعين على تسهيل البحث فى هذا الجانب ، فدراسة الناحية الصوتية من حيث توزيع الحركات والسكنات والمدات والغنات ـــ الخ يتصل بعلم التجويد ، وهى أحكام مفصلة ومدروسة ، ويبقى أن نربط ذلك بالغرض والمقام ، فلابد من علة علمها من علم •

أما الجانب الثانى : فيقوم على دراسة الصوت نفسه ، وطريقة وضعه مع جاره ، وهذا يحتاج جهدا شاقا لدراسة كل حرف ، والمواقع التى يكثر فيها أو يقل ، والحروف التى تقارنه كثيرا أو قليلا • إلخ وهو مايعين على الوصول إلى كلمة مقاربة فى البيان القرآنى •

• وقد ذكر الشيخ أن البناء الصوتى من خصائص إعجاز القرآن اللغوى ، ولكنه لم يبين : إلى أى حد عاون هذا البناء فى أداء المعنى ، وتوصيل الفكرة ، كما لم يفصح عن طبيعة العلاقة بين هذا البناء ، وبين الغرض الذى سيق له ، ومدى المواءمة مع المقام ، والجو النفسى للآية والسورة • بل كان فى عباراته لون من التعميم ، وربما كان ترك التطبيق ـــ دلالة على إحساس الشيخ بغموض هذا الجانب ؛ فقد مثل الشيخ لأكثر خصائص الإعجاز اللغوى ، ولكنه لم يذكر مثالا واحدا يوضح لنا ما أراد أن يبرزه فى هذا الجانب بدلا من أن يحيل إلى ذوق السامع فحسب •

وهذه المآخذ : التعميم ، وترك الربط بين البناء الصوتى وبين المعنى والمقام ، وترك التطبيقات ـــ هى المآخذ التى أخذت على السابقين ، وهى التى عابها الأستاذ سيد قطب على من تقدمه فى دراسة هذه الناحية ، وذلك حين تحدث عن الإيقاع القرآنى الذى يمثل جانبا من جوانب التناسق الفنى فى القرآن فقال ـ رحمه الله ـــ :" ومع أن هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح فى القرآن ، وعميقة كل العمق فى بنائه الفنى ـــ فإن حديثهم

عنهـا لـم يتجاوز ذلك الإيقـاع فى الظاهر ، ولـم يرتـق إلـى إدراك التعـدد فـى الأساليب الموسيقية ، وتناسـق ذلك مـع الجو الذى تطلـق فيه الموسـيقى ، ووظيفتـها التى تؤديهـا فى كل سـياق " (١)

وقـد قـدم الشيخ سيد قـطب من التطبيقات ، مـالم نـره عنـد الدكتـور دراز ، أو الرافعى ١٩٣٧، والرمانى ٣٨٤هـ ، وبين أن الإيقاع يختلف بـاختلاف الجمـل طـولا وقصرا ، ويختلف باختلاف الفاصلة فى السـورة الواحدة ، أو بتنوع الأجواء التـى يطلـق فيها ، أو الغرض الذى سيق لها ٠ فهناك ايقاع للدعاء ، وايقاع للطوفان ، وغير ذلك ممـا يمكـن الرجوع إليه لنرى الربـط بين البعديـن : الصوتى والمعنوى ، وإظهار أثر ذلـك فى خدمـة الغرض القرآنى (٢)٠ وهو ما افتقدناه فى كلام الدكتور دراز ٠ وإن لـم يـهتد الشيخ سيد قطب إلى قانون صوتى محدد ، وإنما كان فى عباراته لون من التعميـم أيضـا ٠ ولكنها على كل حـال خطوة على طريق البحث فى هذا الجانب ، تفادت بعض ماوقع فيـه من تقدمـه فى هـذا الطريـق ٠

خطـوات على طريـق دراسة البناء الصـوتى ٠

يحاول الباحث أن يجمع من كلام علمائـنا ، ويذكر مايحسبه يساعد علـى السـير فـى طريق بحـث هـذا الجانـب ٠

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن٠للشيخ سيد قطب صـ٧٤ ٠

(٢) يراجع الفصل الخاص بالإيقاع القرآنى من صـ ٨٦ ـ صـ ٩٥ ٠

ولعل أول ماينبغي أن نبدأ به ـ هو جمع كلام علمائنا القدامى مثل الجاحظ ٢٥٥، وسيبويه ت١٨٠هـ(١) وابن جني ت ٣٩٢(٢) وابن الأثير٦٣٧هـ ، وشراح الشعر ، وعلماء الإعجاز ، ثم نقف أمام هذه الجهود طويلا؛ لنقف على معالم منهجهم، ومايرمون إليه في كلامهم ؛ لأنهم نبهوا بأنفسهم إلى أن هذا باب يعطي مقادته لمن امتلك أدوات الفهم البصير ، فقد عقد ابن جني ٣٩٢هـ بابا :" لإمساس الألفاظ أشباه المعاني " ثم قال بعده : " ومن وراء ذلك ما اللطف فيه أظهر وأمكن ، وأعلى وأصنع؛ وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف ، وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها ـ ترتيبها ، وتقديم مايضاهي أول الحديث ، وتأخير مايضاهي آخره ، وتوسيط مايضاهي أوسطه ـ سوقا للحرف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب " ثم ضرب مثالا لذلك بلفظ " بَحَثَ " " فالباء " لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض ، و" الحاء " لصَحَلِهَا(٣) تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب إذا غارت في الأرض ، و" الثاء " للنفث والبث في التراب "(٤) .

(١) عمر بن عثمان بن قنبر الملقب بسيبويه، اخذ النحو عن الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب وغيرهم ، وأخذ اللغة عن الأخفش الأكبر وأشهر كتبه " الكتاب " توفي بقرية من قرى " شيراز " عام ١٨٠هـ وقيل ١٧٠هـ. وفيات الأعيان (٣/٤٦٣)

(٢) عثمان بن جني من أئمة الأدب والنحو ولد " بالموصل " وتوفي " ببغداد " عن خمسة وستين عاما من تصانيفة " شرح ديوان المتنبي " والمحتسب في شواذ القراءات " وكان المتنبي يقول " ابن جني أعرف بشعري مني توفي ٣٩٢هـ. وفيات الأعيان (٣/٢٤٦) ، الأعلام : ٤/٣٦٤)

(٣) "صَحِل " الرجل بالكسر وصَحَل يَصْحَل صَحَلاً فهو أصْحَل وصَحِلٌ : بح.لسان العرب مادة "صحل"

(٤) الخصائص لابن جني ت : محمد علي النجار ، ط دار الكتب العلمية (د/ط) ١٣٧١هـ ١٩٥٢م جـ٢ صـ ١٦٢ .

وهـذا يبين لنا أنهـم فتحـوا الباب للبحث - لاعن العلاقـة بيـن اللفـظ ومعنـاه فحسب -،وإنما بين ترتيب حروف اللفـظ ، وترتيب حركات الحدث المعبر عنه . وقد قـال ابن جنى كلمته التى تمنحنا الأمـل فى استكمال هذا الجانب ــ متى وجـد من هـو أهـل لذلك البحث ــ قـال : "وهـذا ونحـوه أمـر إذا أنت أتيتـه من بابه، وأصلحت فكـرك لتناولـه وتأملـه ، أعطاك مقادتـه ، وأركبـك ذروتـه ، وجـلا عليـك بهجاتـه ومحاسنه" (١) .

وحـين يعطينا هذا الباب مقادتـه ــ يمكن أن ننطلق إلى دراسة الأصـوات القرآنيـة بأقدام راسخة ، لأننا ننطلـق ومعنا مفتاح السر ، وهو دراسة هذه الأصوات فى اللغة التـى نزل بها القـرآن .

ثانيـا ــ لابـد من النظر فى معانى أصـوات الحروف . وهو باب خفى غامـض، ولكنه يوقفـنا على العلاقـة بين صوت الحرف وبين معناه الـذى يتحملـه، ثم بين الأصوات مجتمعة ، وبين معانيها ، وقـد فتـح هـذا البـاب الشـيخ : محمـود شاكر- رحمه الله - بمقالاتـه الثلاث التى نشرها فى مجلة المقتطف بعنوان ، علـم معـانى أصوات الحروف ، سـر من أسرار العربية نرجو أن نصـل إلى حقيقـة فـى السـليقة اللغويـة " (٢)

---

(١) الخصـائص لابن جـنى جـ٢ صـ ١٦٢ .

(٢) نشر المقال الأول فى مارس عام ١٩٤٠، ونشر الثانى فى أبريل فى العام نفسه، ثم نشر المقال الأخير فى شهر يونيـو فى العـام نفسـه أيضـا .

وهـــو يهـــدف فيها إلى الكشف عن المعانى الفطريـــة التى يحملها صوت الحـــــرف٠ وقد قدم نموذجا لهذا البحث من خلال النظر فى معانى " الهمزة ، والهاء والألف " ٠ ومثـــل هذه الدراسة تعيننا على الربط بين المنحى الصوتى ، والمنحى المعنوى ، وهو مـــا يكشـــف عن أثر هذه الأصوات فى خدمة المعنى والغرض الذى سيقت له ٠ ولكنها دراســـات شـــاقة جدا ؛ لأنها تحتاج ذوقا وعلما ، والحاحا فى طرق الأبواب حتى تفتح ٠ وقد قـــال أســـتاذنا الدكتور ، أبو موسى عن هذا الباب الذى فتحه الشيخ شاكر :

" وكنت أظنه لن يطرد بين يدى الأستاذ ٠ مع علمى أنه هو هو ، وأنه همـــك مـــن عالم ٠ ولما تابعت ما درسه من ذلك ٠ وجدته قد استقام على منهج لاحب ، وطريق ســـديد، قد راض الشيخ ـــ رضى الله عنه ـــ منه ما كان نافرا ، وألان منه ما كان عصيا " (١)

ثـــالثـــا : لعـــل من الأفضل فى دراسة البناء الصوتى أن نفصل بين طرق الأداء ، وبين طبيعة الحـــروف لندرك ما يحدثه كل واحد منهما فى النفس ، وما يسهم به فى خدمة المعنى ٠

رابعـــا: تقسيم القرآن الكريم إلى أغراض ومقامات ، ثم دراسة البناء الصوتى فى كل مقام مقارنـــا بالمقامات المماثلة والمشابهة ، وهى دراسة تهدى إلى شئ من أسرار هذا الجانـــب ، وتبين عن مـــدى التشابـــــه ، أو الاختلاف فى الإيقاع الصوتى لهذه المقامات والأغراض ، وسمات هذه الاختـــــلاف ، ومـــدى العلاقـــــة بين هذه الأختلافات وبين طبيعة المقامات والأغراض ٠

خامســـا : وقد يعين على كشف شئ من هذا الجانب٠ تقسيم القرآن إلى مكى ومدنى ، ودراســــــة بنائـــه الصوتى بهذا الاعتبار ؛ لنرى إلى أى حـــد عكس البناء الصوتى روح الزمان والمكان ولنا حينئذ أن نوازن بين المقامـــات المتشابهة فى السورة المكــــــــــــية

---

(١)الإعجاز البلاغى د : محمد أبو موسى صـــ ١٤٦ ٠

والمدنية ؛ لنرى هل كان لاختلاف نوع السورة أثره فى اختلاف بنائها الصوتى ؟ وهـل فرضت روح الزمن أثرها على هذه المقامات المتشابهة فمنحتها من سمة الاختلاف فى البنية الصوتية ما يوافق هذه الروح ؟ .

سادسا : الاستعانة بالمعامل الصوتية والدراسات الحديثة فى هذا الجانب ، وعدم الاعتماد على وصف التجارب الذاتية ، والإحساسات الوجدانية ، التى يقدر الإنسان على وصفها أحيانا ، ويعجز أحيانا أخرى كثيرة.يقول أستاذنا الدكتورصباح دراز عن هـذا الجانب الصوتى : ـ

" وهو بعد فى حاجة إلى بحث متشعب ، يحاول أولا تحديد مفهـوم الإيقـاع ، والعثور على مفاتحه وقوانينه مستعينا بالدراسة الصوتية ، ومعامل الصوتيات ، وبالعلـوم المعنية فى هذا الصدد " (١)

---

(١)البلاغة القرآنية عند الخطابى د/ صباح دراز صـ ١٧ .

{ ب } البناء المعنـــوى للقرآن فى قطعـــة قطعة منه ، وخصائصه البيانية ٠

١ـــ المعنى المصور هـــو محـــور المزيـــة ٠

٢ـــ الفكرة التى انطلق منها الشيخ فى ذكر الخصائص البيانية ٠

٣ـــ خطـــاب العامـــة وخطـــاب الخاصة ٠

٤ـــ إقناع العقـــل وإمتاع العاطفـــة ٠

٥ـــ البيـــان والإجـــمال ٠

٦ـــ القصـــد فى اللفظ والوفاء بحـــق المعنى ٠

١ـ المعنى المصـــور هو محور المزيـــة :

بعد حديث الشيخ عن البناء الصوتى للقرآن ـ اتجه إلى بيان بعـــض الخصـــائص البيانية للبناء لمعنوى للقرآن الذى يمثل الكنز الدفين فى أصداف من الجمـــال . ولا يقصـــد الشيخ " بالمعنى " هنا ـ المعانى القرآنية المجردة التى هى علومه وأحكامه ، وإنما يقصـــد إلى " المعنى المصور " الذى يبرز منهج البيان القرآنى ؛ لأن هذا هو ميدان التفـــاضل بيـــن بيان وآخر ، كما إنه أعظم الجانبين أثرا فى إعجاز القرآن اللغوى .

يقـــول الشيخ :

" هذه الألفاظ ينظر فيها تارة من حيث هى أبنية صوتيـــة مادتـــها الحـــروف ، وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها ، وهذه الناحية قد مضى لنا القـــول فيها ، و " تارة " من حيث : هى أداة اتصوير المعانى ، ونقلها من نفس المتكلم إلـــى نفـــس المخاطب . وهذه هى الناحية التى سنعالجها الآن . ولا شك أنها أعظم الناحيتين أثرا فـــى الإعجاز اللغوى ؛ إذ اللغات تتفاضل من حيث هى بيانه أكثر من تفاضلها من حيـــث هـــى أجراس وأنغام " (١) .

فهذه الجهة أعظم أثرا فى الإعجاز ؛ لأن مجال التفاضل فيها أكثر ، وأمكـــن وأوضـــح من الناحية الصوتية ؛ لخفاء أسرارها ، وغموض أمرها . وهو ما يؤدى إلى خفاء جهـــة المفاضلة . كما أن الفضيلة البيانية " تعتمد على دقة التصوير ، وإجادة التعبير عن المعنـــى كما هو ، سواء كان ذلك المعنى من جنس مما تتناوله عقول الناس ، أولا يكون ، بل ســـواء عندها أن يكون ذلك المعنى ـ حقيقة أو خيالا ، وأن يكون هـــدى أو ضـــلالا " (٢) .

---

(١) النبأ العظيم صـــ ١٠٦ .

(٢) السابق صـــ ١٠٧ .

ودقة التصوير ، وجودة التعبير أمران يتعلقان بالبناء المعنوى أكثر من تعلقهما ـ بالبناء الصوتى . ولذلك تنزل القرآن معهم فى التحدى حتى قال : " قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " . (هود / ١٣) . فلم يشترط فى المعنى كونه حقا أو صدقا ، وإنما المهم بناء هذا المعنى ، ودقة تصويره ، وإخراجه فى صورته المثلى الكامنة فى بناء النفس المعبرة .

واعتبار " المعنى المصور " محور المزية ، والفضيلة البيانية ـ من صميم نظرية " النظم " عند الإمام عبد القاهر ٤٧١ هـ . " ذلك أن المعنى الذى جعله عبد القاهر محورا للنظم الذى هو أساس المفاضلة ـ هو المعنى المصور فالمعنى الذى هو جوهر الكلام عنده ، والذى تنسب إليه مزية النظم ـ ليس هو المعنى الغفل الخام ، وإنما المعنى الذى تشكل فى النفس بشكل خاص ، ونظم فيها نظما خاصا . هو صورة المعنى لا المعنى مجردا من الصورة " (١) .

وانطلاقا من اعتبار المعنى المصور ـ محور المزية والفضيلة البيانية ـ ابتد أ الشيخ حديثه عن بعض الخصائص البيانية للمعنى القرآنى فى قطعة قطعة من القرآن .

ويقصد الشيخ بالقطعة " ما يؤدى معنى تاما كالذى يؤدى فى بضع آيات ، وقد يؤدى فى آية طويلة ، أو سورة قصيرة وهو الحد الأدنى الذى تنزل إليه التحدى أخيرا إذ قال : " فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " .(البقرة /٢٣) . ولم يقل بسورة من طواله أو أوساطه ، بل أطلقه إطلاقا فتناول بذلك سور المفصل " (٢)

---

(١) نظرية عبد القاهر فى النظم . د : درويش الجندى . مكتبة نهضة مصر بالفجالة . نشر عام ١٩٦٠ صـ ٧٤ .

(٢) النبأ العظيم صـ ١٠٧ .

وتقييد الشيخ للمعنى بكونه " تاما " ليدلل على أن هذه الخصائص البيانية لا تظهر إلا مع تمام المعنى؛ذلك أن لكل جملة ولكل آية من القرآن معنى ، ولكنه قد لايتم إلا إذا انضم إلى الآية آيات أخريات . وظهور الخصائص مرتهن بهذا التمام . وهذا المعنى التام قد يؤدى عادة فى آية طويلة،أو بضع آيات ، أو فى سورة قصيرة. وهو آخر درجات التحدى.(١)

٢ـ الفكرة التى انطلق منها الشيخ فى ذكر الخصائص البيانية .

وقد ابتدأ الشيخ حديثه عن الخصائص البيانية بكلمة تمثل محور بحثه فى هذه المسألة . حيث قال ـ رحمه الله ـ:" لسنا ندرى والله ماذا نقول فى أسلوب هو معجز فى وصفه ، كما هو معجز فى نفسه ؟ غير أننا نقول كلمة هى جملة القول فيه :" وهى أنه تلتقى عنده نهايات الفضائل كلها على تباعد ما بين أطرافها".(٢)

وهذه الكلمة على وجازتها ـ هى ثمرة بحث وتأمل لطبيعة المعنى القرآنى ، وخصائصه التى انفرد بها . وهى مهمة لايقدر عليها إلا من قدّره الله ، كما لايحس بها إلا من ذاق البيان ، واكتوى بناره .

---

(١) ذهب البعض إلى أن التحدى لم يقع بمطلق سورة، بل بسورة تبلغ مبلغا يتبين فيه رتب ذوى البلاغة وقد ناقش الشيخ هذا الرأى بأنه وإن لم يكن قادحا فى الاعجاز ـ إلا أن صاحبه ربما استبعد أن تكون السورة القصيرة معجزة فى بيانها؛ لأنه لم يجد غرابة فى نظمها، ولم يفقه سر الإعجاز فيها. قال : ولكن جهله ليس حجة على عدم إعجازها ؛ لأن العرب الذين قامت الحجة بعجزهم قد استوى قدرهم أمام طواله وقصاره، فلم يعارضوا هذه ولاتلك . وهذا وحده حاسم لشبهته ـ إن كان يكفيه البرهان-وإلا فليحاول هو.. وسوف يتبين له أن سر الاعجاز فى القصير من سور القرآن مثله فى الطويل ، كما أن سر الأعجاز فى خلق النملة مثله فى خلق الفيل . (النبأ العظيم صـ ١٠٨) .

(٢) السابق . صـ ١٠٨ .

وفكـــرة الجمع بين نهايات الفضائل على تباعدها - انبجست من معين الإمام الخطـــابى ٣٨٨هـــ حين تحدث عن جمع لغة القرآن لصفتى " الجزالة والعذوبة " ، وأن هذه الجمع مـــع نبـــو كل واحدة منهما عن الأخرى ـــ فضيلة خـــص بها القرآن ٠وقد فتحـــت هذه الفكـــرة أمام الشيخ آفاقـــا أخرى تجاوز بها الجمع بين الجزالة والعذوبـــة ، إلى الجمع بين الســـمات البيانية التى لاتجتمع فى كلامالبشر على الإطـــلاق ٠

يقـــول الدكتور صـــباح دراز معلقـــا على فكـــرة الإمام الخطابـــى ٠:

" أما أصـــل الفكرة وهو جمع الأسلوب القرآنى بين الظواهر الأسلوبية المتقابلة ـــ تلـــك التى لاتجتمع فى كلام بشر؛ لأن كلا نتاج موقف نفسى معين ، ومغاير على نحـــو معجـــز مثير ـــ فهو يتجاوز التأليف بين المتباعدات نفسيا ، وذهنيا ، إلى الجمع بيـــن المتبـــاعدات على الإطـــلاق مما مـــد أطنابـــه الدكتور دراز فى النبأ العظيم مما يعـــد مـــن ســـماته الخاصة ؛ كالبيان والاجمال ، والإيجاز والاستيفـــاء ، وخطاب العامة والخاصة"٠(١)

وانطلاقـــا من منهجه فى دراسة الإعجاز اللغوى على أساس من فكـــرة المباينـــة ـــ ابتدأ الحديث عن كل خصيصة بيانية ـــ بذكر منهج الإنسان فيها ، ومـــدى وجودهـــا فـــى كلامـــه، والعيوب التى تلحق الإنسان فى هذه الخصصية ، وذلك ليـــدرك المـــرء مـــن جوانب النقص فى بيان الإنسان ـــ جوانب الكمال فى بيان القرآن ٠ يقول الشـــيخ :

" وقـــبل أن نحدثك فى هذا الجانب عن القرآن ، سنحدثك عن كلام الناس حديثا يفهمـــه كل من عالج صنعـــة البيان بنفســـه؛ لتعرف من وجوه النقص هنا وجـــوه الكمـــال هنـــاك، ومن أبواب العجـــز هنا بـــاب الإعجاز هـــناك "(٢)

---

(١) البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابى ٠ د: صباح دراز صــ ١٧ ٠

(٢) النبـــا العظـــيم صــ ١٠٧، صــ ١٠٨ ٠

أ ــ خطـــاب العامـــة وخطـــاب الخاصـــة ٠

لكــل طائفـــة من الناس منهج فى مخاطبتهـــم ، لايصح أن يتبع غيره معهم ٠ ولابــد من تنزيل المعانـــى على أقدارهـــم ٠ والخلـــط فى مناهج الخطاب طعن فى القدرة البيانيـــة للمتكلـــم : " فلـــو أنك خاطبت الأذكـــياء بالواضح المكشوف الذى تخاطب بـــه الأغبيـــاء ، لنزلت بهـــم إلى مســتوى لا يرضونـــه لأنفســـهم فى الخطاب ، ولو أنك خاطبت العامـــة باللمحـــة والإشـــارة التى تخاطب بها الأذكياء ــ لجئتهم من ذلك بمالا تطيقه عقولهـــم ٠ فلا غنى لك أن تخاطب كل واحدة منها بغير ماتخاطب به الأخرى"(١)

وهكـــذا فلكـــل طائفـــة منهج فى المخاطبة ، والبليغ هـــو الذى لايخلـــط فـــى هـــذه المناهج ، ولكن الإنسان لايقدر على أن يخاطب ببيانـــه العامة والخاصة فى وقت واحـــد ، وأن تـــرى كل طائفة منهمـــا البيان مقـــدرًا على حاجتها ٠ فعند هذا الحـــد تتوقف قـــدرة الإنســـان يقـــول الشـــيخ :

" أمـــا أن جملـــة واحـــدة تلقـــى إلى العلمـــاء والجهلاء ، وإلى الســـوقة والملـــوك فيراها كل منهـــم مقدرة على مقياس عقلـــه ، وعلى وفـــق حاجته ــ فذلك مالاتجـــده علـــى أتمـــه إلا فى القرآن ؛ فهـــو قرآن واحد يـــراه البلغـــاء أو فى كلام بلطائف التعبير، ويـــراه العامـــة أحسن كلام ، وأقربـــه إلى عقولهـــم "(٢)

وتنبغـــى الإشارة إلى أن كون العبارة منزلـــة بحث تراها كل طائفـــة مقـــدرة علـــى قدرها ــ لايعنى أن كل طائفـــة تعيش فى واد غير الذى تعيش فيه صاحبتها ٠ بـــل هنـــاك قدر مشترك بينهما هو المعانى القريبة التى يدركها الجميع ؛ لأن المعنـــى درجـــات تشـــبه درجـــات الناس فى الإسلام ، والإيمـــان والإحســـان ٠

---

(١) النبـــأ العظـــيم صـــ ١١٣

(٢) السابق ٠ الصفحة ذاتها، ويراجع كتاب المدخل إلى القرآن للدكتور دراز صـــ ١١٦ ٠

فهناك المعنى الإسلامى والمعنى الإيمانى،والمعنى الإحسانى ، ولكل طائفة من المعانى طائفة من الناس ولكنهم جميعا يشتركون فى المعنى الإسلامى يقول الإمام الشاطبى ت ٧٩٠هـ .

" إن الناس فى الفهم وتأتى التكليف ليسوا على وزان واحد ولامتقارب. إلا أنهم يتقاربون فى الأمور الجمهورية ، وماوالاها . وعلى ذلك جرت مصالحهم فى الدنيا ، ولم يكونوا يتعمقون فى كلامهم ، ولا فى أعمالهم إلا بمقدار مالايخل بمقاصدهم . اللهم إلا أن يقصدوا أمرًا خاصا لأناس خاصة . فذلك ــ كالكنايات الغامضة والرموز البعيدة التى تخفى عن الجمهور ، ولاتخفى عمن قصد بها، وإلا كان خارجا عن حكم معهودها"(٢)

ونلحظ أن الشيخ دراز لم يقدم نموذجًا نتبين منه كيف يكون المعنى القرآنى الواحد مقدرًا على حاجات نفوس العامة والخاصة يرى كل واحد فيه طلبته . ولعل أقرب النماذج خطورًا إلى الذهن قصة ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ حين أدخله عمربن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ مجلس الصحابة ــ وهو طفل ــ فقال له عبد الرحمن ابن عوف : أتدخله ولنا بنون مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث تعلم . ثم سأل ابن عباس عن قوله تعالى : " إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا " {سورة النصر } فقال: إنما هو أجل رسول الله أعلمه إياه .

فقال عمر : والله ما أعلم منها إلا ماتعلم .(٢)

---

(١) الموافقات فى أصول الشريعة للإمام الشاطبى، ت الشيخ عبدالله دراز ط:دار الكتب العلمية بيروت (د/ت) م ١ جـ٢ صـ ٦٥ .

(٢) السابق م٢ جـ٣ صـ ٢٧٨ .

فظاهر السورة الذى يفهمه العامة أن الله يأمر نبيه أن يسبح بحمده ويستغفره، إذا نصره الله وفتح عليه . وفهم ابن عباس أن مجيء الفتح والنصر مؤذن بكمال الدين وتمامه ، وهو مايومىء إلى دنو أجله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذاك فهم العامة ، وهذا فهم الخاصة ، والمعنى واحد .

وهذه الخصيصة تذكرنا بحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ " (١)

فالأفهام عطاء الله ، والقرآن عطاء الله ، وعلى قدر العطاء يكون العطاء .

ب ـ إقناع العقل وإمتاع الوجدان .

وقف الشيخ مع الإنسان متأملا عقله ، وعاطفته ، وحاجات كل منهما ، وميدان عملهما ، ووظيفة البيان معهما . فقال رحمه الله :

" فى النفس الإنسانية قوتان : قوة تفكير ، وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها . أما إحداهما : فتنقب عن الحق لمعرفته ، والخير للعمل به، وأما الأخرى :فتسجل إحساسها بما فى الأشياء من لذة وألم . والبيان التام هو الذى يطير إلى نفسك بهذين الجناحين . "(٢)

فالبيان التام هو الذى يقنع العقل ويمتع الوجدان فى وقت واحد، ودفعة واحدة.ولعل أقرب سؤال إلى الذهن ـ يكون عن مدى تحقق هذه الشرائط فى البيان الإنسانى : ويجيب الشيخ قائلا :

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخارى فى كتاب العلم . باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين .

(٢) النبأ العظيم صـ ١١٣ ، صـ ١١٤ .

" لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وكلام الأدباء والشعراء — فما وجدنا من هؤلاء ولاهؤلاء إلا غلوا فى جانب ، وقصورا فى جانب آخر ، أما الحكماء: فإنهم يؤدون إليك ثمار عقولهم — غذاء لعقلك ، ولاتتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك • وأما الشعراء : فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك ، وتحريك أوتار الشعور من نفسك ، فلا يبالون بما صوروا لك أن يكون غيا أو رشدا ، وأن يكون حقيقة أو تخيلا ••" (١)

وقد أحسن الشيخ حين جعل الأمر " غلوا فى جانب وقصورا فى آخر " ولم يجعله " ذهابا لجانب وتركا لآخر" ؛ لأن عالَم البيان لايخلو من عالِم حكيم يلقى حقائقه بأسلوب فنى يثير فى المرء عاطفته ، وخياله ، وقد يكون فى كلام الشاعر مالايثير الوجدان ، أويهز أوتار النفس • فالأمر يجرى على الغالب وخاصة لأن قضية الشعر، وهل هو للتعليم ، أو الإمتاع ؟ مازالت قضية خلافية فى المذاهب النقدية •
ومع تسليم بعضهم بأن الشعر يعلم ويمتع ، اختلفوا : هل يعلم ويمتع من خلال الإمتاع أم من خلال التعليم •(٢)
وحُكْم الشيخ على كلام الحكماء وكلام الشعراء مبنى على معرفة عاشها بنفسه وأدركها بذوقه •

وقد يكون فى الناس من ليس من أهل تذوق البيان ومعرفة اتجاهاته ، فهذا ينصحه الشيخ أن يرجع إلى أهل الذكر ممن يخبرون أمر النفس ويدركون الحدود التى تتوقف عندها الطاقة الإنسانية • يقول الشيخ :

---

(١) النبأ العظيم صـ ١١٤ •
(٢) انظر الأسس الجمالية فى النقد الأدبى ، عرض وتفسير ومقارنة • د: عزالدين إسماعيل ط:دار الفكر ١٤١٢هـ — ١٩٩٢م صـ ٣٠٠ ومابعدها •

"ســل علمــاء النفس : هــل رأيتم أحــدا تتكافــأ فيه قــوة التفكير، وقوة الوجــدان، وسائر ـــ القوى النفسية على سواء ؟ ولو مالت هذه القوى إلى شىء من التعادل عند قليــل من الناس فهــل ترونهــا تعمــل فى النفس دفعــة واحدة ، وبنســبة واحدة ؟ • يجيبــوك بلسان واحــد : كــلا ، بل لاتعمل إلا مناوبــة ، وفى حال بعــد حال •• فالذى ينهمك فــى التفكير تتناقص قــوة وجدانــه ، والذى يقع تحت تأثير لــذة أو ألــم يضعف تفكيره•"(١)

فالقوتـــان لا تعمــلان فى النفس دفعــة واحدة وبنســـبة واحــدة ، ومالبيــان إلا صورة النفس •

وبعــد أن بين الشيخ سمات التمــام فى البيان ، وأبان عن إحالــة مخاطبــة الفكــر والوجدان فى آن واحد ، فى بيان الإنسان ـــ يقــرر أن هذا الكمال البيانى لايكــون إلا فــى القرآن • فيقـــول :

" فمــن لك إذن بهذا الكلام الواحد الذى يجــىء من الحقيقــة الصارمة بما يرضـــى حتى أولئــك الفلاســفة المتعمقين ، ومن المتعة الوجدانيــة بما يرضى هـــؤلاء الشــعراء المرحين ؟ ذلك الله رب العالمين ؛ فهو الذى لايشغلــه شــأن عن شأن ، وهو القادر علـــى أن يخاطب العقل والقلــب معا بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معا يلتقيان ولايبغيان"(٢)

والشيخ فى تحليلــه لخصيصة الإقناع والإمتناع ـــ فى إفاضــة واقتدار ـــ ناظر إلـــى ماذكر الشيخ محمد رشيد رضا (٣) فى حديثــه عن إعجاز القرآن البلاغى حيث يقـــول:

---

(١) النبــأ العظــيم صــ ١١٤ ، ومابعدهــا •

(٢) الســابق صــ ١١٥ ومابعدهــا •

(٣) محمد بن رشيد بن على رضا،صاحب مجلة " المنار" وأحد رجال الاصلاح ولد " بطرابلس " وتعلم بها ثم رحل إلى مصر فاتصل بالإمام محمد عبده وتتلمذ له ، ولد عام ١٣٨٢هـــ ومن كتبــــــه " تفسير القرآن ، لم يكمله ، وتاريخ الأستاذ الإمام" توفى عام ١٣٥٤هـــ الأعلام (٣٦١/٦)•

" والحـد الصحيح للبلاغـة فى الكـلام هـو أن يبلـغ المتكلم مايريد مـن نفـس السامع بإصابة موضع الإقناع من العقل ، والوجدان من النفس ، وقـد يعبر عنها بـالقلب ، ولم يعرف فى تاريخ البشر كلام قارب القرآن فى قـوة تأثيره فى العقول والقلوب معا"(١)

فكـلام الدكتور دراز ليس بعيـدا عما رمى إليه صاحب المنار ، إلا أنه وقف أمـام الأمر فوضح الفرق بين البيان الإنسانى والبيان الإلهى محتكما إلى فكره وثقافته ، وإحالـة السامع إلى أهـل الذكر من علماء عصره، ثم لم يكتف بعرض الأمر على النظر فحسـب ، وإنما اختار من شواهد القرآن مايوضح به وجهته ، فذكر أن القرآن فـى فسـحة قصصـه وأخباره لاينسى حق العقل من حكمـة وعبرة ، وفى معمعـة براهينـه وأحكامه لاينسـى حظ القلـب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيـب ـ يبـث ذلـك كلـه فى مطالع الأيات ومقاطعها وتضاعيفهـا .(٢)

وقـد طلب الشيخ من قارئه أن ينظر إلى سورة " يوسف " ـ مثالا للقصـص الـذى لاينسى حظ العقل من الحكمة والعبرة ، ولكنه لم يشرح شيئا من ذلك ، واكتفـى بـالتعويل على نظـر القارىء .

ولعلـه يقصد أن السورة مكية ، نزلت والمسلمون مستضعفون يحتاجون إلـى مـن يمسح عن قلوبهم ذل الإستضعاف وألم العذاب ، وأمثال هؤلاء فى حاجة إلى آيـات تمس النفس ، وتمسح عن القلب أحزانه ، ولكن السورة تقدم مع ذلك العبرة والحكمة وتضعـها أمام أعينهـم .

---

(١) تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا ، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة التراث للجميع سنه ١٩٧٥جـ٢٣صـ١٦٨ .

(٢) انظر النبـأ العظـيم صـ ١١٦ .

ففى القصص تسلية للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وأصحابه ، وفيها وضع للعبرة والحكمة وكأنها تقول لهم : " إن الذى قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه فى الجب ، وإعلائه بعد حبسه فى السجن ، وتمليكه مصر بعد أن كان عبدا لهم ، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة ــ لقادر على إعزاز محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإعلاء كلمته ٠٠٠ وقد اختتمها الله بقوله : " لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ ٠٠ " (يوسف / ١١١) ٠ وكأن المعنى أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أن يحصل منها العبرة ، ومعرفة الحكمة والقدرة " (١) ٠

• وفى ميدان الأحكام وتقرير الحقائق ، ووضع الحدود ــ وهو أمر تخاطب فيه العقول ، ويغلب فيه حديث الفكر فى البيان الإنسانى ــ نجد القرآن لا ينسى حظ النفس من التشويق والإمتاع ولمس أوتار النفوس ٠ وقد ضرب الشيخ مثالا لذلك بقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ " ٠ (البقرة / ١٧٨) ٠

فقد نزلت الآية حين كان بين حيين من أحياء العرب قتال ، وكان لأحد الحيين طول على الآخر فقالوا : نقتل بالعبد الحر، وبالمرأة الرجل فنزلت (٢) والسورة من أوائل ما نزل بالمدينة لتغيير الواقع الجاهلى الذى تطاول فيه الناس بعضهم على بعض ، وكثر القتل والفتك ، فجاءت تضع تشريعا فى الدماء يحتاج صرامة ودقة ؛ لأنه تشريع فى أمر حياة وموت ، ولكن الآية فى معمعة القتل والدماء لا تنسى إمتاع النفس وإثارة العاطفة وفى هذا يقول الشيخ :

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للإمام الرازى ٠ تقديم : خليل محى الدين ، ط دار الفكر : بيروت ١٤١٥ هـ ــ ١٩٩٥م م٩ جـ١٨ صـ٢٣٢ ٠

(٢) انظر أسباب النزول للإمام الواحدى ت : كمال بسيونى زغلول ط: دار الكتب العلمية بيروت صـ ٥٢ ، صـ ٥٣ ٠

" انظر إلى الاستدراج إلى الطاعة فى افتتاح الآية بقوله " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " ، وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين فى قوله : " أَخِيهِ " ، وقوله " بِالْمَعْرُوفِ " ، وقوله : " بِإِحْسَانٍ " ، والامتنان فى قوله : " تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ " ، والتهديد فى ختام الآية ، ثم انظر فى أى شأن يتكلم أليس فى فريضة منفصلة ، وفى مسألة دموية ".(١)

ولعل من حسن الملاءمة فى الآية أنها كما جمعت بين إقناع العقل ، وإمتاع العاطفة ، وبين الأحكام والتشريع ، وترقيق القلوب وتشويق النفوس ــ جمعت كذلك بين "القصاص" ، و" العفو " وبين " العدل " و"الرحمة" ، وهى صفات متقابلة ، والقصاص عدل ، والعفو تخفيف ورحمة وهذا من عجيب البيان القرآنى وتلاؤمه.

ثم يقول الشيخ :

" تتبع هذا المعنى فى سائر آيات الأحكام ، حتى أحكام الإيلاء والظهار ، ففى أى كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح ؟ بل فى أى لسان نجد هذا المزاج العجيب؟ ! تالله لو أن أحدا حاول أن يجمع فى بيانه بين هذين الطرفين فرق همه ، ووزع أجزاء نفسه ــ لجاء بالأضداد المتنافرة ، ولخرج ثوب بيانه رقعا ممزعة "(٢)

وهذه الخصيصة البيانية يمكن أن تكون نواة لبحث عن مطالب النفس والعقل فى البيان القرآنى أوفى آيات الأحكام : نتبين فيه كيف وفَّى البيان القرآنى بمطالبهما، وكيف حاورهما واستطاع بيانه أن يمتلك زمامهما ، ويضىء لها منهج حياتهما .

جـ ــ البيان والإجمال .

وهذه عجيبة أخرى من عجائب البيان القرآنى ، ولاتجدها فى كلام غيره؛ لأن الناس "إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم ، لم تتسع لتأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام والإلباس، أو إلى اللغو الذى لايفيد ، ولايكاد يجتمع لهم هذان الطرفان فى كلام واحد".(٣)

---

(١) النبأ العظيم صـ ١١٦ .

(٢) السابق الصفحة ذاتها .

(٣) السابق صـ ١١٧ .

وكـلام الشيخ لا يتعارض مع مانعرفـه من أن كثيرا من الأدباء يتميزون بالإيجـازفى اللفظ والكثرة فى المعنى ، وأنه ليس بالضرورة أن يكون الإجمال سببا فى الإبهام والإلبـاس ـ لايتعارض كلام الشيخ مع ذلك ؛ لأنه لايتحدث عن الإجمال فى العبارة ، وإنما يتحـدث عن الإجمال فى الأغراض ، فإذا أجمل الإنسان فى أغراضه بمعنى أنه لـم يحددهـا فـى عباراته، فإنه يلبس فى عباراته ويبهم فى لفظـه ، وإذا حدد أغراضه تحديـدا تامـا فـى عباراته لم يتسع بيانه لتأويل ، ولم يحتمل وفـرة الدلالات .

أمـا القرآن الكريم " فنجـد فى ألفاظه من الشفوف والملاسـة والإحكام ، والخلـو من كل غريب عن الغرض ـ ما يتسابق به مغزاها إلى نفسـك دون كـد خاطـر ، ولا استعادة حديث ، كأنك لاتسمع كلاما ولغات ، بل ترى صورا وحقائق ماثلة . وهكـذا يخيل إليك أنك قـد أحطت به خبرا ، ووقفـت على معناه محددا ، هـذا ولو رجعت إليـه كرة أخرى، لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذى سبق إلى فهمك أول مـرة "(١)

ويكـاد يكون مفهوم " البيان والاجمال " مفهوما خاصا بالشيخ يختلف عـن المفـهوم الأصولى،والمفهـوم البلاغى.فقـد ذكـر والده الشيخ عبد الله دراز تعليقا على كلام الإمـام الشاطـبى ٧٩٠هـ : " أن المجمل : ماله دلالة على أحد أمرين لامزيـة لأحدهمـا علـى الآخـر بالنسبة إليه ، وله أسباب منها : أن يكون فى لفظ مشـترك كـالعين : للذهـب. والشمس ، وقـد يكون بسـبب الابتداء والوقـف كما فى قوله تعالـى . ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ .. " . { آل عمران /٧}.

---

(١) النبـأ العظـيم . صـ ١١٧ .

فالإجمال هنا إيهام لايتضح إلا ببيان . قد يكون السياق ، أو مقامًا آخر ، أو عنصرًا خارجيا مثل البيان النبوى ، أو أسباب النزول . ومهمة البيان هنا تحديد الدلالة وإخراج مايتوهم دخوله فيها .

أما البيان بعد الإجمال بالمفهوم البلاغي ـ فهو اصطلاح يطلق على صورة من صور الإطناب ـ حيث يلقى المعنى على سبيل الإجمال والإبهام حتى تتشوق النفس إليه مفصلا. فإذا ألقي كذلك . تمكن فضل تمكن وذلك كقوله تعالى : " وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ " (الحجر / ٦٦) . فالجملة الأخيرة جاءت مبينة للابهام فى لفظ " الأمر " (١) .
فالبيان هنا أيضا ـ يوضح المعنى ويحدده . وهو معنى واحد يلقى بطريقين ، أحدهما مبهم، والأخر مبين محدد

أما البيان عند الشيخ فلا يعنى تحديد الدلالة ، وإنما يعنى اتساع هذه الدلالة . وليس هناك معنى يلقى بطريقين ، بل المعنى الواحد مبين ومجمل فى وقت معا ؛ لأنه بلغ فى التحديد درجة تجعل القارئ يظن أنه قد أحاط به خُبْرا حين يقرؤه . ولكن حين يعيد النظر يدرك أن هذا البيان المحدد إجمال بالنظر إلى العطاء الذى يتدفق من معين المعنى حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة كما يقول الشيخ : " وجوها عدة كلها صحيح أو محتمل للصحة كأنما هى فصّ من الماس يعطيك من كل ضلع شعاعا . فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدرى ماذا تأخذ وماذا تدع . ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك لرأى منها أكثر مما رأيت " (٢) .

---

(١) انظر الإيضاح فى علوم البلاغة . للخطيب القزوينى ت د : محمد عبد المنعم خفاجى ط : دار الجيل بيروت . الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م م١ جـ٣ صـ ١٩٦ . وما بعدها .
(٢) النبأ العظيم صـ١١٨ .

ولعل كلام الدكتور دراز عن البيان والإجمال ، أقرب إلى لفتة الإمام الباقلانى ٤٠٧هـ عندما عرض لقوله تعالى فى سورة النمل:" وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ" (النمل /٣٣) . فقال : "فانظر إلى هذا الإختصار وإلى البيان مع الإيجاز، فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف ومنه الإيجاز وهذا مما يزيده الاختصار بسطا ، لتمكنه ووقوعه موقعه".(١)

ولكنها كلمة عارضة فى حديث الإمام ، وليس فيها مايشير إلى أن تلك خصيصة، بيانية فى المعنى القرآنى جملة ، كما لم يقف مع الآية ليبين مافيها من البيان مع الإيجاز، وإنما أحال إلى نظر القارىء فحسب . أما الدكتور دراز : فهى عنده خصيصة بيانية للمعنى القرآنى ، كما أنه لم يعول على النظر وإنما وقف مع شاهد يضع فيه يد القارىء على ماذكر، ثم للقارىء أن يواصل المسيرة بعد ذلك .

وقف الشيخ مع قوله تعالى : " وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ". (البقرة/٢١٢) فقال : "هل ترى كلاما أبين من هذا فى عقول الناس ؟ ثم انظر كم فى هذه الكلمة من مرونة؛ فإنك لوقلت : إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه لماذا يبسط الرزق لهؤلاء، ويقدره على هؤلاء ، أصبت . ولو قلت : إنه يرزق من يشاء بغير تقتير ولامحاسبه لنفسه.... ، أصبت . ولو قلت : إنه يرزق من يشاء من حيث لاينتظر ولايحتسب ، أصبت . ولو قلت : إنه يرزق من يشاء رزقا كثيرا لايدخل تحت حصر ولاحساب ، أصبت " .(٢)

---

(١) إعجاز القرآن للإمام الباقلانى صـ ٢٣٢ .
(٢) النبأ العظيم صـ ١١٧ .

فالجملة واحدة ومحددة ، ولكنها تبوح بهذه الدلالات والمعاني المتراحبة التي تحتملها اللغة ولاتتعارض مع أصول الدين أو أصول البيان ، وهذا من إعجاز نظم القرآن التي يتميز بوفرة دلالاته وتعددها ؛ لأن جمله : " لها دلالتها الوضعية التركيبية التي يشاركها فيها الكلام كله ، ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولايصل إلى شيء من بلاغتها ، ولها دلالتها المطوية : وهي دلالة مايذكر على مايقدر اعتمادا على القرينة ــ وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء وكثيرة في القرآن ــ٠٠،ولها دلالة مواقع الجمل بحسب ماقبلها، ومابعدها ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها ، أو في موضع الاستدارك ، أوفي موقع جواب سؤال٠٠" (١)

وكلام الشيخ عن هذه الخصيصة البيانية يلفت إلى بحوث شائقة عن روافد الدلالة القرآنية أو المعنى القرآني وهي كثيرة منها السياق ؛ والمقام ، والزمان ، والمكان في عصر النزول وغيرها، وكل رافد منها يكفي لرسالة علمية مثل السياق وأثره في الدلالة القرآنية،وغيره مما يتعلق بدراسة المعنى القرآني ٠

وقد فتح الشيخ الباب لمن أراد الوقوف على خصيصة ، البيان والإجمال " فقال : " ومن وقف على علم التأويل ، واطلع على معترك أفهام العلماء في آية ــ رأى من ذلك العجب العاجب " ٠(٢)

وهذا قريب مما ذكر سهل بن عبد الله ت ٢٨٣هـ (٣) " لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم ، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه ؛ لأنه كلام الله ، وكلام الله صفته ، وكما أنه ليس لله نهاية

---

(١) التحرير والتنوير ٠ للطاهر ابن عاشور ط : دار سحنون بتونس جـ١ صـ ١١٠

(٢) النبأ العظيم صـ ١١٨ ٠

(٣) سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد أحد أئمة الصوفية وعلمائهم له كتاب في تفسير القرآن" ومختصر كتاب "رقائق المحبين"وغير ذلك ولد سنة ٢٠٠هـ وتوفي سنة ٢٨٣هـ٠

وفيات الأعيان : (٢٤٩/٢)،والوافي بالوفيات (١٦/١٦) ٠

فكذلك لانهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار مايفتح الله عليه، وكلام الله غير مخلوق ، ولاتبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة " (١)

ى ـ القصد فى اللفظ والوفاء بحق المعنى

أما هذه الخصيصة البيانية فقد نالت من حديث الشيخ وتحليله وتطبيقه حظا وافرا لم تنله بقية الخصائص ، كما أثار من خلالها قضية إيجاز القرآن. فذهب إلى أن القرآن إيجاز كله ، وخرج بمفهوم للإيجاز يخالف ما استقر فى مدرسة الإمام السكاكى ٦٢٦هـ وهذا موضوع الفصل الثانى.

(١) البرهان فى علوم القرآن ـ للإمام الزركشى : جـ١ صـ ٢٩ .

الفصـــل الثانـــى

قضـــــية
الإيجــاز القــرآنـــى
عنـــد
الدكـــــتور دراز

(ويضــم خمسة مباحـــث)

المبحث الأول : مفهــوم الإيجــاز فى مدرســة الإمام السكاكى (تقرير ونقد "

المبحث الثانى : مفهــوم الإيجــاز عند الدكتور دراز " دراســة وتطبيــق

المبحث الثالث : دلائــل إيجــاز القــرآن عنــد الدكتور دراز .

المبحث الرابع : الإيجــاز بين الدكــتور دراز ومدرســة الإمــام السكاكــى .

المبحث الخامس: وجهــة الشــيخ تأصــيل ونقـــد

١ـ المبحث الأول

مفهوم الإيجاز فى مدرسة الإمام السكاكى
" تقرير ونقد "

أ ـ تمهيد

ب ـ الإيجاز وأقسامه

جـ ـ ما يلحظ فى دراسة الإيجاز فى هذه المدرسة

تمهيد

جاء في لسان العرب : وَجَزَ ، الكلام وَجَازَةً ، وَوَجْزاً ، وأَوْجَزَ : قلَّ في بلاغة... ، وكلام وَجْزٌ خفيف ، والوَجْزُ : الوحي ، يقال أوجز فلان في كل أمر ، والوَجْزُ : السريع العطاء ، قال : رؤبة (١) عَلَى حَزَابِيٍّ جُلَالٍ وَجْزِ(٢) يعني : بعيرا سريعا ، وفي الحديث : " إِذَا قُلْتَ فَأَوْجِزْ "(٣) أي أسرع واقتصر .(٤)

فالمادة تدور حول السرعة والتخفيف والاقتصار على المطلوب .

وعلى الرغم من اتفاق البلغاء والنقاد على فضيلة الإيجاز" وشيوع مقالتهم " البلاغة الإيجاز " حتى ملأت بطون كتب الأدب والبلاغة والنقد ـ رأينا قديما من عاب على القرآن الكريم بعض حذوفه واختصاراته . وقد أورد الإمام الخطابي ٣٨٨هـ بعض أقوالهم ، ودحضها بما يبرز روعة الإعجاز القرآني . فمن ذلك ماعابوه على القرآن من حذف جواب الشرط في قوله تعالى : " وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى... " (الرعد /٣١).

---

(١)رؤبة العجاج . واسم العجاج عبدالله بن رؤبه بن أسد بن صخر بن كنيف من أعراب البصرة سمع من أبي هريرة وروى عنه أبو عبيده معمر بن المثنى ، وخلف الأحمر وغيرهم وله رجز مشهور توفي في ١٤٥هـ . معجم الأدباء لياقوت (١١/١٤٩) .

(٢)هذا الشطر الأخير من البيت . والبيت يقول :
عَالَيْتُ أَنْسَاعِي وَكُورَ الْغَرْزِ عَلَى حَزَابِيٍّ جُلَالٍ وَجْزِ . وهو من قصيدة لرؤبة يمدح فيها : أبان بن الوليد البجلي . مطلعها : يَاأَيُّهَا الْجَاهِلُ ذُو التَّنَزِّي * لَاتُوعِدَنِّي حَيَّةً بِالنَّكْزِ .
ديوان رؤبه العجاج من منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ص٦٢

(٣)الحديث في كنز العمال للعلامة علاء الدين البرهان فوري ط مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م برقم ٦٨٦٤ جـ٣ ص ٣٤٦ بلفظ : " يَاجَرِيرُ إِذَا قُلْتَ فَسَدِّدْ ، وَلَاتَكَلَّفْ إِذَا قَضَيْتَ حَاجَتَكَ " .

(٤) يراجع لسان العرب مادة " وجز " .

قـالوا : وفي ذلك تبتـير للكلام ، وإبطال لفائدته .

ورد الإمام الخطابي بأنه قد جاز الحذف وحسن هنا ؛ لأن المذكور منـه يـدل علـى المحذوف وقد قيل إن الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر ؛ لأن النفس تذهب في الحذف كـل مذهب (١).

وسيقف البحث مع مفهوم الإيجاز في مدرسة السكاكي ٦٢٦ ؛ لأنها الصيغـة النهائيـة للبلاغة التقعيدية ولأنها المدرسة التي وقف معها الدكتور دراز ، وبنى رأيه فـي الإيجـاز على نقض أسسها التي اعتمدتها في الحكم على الكلام بالإيجاز أو الأطناب .

الإيجـاز وأقسامـه :

عرف الإمام السكاكي ٦٢٦هـ الإيجاز بأنه : أداء المقصود من الكلام بأقل من عبـارة متعارف الأوساط (٢) .

وعرفه الخطيب القزويني ت ٧٣٩ هـ(٣) بأنه: أداء أصل المراد بلفظ ناقص عنـه واف به (٤) ثم قسمه الخطيب إلى قسمين :

الأول : إيجاز القصر : وهو ما ليس بحذف بمعنى : أن تبنى الجملة على الإيجاز من غير حذف كقوله تعالى : " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ " (البقرة /١٧٩) . فإنه لاحذف فيه ومعناه كثير يزيد على لفظه .

---

(١) يراجع بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابي صـ٣٩، وصـ٥١ .

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي صـ ٢٧٧ .

(٣) محمد بن عبد الرحمن بن عمر جلال الدين القزويني . قاض من أدباء الفقهاء أصله من قزوين " وولد بالموصل " ولي قضاء دمشق ٧٢٤ ، ثم قضاء مصر ثم نفاه السلطان الناصر إلى دمشق وتوفي فيها عام ٧٣٩ من كتبه " الإيضاح شرح تلخيص المفتاح " الأعلام (٦٦/٧)

(٤) يراجع الإيضاح للخطيب القزويني جـ٣ صـ١٧٣ .

الثانـــي : ما يكون بحذف. والمحذوف إما جزء جملة ، أو جملة ، أو أكثر من جملة.

{ أ } : فجزء الجملة وهو المفرد . قد يكون مضافا كقوله تعالى : **" واسأل القرية "**. (يوسف /٨٣) أى : أهل القرية . ، أو صفة نحو قوله تعالى : **" وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا "**. (الكهف /٧٩) . أى : سفينة صالحة ، أو جواب شرط كقوله تعالى : **" ولــــو أن قرآنا سيرت به الجبال أوقطعـــت به الأرض أوكلم به الموتى .."** (الرعد /٣١) أى : لكان هذا القرآن ، وغير ذلك .

{ ب} مـــا يكون بحذف جملة : وهو إما مسبب ذكر سببه كقوله تعالى : **" ليحق الحق ويبطـــل الباطل "** (الأنفال /٨) . أى : فعل ما فعل ، أو بالعكس كقولـــه تعالى : **" فتوبـــوا إلى بارئكم فاقتلـــــوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم "** (البقرة /٥٤) : أى فامتثلتم . فتاب عليكم ، أو غير ذلك .

{جـ} ما يكون بحذف أكثر من جملة : كقوله تعالى :**" أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون * يوسف أيها الصديـــق أفتنا .. "** (يوسف /٤٤ ـ ٤٥) . أى: فأرسلونـــــى إلى يوسف لأستعبره الرؤيا . فأرسلوه إليه فأتـــاه ، وقال له : يا يوسف .

ولابد لإيجاز الحذف من قرينة تدل على الحذف ، وتعين المحذوف ، قد تكون العقـــل ، أو العادة ، أو القرائن اللفظية فى السياق . وقد فصل الخطيب القزوينى الحديث عـــن ذلـــك فى الكلام على أدلة الحذف (١) .

---

(١) يراجع مبحث الإيجاز عند السكاكى فى مفتاحه من صـــ ٢٧٦ ، وعند الخطيب القزوينى جـ٣ من صـــ١٦٩ ـ صـــ١٩٥ .

ويلحظ فى دراسة الإيجاز فى مدرسة السكاكى أمور منها :

[أ] لم ينل حذف الحرف حظه من الدراسة فى هذه المدرسة ٠ سواء أكان حرف معنـى،أم حرف مبنى٠ وذلك على كثرة ماذكر علماء اللغة وعلوم القرآن عن حذف الحرف ٠

فابن جنى٣٩٢هـ يتحدث عن حذف الحرف فى الكلام ، وأنه على ضربيـن : الأول : زائد على الكلمـة ممايجىء لمعنى ، والآخـر: حرف من نفس الكلمـة ٠ويعـلل لـهذا الحذف بما يلفت النظر إلى هـذا الباب من الدراسـة(١)

وابن الشجرى ٥٤٢هـ(٢) يذكر فى أماليه أن حذوف القرآن كثيرة وعجيبـة ، كمـا تحدث عن حذف الحرف فى ثمانية مجالس تستغرق مايربـو على مائة صفحة من كتابه(٣)

وابن الأثـير ٦٣٧ يتحدث أيضا عن حذف الحرف وأسراره ، ويقـارن بيـن ذكـر الحرف، وحذفـه فى مواضع متشابهة كقـوله تعالى : " وَمَاأَهْلَكْـنَا مِـنْ قَرْيَـةٍ إِلَّا وَلَـهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ"٠ (الحجر/٤) وجاء فى آية أخرى " وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَـةٍ إِلَّا لَهَا مُنْـذِرُونَ " ٠ (الشعراء /٢٠٨) ٠ بحذف الـواو ٠(٤)

---

(١) انظر الخصائص لابن جنى جـ٢ صـ ٢٨٠، صـ ٢٨١ ٠

(٢) هبة الله بن على بن محمد الحسنى ـ أبوالسعـادات المعروف بابن الشجرى ، من أئمة العلم باللغة ، والأدب وأحوال العرب مولده ووفاتـه " ببغداد " ولد فى عام ٤٥٠هـ وتوفى فى عام ٥٤٢هـ من كتبـه " الأمالى " فى جزءيـن وّالحماسـه"٠

وفيات الأعـيان ٠ (٤٥/٦) ـ الأعلام : (٦٢/٩) ٠

(٣) براجع الأمالى لابن الشجرى ت د : محمود الطناحى ٠ مكتبة الخانجى ٠ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م جـ١ صـ٢٣١ ، جـ٢ من صـ٢٤٧ـ صـ ٢٥٣ ٠

(٤) انظر المثل السائر لابن الأثـير جـ٢ م صـ ١٠٣ ـ صـ١٠٥

ولــو ابتــدأت مدرســة الإمــام السكاكــى من حيث انتهــى هـــؤلاء الأئمـــة ، لقدمت الخير الكثير ٠وحذف الحرف فى القرآن يحتاج إلى دراســة جادة وعميقــة تســتبين أسرار الحذف ، وتقارن بينـه وبين مواطــن الذكر ، وأثرهذاالحذف فـــى ثــراء المعنــى القرآنى ٠ وإن تدارك جانبــا كبيرا من هــذا بعــض العلماء المحدثين الذين تناولوا قضيــة الإعجاز البلاغى والنظم القرآنى الكريم(١) ٠

[ب] لم تجمع مباحــث الإيجاز بالحذف فى باب واحد ٠ فقــد درس حــذف جزء الجملــة فى باب : المسند إليه ، والمسند ، ومتعلقات الفعل ، ثم أعــيد بعضه فى بـــاب الإيجــاز بالحذف ٠ بينما درس حذف جملة أو أكثر من جملة فى بـــاب الإيجــاز ٠ ولاشـــك أن تفرق تلك المباحــث فى أبواب البلاغــة ــ أمر يشتت الذهــن أمام دراســـة الحــذف ٠ وأظن أن من الأفضــل جمع مايخص الحذف كلــه فى باب واحد يمكـــن البــاحث مــن وضع تصور كامل لدراســة الحذف ٠ على نحــو مانجــد عند الإمام عبد القاهر ٤٧١ ٠

[جـ] لم تتجاوز دراسة الإيجاز فى هذه المدرسة ــ دائرة الجملــة إلى النظر إلى الإيجـــاز على أنه ظاهـــرة أسلوبيــة تمثــل الطبع الغالب على أديب دون آخر، والبحث فى أســرار إيجـــازه وعلاقـــة ذلك بطبيعة الأديب البيانية والنفسية ٠ هذا على الرغم مما سجلته كتــب التراث البلاغــى والنقدى من ملحوظات نقديــة تــدل على أن سلفنا نظروالأسلوب الإيجـاز هــذه النظــرة الدقيقــة العميقــة ٠

فالجاحــظ ت ٢٥٥ يقــول : " وليس يعنى بالإيجاز قلــة عدد الحـــروف واللفــظ ، وقد يكون البا ب من الكلام من أتى عليه فيما يســع بطــن طُومَار(٢) فقــد أوجز"(٣)٠

---

(١) يراجع الإعجاز البيانى د٠ بنت الشاطىء صـ١٩٢ ٠ الإعجاز البلاغى د صباح دراز صـ١٦٧

(٢) الطومار واحد المطامير وهو الصحيفة ٠ لسان العرب مـــادة " طمــر " ٠

(٣) الحيــوان للجاحــظ جـ١ صــ٦٣ ٠

ويقـول فى موضـع آخـر : " ويقـولون فى إصـابة عين المعنى بالكلام الموجز : فـلان يفـل المحـز، ويصيب المفصل ــ وأخذوا ذلك مـن صفـة الجزار الحاذق ٠ فجعلـوه مثـلا للمصيب الموجـز"٠ (١)

وأبـو هـلال العسكرى ت ٣٩٥هـ(٢) يذكـر قول الإمام على ــ رضى الله عنـه ــ " مارأيت بليغا قـط الا وله فى القول إ يجاز، وفى المعانى إطالـة "٠ كما ذكر أنـه قيـل لبعضهم : " مافيـك عيب غـير أنك تكثـر الكلام ٠ قـال : أفستمعـون صوابـا أم خطـأ ؟ ٠ قـالوا : بـل صوابـا ٠ قـال : فالزيادة من الخـير الخـير " ورد العسـكرى هـذا الكلام بأن " للكلام غايـة ، ولنشاط السامعين نهاية ، ومافضل عن الاحتمال ــ دعـا إلى الاستثـقال ، وصـار سـببا للملال "٠(٣)

فهـذه الملحوظات النقدية لاتتعلـق بالجملة قـدر تعلقهـا بالإيجاز على أنـه ظـاهرة من ظواهر النص الأدبى ٠ ولاشـك أن النظر إلى الإيجاز من هذه الزاو ية ــ يفتـح أمـام البحث مجالات واسعة لدراسة منهج كل أديب فى عرض معانيه ، وطريق تأتـيه للغـرض ليصل من خلال ذلك إلى أى مـدى اتسـم الأديب بالإيجاز ، ولـم ؟ ومـا علاقـة ذلـك بالمعنى، والأديـب ؟ ٠

---

(١) البيان والتبيين للجاحـظ جـ١ صـ ١٠٧ ٠

(٢) الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى العسكرى وهـو ابن أخت أبى أحمد الحسن بن عبدالله ابن سعيد العسكرى ، وتلميذه من كتبه " جمهرة الأمثال " و " الصناعتين توفى فى ٣٩٥هـ ٠ الوافى بالوفيات (٧٨/٢) ٠ الأعلام (٢١١/٢) ٠

(٣) الصناعتين " الكتابة والشعر " لأبى هلال العسكرى ت : د ٠ مفيد قميحة ط : دار الكتـب العلميـة ٠ بيروت الطبعـة الثانيـة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م صـ ١٩٤ ٠

كما أن تلك الملحوظات " تلفتنا إلى إهتمام الشعراء والنقاد بإيجاز الموضوع ، وبإيجاز النص المرصود لأداء غرض وموضوع متكامل . فإذا انضم إلى هذا الاهتمام اهتمامُ علماء البلاغة المتأخرين بالإيجاز في الجملة والعبارة تكون قد اكتملت دائرة البحث في الإيجاز " (١)

وبهذا يمكن الرد على أولئك الذين يتهمون بلاغتنا بأنها لم تتجاوز دائرة الجملة . حتى في الأبواب التي كان ينتظر منها أن تتجاوز حدود الجملة فيها كالإيجاز والإطناب (٢) .

ولعل توجيه مثل هذه النقدات للبلاغة ــ جاء من اتخاذ مدرسة الإمام السكاكي ٦٢٦هـ وحدها ميدانا للبلاغة ، ونموذجا تُقَوَّم البلاغة من خلاله ، وهو أمر لا يصح ؛ فلم يقل أحد : إن البلاغة ما ذكر السكاكي ، فمن قبلها مدرسة الإمام عبد القاهر ٤٧٦ ، ثم الروافد العديدة للبلاغة من علوم اللغة ، وعلوم القرآن ، وكتب الحديث ، والفقه وأصوله، وشروح الدواوين ، وغيرها من المنابع التي لا تنضب كما ذكر ذلك شيوخنا .

كما كانت تلك الملحوظات . هي الطريق اللاحب التي سار عليه الدكتور دراز ؛ ذلك أنه تعدى بالإيجاز دائرة الجملة إلى دائرة النص ؛ حيث أعمل نظره في أسلوب القرآن . فاهتدى إلى خصيصة بيانية انفرد بها البيان القرآني وهي " القصد في اللفظ ، والوفاء بحق المعنى " . وهذه ــ الخصيصة كانت مرتكزا انطلق منه الشيخ ليعلن أن القرآن إيجاز كله ، وليخرج بمفهوم للإيجاز يخالف به ما استقر في مدرسة الإمام السكاكي .

---

(١) مدخل القراءات القرآنية في الاعجاز البلاغي د : محمد ابراهيم شادي مطبعة السعادة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م صـ٤٤ .

(٢) من هؤلاء الذين عابوا على البلاغة أنها لم تتجاوز دائرة الجملة حتى في هذه الأبواب . الشيخ أمين الخولي في كتابه مناهج تجديد . ط:الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥ صـ١٢٦ .

مفهوم الإيجاز

عند الدكتور دراز

(دراسة وتطبيق)

منطلق الشيخ فى القضية :

جاء حديث الشيخ عن الإيجاز القرآنى انطلاقا من تلك الخصيصة البيانية التى انفرد بها القرآن من كلام الناس وهى : " القصد فى اللفظ ، والوفاء بحق المعنى " وهى خصيصة يدركها من أحاط خُبراً بأساليب العرب ، ومناهجهم فى الإبانة عن خلجات صدورهم ، كما يقدرها قدرها من وقف على الحدود التى تنتهى عندها فطرة البيان ؛ ذلك أنها خصيصة بيانية لا يقدر امرؤ على أن يجمع بين طرفيها فى بيانه ، ولا أن تكون سمة دائمة له فى هذا البيان ، لأنه سجين الفطرة التى لا تقترب من إحدى الغايتين إلا بقدر ما تبتعد عن الأخرى ٠

" ذلك أن الذى يعمد إلى ادخارلفظه، وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة — لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلا أو كثيرا ؛ ذلك أنه إما أن يؤدى مراده جملة لا تفصيلا ٠٠، وإما أن يذهب إلى شئ من التفصيل ، ولكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار ، أو الإسراف — يبذل جهده فى ضم أطرافه ، وحذف ما استطاع من أدوات التشويق ، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس فى البيان ، حتى يخرجه ثوبا متقلصا يقصر عن غايته ٠٠ ، والذى يعمد إلى الوفاء بحق المعنى ، وتحليله إلى عناصر ، وإبراز كل دقائقه بقدر ما يحيط به علمه — لا يجد له بدا من أن يمد فى نفسه مدا ، لأنه لا يجد فى القليل من اللفظ ما يشفى صدره ، ويؤدى عن نفسه رسالتها كاملة ٠ فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك ، لم يلبث أن يباعد ما بين أطراف كلامه ، ويبطئ بك فى الوصول إلى غايته " (١)

هذا هو الإنسان ، ومنهجه البيانى القابع فى حدود فطرته التى وضعها من علم الإنسان البيان ٠ أما اجتماع الغايتين بغير فترة ولا انقطاع ، فلا يكون إلا فى القرآن الكريم ؛ لأنه بيان قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير ٠

---

(١) النبأ العظيم صـ١٠٩ ٠

واجتماع هاتين الغايتين فى القرآن بغير فترة ولا انقطاع ـ جعل الشيخ يسمى القرآن إيجازا كله فقال : " إن القرآن يستثمر دائما برفق أقل ما يمكن من اللفظ ـ فى توليد أكثر ما يمكن من المعانى . تلك ظاهرة بارزة فيه كله . يستوى فى ذلك مواضع إجماله التى يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله التى يسمونها مقام الإطناب . ولذلك نسميه إيجازا كله " (١)

وفى كلام الشيخ ما يومئ هنا إلى أنه لا يرضى بقصر مفهوم الإيجاز على مواطن الإجمال ، أو قصر مفهوم الإطناب على مواطن التفصيل .

كما كان الشيخ دقيقا حين قال : يسميها الناس " مقام الإيجاز " أو مقام الإطناب ولم يقل يسميها الناس إيجازا ، أو إطنابا ؛ لأن مواضع الإجمال والتفصيل ـ هى مقامات الإيجاز والإطناب ، وليست الإيجاز ذاته أو الإطناب .

ونلحظ من ملامح الدقة فى نص الشيخ أمورا منها :

* أنه يقول " إن القرآن يستثمر " ـ دلالة على العطاء القرآنى بلا حدود ، ثم إنه " يستثمر أقل ما يمكن من الألفاظ " وهذا الاستثمار لأقل الألفاظ ـ أمر دائم فى القرآن لا ينقطع ، وهو فى كل أحواله لا يجور على المعنى أو اللفظ ؛ لأنه يستثمر " برفق " فهو بيان قدر على حاجات النفوس .

* ثم إن الاستثمار ليس للدلالة على معان كثيرة ، وإنما " لتوليد أكثر ما يمكن من المعانى " وهو دليل على توجيه الطاقة نحو اللفظ والمعنى فى وقت واحد ، فالقرآن يؤدى بألفاظ قاصدة معانى وافرة ، فاللفظ لا يدل على معنى وإنما " يولد " معنى ، بل يولد أكثر ما يمكن من المعانى وفرق بين " كثير " ، " وأكثر مايمكن " فرق نابع من كرم القرآن { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ } (الواقعة /٧٧) فهو يعطى كل زمان ما يلائمه .

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٢٧ .

مفهوم الإيجاز عند الشيخ : (مقياس الفضيلة)

انطلاقا من ثبات هذه الخصيصةودوامها فى البيان القرآنى ، ثـم مـن طبيعـة قـاعدة الفضائل التى تتنزل فيها الفضيلة مكانا وسطا ، ويلحق الذم بالطرفين ــ على خلاف ما فعل الإمام السكاكى ٦٢٦ هـ ــ حين جعل الفضيلة للإيجاز والإطناب ثم جعل المساواة التى تتنزل مكانا وسطا بينهما ــ أسلوبا لا يحمد ولا يذم ــ انطلاقا من هذا كله وضع الشـيخ مقياسـا للفضيلة البيانية إذا تحقق فى الكلام كان إيجازا . هذا المقياس :

" هو المقدار الذى يؤدى به المعنى بأكمله بأصله ،وحليته على حسب مـا يدعـو إليه المقام من إجمال أو تفصيل ، بغير إجحاف ولا إسراف . هذا القدر من نقص عنـه أو زاد ، عدَّهُ البلغاء ــ حائدا عن الجادة ، بقدر ما نقص أو زاد ــ هو الميزان الصحيح الـذى لك أن تسمى طرفيه بحق : تقصيرا أو تطويلا ، وأن تسميه هو بالمساواة " أو القصـد " أو التوسط ، أو التقدير ، ونحن قد سميناه أيضا باسم " الإيجاز " مطمئنين إلى صحـة هـذه التسمية ؛ إذ رأينا حد الإيجاز ينطبق عليه . فما الإيجاز إلا السرعة والتخفيف فـى بلـوغ الحاجة بالقدر الممكن . فالذى يسرع فوق الطاقة لا يبلغك حاجتك فيكون مجحفا مخـلا ، والذى يبطئ حيث تمكن السرعة ــ لا يكون إلا مسرفا مملا " (١)

وهذا المقياس الذى جعله الشيخ معيارا للفضيلة البيانية ، يوضح مفهوم الإيجـاز عنـده ويبين مدى الإختلاف بينه وبين مدرسة الإمام السكاكى .

*فقد عد الشيخ"المقدار الذى يؤدى به المعنى بأكمله بأصله وحليته " ولم يكتـف بـأداء أصل المعنى ؛ لأن الفصل بين الأصل والحلية فصل تعسـفى يذهـب برونـق المعنـى ، ويتعارض مع غاية المتكلم من عبارته . وإدخال حلية المعنى عند النظر إلى الوفاء بحـق المعنى ــ يدخل علـم البديع كله فى باب التفاضل البيانى ، ويجعله عنصرا من عناصر

---

(١) النبأ العظيم صـ١٢٩ .

الوفاء بحق المعانى إن اختل شئ منه كان انحرافا عن جادة البلغاء . وهذا خلاف ما فعلـه المتأخرون ؛ حيث عدوا البديع زينة وزخرفا يعرف به وجوه تحسين الكلام بعـد رعايـة المطابقة ، ووضوح الدلالة (١) . ويتفق رأى الشيخ مع عبد القـاهر قديمـا وكثـير مـن المحدثين (٢)

وهذه لفتة تفصح عن رأى الشيخ فى مكانة علم البديع وأثره فى الوفاء بحـق المعنـى ، تلك المكانة التى اهتزت على أيدى بعض الشراح المتأخرين .

وفى ظل هذا المقياس لابد من الوقوف أمام المعنى ، والتعرف علـى العنـاصر التـى ارتكز عليهاالمبين فى بيانه سواء كانت لفظيه،أو معنوية أو صوتية ، أوعنـاصر داخليـة ، أوخارجية تكمن فى الواقع الذى يحيط بالبيان. ولابد من وضع ذلك كله فـى الاعتبـارعند تقدير البيان .

ثم يقول الشيخ " على حسب ما يدعو إليه المقام ".واعتبارالمقام هو صميم البلاغة ،كما أنه يجعل الإطناب من الإيجاز إذا اقتضاه الوفاء بحق المعنى.

ويبرزهذا الشرط أمرا مهما وهو أن الإمام السكاكى ٦٢٦هـ حين عرف الإيجاز بأنـه : أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارة متعارف الأوساط (٣) ــ كان نظره متوجـها إلـى تمييزالأسلوب ، وتعريفه. لا إلى تحديد قيمته البيانية. وهذه القيمة تتبين من مواءمـة هـذا الأسلوب للمقام والغرض ؛ إذ قد تكون العبارة قليلة الألفاظ كثيرة المعانى، ولكنها لا تلائـم المقام الذى استدعاهاــ فهى حينئذ ــ إيجاز شكلى يفتقد قيمة البيان .

---

(١) انظر الإيضاح للخطيب القزوينى جـ٦ صـ٤ .

(٢)انظر الصبغ البديعى فى اللغة العربية د : أحمد موسى ط دار الكتاب العربى ١٣٨٨ هـ .
ــ ١٩٦٩ م صـ ٤٧٠ وما بعدها .

(٣) مفتاح العلوم للسكاكى صـ٢٧٧ .

واعتبار المقام يتطلب من الباحث فى الأيات القرآنية ــ الوقـــوفَ والإ لمـــام بالســـياق الحالى والمقالى للآية ، وتفرس عناصر البيان الداخلية ، والخارجية؛ فهذا يعين علـــى إدراك مدى المواءمة بين الآيات ومقامها الذى سيقت له . فإذا استدعى المقام إجمالا أو تفصيـــــلا. فجاء الأسلوب موافقا لحاجة المقام ، كان إيجازا .

" من غيرإجحاف ولا إسراف " . والإجحاف : إخلال بحق المعنى ، وعجز عن الوفـــاء به ، أما الإسراف : فهو إعطاء المعنى أكثر من حقه فيمل السامع ٠ والإجحاف والإســـراف هما الطرفان اللذان إن مال المتكلم إلى أيهما ـ عده البلغاء حائدا عن الجـــادة ، بعيـــدا عـــن الصواب ؛ لأنه ترك الفضيلة البيانية التى تتبوأ مكانا وسطا بينهما ٠

وبناء على هذا المفهوم للإيجاز ــ حكم الشيخ على القرآن بأنه إيجاز كله.

ولعل أقرب الأسئلة إلى الذهن بعد استقرار هذا المفهوم ــ سيكون عـــن ســـبل هـــذا الإيجاز القرآنى وقد أجاب الشيخ عن هذا التساؤل فبين أن ذلك يكون من طريقين

الأول : " يكـــون باجتناب الحشو ، والفضول البتة ، وانتقاء الألفاظ الجامعة المانعة ، التى هى ـ بطبيعتها اللغوية ــ أتم تحديدا للغرض ، وأعظم اتساعا لمعانيه المناسبة "(١)

فهذا السبيل لا يكتمل إلا بخطوتين :

الأولى :اجتنـــاب الحشو والفضـــول ٠ فلا يأتى فى الكلام إلا مـــا يستدعيه الغرض ، ويطلبه المقام ٠ وعلى أساس هذه الخطوة ــ كان تعريف أسلـــوب الإيجاز عند القدماء،فقد سئل بعضهم عن الإيجاز فقال : حذف الفضول وتقريب البعيد (٢) ، وينفى الجاحظ أن يكون الإيجاز قلة عدد الحروف ، ويطلب من المتكلـــم أن يحذف من كلامه مالا يكون سببا لإغلاقه، وهو فضوله ، وحشوه (٣) ٠وكـــذلك يستهل ابن الأثير ٦٣٧هــ الحديث عن الإيجاز بأنه حذف زيادات الألفاظ ٠(٤)

---

(١) النبأ العظيم صـــ ١٣٦ ٠

(٢) البيان والتبيين للجاحظ جــ١ صــ٩٧ ٠

(٣) الحيوان للجاحـــظ جــ١ صـــ ٦٢ ٠

(٤) المثـــل السائر جــ٢ صـــ ٦٨ ٠

الثانيــة : انتقــاء الألفاظ الجامعة المانعة ، وهذه الألفاظ يشترط فيها : أن تكون أتم تحديدا للغرض ، وأعظم اتساعا لمعانيه المناسبة .

وعلنا نلحظ صعوبة اجتماع الأمرين فى لفظ ؛ إذ كيف يكون أتم تحديدا للغرض ، وهــو ما يتطلب أن تكون دلالة الألفاظ دقيقة ومحددة ، ثم كيف يكون اللفظ بعد ذلك أعظم اتســاعا لمعانى هذا الغرض ؟! إن هذا من خصائص القرآن الكريم كلام الله وصفته العليا. وقــد أحسن الشيخ حين اشترط فى المعانى أن تكون مناسبة للغرض ، حتى لا يفتح الباب لأولئــك الذين يفهمون من القرآن ما يحبون ويشتهون ، ويلوون أعنــاق الآيــات ليســتنطقوها بمــا يرويدون ، وإنما لابد فى هذه المعانى أن تكون مناسبة لدلالــة الألفــاظ اللغويــة ودلالتــها السياقية ، ثم لدلالة المقام والمقاصد القرآنية .

لكن ينبغى أن نشير هنا إلى أن ما اشترطه الشيخ فى الألفاظ من كونها جامعة مانعــة ، أتم تحديدا ، وأعظم اتساعا-لا يتضح إلا عندما يوضع اللفظ فى السياق ؛ لأن الكلمــة قبـل إدراجها فى سياق لغوى قائم على الاختيار ؛ عنصرا ، وبناءا ، ومقاما ــ تظل خاوية مــن الدلائل البينة الملامح . فهى أشبه بماء لا طعم له ، لكنها فى ثبج سياقها الخاص ، وسـياقها العام ــ تتحول إلى إشارة تثير فى الذهن معانى وصورا عديدة ؛ لأن الكلمة فى بنية النــص ليست لبنة فى جدار ، بل هى كالخلية الحية فى الجسد النامى تستمد وجودها الوظيفى مــن علائقها بما شاكلها فى تشكيل البنية ، وتمده هى أيضا بذلك (١) .

---

(١) راجع فقه بيان النبوة منهجا وحركة : د : محمود توفيق سعد مطبعة الأمانة : الطبعة الأولى ١٤١٣ ، ١٩٩٢ صــ ١١ بتصرف .

وهاتان الخطوتان اللتان ذكرهما الشيخ - تجعلان حد الإيجاز ينطبق على الإطناب أيضا ؛ لأن الإيجاز هنا باجتناب الحشو والفضول ، وليس فى الإطناب حشو ولا فضول ، بل إن البلاغيين جعلوا الزيادة عن مقدار الحاجة هى الحشو والفضول ، والشيخ موافق لهم فى هذا ٠

ثم إن انتقاء الألفاظ يتحقق فى الإطناب أيضا ؛ إذ من المقطوع به أنه لا يمكن حذف حرف من القرآن دون إخلال بالمعنى ، كما أنه لا يمكن تبديل لفظ أو عبارة بأخرى ، وهذا من إعجاز القرآن اللغوى ٠ ومن ينظر فى عطاء المعانى فى مظان الإطناب يرى دخول الإطناب فى الإيجاز ٠ ولذا عده الشيخ إحدى شعبتى الإيجاز ٠

الثانى : الإيجاز بالحذف : وهو أعز وأعجب ٠

أما الطريق الثانى من طرق الإيجاز فهو الإيجاز بالحذف ، وهو عند الشيخ أعز وأعجب وفى هذا يقول :

" وبعد فإن سر الإيجاز لا يقف عندما تقدم من اجتناب الحشو والفضول ٠٠٠، بل إنه كثيرا ما يسلك فى إيجازه سبيلا أعز وأعجب ، فلقد نراه يعمد بعد حذف فضول الكلام وزوائده إلى حذف شئ من أصوله وأركانه التى لا يتم الكلام فى العادة بدونها ، ولا يستقيم المعنى إلا بها ، ولقد يتناول بهذا الحذف كلمات وجملا كثيرة متلاحقه ، ومتفرقة فى القطعة الواحدة ٠ ثم نراه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ فى تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح ، وفى طلاوة وعذوبة ٠٠ فإذا طلبت سر ذلك رأيته قد أودع تلك الكلمات أو الجمل المطوية فى كلمة هنا ،وحرف هناك ، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة ٠ أحكم بها خلقه وسواه ، ثم نفخ فيه من روحه فإذا هو مصقول أملس لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطى " (١)

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٣٦ ، صـ ١٣٧ ٠

وقبل تحليل كلام الشيخ نشير إلى أنه يرى أن الإيجاز بالحذف أعز وأعجب من الإيجاز باجتناب الحشو والفضول ، وهذا خلاف ما ذكره ابن الأثير ٦٣٧ هـ من أن " الإيجاز بالحذف يتنبه له من غير كبير كلفة فى استخراجه لمكان المحذوف ، وأما الإيجاز من غير حذف فإن التنبه له عسير ؛ لأنه يحتاج إلى فضل تأمل ، وطول فكرة ؛ لخفاء ما يستدل عليه . ولا يستنبط ذلك إلا من رست قدمه فى ممارسة علم البيان ، وصار له خليقة وملكة " (١) .

وكلام ابن الأثير عام ، وكلام الشيخ عن الإيجاز بالحذف فى القرآن الكريم . ويمكن القول بأنه إذا أجريت المقارنة بين الإيجاز بحذف الفضول والحشو ، وبين الإيجاز بحذف شئ من الأصول ـ فلا ريب أن الأخير أعز وأعجب ؛ لأن كليهما حذف ، ولكن حذف الأصول أكثر براعة ، وقوة ، ويتطلب من المبين ذكاء فى وضع أمارات على حذفه ، وتحميل المعنى المحذوف لبقية العناصر . لأن طبيعة الحذف القرآنى ، والتأنى فى اكتشافة يحتاج حذقا ومهارة كما وضح الشيخ فى شواهده .

ونلحظ من ملامح الدقة فى كلام الشيخ قوله : " ثم نراه فى الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ " ، فهو إلماح إلى أن الحذف فى الحقيقة يقع على الألفاظ ،ولا يتناول المعانى ؛ لأن سبيل ذكر هذه المعانى هو الحذف . ولو ذكر هذا المحذوف لضاع المعنى المراد .

ثم يقول : " يستثمر تلك البقية فى أداء المعنى كله بجلاء ووضوح " وعبارة الشيخ تفرق بين أمرين : بين دور قرينة الحذف ، وبين دور العبارة الباقية فى بيان المعنى المحذوف ؛ فالقرينة تشير إلى موضع المحذوف وتحدده ، أو تعين على تحديده ، أما أداء المعنى المحذوف فهو مهمة العبارة الباقية التى يستثمرها البيان القرآنى . وفرق بين أداء المعنى والتعبير عنه ، وبين الدلالة عليه والإشارة إليه وهو ما عبر عنه الشيخ بدقه حين قال :

---

(١) المثل السائر لابن الأثير جـ٢ صـ٧٤ .

" فإن طلبت سر ذلك ، رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات أوالجمل المطوية فى كلمة هنـا وحرف هناك "٠

ويمكن من خلال ما تقدم أن نحدد تصور الشيخ لمفهوم الإيجاز فى النقاط التالية :

١ــ الكــلام عند الشيخ ثلاثــة أقسام : إجحاف ، وإيجاز ، وإسراف ، والطرفان مذمومان وتكمن الفضيلة البيانية فى الاعتدال الذى سماه الشيخ إيجازًا ٠

٢ــ الإيجاز : هوالمقدار الذى يؤدى به المعنى بأكمله بأصله وحليته ، على حسب ما يدعو إليه المقام من تفصيل أو إجمال من غير إجحاف ولا إسراف ٠

٣ــ الإيجــاز نوعــان : الأول : إيجاز باجتناب الحشو والفضول ، وانتقاء اللفظ الجامــع المانع الذى هو أتم تحديدا للغرض وأعظم اتساعا لمعانيه ٠ وهذا النوع له شعبتان :

{ أ } : الاختصار للفهـم

{ب} : الإطناب المفخم ٠ وحد الإيجاز ينطبق على الإطناب ؛ إذ ليس فى الإطناب حشــو ولا فضول ، كما أنه جاء تلبية لدعوة المقام ، ولا يمكن حذف حرف منه ، أو إبداله بغيره دون إخلال بالمعنى ٠

الثانــى : إيجــاز بحذف شئ من الأصول : وهو عنده أعز وأعجب من النوع الأول وهذا هو الإيجاز بالحذف عند البلاغيين ٠

فإذا قال الشيخ : إن القرآن إيجاز كله ــ فهو لا يعنى الإيجاز بمفهومه الذى استقر فــى مدرسة الإمام السكاكى ٦٢٦ هــ وإنما يعنى الإيجاز بمفهومه الذى اطمأن هو إليه ٠ وهــو مفهوم له جذوره فى تراثنا البلاغى والنقدى ٠

وقد خالف فى ذلك بعض المعاصرين فقد قال أستاذنا الدكتور عبد العظيم المطعنى حين عرض رأى الشيخ فى القضية.

" ونحن لا نرى للمؤلف سندا يمكن أن يعتمد عليه فى عدّة أسلوب القرآن إيجازا كله وذلك للأسباب التالية :

١ـ أنه خرق لما أجمع عليه العلماء من أن فى القرآن إيجازا، وإطنابا ومساواة وقد أقاموا الدليل القاطع على ذلك .

٢ـ أن القرآن نفسه حين يقارن بين موضعين فيه اتحدا فى الفكرة ـ نجد فروقا بين ذينك الموضعين: أحدهما ملحوظ فيه الإطناب ، والثانى الإيجاز . ومثال ذلك مانجده فى قصة آدم عليه السلام فى سورة الكهف حيث لم يتعد الآية الواحدة ، بينما جاء فى مواضع أخرى " كالحجر " مثلا مطنبا إذا ماقسناه بسورة الكهف .

٣ـ أن هذا الرأى ـ اعتبار القرآن إيجازا كله ـ فيه خروج بالأسلوب عن طبيعته وقد علمنا انقسام الكلام إلى هذه الأقسام الثلاثة ، وأن كلا منها مقتضى حال له دواعيه ". (١)

وهذه النقدات يمكن أن توجه للدكتور دراز إن كان يقصد بالإيجاز مفهومه الذى استقر فى مدرسة الإمام السكاكى ٦٢٦هـ وهو مالم يقصد إليه ، بل ما أقام رأيه إلا على نقض هذا المفهوم الذى يجعل من متعارف الأوساط ، أو أداء أصل المعنى ـ أساسا فى الحكم بالإيجاز أوالإطناب.واتخذ من الوفاء بحق المعنى وحاجة المقام معيارا لمفهومه.

---

(١)خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية د:عبد العظيم المطعنى . جـ١ صـ١٦٤ ومابعدها .

والدكتور دراز لم ينكر وجود الإطناب ، وإنما جعله شعبة من الإيجاز ؛ لأن المقياس هو الوفاء بحق المعنى ٠ وهذا أمر يتحقق فى إيجاز القرآن وإطنابه أو فى إجماله وتفصيله فالمسألة تغييرٌ لمصطلح بناء على تغيير مقياس ٠

أما ماذكر أستاذنا الدكتور المطعنى من أن القرآن حين يقارن بين موضعين اتحدا فى الفكرة قد يطنب فى موضع ويوجز فى الثانى — فهذا أمر لاينكره الشيخ أيضا ؛ لأنه ذكر أن القرآن قد يجمل فى موضع ويفصل هذا الإجمال فى موطن آخر كما فى قوله تعالى : " وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ " (البقرة / ١٩٤) ٠ فقد جاء تفصيلها فى قوله تعالى: " وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ٠٠" (المائدة/ ٤٥)٠

وإنما ينكر الشيخ أن ننظر إلى القرآن هذه النظرة الاعتبارية التى تقيس عبارة إلى عبارة ؛ لأن هذا صرف للنظر عن طبيعة المقام ، والسياق ، والغرض الذى استدعى الإجمال هنا ، والتفصيل هناك ٠ وإنما المهم : لم جاء المعنى على هذه الصورة المجملة أو المفصلة ؟ وهل وفى بحق المعنى فى مواضع الإجمال والتفصيل ؟ تلك هى المسألة ، وهذا هو الإيجاز ٠

....

مـــن تطبيقـــات الشـــيخ على مفهـــوم الإيجـــــار

ســـيختار البحث من هـــذه التحليلات مايبرز مفهـــوم الإيجاز عنده ، ويبيـــن عـــن مـــدى المواءمة بين نظرتـــه وتطبيقـــه .

فمـــن ذلك وقفتـــه مع قـــوله تعالى : " وَإِذَا قِـيلَ لَهُـمْ آمِنُـوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَـالُوا نُؤْمِـنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْـنَا وَيَكْفُـرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُـوَ الْحَـقُّ مُصَـدِّقًا لِمَا مَعَـهُمْ قُـلْ فَلِـمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَـاءَ اللهِ مِـنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُـمْ مُؤْمِـنِينَ " (البقـرة/٩١) .

• عـــرض الشيخ للعناصر الأصليـــة التى تبرزها الآيـــة وهـــى :

١ـ مقالـــة ينصح بها الناصح لليهود يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .

٢ـ إجابتهـــم لهـــذا الناصـــح .

٣ـ الرد على جوابهـــم بعدة وجـــوه . ثم يقـــول الشيخ : " ولو هـــدى أحـــد إلى اســـتنباط هذه المعانى التى تختلج فى نفس الداعى ، والمدعو ، لما وسعـــه فى أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات، ولعله بعد هذا لايفى بما حولها من إشارات واحتراســـات ، وآداب وأخـــلاق " . (١)

• ثـــم بدأ فى تحليل الآيـــة فلفـــت إلى نهـــج القرآن فى استثمار أقل الألفاظ فى توليـــد أكثر ما يمكن من المعانى وذلك فى قـــوله تعالى: " آمِـنُوا بِمَا أَنْـزَلَ اللهُ " فالنـــاصح يقول لليهود :" آمنـــوا بالقرآن ، كما أمنتم بالتوارة . ألستم قـــد آمنتم بالتوراة التى جـــاء بها موسى لأنها أنزلها الله ؟ فالقرآن الذى جاء به محمد ـ صلـــى الله عليـــه وســـلم ـ أنزله الله . فآمنـــوا به كما آمنتم بها . فقد جمع القرآن هذا كله فى هـــــذه الكلمـــة : " آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ " وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايـــته ؛ فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشىء بحجته فى لفـــظ واحـــد " (٢)

---

(١) النبـــأ العظـــيم صـــ ١٢٠ .

(٢) السابق الصفحة ذاتهـــا .

وعلنا نلحظ أن العبارة لو جاءت هكذا " آمنوا بالقرآن " ـ لكانت أقل فى اللفظ من الآية ، ولكن يذهب الوفاء بحق المعنى ، ولاينقطع عذرهم فى ترك الإيمان بالقرآن ، ولذلك جاء بالكناية التى تصور المعنى مصحوبا بحجته .

● ويلمح الشيخ إلى شيء آخر فى العبارة وهو حذف المنزل عليه . فلم يقل : " آمنوا بما أنزل الله على محمد " .ثم يعلل لذلك بما يستحق النظر ؛ فهو يقول :

" ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه .. مع أنه جزء متمم لو صف القرآن المقصود بالدعوة. أتدرى لم ذلك ؟ لأنه لو ذكر لكان فى نظر الحكمة البيانية زائدا، وفى نظر الحكمة الإرشادية مفسدا ؛ أما الأول : فلأن هذه الخصوصية لادخل لها فى الإلزام.. فأدير الأمر على القدر المشترك الذى هو عمود الدليل . أما الثانى : فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ماقصده الداعى من التأليف والإصلاح ، ذلك إلى مافى هذا الحذف من الإشارة إلى طابع الإسلام وهو أنه ليس دين خصومة ، وتفريق ، بل هو جامع مافرقه الناس من الأديان ، داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء " (١)

وتعليل الشيخ للحذف بأنه لو ذكر المنزل عليه لكان فى نظر الحكمة البيانية زائدا ـ هذا التعليل قريب مما ذكر البلاغيون فى أغراض الحذف عن " الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر " وإن كان غرضا لايروى ظمأ ، ولايغنى فى تعليل أسرار الحذف ، وإنما لابد من دواع أخرى لطيفة ، ولعله لذلك جاء بسر آخر وهو أن ذكر المنزل عليه يثير حفيظة هؤلاء ويؤدى إلى عكس ماقصده الداعى .

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٢٠ .

وهذا التعليل الثاني من الشيخ يشير إلى أمر مهم في دراسة الظواهر البيانية في القرآن ٠ وهو أنه لاينبغي أن نقف في دراسة تلك الظواهر عند السياق الجزئي ، أو الكلي للظاهرة ، وإنما لابد من استحضار المقاصد القرآنية التيجاء من أجلها القرآن وهي دعوة الناس إلى الهداية والفلاح في الدارين ٠ واستحضار هذه المقاصد يتيح لنا أن ننظر إلى الظاهرة البيانية وما أسهمت به في خدمة الدعوة ، والمسائل التي نوقشت من خلالها ، ومابرزت فيها ، وعلاقة ذلك بطبيعة النفس الإنسانية، والفطرة البيانية ٠ والحذف واحد من الأبواب التي يمكن أن تدرس من هذه الزاوية٠ وقد اتجه بعض علمائنا المعاصرين إلى دراسة الفنون البلاغية من هذه الوجهة ٠

وفي تعليل الشيخ للحذف بأكثر من سر دليل على أن انطلاقه في أسرار الحذف من واقع ذهاب النفس فيه كل مذهب ، ثم من واقع إيمانه بأن النكات البلاغية لاتتزاحم ٠

وأمر آخر وهو أن التعليل للحذف جاء في سر حذف شيء من المتعلقات غير " المفعول " ومن المعلوم أن مدرسة الإمام السكاكي ٦٢٦هـ لم تول المتعلقات اهتماما بالغا كالمسند إليه والمسند ٠

ونريد من خلال ماذكره الشيخ في سر حذف " الجار والمجرور " على محمد" أن نلفت إلى ضرورة إعطاء بقية المتعلقات قدرا أكبر من اهتمام الباحثين ٠ كأن يدرس أسرار حذف الظرف ، أو الجار والمجرور ، أو الحال ، أو غيرها في القرآن كله، أو في السنة الشريفة ، فلاريب أن هذا يثرى ويفيد ، ويعطي باب متعلقات الفعل فائدة أجدى وأنفع من الفائدة التي تؤخذ منه في صورته التي استقر عليها عند المتأخرين٠

• وفى تحليل الشيخ لقوله تعالى :" وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ " ـ مايبرز لنا اختيار القرآن للفظ الجامع المانع ٠ وهو من شروط الإيجاز عنده ٠ وفى ذلك يقول : " ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ " ماوراءه " ٠ فإن لهذه الكلمة وجها تعم به غير القرآن ، ووجها تخص به هذا العموم ؛ ذلك أنهم كما كفروا بالقرآن ـ كفروا بالإنجيل ٠ وكلاهما وراء التوراة أى : جاء بعدها ، ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوارة ٠ وهكذا نراه قد حدد الجريمة باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع وهذا هو غاية الإنصاف ، وتحرى الصدق فى الاتهام"٠ (١)

فلفظ " ماوراءه " منع دخول ماقبل التوراة ، وجمع مع القرآن الإنجيل ٠ فهو لفظ محدد للغرض أتم التحديد ، متسع للمعانى المناسبة وهذا من دعائم الإيجاز عند الشيخ ٠

• والإطناب من الإيجاز إن استدعاه المقام ٠ واتضح ذلك فى تحليله لقوله تعالى: " مِنْ قَبْلُ " يقول الشيخ : " لقد كان للتعبير بهذه الصيغة " تَقْتُلُونَ " بلفظ المضارع مع ذكر " الْأَنْبِيَاءَ " بلفظ عام مايفتح بابا من الإيحاش لقلب النبى العربى الكريم ، وبابا من الإطماع لأعدائه فى نجاح تدابيرهم ، ومحاولاتهم لقتله ٠ فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس من ذلك كله بقوله : " مِنْ قَبْلُ " فقطع بهذه الكلمة أطماعهم ، وثبت قلب حبيبه ؛ إذ كانت بمثابة وعده بعصمته من الناس " ٠ (٢)

فالاحتراس من صور الإطناب الاصطلاحى ، ولكن حين ننظر إلى المقام ، ومدى استدعائه ـ لهذه الكلمة ، والفائدة التى جاءت من ورائها ـ نحكم بأنه إيجاز ؛ فقد قطعت أطماع هؤلاء ، وثبتت قلب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ٠ ولو حذفت هذه الكلمة لضاع هذا المعنى ؛ واختل الغرض ٠ وهذا إجحاف بحق المعنى يرفضه الشيخ ٠

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٢١ ٠

(٢) السابق صـ ١٢٥ ٠

• ثم قال الشيخ مبينا ماتركــتة الآيــة من الحشو والفضــول فى هــذا المقام :

" وفى الآيــة نواح كثيرة أوثــر فيها الإجمال ؛ إعراضا عن كل زيادة لاتمس إليــــها حاجة البيان فى الحــال ، فقــد قــال : إن القرآن مصــدق لما معهــم ، ولم يبيــــن لنــا مدى هــذا التصديق ، أفى أصل مــن أصول الدين فحســب ؟ أم فى الأصول والفــروع ؟ ذلك أن كلام الملوك لايتنزل إلا بقــدر معلــوم ، وماذا يعنى الداعــى أن يمتــد التطـــابق بين الأديــان إلى الفروع أو لايمتــد ؟ فليبحـــث علمــاء التشــريع ! ، وقــــال : إنــهم يقتلــــون أنبيــاء الله ٠ فمــن أولئك الأنبياء ؟ فليبحث علماء التـــاريخ ! وقـــال بعــد الآيــة : إن موسى قــد جاءهــم بالبينات ٠ فما هــى ؟ ٠ وقــال : إنــه أخــذ عليهــم الميثاق٠ فعلى أى شــىء كان أخــذ الميثا ق ؟ إن حكمة القرآن لأجل من أن تعرض لمثــل هذه التفاصيل فى مثل هــذا الوضــع " (١)

فهــذا كله اجتناب للحشــو والفضول الذى لايتطلبه المقام٠ ولكن ينبغى أن يقــال: إن بعض ما أجمل هنا٠ قــد فصــل فى آيات أخرى ٠ فقــد جاء تفصيل بينات موســـى فـــى قــوله تعالى :" اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ " (القصص/٣٢) وقــوله تعالى : " فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ٠٠" ٠ (الأعراف /١٣٣)٠ كما جــاء تفصيل الميثاق الذى أخــذه الله عليهــم فى قــوله تعالــى : " وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ٠٠" (البقــرة /٨٣) ٠

---

(١) النبأ العظــيم صـــ ١٢٥ ٠

والمقـام هـو الذى يستدعى الإجمال أو التفصـيل ، ولـذا كان الشيخ دقيقـا حيـن قـال :"إعراضـا عن كـل زيادة لاتمس إليها حاجـة البيان " فى الحـال " ، وقـال : " حكمـة القـرآن أجـل من أن تعرض لهـذه التفاصيل " فى مثـل هـذا الموضـع " — وذلك دون تعمـيم لحكمـه على بقيـة المواضـع ٠

٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

المبحــث الثــالـــث

دلائــل إيجـــاز القـــرآن عنــد الدكتـــور دراز

أ ـــ دلائــل الإيجــاز القرآنــى عند الشيخ

ب ـــ دلائــل أخـــرى تدعـــم وجهتـــه

دلائل الإيجاز القرآنى عند الشيخ :

بعد أن عرض الشيخ وجهته فى مفهوم الإيجاز أخذ فى بسط دلائل الإيجاز القرآنى فقال ـ رحمه الله :

" لذلك نسميه إيجازا كله ؛ لأننا نراه فى كلا المقامين (الإجمال والتفصيل) لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف ميلا ما ، ونرى أن مراميه فى كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من ألفاظه ، ولا بما يساويها ؛ فليس فيه كلمة إلا هى مفتاح لفائدة جليلة وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى " (١) .

وهذا النص يضم بعض دلائل الشيخ التى تدعم وجهته ، ويمكن إبرازها فيما يلى :

أولا : أن القرآن الكريم فى أداء أغراضه ، وفى سائر مقاماته مجملة ومفصلة يلتزم سبيل القصد والاعتدال ؛ ولا يميل إلى الاسراف فى معناه أو عبارته . ونلحظ أن الشيخ يقول : " ولا يميل إلى الاسراف ، ولم يقل : " إلى التفصيل " ؛ لأنه يؤمن بأن فى القرآن إجمالا وتفصيلا .

والمقصود بعدم تجاوز القرآن سبيل القصد ــ أنه يقتصر فى بيانه على حاجته ، ولا يزيد فى الكلام شيئا يتجاوز به حدود المقصود منه . وهذا ما دعا إليه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين تكلم رجل عنده فأطال . فَقَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ : كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ ؟ فَقَالَ لَهُ : شَفَتَاىَ وَأَسْنَانِى . فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ــ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ إِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ الانْبِعَاقَ فِى الْكَلَامِ فَنَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَ رَجُلٍ أَوْجَزَ فِى كَلَامِهِ وَاقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ " (٢).

والقرآن فى كلا المقامين يقتصر فى بيانه على حاجته، ولا يتجاوز مقدار المقصود به (٣).

---

(١) النبأ العظيم صـ١٢٧ وما بعدها .

(٢) الحديث أورده الإمام الزمخشرى فى كتابه " الفائق فى غريب الحديث " ت . محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد البيجاوى ط دار المعرفة بيروت الطبعة الثالثة جـ١ صـ ١١٩ .

(٣) انظر دفاع عن البلاغة ، للأستاذ أحمد حسن الزيات ، مطبعة الرسالة ١٩٤٥ صـ٩٦ .

ثانياً:أن الأغراض التي يرمي القرآن إلى أدائها في كلا المقامين ــ لا يمكن أداؤها كاملة العناصروالحلى بأقل من ألفاظ القرآن ولابما يساويها.

ونلحظ دقة الشيخ ؛ فهو يقول " مراميه " أي مراد القرآن ٠ وهو أمر لايقدر على تحديده إلا وحي سماوى أوبيان نبوى ، وأما أمر البشر فيه ــ فهو توفيق ومقاربة إلى معاني يتسع لها عطاء القرآن ، وتحتملها اللغة ، ولاتتعارض مع أصل من أصول الدين أو خصائص المنزل سبحانه

يقول الدكتور محمود توفيق سعد : " فما يريده سبحانه وتعالى ليس بملك أحد لايوحى إليه أن يحدده ، ويقرره تحديدًا وتقديرًا جامعًا مانعًا ، ومن ثم فإن مانطلق عليه " المعنى " في بيان السماء إنما نعني به المعنى الإدراكي لا المعنى القصدى ٠٠٠ فنحن بحق ــ إنما نقول في بيان السماء ما نفهم منه لاماهو مراد ومقصود السماء " (١)

كما يقول الشيخ " لايمكن تأديتها كاملة العناصر الحلى " ولم يقل " تأدية أصل معناها " ؛ لأن تأدية أصل المعنى ممكن ، وهذا يطعن في وجهته ٠ ثم إنه ما من كلمة في القرآن إلا هي مفتاح لفائدة وليس فيه حرف إلا أتى لمعنى قضى به المقام ، واستدعاه الغرض ، وهذا أمر يدركه كل خبير بصير ، له حس مرهف ، وعقل مدقق ٠ ونلحظ الدقة في تشبيه الكلمة " بالمفتاح " ؛ إذ ليست الفائدة في الكلمة ذاتها ، وإنما هي مفتاح يدخل به المرء دروب الفائدة ٠ كما أن قوله : " وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى " ــ قول دقيق ٠ ولو قال:وليس فيه حرف إلا له معنى ، لذهبت هذه الدقة ؛ لأن معنى الحرف باق فيه جاء أم لم يجيء - وهي الدلالة المعجمية - والمقصود الدلالة السياقية؛ وفرق بين أن يجيء الحرف لمعنى، وبين أن يكون له معنى ٠

---

(١)دلالة الألفاظ عند الأصوليين د/ محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة : الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م صـ ١٧ ٠

ثالثا : الحد اللغوى للإيجاز يدعم وجهة الشيخ .

ويضيف الشيخ إلى دلالته السالفة شيئا آخر يستقيه من دلالة الإيجاز اللغوية ، وفضيلته البيانية . فهو يرى أن حَدّ الإيجاز اللغوى ينطبق على القرآن كله ؛ " فما الإيجاز إلا السرعة والتخفيف فى بلوغ الحاجة بالقدر الممكن . فالذى يسرع فوق الطاقة لايبلغك حاجتك فيكون مجحفا مخلا ، والذى يبطىء حيث تمكن السرعة لايكون إلا مسرفا مملا " (١)

فالإسراع فوق الطاقة لايبلغ الحاجة ، وهذا إجحاف ، والإبطاء حيث تمكن السرعة إملال وإسراف ، وبهذا ينزل الإيجاز منزلة وسطا تشمل القرآن كله ؛ إذ ليس فى القرآن إجحاف ، ولا إسراف .

وفى البيان الإنسانى نجد البليغ قد يعجله الحافز الملح عن تعهد كلامه بالرعاية والتثقيف ، فيأتى بالركيك التافه ، وقد يتساهل فى تجويد كلامه ، وتَفَقّد ما فيه من الفضول ، وقد يهمل فى أصل من أصول البيان ، أو يرتجل فى مقام يستدعى التأنى والإعداد ، أو يخرج عن قواعد الصنعة وهذه كلها من أعراض السرعة التى تصيب الأديب والكاتب . وهذا إجحاف بحق المعنى لايبلغ السامع حاجته ، وما تطلبه نفسه فى العمل الأدبى من عناصر الكمال والتجويد .(٢)

وقد يبطىء الأديب حيث تمكن السرعة فيغرق فى مظاهر التكلف والتنقيح والزخرف . بما يجعل ملامح الإسراف والإملال مرتسمة على وجه العمل الأدبى ، وهذا إسراف فى حق المعنى يصيب بالملل . والقرآن فى مقاماته كلها يتنزل على قدر حاجات النفوس .

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٢٩ .

(٢) انظر دفاع عن البلاغة للأستاذ الزيات صـ ٨ .

ثم يقول الشيخ : " ورأينا الناس مازالوا يتواصون بهذه الوجازة في البيـــان ، ويجعلـــون خير الكلام ما قل ودل ، حتى روى عن سيد البلغاء صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آلــــه أنه قال:لجرير بن عبد الله البجلى:(١) " يَا جَرِيرُ إِذَا قُلْتَ فَأَوْجِزْ ، وَإِذَا بَلَغْتَ حَـــاجَتَكَ فَــلَا تَتَكَلَّفْ " (٢)

وكأنه يريد أن يقول : إذا كان الأدباء والشعراء ، بل الناس عموما يتواصون بالإيجــــاز ويعدونه من سمات الفضيلة البيانية ، بل عدوه البلاغة كلها ،وإذا كـــان النبـــيـ صلـــى الله عليه وسلم ــ قد دعا إلى أن يكون الإيجاز طريق القول ، ويتضح ذلك من أسلوب الشــــرط " إذا قلت فأوجز " ثم التعميم في لفظ " قلت " : أيّ قول ــ إذا كان ذلك كذلك . أفلا يكـــون من باب أولى أن يكون القرآن الكريم . قد ضرب لنا المثل الأعلى بإتيانه على غاية فضيلـــة الإيجاز .

رابعا : النظر في بيان الإنسان يدعم وجهة الشيخ :

وبرهان آخر يمكّن المرء من استبانة إيجاز القرآن كله ــ وهو أن ينظر إلى قطعة منـــه بالقياس إلى غيرها من كلام الناس ، ثم ينظر ما حوت كل قطعة من المعاني ، وما يســـتطيع أن يسقطه أو يبدله في كل منهما .

---

(١) جرير بن عبد الله البجلى الأحمس اليمنى وفـــد على رســـول الله فأسلـــم في رمضـــان . روى عنه مالك والشعبى وروى له البخـــارى ومسلـــم وأبـــو داود ، نزل بالكوفـــة ، وسكن بها ، ثم انتقل إلى " قرقيسيا " ومات بها سنة ٤٥١ أو ٤٥٤هـــ . الوافى : بالوفيات : (١١ / ٧٥) .

(٢) النبأ العظيم صـــ ١٢٩ . والحديـــث ســـبق تخريجـــه .

يقـــول الشـــيخ :

" ضع يدك حيث شئت من المصحف ، وعد ما أحصته كفك من الكلمـــات عـــدا ، ثـــم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجا عن الدفتين ، ثم انظر نسبة ما حواه هـــذا الكـــلام من المعانى إلى ذاك ، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها ، أو تبدلها هناك ٠ فكتـــاب الله كما يقول ابن عطية ٥٤٦ هـــ : لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العـــرب لتجـد لفظـــة أحسن لم توجد " (١)

والشيخ فى كلماته تلك يلفت إلى أصلين عظيمين من أصول نقد البيان :

الأول : أن ننظـــــر إلى النص فى ظل ما يحويه من المعانى ، فعلى قدر هذا المعانى التى تسبح تحت الألفاظ ، وعلى قدر ثرائها ، وخصوبتها ، ووفائها بحاجات الأغراض ـــ يكون فضل بيان على بيان ٠ وهذا أصل عتيد من أصول النقد العربى ، وكان له أثر بارز فى تشكيل الوجهة الأدبية والنقدية لدى الشعراء والنقاد ٠ فالجاحـــظ ٢٥٥ هـــ يذكر أن " أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره " (٢) ٠ " ولـــن تجد كتابا فى النقد أو البلاغة خاليا من الإشارة إلى هذا المبدأ ٠ فكان من المبادئ الفعالة التى تتحكم فى انتاج الشعراء ونقد النقاد ، بل كان مبدأ عاما يشترك فيـــه الأعراب " (٣) ٠

---

(١) النبـــا العظـــيم صـــ ١١٢ ٠

(٢) البيان والتبيين للجاحـــظ جـــ١ صـــ ٨٣ ٠

(٣) الأسس الجمالية فى النقد الأدبى د عز الدين اسماعيل صـــ١٢٦، صـــ ١٢٧ ، ويراجع دفاع عـــن البلاغـــة ، للأستاذ الزيات صـــ ١٠٥ ٠

الثانـــى : هو النظر فى بنية النص ، ومناهج الاعتلاق بين عناصر بنائه ، للتعرف على علاقات المعانى أهى متصلة من ذات نفسها بدون ملاط يجمع بينها ، أم احتاجت إلى عنصر خارجى يربط بين أجزائها ؟ أم أنها بناء مفكك ضعيف لا يثبت ؟ والشيخ يضع بين يدى الباحث منهجا يدله على ذلك ٠ وهو أن يحاول نزع لفظة من مكانها ، أو إبدالها بأخرى ـ فإن أمكن ذلك فى سهولة ويسر ، دون أن يضام المعنى ٠ فالبناء ما زال فى حاجة إلى قوة ٠ ولأهمية هذا المبدأ فى البناء البيانى جعله الإمام الخطابى ٣٨٨ هـ عمود البلاغة ـ كما تقدم ٠

وبالطبع لامجال للموازنـــة بيـــن أســـلوب القـــرآن ، وأســـلوب البشر ، وإنما هـــى مسألة تقريبـــية أراد الشيخ من خلالها أن يقف المرء على إيجـــاز القـــرآن مـــن طريـــق ميسور ٠ كما نلحـــظ أن الشيخ لم يشترط وحـــدة الغرض ، أو تشابهـــه بين النصين الذيـــن هما مجال النظر ؛ لأن هـــذه خصوصية لامدخل لها فيما يريد أن يوقفنا عليـــــه الشـــيخ ، وإنما المهـــم هـــو النهـــج الذى أدى بـــه هـــذا المعنى ، وبيان مـــدى الوفاء به مع لـــزوم جانب القصد فى اللفظ ٠ فهـــذا هـــو الذى يعلـــى كلاما على كلام ، ومبينا على مبين ٠

وعلى الرغـــم من قـــوة دلائـــل الشيخ إلا أن من الإنصـــاف أن يقـــال : إنـــه لـــن يقدرهـــا قدرهـــا إلا رجل تمثل مناهج العرب فى أداء معانيهـــم ، ثم تبيـــن له ما انفرد بـــه أسلوب القرآن من هـــذه الأســـاليب ٠

دلائـــل أخـــرى تدعـــم وجهـــــة الشـــــيخ ٠

ويمكـــن أن نضـــيف إلى دلائـــل الشيخ ٠ دلائـــل أخرى تدعـــم وجهتـــه ٠

ـ **فالقـــرآن بالنظـــر إلى عطائـــه إيجـــاز كلـــه :**

ذلك أننا إذا نظرنا إلى عطائـــه ، وكثرة مايفيض به من الوجوه والدلالات ـ يمكـــن أن نحكـــم بأنه إيجاز كله ٠ ويكون الإطناب من هذا الوجه إيجازا ؛ لأنه يحمل من العطاء

والمعانى مايمكن معه أن نعـده من الإيجاز . وتفاوت أفهام الناس فيما يلقى إليـهم دليـل على هـذا الوجـه ، بل حمـل القـرآن فى آياتـه دليل إيجازه واتساع معانيـه ، وذلـك قوله تعالى : " إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ " (الواقعـة /٧٧) فقـد جعل الله الكرم سـمة للقـرآن كلـه ، والكرم عطـاء والعطاء يكون على قدر المعطى يقول الإمام الرازى : ٦٠٦هـ .

" كريـم : أى لايهـون بكثـرة التلاوة ، ويبقـى أبـد الدهـر كالكـلام الغـض، والحديـث الطـرى ، ... ثم إن السخى المجرد هـو الـذى يكثـر عطـاؤه أويسـهل عطاؤه ، ويسمى كريما " والقرآن أيضـا كريم على هـذا الوجـه ، فإن كل من طلب منـه شـيئا أعطـاه .. والله وصـف القرآن بكونـه كريما . وبكونـه عزيـزًا ، وبكونـه حمـيدًا ، فلكونـه كريمـا ـ كل من أقبـل عليه نال منـه مايريـد" (١).

فعطـاء القـرآن على قـدره سبحانه وتعالـى ، ولولا إيجاز القـرآن لكـان أداء مايتضمنـه من المعانـى فى أضعـاف القـرآن . (٢)

• ووجـود السـنة دليل على بنـاء القـرآن على الإيجـاز .

ذلك أنها بيان لما فى القرآن ، وزيـادة ؛ فهـى تفصل مجملـه ، وتبيـن مشـكله ، وتبسط مختصره . وهذا هـو الذى دل عليه قـوله تعالى : " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَانُزِّلَ إِلَيْهِمْ " (النحل /٤٤) . فلا تجـد فى السنة أمـراً إلا والقـرآن قد دل على معناه دلالـة إجماليـة أو تفصـلية .(٣)

(١) التفسير الكبير . للفخـر الرازى م١٥ جـ١٩ صـ ١٩٣ .

(٢) انظر التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور جـ١ صـ ١٢٢ .

(٣) انظر الموافقـات للإمام الشاطبى م٢ جـ٤ صـ ٩ .

وقد بين الإمام الشاطبى ٧٩٠هـ كيفية اشتمال السنة على مافى القرآن وزيادة ٠ فقال : " ما دل عليه القرآن فى الجملة موجود فى السنة على الكمال والزيادة ، إلى مافيها من البيان والشرح ؛ ذلك أن القرآن أتى بالتعريف بمصالح الدارين جلبا لها ، والتعريف بمقاسدها دفعا لها ٠

وقد مر أن المصالح لاتعدو الثلاثة أقسام وهى : الضروريات ويلحق بها مكملاتها ، والحاجيات ويلحق بها مكملاتها ، والتحسينات ٠ ولازائد على هذه الثلاثة٠ وإذا نظرنا إلى السنة ـ وجدناها لاتزيد على تقرير هذه الأمور٠ فالكتاب أتى بها أصولا يرجع إليها ، والسنه أتت بها تفريعا على الكتاب وبيانا لما فيه "٠(١)

فبيان السنة لما فى القرآن ، دليل على إيجاز القرآن ، ويمكن بناء على هذه الوجهة أن نقول إن الحديث النبوى إيجاز أيضا بالنظر إلى ماكتب حوله من شروح، وما أخذ منه من علوم وأحكام ٠ فالقرآن إيجاز بالنظر إلى السنة ، والسنة إيجاز بالنظر إلى شروحها وما أخذ منها ٠ ولكل حد يقف عنده ، لينفرد القرآن بالإعجاز فى إيجازه ٠

• **والعلوم المستمدة من القرآن دليل إيجازه ٠**

وهذه العلوم الواسعة التى انبجس نبعها من معين القرآن دليل إيجازه بالنظر إلى إتساع عطائه ٠ فعلم الفقه مثلا مستمد من آيات الأحكام والسنة النبوية ، والتفاسير على اختلاف مدارسها واتجاهاتها ، وسائر علوم القرآن وحقولها المتسعة ، أكبر دليل على إيجاز البيان القرآن بالنظر إلى عطائه الإلهى ٠

---

(١) الموافقات للإمام الشاطبى جـ٤ صـ٤٠ ٠

المبحـــث الرابـــع

الإيجـاز بين الدكـتور دراز ومدرسـة الإمـام السكاكـى

أ ـ الدكتـور دراز ومتعـارف الأوسـاط

ب ـ الدكتـور دراز وأصـل المعـنى

جـ ـ الدكتور دراز وتقسـيم الكلام إلى إيجاز وإطناب ومساواة ٠

١ـ موقفـه مـن المسـاواة

٢ـ التقريب بين الإيجاز والإطناب ٠

الإيجـــاز بين الدكتـــور دراز ومدرســـة السكاكــــى ٠

في ظــل ما اســتقر في مدرســة الإمــام السكاكــى ٦٢٦هــ من مقاييس في بحــث الإيجــاز والإطنــاب لــن يكون من اليســير أن يســلم باحث للشــيخ وجهتـــه إلا بعــد استبانة مواقفـــه من تلك المقاييـــس ، و أسســـه التى ارتكـــز عليها فـــى تغيـــير ملامـــح القضية ، وبناء وجهتـــه على أسسها٠ وهـــذا مافعلـــه الشيخ فقـــد وقـــف وقفـــــة جـــادة تبين عـــن رأيـــه ، وتظهـــر وجـــه مخالفتـــه لها ٠ فعـــرض أولا لتقســـيم الكلام عندهـــم فقـــــال :

" قســـم علماء البلاغـــة الكـــلام إلى : " مســـاو " ، و" موجـــــز " ، و" مطنـــب " ٠ وعرفـــوا " المساواة " بأنهـــا أداء المعنى بلفـــظ على قـــدره ؛ و " الإيجـــاز " بأنـــــه أداء أصـــل المعنى بلفـــظ ناقص عنـــه واف به ، ـــ و" الإطناب " بأنـــه : أداء المعنى بلفـــظ زائـــد عنـــه لفائـــدة ، وجعلـــوا المقـــياس الـــذى يضبـــط هـــذا التقسيم أمرا عرفيـــــا ، أو وضعـــيا ٠ فاعـــتبر السكاكـــى : المقـــدار الذى يتكلـــــم بـــه أوســـــاط النـــاس فـــى محاورتهم ، ومتعارف خطابهـــم ـــ هـــو ضابـــط " المساواة " وهو ، القـــدر الذى لايحمـــد منهم ولايـــذم في باب البلاغـــة ، فما نقص عنه مع الوفـــاء فهو الإيجاز، ومازاد عنه مـــع الإفـــادة فهـــو الإطنـــاب ٠ والكـــلام البليغ إنما يقع فى هذين الطرفين ٠٠ إلا أن بعضـــهم رأى أن البناء على العرف فيه رد إلى الجهالـــة فجعـــل حـــد المساواة هـــو المقدار الـــذى يـــؤدى المعانى الأولية بالوضع من غير رعاية للمناسبات الزائدة على أصل المعنى٠(١)

هـــذه خلاصـــة وافيـــة لمفهـــوم الإيجاز والإطناب والمساواة فـــى مدرســـة الإمـــام السكاكـــى ، والأســـس التى بنوا عليها حكمهـــم علـــى الكـــلام بالإيجـــاز أو الإطنـــاب ٠ وستكون للشـــيخ ثلاث وقفـــات مع هـــذه المدرســـة ٠ الأولـــى : مـــع فكـــرة متعـــارف الأوساط ، والثانيـــة : مـــع أصـــل المعنى ، والثالثة : مع مبدأ تقسيمهـــم الكلام إلى إيجـــاز وإطنـــاب ومســـاواة ٠

---

(١)النبـــأ العظـــــــيم صـــ ١٢٨ ٠

أولا : الدكتور دارز ومتعارف الأوساط :

ومتعارف الأوساط هو ماجعله الإمام السكاكى ضابطا لمعرفة الإيجاز والإطناب ٠ والأوساط كما يقول الإمام سعد الدين التفتازانى ت ٧٩٣هـ(١) "هم الذين ليس لهم بلاغة وفصاحة ، ولاعى وفهاهة ، ومتعارفهم هو كلامهم فى مجرى عرفهم فى تأدية المعانى عند المعاملات والمحاورات ، وكلامهم لايحمد فى باب البلاغة ؛ لعدم رعاية مقتضيات الأحوال ، ولايذم ؛ لأن غرضهم تأدية أصل المعنى بدلالة وضعية وبألفاظ كيف كانت مجرد تأليف يخرجها عن حكم النعيق " (٢) ٠

ولكن الخطيب القزوينى ٧٣٩ هـ لم يرتض البناء على متعارف الأوساط فقال :
" ثم البناء على متعارف الأوساط ، والبسط الذى يكون المقصود جديرا به ـ رد إلى الجهالة فكيف يصلح للتعريف "(٣)

ومعنى الرد إلى الجهالة أن هذا المتعارف عند الأوساط ـ غير معروف ؛ فلايستطيع أحد أن يقول على وجه التحديد:إن هذا القدر ، أو هذه الكيفية ـ هى طريقة الأوساط فى التعبيرعن معانيهم ٠ وكون المقام مما يقتضى كذا ، أوكذا لا أقل ولاأكثر ـ لا يكاد يعرف ؛ لتفاوت المقامات كثيرا ، ومقتضياتها مع دقتها(٤)٠

---

(١)مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازانى ٠ من أئمة العربية والبيان والمنطق ٠ ولد " بتفتازان " من بلاد " خراسان " وأبعده تيمور لنك إلى " سمرقند " فتوفى بها ودفن فى " سرخس " فى ٧٩٣هـ من كتبه " المطول " و" تهذيب المنطق " الأعلام : (١١٣/٨) ٠

(٢)المطول فى شرح تلخيص المفتاح ، لسعد الدين التفتازانى نشر المكتبة الأزهرية للتراث صـ ٢٨٢ ٠

(٣)الإيضاح للخطيب القزوينى جـ٣ صـ ١٧٣ ٠

(٤)انظر حاشية الدسوقى على شرح سعد الدين ٠ مطبوعة على هامش شروح التلخيص ط : دار السرور بيروت جـ٣ صـ ١٦٨ ٠

ولـم يسارع الدكتـور دراز إلى رد فكـرة متعارف الأوسـاط استنادا إلى الدليـل المتقـدم ؛ لأنه كان مثار خـلاف وجـدل بين الشراح ، فكانـوا بين مؤيـد ومعـارض، وإنما اختار من الأدلـة مالايحتمـل نقاشـا أو مجادلـة ؛ إذ اعترض بلازم كلام الإمـام السكاكى ٦٢٦هـ على مذهـبه ذلك أنـه حين يقيس الإيجـاز أو الإطناب بالنظر إلـى " متعارف الأوساط " يفهـم من كلامـه كما يقـول الدكتـور دراز : " أن العبـارة التـى تؤدى بها المعانى الأوليـة فى لسان الأوسـاط تقـع دائمـا بين الإطالـة والاختصـار . وهذا كلام لادليـل عليه ... لأن العـوام يتكلمـون فى المعنى الواحد باللفـظ المطـول تارة ، وبالمختصـر تارة أخـرى ، وإن لم يتحروا إصـابة المحزفى كل منهما ".(١)

وقـد أقـر بعض شـراح التلخيص بوجـود مرتبتى الإيجاز والإطناب فـى كـلام العوام . فقـال : " اعلـم أن كـلام الأوسـاط ليس مدفوعـا من إيجاز ، ولا إطناب؛ فإن مافى الإيجاز من الحذف وغيره يكثر فى كلام الأوسـاط ، ولعل المراد غالب كلامهم"(٢)

وعلـى هـذا إذا تكلـم الأوسـاط فى معنى واحد بلفـظ مطـول تـارة ، وبلفـظ مختصر تارة أخرى، فأى الصورتين توضع أساسا للحكم على غيره بالإيجاز أو الإطنـاب ؟ لاشـك أن وجـود المرتبتين فى كلام الأوسـاط يعنى أنه لايمكـن أن ينضـبط قـدر يرجع إليه فى معرفـة الإيجـاز أو الإطنـاب . وهو دليل اعتمـده الدكتـور دراز فـى الرد على هـذه الفكرة حـيث قـال مبينا أن أى معـنى يمكـن تأديته بوجـه مجمـل ، وبوجـه مفصـل :

" لاينضـبط قـدر يرجـع إليه فى معرفـة الإيجاز والإطناب ؛ إذ مامـن كـلام وجيز إلا ويمكن تأديـة معناه الإجمالى بأقل من لفظـه ، أو بما يساويـه . وإن لم يغـن غنـاءه ، ولـم يـوف وفـاءه . حـتى المثـل الـذى عـدوه علما فى الإيجـاز

---

(١) النبـأ العظـيم صـ ١٢٨ .

(٢) عروس الأفراح للبهـاء السبكى ضمن شـروح التلخيص جـ٣ صـ ١٦٨ .

وهـــو قــوله تعــالى : " فِى الْقِصَــاصِ حَيَاةٌ " (البقرة/١٧٩) ٠ يمكن تأديـــة أصــل معناه بقولك:انتقـم تسلم ، أو اقتص تحـى ، أو الاكتفاء بكلمتين منه " القصاص الحياة "(١)

ومــايقـــال فى الكـلام الموجـز ــ يقال فى الكلام المطنـب ، ووجــود هذه الصـور المختلفــة ــ للمعنى فى كلام الأوســاط دليل على عــدم انضبــاط قــدر يرجع إليه ٠

وأظــن أن من ضــروب المحال أن يكــون لطائفــة ما ــ من الأوساط كانوا أم مــن البلغــاء ــ متعارف فى أســلوبهــم لايخرجــون عنه فى التعبير عن معانيهم؛ لأن التعبـير عن المعنى لايمكــن أن يكون رهــن متعارف فئــة بعينها ، وإنما هــو خــاضع لذاتيــة المتكلم ، وطبيعــة المعنى ، ثم للمقــام والغرض الذى جاء من أجلــه المعنــى ٠ يقـــول الأستاذ الدكتور عبد الغنى بركــة معلقــا على جعل الأوســاط ومتعارفهــم أساســا فــى الحكــم على الكلام بالإيجــاز أو الإطــناب :

" ومــن الواضح أن ــ (السكاكى) يتكلــم عن نوع من البشر لاوجــود له إلا فــى خياله هــو ؛ فنحــن نعاشــر أوساط الناس فى الحياة ، ولانرى لهـم منهجا خاصــا فــى التعبير يلتزمــون فيه باستخدام الألفــاظ بمعانيهــا الوضعيــة فقــط ، ويحرمـــون علــى أنفسهم أن يكــون فى كلامهــم مجازًا ، أو إيجــازًا ، أو حــذفـًا أو غير ذلك من صــور التعـــبير " ٠(٢)

ثانيــا : الدكتــور دراز وأصــل المعـــنى ٠

رفَـض الخطيب القزوينى ٧٣٩هـ اعتبــار متعــارف الأوســاط مقياســا للإيجــاز والإطناب ؛ لأنه رد إلى الجهالة ثم قال : " والأقرب أن يقــال : إن المقبـــول مــن طــرق التعبير عن المراد هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له ، أوناقص عنه واف بـــه ، أوزائــد عليه لفائـــدة " (٣)٠

(١) النبــا العظـــيم صـــ ١٢٨

(٢) رؤية جديدة للإيجاز والإطناب د: عبدالغنى بركة الطبعة الأولى ١٤٠٤ ــ ١٩٨٠م صــ١٨٥ ٠

(٣) الايضـــاح للخطيب القزوينى جــ٣ صـــ ١٧٣ ٠

فاعتبر " أصل المراد " ضابطا للمساواة ، ومقياسا للإيجاز والإطناب ، وأصل المراد هو " المعنى الأول الذى قصد المتكلم إفادته للمخاطب ، ولايتغير بتغير العبارات، واعتبار الخصوصيات"(١)

و "أصل المعنى " يساوى عند الإمام عبدالقاهر ٤٧١هـ الغرض العام الذى أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه ـ دون نظر إلى خصوصية مافى طريقة الإثبات والنفى ، " وذلك نحو أن تقصد إلى تشبيه الرجل بالأسد فتقول : زيد كالأسد ، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول : كأن زيدا الأسد فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد "(٢)

فالتشبيه بالأسد هو " أصل المعنى " أو الغرض ، ويبقى بعد ذلك لكل تعبير خصائصه التى تنعكس على المعنى •

وقد رفض الدكتور دراز جعل أداء " أصل المعنى " ضابطا " للمساواة " ، وقياسا " للإيجاز و الإطناب " ، وجاء نقده لهذه الفكرة امتدادا لنقده لمتعارف الأوساط ؛ إذ جعلهم " أداء أصل المعنى " ضابطا للمساواة " يفهم منه أنهم يظنون أن العبارة عن أصل المعنى تقع دائما بين الإطالة والاختصار • وهذا ليس بلازم كما يقول الشيخ ؛ " لأن اللفظ الذى وضع فى اللغة لتأدية المعنى الأولى مختلف : فمنه مايؤديه بوجه مجمل ، ومنه مايؤديه بوجه مفصل،وكل من الإجمال والتفصيل يتفاوت فى نفسه تفاوتا بعيدا ؛ إذ ما من كلام موجز إلا ويمكن تأدية معناه الإجمالى بلفظ أقل منه ، ومامن كلام مطنب إلا ويمكن تأدية معناه الوضعى بلفظ أطول منه " •(٣)

---

(١) حاشية الدسوقى على مختصر السعد جـ٣ صـ ١٧٠ •

(٢) يراجع دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهرصـ٨٧، ٢٥٦،٢٥٨،٢٦٣،٤٢١، ٤٢٣، ٦٥١ •

(٣) النبأ العظيم صـ ١٢٨ •

فلن ينضبط إذن قدر يرجع إليه في أداء " أصل المعنى " يمكن أن يسمى " مساواة "، ونلحظ أن الشيخ لم يوجه نقده إلى فكرة أصل المعنى في ذاتها ، أو إلى بيان جدواها في النظر إلى الإيجاز والإطناب ، وإنما وجه نقده إلى " العبارة عن أصل المعنى " فذكر أنه لادليل في الوضع على أن " العبارة " عن أصل المعنى ـ تقع دائما بين الاختصار والإطالة ؛ وذلك لأن همه هنا أن ينقض مايفهم من كلامهم ، وهم يقولون في الإيجاز : أداء أصل المراد بلفظ ناقص عنه واف به . فمناط النظر عندهم إلى قلة اللفظ أو كثرته بالنظر إلى أصل المراد .

ويمكن أن نضيف إلى نقد الشيخ ماتركه وهو نقد فكرة " أصل المعنى " في ذاتها . فيمكن القول بأن المتكلم حين يعبر عن معناه لايقصد إلى تأدية أصله فحسب دون اعتبار آخر فهذا شيء لايعقل لأن : " مايريد المتكلم تأديته هو معنى متكامل ، كل جزء منه هو جزء مما يريد توصيله للسامع ، والعبارة التي يصوغ بها معناه هي وحدها القادرة على نقل مايريد ؛ لأنها تعمل عليه بتضافر أجزائها سواء في ذلك المعنى ، أو الصياغة على نحو خاص ، أو طبيعة الألفاظ وخصائصها الصوتية ، بل من أجزاء المعنى مالا يتضح إلا بالحذف.يعني أننا إذا ذكرنا اللفظ أسقطنا جزءا من المعنى على عكس مايفترضون ، فلا يمكن أن نقسم ماتدل عليه العبارة أجزاء يدعى بعضها أصلي ، وبعضها زائد على الأصل".(١)

وعلى هذا حين نسمع هذه العبارة:«أصل المعنى " ينبغي أن نفهم أنها لاتعبر عن واقع أسلوبي ، أو غرض يرمي إليه المتكلم " فليس في اللغة الفنية مايسمى بأصل المعنى ، أو المعنى المجرد. وحتى إذا جرت على الألسنة ، فإنما هي للتوضيح والتحليل العلمي ، ذلك الذي يفتت العمل الفني ، ويفصل بين عناصره المتمازجة تعليما للناشئة(٢)

---

(١) رؤية جديدة للإيجاز والإطناب د: عبد الغني بركة صـ ١٨٦ .

(٢) البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابي د : صباح دراز صـ ٥٧ .

ثـالثـا : الدكتـور دراز وتقسـيم الكـلام إلى إيجاز وإطنـاب ومسـاواة .

كانت وقفـة الشيخ الثالثـة مع مدرسـة السكاكى ٦٢٦هـ فى مسألة تقسـيم الكـلام إلى هذه الأقسام الثلاثـة ، وتعريف كل قسـم منها بتعريف يجعل من الصعوبة بمكـان ـ أن يلتقيـا فى عبارة واحدة ، وبدا ذلك واضحا فى الإيجاز والإطـناب ، وكأنهما فضيلتـان لاتلتقـيان .(١)

وعلى الرغـم من أن أبا هلال العسكرى ٣٩٥ هـ قد فصل بين الإيجاز والإطنـاب ، وجعل لكل واحد منهما أصحابا يدافعون عنه فضيلتهم ، ففى الحديث عن الإيجـاز يقـول : قال أصحاب الإيجاز، وفى الحديث عن الإطناب يقول : وقال أصحاب الإطنـاب ، ويجـئ على لسان كل فريق بمزايا كل فضيلة منهما ـ على الرغم من ذلك إلا أن أبا هلال قـرب المسافة بينهما حين جعل المقام ، ومتطلباته أساس الحكم علـى الكـلام ، وحيـن قـال : " إن الإطناب إذا لم يكن منه بدٌّ إيجاز " (٢)

أما فى مدرسة الإمام السكاكى ٦٢٦ هـ فقد ظل التفريق بينهما قائمـا علـى اعتبـار متعارف الأوساط ، أو أداء أصل المعنى ، وبناء على هذا التقسيم عد بعضهم آيـات مـن القرآن من باب الإطناب ؛ لأنه يُمكن تأدية أصل معناها بلفظ ناقص عنها ، أو بعبـارة أقـل من عبارة متعارف الأوساط .

وأمام هذا التقسيم وما ترتب عليه من آثار ـ وقف الشيخ جاهدا لتقريب المسـافة بيـن الفضيلتين ، وجعلهما فضيلة واحدة ، وتمثل جهده فيما يلـى :

---

(١) انظر البيان القرآنى د : محمد رجب البيومى صـ ١٠٢ .
(٢) الصناعتين لأبى هلال العسكرى صـ ٢٠٩ .

[أ] موقفـــــه مـــن المســـاواة ٠

لابــد من الإشـــارة إلى أن الشيخ يناقــش مفهــوم المساواة فى مدرســـة الســـكاكى ، وليس مفهـــوم المساواة بوجـــه عـــام ؛ لأن مفهـــوم المساواة قبل تلـــك المدرســـة يغـــاير مفهومها عندهـــم ، بل ربمـــا اختلف مفهومهـــا باختلاف المؤلفـــين ٠ فأبو هلال العسكرى يذكـــر المساواة بعـــد الإيجاز ويقـــول : " ومما يدخـــل فى هـــذا الباب " المساواة " وهـــى أن تكـــون المعانـــى بقـــدر الألفاظ ، ولايزيـــد بعضها علـــى بعـــض وهـــو المذهـــب المتوسط بين الإيجـــاز والإطنـــاب "(١) ويفهـــم من عبارته أنه قسم قائـــم برأســـه ينطلـــق فى تقديره من النظر فى العلاقـــة بين اللفـــظ ومعنـــاه ٠

والمساواة عند ابن رشـــيق : ٤٥٦هـــ(٢) قسم من أقسام الإيجاز(٣)، وعند ابن ســـنان ٤٦٦هـــ قسم يقابل الإيجاز ويشمل أنواعا من الإطنـــــاب كـــالتذييل(٤) وهـــى عنـــد ابـــن الأثير٦٣٧هـــ قسم من أقسام الإيجاز بالقصر تسمى إيجاز التقدير ; وهو ماســـاوى لفظـــه معـــــناه(٥)٠

---

(١) الصناعتـــين لأبى هـــلال العسكـــرى صـــ ١٩٩ ٠

(٢) الحسن بن رشيق القيروانى أديب ناقد باحث ، ولد بالمغرب وتعلم الصياغة ، ثم مال إلى الأدب فرحل إلى القيروان من٤٠٦ ثم أقام " بمازر" إحدى قرى " صقلية إلى أن توفى بها ٤٥٦هـــ ومن كتـــبه " العمدة فى صناعـــة الشعر ونقده " ٠ وشرح موطـــأ مالك : وفيات الأعـــيان (٢/٨٥)٠ الأعلام : (٢/٢٠٤) ٠

(٣) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقدة لابن رشيق ت : محمد محى الدين عبدالحميد، ط دار الجـــيل بيروت الطبعة الخامسة ١٤٠١ـــ ١٩٨١ ٠ جـــ١ صـــ٢٥٠ ومابعدها ٠ وقد نبـــه إلى هذا أستاذنـــا الدكتور بركـــه فى كتابـــه رؤيـــة جديـــدة ٠

(٤) انظر سر الفصاحـــة لابن ســـنان صـــ ٢٠٧ ومابعـــدهـــا ٠

(٥) المثـــل السائر لابن الأثـــير جـــ٢ صـــ ٧٤ ٠

أمـا المساواة فى مدرسـة السكاكـى ٦٢٦هـ فهى أداء أصـل المراد بلفظ مساو لـه وقـد أنكـر الشيخ مسألة العبارة عن أصـل المعنى بلفظ مساو له ، وكان رأيه فى مفـهوم المساواة واضحا حين أراد التدليل على إيجاز القـرآن فقـال : " إن مراميه لايمكن تأديتـها كاملـة العناصر والحلى بأقـل من ألفاظـه ، ولابما يساويهـا "(١) فإنكاره لإمكان التعبـير عن مرامـى القرآن بما يساويهـا فى الألفـاظ دليل على إنكاره للمسـاواة فـى القـرآن ، واشتراطـه فى تأديـة هـذه المرامـى أن تكـون " كاملـة العناصر والحلى " نابع مـن إنكاره لأصـل المعنى الذى جعلت مدرسـة السكاكى أداءه بلفـظ مسـاو له هو المساواة٠

• ودليـل آخـر يرد مفهـوم المساواة ، وهو أن مدرسـة الإمـام السـكاكى تدخـل المساواة فى كلام الرجل البليغ إذا دعا إليها داع ، كأن يكون كلامـه مع العامـة ، ثـم بعـد ذلك يدخلونهـا فى القـرآن نفسـه . ويرد الشيخ بأن ما اشترطـه البلاغيـون لـم يتحقق فى القـرآن ؛ إذ القـرآن خطاب للعامـة والخاصـة على السـواء ، ويفهـم كـل واحد منهـم على قـدر ما أوتى من بصيرة فى الفهـم والاسـتنباط٠(٢)

• ثم إنـه لـم يكـد يسـلم لهم شـاهداً واحـداً على المساواة فى القرآن الكريم ، وقـد ذكر هذا الإمـام السيوطى ٩١١هـ حيـن نـص علـى أن المسـاواة لاتكـاد توجـد خصوصـا فى القـرآن(٣) وقد مثلوا للمساواة بقـوله تعالى : " وَلَا يَحِيقُ الْمَكْـرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ" (فاطـر/٤٣) وقـد نقـد الدكتور دراز كلامهـم فقـال : " علـى أن فى هذه الكلمة إيجـازا بالحذف على اصطلاحهم نفسه ؛ إذ المعنى : لا يحيـق ضـرر المكـر وعاقبته"(٤) وأضاف بعضهم أن فيها إطنابا أيضا فـى وصـف المكـر بلفـظ السـىء ٠

---

(١) النبـأ العظـيم صـ ١٢٩ ٠

(٢) السـابق صـ ١٢٩ ٠

(٣) معترك الأقـران فى إعجاز القرآن للسيوطى جـ١ صـ ٢٢٢ ٠

(٤) لسـابق صـ ١٢٩ ٠

• ثـم ينفـرد الشيخ بدليل يستقيـه من الأصـل فى قـاعدة الفضائل ، وأنـــها تتبـــوأ دائمـــا مكانـــا وســـطا فيقـــول ٠ رحمـــه الله :

" وقـد نشـأ من قياسـهم التوسـط بالمقـدار الذى تؤدى به المعانى الأولية فـى لسان العوام ــ بعـد تسليم كونــه وسـطا ــ أن جعلـوا الفضيلـة البيانيـة فــى هـذا الباب ٠ مائلــة أبـدًا إلى طرف النقص أو الزيـادة ، وذلك عكس مابنيـت عليـه قـاعدة الفضائل ، من تبوئها مكانا وسـطا بين الأطراف "(١)٠ وإن لم يسلم هذا الدليل من نظر٠

[ب] التقريب بين الإيجاز والإطـناب وجعلها فضيـلة واحدة ٠

بعـد أن فرغ الشيخ من أمـر المساواة اتجـه إلى الإيجاز والإطناب ، وسعى إلـــى التقريب بينهمـا ، وجعلهما فضيلـة واحدة ، فعـد الإطناب أحـــد شـعبتى الإيجـاز : اختصار مفهم ، وإطناب مفخم ٠ ثم جعل المقـام وحـده هو الذى يستدعى هـذا أوذاك ، والذى يستدعيه المقام هو الإيجاز وإن طـال ٠ يقول الشـيخ : " ماسمعنا أحـدا يوصـى بالإطنـاب الذى عـده المؤلفـون فضيلـة ثانيـة تقابـل الإيجـاز ، وإنما هـو إحـدى شعبتـيه ، الاختصار المفهـم ، والإطنـاب المفخـم ٠ ولو سميناه فضيلة ثانية تقابلـــه ، لخشـينا أن تكـون هـذه المقابلـة وحـدها رخصـة فى التحـلل من قيوده ، وتسامحـا فى الإكثار الذى جاء ذمـه بكل لسـان "(٢)

---

(١) النـبأ العظـيم صــ ١٢٩ ٠

(٢) السـابق صــ ١٣٠ ٠

فالشيخ لاينكر فضل الإطناب ، ولكنه ـ على فضله ـ لم يوص أحد به، فلم نسمع مثلا " البلاغة الإطناب " ، ويخشى الشيخ أن يكون فضيلة تقابل الإيجاز ؛ ولعل خشيته نابعة مما أورده أبو هلال العسكرى ٣٩٥ من المحاورة بين أصحاب الإيجاز ، وأصحاب الإطناب ، وتمسك كل طائفة منهما بفضيلتها، ولاريب أن الإنسان إذا تمسك بفضيلة الإطناب ، واتخذها منهجا ـ فهو لامحالة واقع فى أولئك الثرثارين المتشدقين ، وهذا أمر حرمته شريعة السماء ، كما حرمته شريعة البيان ولذلك سارع الشيخ إلى الجمع بين الإيجاز والإطناب ، وجعلها فضيلة واحدة تخضع لحاجات المقام فقال : " فلا وربك إنما هى فضيلة واحدة تطلب من المتكلم فى كل مقام ، ويؤخذ بها فى سعة التفصيل ، كما يؤخذ بها فى ضيق الإجمال ، بل لعلها فى مقام التفصيل آكد طلبا ، وأصعب منالا . فالكلام الطويل إن حوى كل جزء منه فائدة تمس إليها الحاجة فى الموضع ، ولايسهل أداء تلك القاعدة بأقل منه ـ كان هو عين الإيجاز المطلوب ، وإن أمكن أداء الأغراض فيه كاملةً بحذف شيء منه أو بإبداله بعبارة أخصر منه ـ كان حشوًا ، أو تطويلا معيبا ـ كذلك الكلام القصير : إن وفى بالمقاصد الأصلية والتكميلية المناسبة فى الحال كان هو التوسط المطلوب ، وإلا كان بترأ وتقصيرًا معيبًا " (١)

وهذا النص يبين لنا على أساس عدّ الشيخ الإطناب أحد شعبتى الإيجاز: ذلك أن الإيجاز والإطناب عند الشيخ ليسا بمقدار العبارة ، بل بالنظرإلى المقام ، ومايستدعيه . فالمقام قاض نافذ الكلمة فى هذا الميدان ، بل هو الحكم الذى ترضى حكومته فى عالم البيان ، وهو وحده الذى يطلب التفصيل أو الإجمال ، فما استدعاه المقام ، ومست إليه الحاجة ـ فهو الإيجاز عينه وإن طال الكلام .

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٣٠ .

المبحث الخامس

وجهة الشيخ

" تأصيل ونقد "

أ ـ جذور وجهة الشيخ .

ب ـ ملامح تميز الشيخ في دراسة الإيجاز .

جـ ـ وقفة مع الشيخ .

جذور وجهة الشيخ فى الإيجاز ٠

يمكن القول بأن وجهة الشيخ فى تحديد مفهوم الإيجاز ـ وجهة لها بذورها ، وجذورها فى أعماق تراثنا البلاغى والنقدى ، من لدن إمام النقاد : الجاحظ ٢٥٥هـ .وكانت تلك البذور فى حاجة إلى من يمدها بماء الحياة لتنبت قيما أدبية وفنية من شأنها أن تعلى قيمة التراث ، وقيمة أبنائه الذين أدوه حقه فى الفهم ، والتمثل ، ثم الانطلاق إلى آفاق أدق وأرحب مما حلق فيها أجدادنا ٠

وقد كان الجاحظ من أوائل من أصلوا لتلك النظرة التى تتخذ من الوفاء بحق المعنى أساسا للحكم على الكلام بالإيجاز أوالإطناب ٠ فهو يقول :

" والإيجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ ٠ وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز ، وكذا الإطالة ٠ وإنما ينبغى أن يحذف بقدر مالا يكون سببا فى إغلاقه ، ولايردد وهو يكتفى فى الإفهام بشطره ، فما فضل عن المقدار فهو خطل "(١)

فالمسألة ليست حروفا وألفاظا ، وإنما هى وفاء بحق المعنى ، ومتطلبات المقام ، ولايجيز الجاحظ أن يتعدى حذف الفضول والزوائد إلى حذف مايؤدى إلى إغلاق الكلام ؛ فهذا إجحاف بحق المعنى ، كما لايجيز للمتكلم أن يكرر ، أو يردد ؛ فهذا خطل واسراف ٠ وقد قال : وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل ، وللإقلال موضع وليس ذلك بعجز ٠

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ١ صـ ٦٢ ٠

ونلحظ أن الجاحظ " قد جعل كل زيادة عن حق المعنى خطلا ٠ وقد خالفه متأخروا البلاغين حين جعلوا الزيادة نوعين · مفيدة ، وغير مفيدة ٠ ولعمرى مادامت الزيادة مفيدة ، فلا شك أن التعبير محتاج إليها ، وليست بزيادة عنه "٠(١)

ثم حكى الجاحظ سنن العرب فى مواقع الإيجاز والإطناب ـ ويكون الفضل بوضع كل شىء فى مقامه فقال :

" وجدنا الناس إذا خطبوا بين العشائر ـ أطالوا ، وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين فى مديح الملوك أطالوا ٠٠، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، خرج الكلام مخرج الإشارة ، والوحى ، والحذف ، وإذا خاطب بنى إسرائيل ، أو حكى عنهم،جعله مبسوطا ، وزاد فى الكلام " ٠(٢)

وكذلك فعل ابن وهب(٣) فى كتابه " البرهان فى وجوه البيان " ، حين تحدث عن سمات الخطيب المسترسل فعلق المسألة على حسن التأتى ، والوفاء بحق المعنى ، ومعرفة مواقع الكلام ، وأوقاته ، وأحوال المخاطبين ٠ فقال

---

(١) رؤية جديدة للإيجاز والإطناب د: عبد الغنى بركة صـ ١٩ ٠

(٢) الحيوان للجاحظ جـ١ صـ ٦٢ ٠

(٣) أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب من الراجح أن يكون موجودا فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وعاش معظم حياته فى القرن الرابع ٠ وهو صاحب كتاب " البرهان فى وجوة البيان " الذى تم نشره تحت عنوان " نقد النثر " ونسب إلى قدامة بن جعفر ٠ مقدمه الدكتور حفنى شرف لتحقيق الكتاب صـ ٣٣ ٠

رحمه الله : " من سمات الخطيب المسترسل أن يكون عارفا بمواقع الكلام ، وأوقاته ، واحتمال المخاطبين له ٠ فلا يستعمل الإيجاز فى موضع الإطناب ، فيقصر عن بلوغ الإرادة ، ولايستعمل الإطالة فى موضع الإيجاز ، فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة " ٠(١)

فإذا أوجز الخطيب حيث يقتضى المقام إطنابا،فقد قصر عن بلوغ المراد ، وإذا أطنب حيث يكون الإيجاز ، فقد أضجر وأمل ٠ فالفيصل المقام ٠

ثم يحدد ابن وهب مواضع للإيجاز ، وأخرى للإطناب ، فالإيجاز عنده يكون فى مخاطبة الخواص ، وفى المواعظ ، والسنن ، والوصايا ، وفى الجوامع التى تعرض على الرؤساء ، ويكون الإطناب فى مقابل ذلك٠ (٢)

وعلى الدرب يسير أبو هلال العسكرى ٣٩٥هـ فبعد أن ذكر ماتمسك به أصحاب الإيجاز ، وأصحاب الإطناب من مزايا فضيلتهم ـ يقول : " والقول القصد عندى أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما فى جميع الكلام ، ولكل واحد منهما موضع ٠ فالحاجة إلى الإيجاز فى موضعه كالحاجة إلى الإطناب فى مكانه ٠ فمن أزال التدبير فى ذلك عن جهته واستعمل الإطناب فى موقع الإيجاز ، والإيجاز فى موضع الإطناب ـ أخطأ "(٣)

---

(١) البرهان فى جوه البيان ، لابن وهب ت : د٠ حفنى شرف مكتبة الشباب ، مطبعة الرسالة (د/ط) (د / ت) صـ ١٥٣ ٠

(٢) انظر السابق صـ ١٥٤ ٠

(٣) الصناعتين لأبى هلال العسكرى صـ ٢٠٩ ٠

فالمهـم هـو وضـع كـل منهـا فى حـاق موضعـه . وهـذا أمـر يقضى بـه المقام ، والغرض الذى يرمـى إليه المتكلـم ، فإذا أخطـأ فى وضـع أحدهـما مكـان الأخـر ، فقـد ظلـم المعنى ، ولـم يوفـه حقـه .

ثـم قـال بعـد ذلك كلمـته التى أظنهـا كانت مفتاحـا للدكتـور دراز فى التقريب بيـن الإطـناب والإيجـاز ، وعـده الإطنـاب إحـدى شـعبتى الإيجـاز إذا مسـت الحاجـة إليه . قـال أبو هـلال:" والإطناب إذا لم يكـن منه بـد إيجـاز ".(١)

فالإيجـاز والإطناب عنده " ليس صفة ملازمة للتعبير فى أى مقام ، وإنما الأمر يعـود إلى أن المقام ، ومقتضيات الأحوال تستدعى نمطا خاصا من التعبير ليقع ملائما له فإذا جـاء التعبير على هذه الصورة ، فهو إيجاز ؛ لأنه اقتصر على قدر الحاجة دون زيادة ، وإن كـان كلاما طويلا " (٢) .

والإمام الباقلانى ٤٠٣هـ يقف عند قوله تعالى : " وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ " (النمل /٣٣) ليبين أن أساس المفاضلة هو تمكن الكلام ، ووقوعه موقعـه فحينئـذ يكـون إيجازه بيانا . يقول الإمام تعليقا على الآية : " انظر إلى هذا الإختصار ، وإلى البيـان مـع الإيجاز . فإن الكلام قد يفسده الاختصار ، ويعميه التخفيف . وهذا مما يزيـده الاختصـار بسطا لتمكنه ، ووقوعه موقعه ، ويتضمن الإيجاز منه تصرفا يتجاوز محله وموضعه " (٣)

فالمهم هو وقوع الكلام موقعه ، وتمكنه فى بابه استجابة لدعـوة المقـام والغـرض . فحينئذ يستحيل الإيجاز بيانا والإجمال تفصيلا بالنظر إلى ما يحويه من المعانى والظلال .

---

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى . صـ ٢١١ .

(٢) روية جديدة للإيجاز والإطناب د عبد الغنى بركة صـ٦٨ .

(٣) إعجاز القران للامام الباقلانى . صـ٢٣٢ وما بعدها .

ثم يأتى الإمام الزمخشرى ٥٣٨ هـ فيربط الأمر بالمقام ، ويوجب على البليغ أن يفعل ما يمليه المقام من إيجاز أو إطناب . فيقول تعليقا على المثل الثانى الذى ضربه الله للمنافقين فى سورة البقرة " أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . . " (البقرة / ١٩)

" ثنى الله سبحانه فى شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفا لحالهم بعد كشف ، وإيضاحا غب إيضاح وكما يجب على البليغ فى مظان الإجمال والإيجاز : أن يجمل ويوجز ، فكذلك من الواجب عليه فى موارد التفصيل : أن يفصل ويشبع "(١) .

وقد ظلت هذه الملحوظات ، وغيرها مشتتة فى بطون الكتب . تنتظر من يجمع شتاتها ، ويأخذها بعين البصير . ولو سارت مدرسة الإمام السكاكى ٦٢٦هـ على الدرب ، لكان لدراسة الإيجاز والإطناب شأن آخر يتجاوز تلك النظرة الاعتبارية التى تقيس عبارة إلى عبارة - إلى نظرة أخرى أعمق وأدق وأرحب : وهى النظر إلى المعنى فى ظل مقامه الذى استدعاه ، وغرض المتكلم منه ، ومدى مواءمته لحال المخاطب . ومن خلال هذه النظرة يتسنى لنا النظر فى معانى كل أديب لنرى هل وفّاها حقها ؟ وماذا أجمل ؟ وماذا فصل ؟ وماسر هذا الإجمال أو التفصيل ؟ وماعلاقة ذلك بالمقام ؟ وهل وفق ؟ أم أخطأ ؟ وهو مايهدينا إلى التعرف على مذاهب الأدباء مع المعنى.

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ١ صـ ٧٨ .

ملامح تميز الشيخ فى دراسة الإيجاز ٠

كانت هذه الملحوظات النقدية السراج الذى استوقد الشيخ من نوره مصابيح رؤيته التى تعيد لمفهوم الإيجاز مكانته ٠ فجاء مقياسه ليعيد للمعنى والمقام اعتبارهما فى الحكم على الكلام ، بالإيجاز أو الاحجاف أو الإسراف ، ويبين مدى قرب الأديب أو بعده عن الفضيلة البيانية ، وهو مايحدد مكانة الأديب ٠

ووجود هذه الملحوظات لايعنى أن الشيخ كان مرددا ومعيدا لها دون أن يكون له أثر واضح فى موضوع الإيجاز ، بل بدا هذا الأثر ، وذلك التميز فى أمور منها :

أولا : وضعه لمقياس الفضيلة البيانية من خلال النظر فى القرآن ٠

لم يكن وضع الشيخ لهذا المقياس الذى يوضح مفهوم الإيجاز عنده — من خلال النظر فى كلام البشر ، والتوقف عنده ، بل انطلق من ذلك إلى النظر فى أسلوب القرآن ، والوقوف أمام تلك الخصيصة البيانية " القصد فى اللفظ والوفاء بحق المعنى " حتى انبجس النبع البيانى بين يديه ، وأوقفه على هذا المقياس٠ ولاريب أن وضع المقاييس البيانية من خلال القرآن له شأن آخر ؛ لأنه ثمرة لتقصى أعلى مراتب البيان ، ويخضع له غيره من باب أولى ، بخلاف ما لو وضعت المقاييس من خلال كلام البشر ، فقد يكون فيها نظر ؛ لتفلت بعض الأيات القرآنية منها٠ ثم إن وضع المقاييس من خلال القرآن يمكن من تقدير جهد الأديب من خلال قربه أو بعده من الفضيلة البيانية القرآنية ، ويبقى دون ذلك حد هو الإعجاز الذى أتى القرآن على غايته ٠

ثانيا : لم يحدد الشيخ مقامات معينة للإيجاز أو الإطناب .

وذلك لأن تحديد مقامات معينة للإيجاز أو الإطناب أمر فيه نظر ؛ لأن فيه نفيا لاختلاف مذاهب الأدباء والكتاب ، ودعوة إلى الالتزام بجانب الإطالة أو الإيجاز فيما حدد من مقامات ، فعلى الأديب أن يلتزم جانب الإيجاز في الوعظ مثلا ، وجانب الإطناب في خطاب العشائر ، وهذا أمر تأباه فطرة البيان، وطبيعة المقامات ؛ فقد يعظ الإنسان في موقف يستدعي الإطالة ، ويعظ في موقف آخر يستدعي الإيجاز ، وفي القرآن مواطن كثيرة تتفق في الغرض العام ، ومع ذلك نجد إجمالا في موطن ، وتفصيلا في آخر لأمور استدعاها المقام . ولو كان الغرض العام هو الذي يحدد طبيعة الأسلوب ، لالتزم القرآن جانب الإجمال ، أو التفصيل في تلك المواطن .

ولعل الشيخ في صنيعه ناظر إلى ابن الأثير ٦٣٧هـ الذي اعترض على هذا التحديد من قبل فقال : " واعلم أن جماعة من مدعي علم البيان ذهبوا إلى أن الكلام ينقسم إلى قسمين : فمنه مايحسن فيه الإيجاز كالأشعار والمكاتبات ، ومنه مايحسن فيه التطويل كالخطب ، والتقليدات،وكتب الفتوح التي تقرأ في ملأ من عوام الناس ، فإن الكلام إذا طال في مثل ذلك أثر عندهم وأفهمهم"(١)

ثم رفض ذلك قائلا " إن فهم العامة ليس شرطا معتبرا في اختيار الكلام ... وإنما الذي يجب توخيه واعتماده : أن يسلك المذهب القويم في تركيب الألفاظ على المعاني ، بحيث لا تزيد هذه على هذه ، مع الإيضاح والإبانة " (٢)

---

(١) المثل السائر لابن الأثير جـ٢ صـ ٦٩ .
(٢) السابق جـ٢ صـ٧٠ .

وإن كان من الإنصاف أن نقول إنه يمكن حمل كلام هؤلاء الأئمة الذين ذكروا مواضع للإيجاز والإطناب ـ على أنه وصف لسنن العرب فى بيانهم، وأحوالهم ، وليس إلزاما للأديب بأن يطيل حيث أطالوا ، أو يوجز حيث أوجزوا ؛ فطبيعة المقامات ، والأحوال ، والأزمان متفاوتة ، ولكل مقام مقال.

ثالثا : ثمرة هذا المقياس :

كما كان لهذا المقياس ثمرة تمثلت فى تلك الوجهة التى تجعل القران إيجازا كله يستوى فى ذلك مواضع إجماله ، ومواضع تفصيله . وكل قطعة منه قد أتت على الغاية فى الوفاء بحق معناها ، وإذا وضعنا فى الاعتبار هذا المقياس، يمكن أن نعدى الحكم بالإيجاز إلى البيان النبوى ؛ لأنه أشرب روح الوحى " وَمَايَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى " (النجم/٣-٤).هذا على تفاوت مابين الكلامين .

يقول الشيخ : " وكلام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان ـ لما أشربه من روح الوحى ـ أو جز كلام تكلم به الناس ، إلا أنه لايبلغ فى وجازته ، واكتنازه ، وامتلائه بالثروة المعنوية معشار ماتجده فى القرآن الكريم " (١)

ويمكن أن يعم الحكم كلام كبار الأئمة والأدباء . على أن يكون سمة غالبة ؛ لأن لكل إنسان فى بيانه هفوات تعكس نقص إنسانيته . (٢)

---

(١) النبأ العظيم صـ ١١٢ .

(٢) انظر من الاعجاز البلاغى للقرآن د : صباح دراز صـ ١٦٦ .

وقفـــــة مـــع الشـــيخ .

وإذا كـــان هـــذا بعـــض مايذكـــر للدكتـــور دراز ، فمـــن الإنصاف أن نذكـــر مـــافى النفـــس من بعض ماذكره فى حديثـــه عـــن الإيجاز فمـــن ذلك :

أولا : قـــوله : " اعتبر السكاكى المقدار الذى يتكلم به أوساط الناس فى محاوراتـــهم ، ومتعـــارف خطابهـــم هـــو ضـــابط المساواة "(١)

والسكاكـــى تحدث عن الإيجاز والإطناب فحسب ، ولم يذكر المساواة ، أو يمثل لـــها بمثال واحد ، ولكنه وضع " متعـــارف الأوساط " للتمييز بين الإيجاز والإطنـــاب ، فهـــو يقـــول : " أمـــا الإيجـــاز والإطنـــاب فلكونهـــما نســـــبيين ـ لايتيســـر الكـــلام فيـــهما إلا بترك التحقيـــق ، والبناء على أمـــر عرفـــى مثـــل جعـــل كـــلام الأوســـاط علـــى مجرى متعارفهم فى التأديـــة للمعانـــى فيما بينهـــم ، ولابـــد من الاعـــتراف بذلك مقيســـا عليه ، ولنسمه " متعارف الأوساط " وأنه فى باب البلاغـــة لايحمد منهـــم ولايـــذم " (٢).
ثـــم يمضـــى إلى تعريف الإيجـــاز ، والإطـــناب على أساس متعارف الأوســـــاط الـــذى يقيس عليه دون تصريح بتســـميته " مساواة " ودون عـــد المساواة من أقسام الكـــلام .

ولعـــل الشـــيخ يقصـــد مدرســـة السكاكـــى ،والقزويـــنى لأن تقسيم الكلام إلى هـــذه الأقسام الثلاثـــة : من صنـــيع الخطيب القزويـــنى ٧٣٩هـ حيث ذكر كلام الســـكاكى ثـــم رد عليـــه بقـــوله : " والأقرب أن يقـــال : " إن المقبـــول مـــن طـــرق التعبـــير عـــن المعـــنى ـ هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له ، أوناقص عنه واف بـــه ، أوزائـــد عليـــه لفائـــدة .

---

(١) النبـــا العظـــيم صـــ ١٢٨ .

(٢) مفتاح العلـــوم للسكاكـــى صـــ ٢٧٦ .

والمـراد بالمسـاواة : أن يكـون اللفظ بمقـدار أصـل المراد ، لاناقصـا عنه لفائـدة أو غـير ذلك كمـا سـيأتـي ، ولابـزائـد عليـه بنحـو تكريـر أو تتميـم ، أو اعتراض"٠(١)، ثم بـدأ في شـرح هـذه الأقسـام الثلاثة على ترتيبها ــ المسـاواة ــ الإيجاز ، الإطناب٠

وقـد نبـه إلى ذلك أسـتاذنا الدكـتور عبد الغنى بركـة فقـال : " أمـا اعتبـار متعارف الأوسـاط مقياسـا للمساواة ــ فليس من صنيع السكاكى ، وإنمـا هو من تـأويل أتباعـه لكلامـه ، وهو تأويـل غير مصيب ؛ إذ يـرى السكاكى أن الكـلام البليـغ إمـا موجز، وإمـا مطنـب ٠ فهـو لم يتحـدث عن المساواة ، ولم يمثـل لها مطبقـا مقياسـه الذى ابتكـره للتمييز بين الإيجاز والإطنـاب ٠٠، وأما متعارف الأوسـاط فهوشىء آخـر غـير مايسـميه العلماء " المسـاواة " ؛ لأن السكاكى قـد أخرجـه من بـاب البلاغـة ؛ فهـو لا يحمد ولايـذم ٠ إنه شىء نرجع إليه ،وتقـدره مجـرد تقديـر،لنقيس عليه عندمـا نريـد الحكـم على تعـبير بأنه موجـز ، أو مطنـب "(٢)

وشـىء آخـر وهـو أن "متعـارف الأوسـاط " عنـد الإمـام السكاكى٦٢٦هـ ضابط للتميز بين الإيجاز والإطناب ، وليس ضابط تقدير للقيمـة البيانـية ، وفرق بيـن التمييز بين تعبيرين وبيـن تقدير هذين التعبيريـن ؛ فالتمييز ليس فيـه حكـم ، أوبيـان لمدى الوفاء بحـق المعـنى ٠

---

(١) الإيضـاح للخطيب القزويـنى جـ٣ صـ ١٧٣ ٠
(٢) رؤيـة جـديدة للإيجاز والإطناب د: عبد الغنى بركـة صـ ١٦٨ ٠

أمـا مـن حيث التقديـر لهـذا التعبير ، وبيان مـدى الوفـاء بـالمعنى ، فلـم يغفـل السكاكى المقام ، وحسن الموقع ، بل إنه الأصـل عنـده فى استحسان أو اسـتهجان الكـلام ؛ فقـد قـال بعـد تعريف الإيجـاز والإطنـاب : " وذكـرت للاختصـار والتطويل مقامات قـد أرشـدت بها إلى مناسباتهـا ٠ فما صـادف من ذلـك موقعـه حمد ، وإلا ذم وسمى الإيجاز إذ ذاك عيـا وتقصيرا ، والإطناب إكثارا وتطويلا"(١)٠

ثـانيا : عـد الإمـام السكاكـى من الإطناب قـوله تعالى : " إِنَّ فِى خَلْـقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْـرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِـنَ السَّمَاءِ مِـن مَّـاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَـا مِن كُـلِّ دَابَّـةٍ وَتَصْرِيـفِ الرِّيَـاحِ وَالسَّـحَابِ الْمُسَـخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُـونَ " ٠(البقرة/١٦٤)٠ وذلك بحجـة إمكان إيجازهـا فقـال تعليقـا على الآيـة : " تـرك إيجـازه وهـو: إن فى ترجيح وقـوع أى ممكن كان على لاوقـوعـه لآيات للعقـلاء ؛ لكونـه كلامـا لامع الإنس فحسب بل مـع الثقلـين ، ولامـع قرن دون قـرن ، بل مع القرون كلهـم قرنا فقرنـا إلى انقراض الدنيـا ، وإن فيهـم لمن يعرف ويقـدر من مرتكبى التقصـير فى باب النظـر ، والعلـم بالصانع من طوائف الغـواة ٠ فقـل لى : أى مقام أدعى لترك إيجازه إلى الإطـناب من هـذا " (٢)

وقـد نقـد الدكتور دراز عبارة السكاكى التى يرى إمكان إيجاز الآيـة بها، بأنها عبارة فلسفية قلقة ، لم تعهد من عربى قط بليغ أوغير بليغ، وأنك لورجعت بالآية إلى ماتكلم به الناس فى آيات الله الكونية إجمالا أو تفصيلا ، لرأيت الآيـة هى أوجز كلام فى بابها من التفصيل "(٣) ثم توقف عند هذا الحد من النقد فحسب

---

(١) مفتـاح العلـوم السكاكـى صـ ٢٧٧ ٠

(٢) السـابق صـ ٢٨١ ٠

(٣) النبـأ العظـيم صـ ١٣٠ ٠

ويمكـن أن ننظر الآيـة من خـلال مقياس الشيخ لنرد ماذهـب إليه الإمام السكاكى.

• فإذا نظـرنـا إلى مقـام الآيـة وسياقهـا ؛ فقـد جـاءت بعـد قـولـه تعالـى : " وإلهكـم إلـه واحـد لا إلـه إلا هـو الرحمـن الرحـيم " (البقـرة/١٦٣). الـذى يقررمـبدأ الوحدانيـة لله الواحد الرحمن الرحيم ، ثم جـاءت الآيـة بعدهـا لتلفت أصحاب الألبـاب إلى دلائـل وحدانيـة الله ورحمتـه ، فموقع الآيـة من التى قبلها موقـع الحجـة من الدعـوى ؛ " ذلك أن الله أعلن أنه لا إله إلا إله واحـد ، وهـذه قضـية مـن شأنها أن تتلقـى بالإنكـار ، فناسب إقامـة الحجـة على من لايقـنع ؛ فجاءه بهذه الدلائل الواضحـة التى لايسـع الناظر إلا التسليم بها"(١).

فسياق الآيـة يدلنا على حسن موقعها ، ومـدى الحاجة إليها ، كما تحتـاج الدعـوى إلى حجتهـا .

وإذا دققـنا النظـر فى الآيـة وجدنـا فيها ألوانا من الإيجاز لاتخفى فمنهـا :

• أن الآيـة لـم تبين وجـه كون خلق السموات والأرض آيـة ، وذكـر ذلـك فـى مواضع أخرى كقـوله تعالـى : " أفلم ينظـروا إلى السـماء فوقهـم كيـف بنيـناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناهـا وألقينـا فيها رواسـى وأنبـتنا فيـها مـن كل زوج بهـيج " (ق /٦،٧) ، كمـا لم تبيـن وجـه كـون اختـلاف الليـل والنهار آيـة. وجـاء ذلك فى مواضـع أخـرى مثـل قوله تعـالى : " قل أرأيـتم إن جعل الله عليكم الليـل سـرمـدا إلى يوم القيامـة من إلـه غـير الله يأتيكـم بضيـاء أفلا تسمعون * قـل أرأيتـم إن جعـل الله عليكم النهار سـرمدا إلى يـوم القيامـة مـن الـه غير الله يأتيكـم بليل تسكنون فيه أفـلا تبصـرون " (القصص/٧١ـ٧٢).

---

(١) التحرير والتنوير للطاهـر بن عاشـور جـ٢ صـ ٧٦ .

كما لم تبين الآية كيفية تصريف الرياح والسحاب . وجاء ذلك في مواضع كثيرة في قوله تعالى : " اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ " . (الروم /٤٨) (١) .

* ومن ملامح الإيجاز في الآية التعميم في لفظ " دابة " من قوله تعالى " وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ " فهي لفظة تسع كل مايدب على الأرض ، فليبحث علماء البيئة عن هذه الدواب ، ومافيها من دلائل وحدانيته ورحمته . وكذلك التعميم والإتساع في قوله : "بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ " فهي تشمل كل نفع . ومصلحة للخلق . ثم تختم الآية بقوله " لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " . وفي هذا إيجاز أيضا ؛ إذ فيه تعريض بالمقصرين الذين لايعملون عقولهم في قراءة آيات الكون الناطقة بوحدانيه الله .

وهذه كلها دلائل على وجود الإيجاز في آية عدوها مثلا للإطناب مايذكرنا بكلام أبي هلال العسكري ٣٩٥هـ والإطناب إذا لم يكن منه بد إيجاز(٢)

وأما تعليل السكاكي للإطناب في الآية بكونها خطابا للثقلين في كل القرون فهو تعليل فيه نظر ؛ لأنه يقتضي أن الآيات التي فيها إيجاز ليست خطابا للثقلين في كل القرون ، وهو محال ؛ إذ لو صح لكان لزاما علينا أن نقول : إن القرآن إطناب كله مادام موجها للثقلين إلى قيام الساعة ثم إن هذه الآية التي معنا جاءت مجملة في موضع آخر : " قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ". (يونس/١٠١) .

---

(١) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن للشنقيطي ط دار إحياء التراث بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م جـ١ صـ ٧٦ .

(٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري صـ ٢١١ .

فهل يعني هذا أنها ليست موجهة للثقلين ؟ كلا ؛ فالقرآن خطاب للإنس والجن ، والعامة والخاصة ، وإنما يقع الاختلاف فيما يستنبط من وراء هذا المعاني الظاهرة ، فهذا مناط تفاوت الأفهام ٠

ثالثا : عاب الشيخ على مدرسة السكاكي جعلها الفضيلة البيانية في أحد الطرفين ، وقال " إن هذا عكس لقاعدة الفضائل التي تتبوأ الفضيلة فيها مكانا وسطا ٠

والقول بأن الفضائل تتبوأ مكانا وسطا ـ لايمكن التسليم به دائما ، إذ قد تكون الفضيلة كامنة في أحد الطرفين ، وربما لايوجد مكان وسط بين الطرفين تنزل الفضيلة فيه ٠

وقد بين الدكتور دراز نفسه هذه القاعدة في رسالته " دستور الأخلاق في القرآن " حين اعترض على تعريف الفضيلة بأنها " نوع من التوسط؛ بما أن الهدف الذي تتوخاه ـ هو نوع من التوازن بين طرفين ، فالزيادة والنقص يشيان بالرذيلة ، على حين أن الوسط العادل يطبع الفضيلة " (١)

فقد اعترض على هذا بقوله : " أهذا التعريف كامل ؟ أهو دقيق ؟ أهو قائم على استقراء كامل ؟ " فالأمانة " مثلا من حيث هي اتفاق باطني للمرء مع نفسه على موقف معين ، ففي هذا المجال فعلا يبدو لنا مبدأ الطرف الثالث المستبعد مطبقا بكل قوته ؛ لأنه إما أن يكون صادقا مع نفسه ، أو لا يكون ٠ كذلك تماما كما يقال : فلان يرى أولا يرى ٠٠٠٠، هل يجب أن نسلم بأن كل سلوك يستمسك بالوسط هو سلوك فاضل ؟٠٠ إن الحب والبغض ، والإثبات والنفي، والعمل الذي ينفع ويبني والعمل الذي يضر ويهدم ، كل هذه أنواع من التطرف٠ فهل لنا بحق أن نقرر أن الفضيلة تتمثل هنا بخاصة في اللامبالاة ، والشك ، والتأمل البليد"(٢)٠

---

(١) دستور الأخلاق في القرآن : محمد عبد الله دراز صـ ٦٧١ ٠

(٢) السابق صـ ٦٧٢ ٠

ثم يخرج الشيخ من خلال النظر فى القرآن والسنة ـ بقاعدة أقرب للصواب ؛ وهى أن لكل فضيلة نظرة خاصة بها فقال : أما القرآن الذى تكمله تعاليم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنه يقدم على عكس ذلك ـ لكل فضيلة مقياسا حسيا تسهل معرفته بدرجة كافية ، وتنعدم بفضله ـ تقريبا فرص الخطأ والإلتباس ، وبعد أن وضع لكل فضيلة مقياسها النوعى ـ دبر إحكام مجموع الفضائل بالقاعدة العامة التى تتمثل فى الاعتدال الذى يتمثل بالاقتراب بقدر الإمكان من الكمال ٠(١)

فهذه القاعدة لاشك أضبط من القول بتبوء الفضيلة مكانا وسطا ؛ فالإجمال والتفصيل طرفان وكان مقتضى القاعدة أن تكون الفضيلة فى مكان وسط بينهما ٠ كما توافق هذه القاعدة رأى الشيخ فى الإيجاز القرآنى الذى يمثل المثل الأعلى الذى لاتطاوله الأعناق ٠ وهو مايجعل مجال التفاضل فى البيان الإنسانى ـ فى مدى القرب أو البعد من هذا المثل الأعلى ٠

رابعا : إذا جعلنا القرآن هو المثل الأعلى فى الوفاء بحق المعنى ، فإن القرآن لم يأت على كل المعانى التى ذكرها الشعراء والأدباء، وستظل الحاجة إلى معرفة هذا المثل الأعلى فى معان أخرى كثيرة، فمن الذى يستطيع أن يضع المثل الأعلى فى الوفاء بحق كل معنى ؟ وأين ومتى يكون ذلك ؟ ٠

---

(١) انظر دستور الأخلاق فى القرآن صـ٦٧٣، صـ٦٧٤ بتصرف كبير ٠

فالذى لاشك فيه أن مسألة الوفاء بحق المعنى • هى فى بيان الإنسان أمر تقريبى ونسبى ، وهى تختلف من أديب إلى آخر ، كما أنها ليست سمة دائمة أو ثابتة فى بيان الإنسان ، بل كان ثباتها ودوامها سمة انفرد بها القرآن وأتى على المثل الأعلى فى الوفاء بحق المعنى ، ويبدو أن الشيخ نفسه قد أحس بصعوبة الوصول إلى هذا المثل فقال :

" قلنا إن فضيلة الإيجاز بمعناه الصحيح هى " الوسط المعتدل " ، وهى الفضيلة الوحيدة التى تواصى بها البلغاء فى كل مقام بحسبه ، غير أنه ليس للإنسان ماتمنى ؛ فالمثل الكامل وإن تطاولت إليه أعناق الناس ، وتفاوتوا فى طلبه قربا أو بعدا ـ لايستطيع أحد منهم أن يأتى على غايته ، وإنما أتى عليها القرآن الحكيم ، فهو المثل الأعلى فى حسن الإيجاز؛ كيف لا وهو حد الإعجاز(١)•

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٣٠ •

الفصل الثالث

إنكـــا ر الزيادة فى القـــرآن
عنـــــد
الدكتـــــور : دراز

ويشتمل على ثلاثـــــة مباحـــث :

المبحث الاول : زيـــادة الحرف فى القرآن بين التأييـــد والرفــض
المبحث الثانى : الدكتـــور دراز وإنكـــار الزيـــادة
المبحث الثالث : من تطبيقـــات الشـــيخ فى القضـــية

المبحـــــث الأو ل

زيادة الحرف فى القـــرآن بين التأييـــد والرفــض

أ ـــ القـــول بالزيادة والأسس التى قام عليها

ب ـــ نقــد هــذه الأســـس

جـــ ـــ بـــين المثبتـــين والمنكريـــن

مفهـــــوم الزيـــــادة

الزيـــادة بمفهومهـــا الذى نقصـــد إليه ــ اصطلاح أطلقـــه النحاة على حروف لايختـل أصل المعنى بحذفهـــا ، بل يظـل الكـــلام مســـتقيما ٠ وذلك نحـــو " مـــن " فى قولنـــا : ما أتانى من رجـل فقـد ذكـر سيبويــه ١٨٠هــ أنها لو لم تدخـل لكان الكلام مســتقيما، ولكنها توكيد بمنزلة " مــا " إلا أنها تجـر ؛ لأنها حرف إضافة ، ولو أخرجت«مـن»كـان الكلام حســنا " ٠(١)

والزيادة بهـذا المفهــوم واحدة من القضـــايا التى كانت مثار خلاف وجدل منذ أمـــد بعـيد ٠ وكـــان الدكتور دراز واحـــدا من الذين أدلوا برأيهـم فى القضية ، وجاء حديثــه فيها نابعا من إيمانه بإيجاز القرآن الذى يضع كل مثقـــال ذرة فى موضعـــه الـــذى يليـــق بــــه ، وهـــو مـــالا يتأتـــى معـــه بحـــال أن نظـــن زيـــادة حـــــرف واحـــــد فيـــه ، " وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْـدَارٍ" ٠ (الرعـــد/٨) ٠

القـــول بالزيـــادة والأســس التى قـــام عليـــها ٠

قضـــية الزيـــادة واحدة من تلك القضايا الخطيرة بـــدأ الحديث فيها مع بدء البحـــث فى الدراسات اللغوية ، والتأصيل لقواعدها ــ حين رأى اللغويون والنحاة فى اللغة والقـــرآن ــ كلمات وحروفا لم يستطيعوا لها توجيها إعرابيا ، فى الوقت الـــذى رأوا فيـــه أن ذكـــر الكلمـــة كحذفها لايخـــل بأصـــل المعنى ، فأطلقـــوا القول بزيادتها من حيـــث الصناعـــة الإعرابية ، وإن ذكروا أنها تؤدى معانى لاتستفاد من الجملة إذا هى حذفـــت(٢) وتبعهـــم كثير من المفســـرين فى ذلك ٠

---

(١) الكتاب لسيبويه ت:عبد السلام هارون ٠ ط:الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧جــ٤ صـــ٢٢٥ ٠

(٢) انظر من بلاغة القرآن د: أحمد بدوى، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الثانية صـــ ٩٧ ٠

وكان هذا الإطلاق مبنيا على أسس أهمها :

أولا ــ نظرهم إلى الجملة بالقياس إلى أصل معناها ، فقد بنوا رأيهم في الزيادة على أساس من هذا الأصل ، حيث حكموا على الكلمة بالزيادة من حيث لايختل أصل المعنى بدونها ، وفى هذا يقول أستاذنا الدكتور صباح دراز ٠

" والواقع أن الفكرة النحوية القديمة التى بنى عليها الحكم بالزيادة ــ هى أن هناك مايسمي بأصل المعنى ، أو المعنى المجرد ، أو المعنى الذهنى المتمثل فى إسناد الفعل للفاعل ، أو الخبر إلى المبتدأ ٠ بحيث يكون معبرا عن معنى تام ذى فائدة ، ثم يكون هناك الزائد عليه ، بمعنى أن هناك تعبيرا عاريا ، وتعبيرا مزخرفا٠ فإذا كان المعنى المجرد فى قوله تعالى : " ويطعمون الطعام على حبه " (الإنسان /٢٨) ــ إطعام الطعام ؛ فإن قوله: "على حبه " إطناب وزيادة على أصل المعنى " (١)

ثانيا ــ وقد يكون وراء الحكم على بعض الكلمات بالزيادة ــ ماوجده هؤلاء العلماء فى القرآن ذاته من مقامات ، ومواقف متشابهة، وتذكر الكلمة فى موضع وتحذف فى نظيره والقصة واحدة ، فيقولون بزيادة المذكور بدلالة حذفه فى مقام مشابه ٠

ويدلنا على ذلك ماذكره ابن جنى ت ٣٩٢هـ عن زيادة الباء فى قوله تعالى : " وجزاء سيئة بمثلها " (يونس /٢٧)٠ فقد حكى عن بعضهم القول بزيادتها ٠ استدلالا بحذفها فى قوله تعالى : " وجزاء سيئة سيئة مثلها "٠(الشورى/٤٠)٠ثم عقب على هذا الكلام " بأنه مذهب حسن ، واستدلال صحيح " (٢)

---

(١) البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابى د صباح درار صـ ٥٩ ٠

(٢) سر صناعة الإعراب ٠ لابن جنى ت أحمد فريد أحمد ط المكتبة التوفيقية جـ١ صـ ١٣١ ٠(د/ت)

كمـا ذكر ابن يعيش ت ٦٤٣هـ (١) أن " أنْ " المفتوحة تزاد لتأكيد الكلام " ذلك بعـد " لمـا " قـال تعالى : " وَلَمَّـا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًـا سِيءَ بِهِمْ .. " (العنكبـوت /٣٣).
" وأن " مؤكـده بدليل قولـه تعالـى : " وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًـا سِيءَ بِهِمْ "(هود/٧٧).
والقصـة واحـدة " (٢)

فجعـل الحذف في آية هـود دليل الزيادة في آية العنكبوت لاتحاد القصة .

ثـالثا ـ كما كان حكمهم وتساهلهم في إطلاق لفظ الزيادة على لفظ قرآني نابعـًا مـن كون الزيادة سنة من سنن العرب في بيانهم ، وقد نزل القرآن بلسانهم ، وعلى نهجهم . وهذا ماردده ابن قتيبـة ت ٢٧٦(٣)، والخطابي ٣٨٨ وغيرهـم.
واعتمده الخطابي ردا على من زعم زيادة ، أوحذفا في القرآن الكريم فقـال :
" وهـذا وما أشبهه من زيادة حروف في مواضع من الكلام ، وحـذف حروف في أماكن أخرى ـ فهي إنما جاءت على نهج العرب ، ولغتهم الأولى قبل أن يدخلهـا التغـيير ، ثم صار المتأخرون إلى ترك استعمالهم . فافهم هذا الباب فإنك إذا أحكمت معرفته ،استفدت علما كثيرًا، وسقطت عنك مؤنة عظـيمة " (٤)

---

(١)موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي المعروف بابن يعيش ، من كبار علماء اللغة ، ولـد في حلب سنه ٥٥٣هـ ، ورحل إلى بغداد ، ودمشق ثم توفي بحلب سنة ٦٤٣هـ من أشهر مؤلفاته شرح المفصل " الذي شرح به المفصل للزمخشـري " الأعلام(٢٠٦/٨) ط دار العلم للملاييـن .

(٢) شرح المفصل . لموفق الدين بن يعيش ط: مكتبة المتنبي القاهرة ، م٢ جـ٨ صـ ١٣٠ .

(٣)عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري من أئمة الأدب،ولد ببغداد، وسكن الكوفة وتوفي ببغداد ولد فـي ٢١٣هـ وتوفي في ٢٧٦هـ من كتبه " تأويل مشكل القرآن " وكتاب أدب الكاتب ".
الأعـلام: (٢٨٠/٤).

(٤) بيان إعجاز القـرآن للخطابي صـ ٤٨ .

وقد ذكر الدكتور فضل حسن مايزيد على عشرة أسباب كانت وراء القول بالزيادة ، لعل أبرزها : جعل القاعدة النحوية هى الأصل ، ثم إخضاع النص القرآنى لها إن أبت آياته ذلك ، ومنها : عدم التفرقة بين الأساليب العربية ، ومنها كذلك إهمال السياق والمأثور فى تفسير بعض الكلمات القرآنية ، أو التمسك بقراءة شاذه وجعلها أصلا يقاس عليه (١)٠

وهذه-غالبا-هى الأسس التى أسهمت فى دفع هؤلاء إلى القول بوقوع الزائد فى القرآن ، وذلك مع اتفاقهم على أن الزيادة لا تعنى العبث ؛ فالقرآن منزه عنه ، وإنما تأتى لضرب من التوكيد وتعبر عن معنى لايتأتى بدونها ، وإن كان ذكر الكلمة كحذفها من حيث لايخل بأصل المعنى ٠ قال ابن يعيش ٦٤٣هـ : " قولنا : زائد ليس المراد منه أنه قد دخل لغير معنى البتة ، بل يزيد لضرب من التأكيد "(١)٠

نقد هذه الأسس :

الأساس الأول : { أصل المعنى }

والواقع أن أكثر هذه الأسس يتعرض للاهتزاز ولايثبت عند النقد ٠

فإذا نظرنا إلى فكرة أصل المعنى نجد أن القرآن لايقصد فى آياته وسوره إلى أصل المعنى ، وإنما يقصد إلى معنى تام ، يسهم كل حرف فى أدائه والوفاء بحقه ٠ والفصل بين أصل المعنى وتمامه _ فصل تعسفى لاينبغى الالتفات إليه ٠

---

(١) لطائف المنان وروائع البيان فى دعوى الزيادة فى القرآن د ٠فضل حسن عباس ط: دار النور للطباعة الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١٩٨٩م ص ٩٠-ص٩٨ ٠

(٢) شرح المفصل ، لابن يعيش م٢ جـ٨ ص ١٢٨ ٠

والقول بأن حذف الكلمة لايخل بأصل المعنى ـ قول فيه نظر ؛ " لأنه إذا تغير النظم فلا بد حينئذ من أن يتغير المعنى "(١)٠ وهذا الإختلاف فى العبارة ٠ إذا كان فى القرآن سيصبح ضربا من الاختلال إذا نظرنا إلى الآية فى ظل مايراد منها وماسيقت له يقول أستاذنا الدكتور صبّاح دراز ٠

" إن ماورثناه عن عبد القاهر ٤٧١ ، وسار عليه ٠ النقد الحديث فى أصح اتجاهاته ـ أن صياغة الأسلوب على نحو خاص ٠ إنما يعبر عن معنى نفسى ، أوشعور معين ، أو فكرة خاصة ، وأن أى تحوير فى الأسلوب ، أو شكل من أشكاله ٠ تقديما أو تأخيرًا ، أو حذفا أو ذكرا ، أو تعريفا أو تنكيرًا ، إلى غير مالا نهاية له من الصور والأشكال إنما يؤدى معنى خاصا يختلف عن غيره" (٢)

الأساس الثانى " قياس آية على أخرى "

أما قياس آية على أخرى ٠ فهذا لايجوز ؛ لأن التشابه فى المواضع القرآنية لايعنى اتحاد المقام ، أو الغرض المسوقة له الآية ؛ فلكل مقام أحواله التى لايناسبها غيره، ولكل غرض طريقه الذى يؤدى به ، ودراسة أحوال الأغراض والمقامات ، والنظر العميق فى بنائها هو الذى يبين الملامح الفاصلة لكل عنصر من عناصر البيان ويكشف سر حذفه، أوذكره فى الآيات والمقامات المتشابهة ونظرة واحدة فيما كتب علماء متشابه النظم القرآنى ـ تكشف لنا النبع الزاخر بألوان الدقة والتناسق التابعة لتغير حرف أو كلمة فى المواضع المتشابهة (٣)

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر صـ ٢٦٥ ٠

(٢) البلاغة القرآنية عند الخطابى صـ ٥٩ ٠

(٣) يراجع فى ذلك ٠ البرهان فى توجيه متشابه القرآن ، للكرمانى، ودرة التنزيل وغرة التأويل: للخطيب الإسكافى ، وكتاب كشف المعانى فى المتشابه من المثانى ـ لبدر الدين بن جماعة وكتاب: ملاك التأويل ، للغرناطى ٠

الأساس الثالث : مجيء القرآن على سنن العرب ٠

كما أن نزول القرآن على سنن العرب لايعنى أن نتوقف عند هذا الحد الذى ينفى دعوى الزيادة ، ولايبين سر الحرف وعطاءه ٠ وقد علمنا أن نزول القرآن على نهجهم – أدخل وأقوى فى باب الإعجاز ، وهو ماينبغى أن يدفعنا إلى بيان خصائص هذا الإعجاز الذى قهرهم وهو على منهجهم ، بدلا من أن نحيل على سننهم ؛ لأن الفصيح كما يقول الإمام السهيلى ت ٥٨١هـ (١) ٠

" يتكلم بما يشاء من الوجوه الجائزة ، ولا اعتراض عليه ، ولكن الكلام الإلهى والنظم المعجز الخارق للعادة – يقتضى حكمة ومزيد فائدة فى اختصاص أحد الوجهين دون الآخر "٠(٢)

---

(١)عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلى ، حافظ عالم باللغة ، والسير ولد فى " مالقة " وعمى وعمره سبع عشرة سنة، رحل إلى " مراكش "وأ قام بها حتى توفى فى ٥٨١هـ ، من كتبه: " الروض الأنف " و نتائج الفكر " ٠ الأعلام (٢٨٦/٤) ٠

(٢)نتائج الفكر فى النحو : للإمام السهيلى ت:عادل أحمد عبد الموجود ، ط دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م صـ ٢١٧ ٠

بين المثبتين والمنكرين

من القائلين بالزيادة من اكتفى بالتعويل على نهج العرب وسننهم في التعبير دون البحث عن الأسرار البيانية لهذه الكلمات ومن هؤلاء: الفراء ت٢٠٧(١)، وابن قتيبة ٢٧٦هـ، والخطابي ٣٨١هـ . وهو موقف يصحح ورود هذه الأساليب، ولكنه لايبين لنا الأسرار يقول أستاذنا الدكتور صباح دراز .

" ومذهب الخطابي هو ذاته مذهب الفراء بشأن الحروف التي قيل إنها زائدة من الإحالة على لغة العرب، وأن الكلام عندهم يأتي بحرف وبدونه . دون بيان لأسرار الحروف (٢) .

ومنهم من جعل فائدة الزيادة التوكيد، وهم أكثر النحاة ومن وافقهم، وفريق ثالث لم يتحرج من إطلاق لفظ الزائد بالمفهوم النحوي، ولكنه لم يكتف بذكر التوكيد فائدةً للحرف الذي قيل بزيادته، بل اتجه إلى الأسرار التي تخفيها الحروف في أصدافها، والمعاني التي تبوح بها لمن أطال خدمتها، من هؤلاء في العصر الحديث الإمام محمد عبده ١٩٠٥،والشيخ عبد الرحمن تاج ١٩٧٥(٣) وغيرهم من علمائنا .(٤)

---

(١)يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي . أبو زكريا، إمام الكوفين وأعلمهم بالنحو واللغة، وفنون الأدب، ولد " بالكوفة " ثم انتقل إلى بغداد وكان أكثر مقامه بها توفي عام ٢٠٧هـ، من كتبه " المقصور والممدود " ، و" المعاني " الأعلام (١٧/١/٩) .

(٢)البلاغة القرآنية عند الخطابي د صباح دراز صـ ٥٤ .

(٣)الشيخ عبدالرحمن تاج، ولد بأسيوط سنه ١٨٩٦، فحفظ القرآن وانتقلت أسرته إلى الاسكندرية فالتحق بالمعهد الديني ونال العالمية سنة ١٩٢٣م ثم سافر إلى فرنسا وحصل على الدكتوراة، ثم عين شيخا للأزهر سنة ١٩٥٤، توفي في ١٩٧٥م، من مؤلفاته" البهائية وعلاقتها بالإسلام" بالفرنسية،و" السياسة الشرعية" في الفقه الاسلامي،انظر المؤتمر العاشر لمجمع البحوث بالأزهر صفر١٤٠٦هـ، نوفمبر١٩٨٥

(٤)انظر تفسير المنار للشيخ رشيد رضا جـ١، ص ٣٩، وكتاب بحوث قرآنيه ولغوية " للشيخ عبدالرحمن تاج طبعة المكتب الثقافي للطباعة والنشر، صـ ١٣٨ .

وأمام القول بالزيادة نهض فريق رابع يرد بالقول بها ، وينكر إطلاقه هذا الاصطلاح على كلمة قرآنية ؛ لما فيه من إيهام العيب والعبث ، ثم جعل همه في الكشف عن أسرار هذه الكلمات ، وإذا خفيت الحكمة البيانية أحيانا لم يسارعوا إلى القول بها ، بل رموا فهمهم بالعجز والتقصير ، ومن هؤلاء : الإمام المبرد ٢٨٥هـ(١)، والطبري ٣١٠هـ(٢) ، وابن الأثير ٦٣٧هـ ، وابن القيم ٧٥١(٣) ، ومنهم حديثا ، الرافعي ١٩٣٧، والدكتور دراز ، والدكتورة بنت الشاطيء ، والدكتور صباح دراز .

فالإمام المبرد يتحدث عن " من " التي قيل بزيادتها فيقول " وأما قولهم : إنها تكون زائدة ، فلست أرى هذا كما قالوا ؛ وذلك أن كل كلمة إذا وقعت وقع معها معنى فإنها حدثت لذلك المعنى ، وليست بزائدة ، من ذلك قولهم : ماجاءني من أحد ، وما رأيت من رجل .. فذكروا أنها زائدة ، وأن المعنى : ماجاءني أحد ، ومارأيت رجلا . وليس كما قالوا ؛ وذلك أنها إذا لم تدخل جاز أن يقع النفي لواحد من سائر جنسه ، تقول : ماجاءني رجل ، وماجاءني عبد الله ، إنما نفيت مجيء واحد، وإذا قلت : ما جاءني من رجل فقد نفيت الجنس كله" (٤)

---

(١)محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس المعروف بالمبرد ـ إمام العربية ببغداد في زمنه ، وأحد أئمة الأخبار والأدب مولده بالبصرة ووفاته ببغداد سنه ٢٨٦ من كتبه " الكامل" والمقتضب " . الأعلام : (١٥/٨) .

(٢)محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر المؤرخ المفسر الإمام ، ولد في " طبرستان " واستوطن " بغداد" وتوفي بها له مؤلفات منها " أخبار الرسل والملوك " وجامع البيان في تفسير القرآن " توفي في ٣١٠هـ وفيات الأعيان : (١٩١/٤) .

(٣)محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، من اركان إصلاح الإسلام مولده ووفاته بدمشق تتلمذ لابن تيمية له مؤلفات كثيرة منها" بدائع الفوائد " "إعلام الموقعين توفي ٧٥١هـ الأعلام : (٢٨٠/٦) .

(٤)المقتضب للمبرد: ت د. محمد عبد الخالق عضيمة .ط:المجلس الأعلى للشئون الاسلاميه ١٣٩٩هـ جـ١ صـ ١٨٣ .

والإمام الطبرى يقف عند قوله تعالى : " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . . " (البقرة / ٣٠) - ليرد زعم الذى ظن زيادة " إذ " وأن معناه الحذف . وقد ارتكز فى رده على إعجاز القرآن الذى يتلبس بكل حرف ، وأن لكل حرف معنى جاء له ، ولا يجوز إبطال حرف كان دليلا على معنى فى الكلام ، يقول الإمام:" والأمر فى ذلك بخلاف ما قالوا ؛ وذلك لأن " إذ " حرف يأتى بمعنى الجزاء ، ويدل على مجهول فى الوقت، وغير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى فى الكلام ، ولو أبطلت"إذ"وحذفت من الكلام لاستحال معناه الذى هو به وفيه " إذ " (١) .

وابن الأثير ٦٣٧ ينكر القول بالزيادة ، ويتكئ فى إنكاره على سبب عقدى ، وآخر بلاغى ، أما الأول : فلأن القول بها طعن فى الإعجاز ؛ " ذاك أنه يكون قد نطق بزيادة فى كلامه لا حاجة إليها ، والمعنى يتم بدونها ، وحينئذ لا يكون كلامه معجزا ؛ إذ من شروط الإعجاز عدم التطويل ، الذى لاحاجة إليه ، وإن التطويل عيب فى الكلام ، فكيف يكون ما هو عيب فى الكلام من باب الإعجاز". (٢)

وأما السبب البلاغى فهو " أن كل لفظ وضع لمعنى ، فإذا جاء فى كلام مشهود له بالفصاحة ، فالأولى أن نحمل تلك الألفاظ على معنى . فإن لم يوجد لها معنى بعد التنقيب والتنقير ، قيل هذه زائدة ودخولها فى الكلام كخروجها" (٣)

والمهم أن الجميع متفقون على تنزيه القرآن عن العبث ، ومؤمنون بأن لكل حرف فائدة، لاتتأتى بدونه، وحتى الذين قالوا بوقوع الزيادة من علمائنا " لاينبغى أن نظن أنهم كانوا يصدرون فيها عن تهاون بالقرآن ، أو غض منه ؛ فما علمنا عنهم رقة فى الدين ، ولااجتراء على كلام رب العالمين؛ وهذا صنيعهم له ، وحفاوتهم بدارسته شاهد عدل وقول فصل "(٤)

---

(١) جامع البيان عن تأويل آى القرآن . للطبرى ط : دار المعرفة بيروت جـ١ صـ١٥٣ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير جـ٢ صـ ١٥٣ .

(٣) السابق صـ ١٥٢ .

(٤)مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة، للأستاذ:على النجدى ناصف:ط دار المعارف صـ٨٩، صـ٩٠

وبعد اتفاقهم على ذلك فهم مختلفون فى تحديد مفهوم الزيادة ، ، وفى فائدتها، ثم فى إطلاقها على لفظ قرآنى ٠

فاتجاه ينظر إلى القضية بعين نحوية ترتكز على الأسس السالفة، فلايتحرج من إطلاق هذا اللفظ ، واتجاه آخر ينظر بعين بيانية تؤمن بأن لكل حرف فائدة، ومادام يفيد فهو غير مزيد ٠

الدكتور الخضرى ومحاولة حل عقدة الخلاف ٠

وقد حاول الدكتور الأمين الخضرى أن يحل عقدة الخلاف بين الفريقين ، فذكر رأى ابن الخشاب ٥٦٧هـ(١) وهو يقول : " والتحقيق أنه إن أريد بالزيادة إثبات معنى لاحاجة إليه فباطل ؛ لأنه عبث ، فتعين أن إلينا به حاجة ، لكن الحاجات إلى الأشياء، تختلف بحسب اختلاف المقاصد ؛ فليست الحاجة إلى اللفظ الذى زيد عندها ولازيادة ، كالحاجة إلى الألفاظ التى رأوها مزيدة عليه وبه يرتفع الخلاف " (٢)

ثم يعلق الدكتور الخضرى على هذا الكلام قائلا : " ونحن لانرفض القول بالزيادة بهذا المعنى؛ لأن البلاغيين متفقون على وجود الإطناب بصوره المختلفة فى القرآن ، وهو نوع من الزيادة التى تحقق أغراضا بلاغية لايمكن أداؤها بالإيجاز فى مقام يستدعى الإطناب ، ويلح عليه ٠ والفرق بين الزيادة المفيدة ، وغير المفيدة كالفرق بين الإطناب والتطويل "٠ (٣)

---

(١) عبد الله بن أحمد بن الخشاب أبو محمد أعلم معاصريه بالعربية من أهل بغداد: مولدا ووفاة ، كان عارفا بعلوم الدين مطلعا على شيء من الفلسفة والحساب ، من تصانيفه " شرح مقدمة الوزير ابن هبيرة " الرد على التبريزى فى تهذيب الإصلاح توفى فى ٥٦٧هـ الأعلام : (١٩١/٤) ٠

(٢) الواو ومواقعها فى النظم القرآنى د٠ محمد الأمين الخضرى رسالة دكتوراة فى كلية اللغة العربية، بإشراف الدكتور محمد عبد الرحمن الكردى سنة ١٤٠٣ـ ١٩٨٣م مخطوط رقم ١٨٩٧ صـ٤٣٠ نقلا عن البرهان للزركشى ولم أعثر على النص فى البرهان ٠

(٣) السابق صـ ٢٣١ ٠

وواضـــح من كلام الدكتور الخضرى أنه لايرى بأســا من القول بالزيادة فى اللفـــظ ، مقابل الزيـــادة فى المعنى • والسؤال الذى يتوجه إليه : إذا كانت الزيادة لمعنـــى تقتضيــة وتلـــح عليه ، فكيف نطلـــق لفـــظ الزائد عليها وما الداعـــى لـــه ؟.

ثـــم إن اتفاقــــه مع ابن الخشاب على أن الحاجات إلى الأشياء تختلـــف بـــاختلاف المقاصد •• الخ • يفهـــم منه أن حاجة القرآن إلى هذه الكلمات التى قيل بزيادتها ، أقل مـــن حاجته إلى غيرها مما لم يقـــل أحـــد بزيادته • وهـــذا يتعارض مع مااتفـــق عليه علمــــاء الإعجاز من أن القرآن كله كالكلمـــة الواحدة ، وكل آيـــة وكل ســـورة فيه كالكائن الحـــى يقوم كل عضـــو فيه بوظيفـــة معينـــة ، ويتعاون بجملتـــه فى تحقيـــق غرضـــه ، فـــإذا ذهـــب عضـــو منه ، شاهـــت الصورة ، وتعطلت إحدى وظائف هذا الكائـــــن • وهـــذا عيب يجـــل عنه البيان القـــرآنى •

ولانـــدرى كيف يوافـــق ابن الخشاب على ذلك ، ثم نـــراه هو يجعل أحد الحـــــروف التى قيل بزيادتها - أســـاس الإعجاز • فقـــد ذكـــر قولـــه تعالـــى : " فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّـــهُ لِلْجَبِـــينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ " (الصافات /١٠٣ـ١٠٤) ورد زعم من قـــال بزيـــادة الواو بقـــوله : " لو تصورنا نظم الآيـــة بغـــير الواو ، وقارنـــاه بما عليه النظم الكريم مـــن إثباتها ، لظهر فـــرق الإعجاز واضحا ؛ لأن العطف بـــالواو أشـــعرَ بعظـــم الابتـــلاء ، وضخامة الصبر ، وشـــدة المعاناة ، وكأن ماطوى من هذه الأحداث والأهوال التى تجشـــمها إبراهيم وابنه فى سبيل تنفيـــذ أمر الله ، ومالقياه من الأحداث والأهوال ممـــا لاتحيـــط بـــه الكلمات ولاتعبر عنه الألفاظ • فإذا جعلنا •• الجواب { نادينـــاه } دل ذلك على أن الوحـــى أعقب مجرد إسلامهما لأمر الله ، وبدأ التنفيذ • وهو ما يقصرعن غرض الإشـــادة بعظيـــم صبرهـــما وصدقهـــما فى الإيمـــان ، وروعـــة الابتـــلاء " (١)

أفبعـــد هذا العرض الرائع والإيمان الكامل بأن فرق الإعجاز يقوم على هذا الحـــرف ، يمكن أن نطلق لفظ الزائد عليه ؟ أو نقـــول: إن حاجة المقصد إليه أقل مـــن حاجتـــه إلـــى غـــيره؟!• واضح أن عقـــدة الخلاف لم تنحل ؛ لأنهم مع اتفاقهم علـــى تنزيـــه القـــرآن مختلفون فى مفهوم الزيادة ، وفى فائدتها ، وإطلاقهـــا على لفـــظ قرآنـــى •

---

(١) الواو ومواقعها النظم القرآنـــى د : محمد الخضرى صـــ ٢٤٥ .

المبحث الثاني

أ ـ محور الشيخ في إنكاره للزيادة

ب ـ شرط التوكيد عند الشيخ وتساهل القائلين بالزيادة في إطلاقه

جـ ـ سبيل الوقوف على أسرار البيان

د ـ دلائل ترد القول بالزيادة

محــور الشــيخ فى إنكــاره للزيــادة

الدكتور دراز من المنكريــن للزيادة ، ولجواز إطلاق لفظها على حرف قرآنــى ؛ لأن مقياس الفضيلــة الذى يؤمــن به ، هو الوفاء بحــق المعنى ، وقد أتى القرآن على الغايــة فى الوفــاء بحــق معانيــه ، وضرب المثــل الأعلــى فى الكمال البيانى " فليس فيه كلمــة إلا هى مفتاح لفائــدة جليلــة ، وليس فيــه حرف إلا جــاء لمعــنى " (١)

وهــذا هــو محور الشيخ الذى أدار عليه رأيــه فى إنكاره للزيادة ، فإن بيانــا أتــى على الغايــة فى الوفاء بحــق المعنى ، وليس فيه كلمــة إلا هى مفتاح لفائدة ، ولاحــرف إلا جاء لمعنى ــ إن بيانا كهــذا من حقــه علينا أن لانطلــق مصطلح الزائد علــى لفــظ منه؛ لأن حقيقــة الزيادة كما يقــول الإمــام عبد القاهر ٤٧١ " أن تعــرى الكلمــة مــن معناها، وتذكر ولافائــدة لها ســوى الصلــة ، ويكون سقوطها وثبوتهــا ســواء"(٢) وهــذا لايتأتى بحال فى القرآن ؛ فهــم مجمعــون على أن لكــل حــرف فائــدة. " ووصــف الكلمــة بالزيادة نقيــض بالإفــادة" (٣) فما الداعى للقــول بالزيــادة ؟!.

وهــذه العبارة التى ذكرها الدكتور دراز هى ثمــرة نظر طويل فى البناء البيــانى للقرآن ، بعــد النظر فى تراث علمائنا الذيــن اهــتدوا إلى مــا أجــاد الشــيخ بســـطه ، وشرحه،والكشف عن المستور من جوانبــه .

---

(١) النبأ العظــيم صــ ١٣٠ .

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر صــ ٤١٧ .

(٣) السابق صــ ٤٢٠ .

فقــد ذكر الإمــام الرازى ٦٠٦ هـ من قبل : أنه " مامن حــرف ولاحركــة فــى القرآن ، إلا وفيــه فائــدة ، ثــم إن العقــول البشرية تــدرك بعضــها ، ولاتصــل إلــى أكثرها ، وما أوتــى البشر من العلم إلا قليــلا "(١)

وأدار ابن الأثــير ٦٣٧ رأيــه فى القضية على كلام الرازى ، كما ترســــمه فــى غيرها من القضايا (٢) فهو يقــول:" فائــدة وضــع الألفاظ أن تكون أدلــة على المعــانى ، فإذا وردت لفظــة من الألفاظ فى كلام مشــهود له بالفصاحة والبلاغة ، فالأولى أن تحمــل تلك اللفظة على معنى ، فإن لم يوجــد لها معنى بعــد التنقيــب والتنقير والبحــث ، قيــل هذه زائــدة دخولها فى الكلام كخروجها منه ... ثم إن هذه اللفظة لو كـــانت زائـــدة ، لكان ذلك قدحــا فى كلام الله تعالى؛ وذلك أن يكون قــد نطــق بزيادة فى كلامه لا حاجــة إليها ، والمعنى يتــم بدونها ، وحينئــذ لايكون كلامــه معجــزا "(٣)

وعلى نهج الإمامــين يســير الدكتور دراز فيديــر إنكاره للقضية على محور الإفــادة الناقصــة للزيادة ، ويبســط فى كتابه " النبأ العظــيم " ــ ما أجمله الإمامان . فبعـــد أن بين أساس إنكاره اتجــه للمخاطب ناصحا إيــاه أن يدع عنه كلام أولئك القائلين بالزيـــادة فقــال ــ رحمه الله :

" دع عنــك قــول الذى يقــول فى بعض الكلمات القرآنية : إنهــا مقحمــة ، وفــى بعض الحروف إنها زائدة زيادة معنويــة ، ودع عنك قــول الذى يستخف كلمة " التأكيــد" فيرمى بها فى كل موطــن يظن فيه الزيادة ، ولايبالى أن تكون تلك الزيــادة فيــها معنــى المزيد عليه فتصلح لتأكيده ، أولاتكون ، ولايبالى أن يكون بهذا الموضع حاجة إلــى هــذا التأكيد أولا حــاجــة له به "(٤)

---

(١) تفسير الفخر الرازى م١٣ جـ٢٥ صـ ٧٣ .

(٢) انظر : البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابى د: صــباح دراز صـ ٥٦ .

(٣) المثل السائر . لابن الأثير جـ٢ صـ ١٥٢، صـ ١٥٣ .

(٤) النبــأ العظــيم صـ ١٣٠ ، صـ ١٣١ .

شـرط التوكيد عند الشـيخ " وتساهـل القائلـين بالزيادة في إطلاقـه ٠

فالشيخ ينكـر الزيادة ، وينكـر كذلك تعليلهـم لوجودها " بالتوكـيد " ، وهو المعنـى الذى اتفقـوا على جعله علـة للزيادة ٠ فقد ذكر ابن جنى ٣٩٢هـ أن علة زيادة الحـروف هى " إرادة التوكيد بها ؛ ذلك أنه قد سبق أن الغرض فى اسـتعمالها إنمـا هـو الإيجـاز والاختصار ، والاكتفاء عن الأفعال وفاعليها ٠ فإذا زيد ما هذا سبيله فهو تناه فى التوكيد بـه " (١)

وما يذكره ابن جنى يردده ، ابـن يعيـش ٦٤٣ ، وابـن هشـام ت ٧٦١هـ (٢)، والزركشى ٧٩٤هـ(٣) إلا أن واحدا منهم لم يبن لنا المراد بهذا التوكيـد ، ومـا معنـاه ؟ وكيف يكون؟ وهل التوكيد الذى تفيده " ما " التى قيل بزيادتها ، هو ذاته التوكيد الذى تفيـده "لا " ؟ وإذا كان واحدا ، فلم يختص موضع بـ " ما " وآخر بـ " لا " ؟ وإذا كان مختلفـا ، فما جهة اختلافه ، وما علاقة ذلك بدلالة الحرف وعطاء السياق ؟ كل ذلك لم يبينه القـائلون بأن فا ئدة الزيادة التوكيد ، كما لم يوضحوا الفرق بين هذا التأكيد ، وبين غيره مما يفيده مـا وضع له فى أصل اللغة ٠

ولعلهم أنفسهم قد أحسوا بالحيرة ؛ فكيف يفيد الحرف التوكيد وهو على نيـة الطـرح ؟ فقد ذكر الإمام الزركشى ٧٩٤هـ أن بعض العلماء قد " سئل عن التوكيد بـالحرف ، ومـا معناه إذ إسقاط الحرف لا يخل بالمعنى ؟ فقال : هذا يعرفه أهل الطباع ؛ إذ يجدون أنفسـهم بوجود الحرف على معنى زائد لا يجدونه بإسقاط الحرف قال : ومثال ذلك مثال العارف

---

(١) الخصائص لابن جنى ط٣ صـ ٢٨٤ ٠

(٢) عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف ابن هشام من أئمة العربية،مولده ووفاته بمصر ، مـن تصانيفـه " مغنى اللبيب " وشذور الذهب ، توفى فى ٧٦١ هـ ـ الأعلام : (٤/ ٢٩١) ويراجع له مغنى اللبيب ت:محمد محى الدين عبد الحميد ط : المكتبة العصرية ١٤١١ هـ ١٩٩١ م جـ١ صـ٤٣ ٠

(٣) انظر البرهان فى علـوم القرآن للزركشـى جـ٣ صـ ٨١ ٠

بوزن الشعر طبعا فإذا تغير البيت بزيادة أو نقص ، أنكره وقال أجد نفسي على خلاف ما أجده بإقامة وزن الشعر ، فكذلك هذه الحروف تتغير نفس المطبوع عند نقصانها ، ويجد نفسه بزيادتها على معنى بخلاف ما يجدها بنقصانه " (١)

فالأمر فى تقدير فائدة هذه الحروف مرتهن بالطبع القادر على تذوق المعانى ، والإحساس بمنازل كل حرف فيها • فهذه الحروف إذا حذفت من الكلام تتغير النفس عند نقصانها ، فإذا رجعت وجد المرء نفسه على معنى يرتاح إليه ويحس به ، وفى قول الزركشى : " يجد نفسه على معنى " ما يبين أن الشعور بهذا المعنى قوى ومستعل ، ويملك على المرء حسه وطبعه ، وهو مع قوته واستعلائه لا يقدر على وصفه • وهذا من إعجاز القرآن " يدرك ولا يمكن وصفه " (٢)

ولذا نجد الدكتور دراز يضيق بكلمة " التوكيد " التى أطلقت فى كل موطن ظن فيه الزيادة فى الوقت الذى لا ينبغى أن نطلق هذا اللفظ إلا بعد تحقق أمرين :

الأمر الأول : أن تكون الكلمة المزيدة فيها معنى المزيد عليه حتى تصلح لتأكيده •

الثانى : أن تكون بالمقام حاجة إلى التوكيد •

إلا أن النحاة قد ذكروا أن زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة مرة ثانية ، ولذلك فإن الأمر الأول يتحقق عندهم دائما فى الحروف التى قيل بزيادتها ؛ ففيها معنى المزيد عليه ولذا تصلح لتأكيده • وهذه العبارة " زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة " ، ذكرها ابن هشام ٧٦١ هـ نقلا عن ابن جنى ٣٩٢ هـ •

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ٣ صـ٨٢ •

(٢) مفتاح العلوم للسكاكى صـ٤١٦ •

أما الأمر الثانى : وهو أن تكون بالمقام حاجة إلى التوكيد ـ فربما لا يكون فى المقام حاجة إلى التوكيد ، فلابد إذن من دراسة المقام دراسة وافية تقوم على تحليل عناصره البيانية ، وروافده المكانية والزمانية ، وربطها بالغرض الذى سيقت له ، وفهمها فى ضوء الأسس التى ينبغى فهم المعنى القرآنى فى ضوئها ، ثم ربط ذلك كله بحال المخاطب ، فبمثل هذه النظرة نتبين فائدة كل حرف . بدلا من إطلاق كلمة " التوكيد " فى كل مقام ، دون تدبر حاجة المقام إلى هذا التوكيد .

فربما لا يكون المقام فى حاجة إلى توكيد ، أو يكون التوكيد غير مقصود أولا معنى له فى الآية . فقد ذكر ابن يعيش ٦٤٣ فى شرحه لكلام الزمخشرى ٥٣٨هـ أن " الباء " تزاد فى خبر " ليس " لتأكيد النفى قال تعالى : " أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ " (الزمر /٣٦) أى كافيا (١) . ووافقه على ذلك الشيخ عبد الرحمن تاج ١٩٧٥ م(٢) .

وقد وقفت الدكتورة بنت الشاطئ مع هذه الباء التى تقترن بخبر " ليس " أو تأتى بعد النفى " بما " . فبينت أنها تمثل ظاهرة أسلوبية فى القرآن الكريم ، وهو مالايهون معه القول بالزيادة ؛ إذ مقتضى الزيادة إمكان الاستغناء عنها ، وهو مالا يؤنس إليه البيان القرآنى، ثم ذكرت أن الباء فى بعض الآيات التى تقرن فيها الباء بخبر المنفى " بليس " لا تؤكد النفى بل تنقضه ، وترده تقريرا وإلزاما ، ومنها الآية التى ذكرها ابن يعيش " أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ " ، (الزمر /٣٦) . فالباء فيها لم تؤكد النفى ، بل هى تنقضه وتجعله تقريرا ، وإثباتا (٣) .

فالنفى فى الآية ليس مقصودا حتى تؤكده الباء ، وإنما هو استفهام قصد به التقرير وهو معنى إثباتى ، فلا حاجة بالمقام إلى التوكيد .

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش م٢ جـ٨ صـ١٣٨ .

(٢) انظر بحوث قرآنية ولغوية للشيخ عبد الرحمن تاج صـ ١٣٦ .

(٣) انظر الإعجاز البيانى د: عائشه عبد الحمن صـ ١٨٣ ، صـ ١٨٤ .

وإن كان فى النفس شئ من قول الدكتورة عائشة : إن الباء لم تؤكد النفى ، بل تنقضه وترده تقريرا ؛ لأن دلالة التقرير والإثبات تحصل من خروج الاستفهام عن معناه الحقيقى إلى المعنى المجازى ، وهو أمر يقضى فيه الأسلوب والسياق ٠ والباء قد تعين على هذا المعنى ، وليست قادرة وحدها على نقض النفى وقلبه ٠ والمهم أن الباء التى قالوا بزيادتها للتوكيد جاءت فى مقام لا يحتاج إلى التوكيد ٠

بل إن من القائلين بالزيادة من التفت إلى وقوع بعض ما قيل بزيادته فى مقام لا يحتاج إلى توكيد ٠

فقد ذكر ابن هشام ٧٦١ هـ ــ من مواضع زيادة الباء ــ أن تزاد مع التوكيد " بالنفس والعين " وذكر أن بعضهم جعل منه قوله تعالى : " وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ " ٠ (البقرة /٢٢٨) ٠ ثم ضعف هذا الرأى معتمدا على ما انطلق منه الدكتور دراز وهو أن المقام قد لايكون بحاجة إلى التوكيد ٠

قال ابن هشام تعليقا على هذا الرأى : " وفيه نظر ؛ إذ حق الضمير المرفوع المتصل المؤكد بالنفس أو العين ــ أن يؤكد أولا بالمنفصل نحو : قمتم أنتم أنفسكم ، ولأن التوكيد هنا ضائع؛ إذ المأمورات بالتربص لا يذهب الوهم إلى أن المأمور غيرهن ، بخلاف قولك " زارنى الخليفة نفسه ٠٠ ، وإنما ذكر الأنفس هنا لزيادة البعث على التربص لإشعاره بما يستنكفن منه من طموح أنفسهن إلى الرجال " (١)

---

(١) المغنى لابن هشام جـ١ صـ١٣١ ٠ وقد ذكرت هذه الآية عند ابن هشام لأنبه إلى شئ فى كلام الدكتور فضل عباس حيث يوهم كلامه أن ابن هشام مع القائلين بالزيادة ، حيث ذكر الآية السابقة ثم قال : سامح الله بعض النحويين الذين يأبون إلا أن تكون قواعدهم الأصل الذى ينطلقون منه ولا أدرى كيف أجازوا لأنفسهم أن يعدوا الباء هنا زائدة " ثم وضع هامشا يقول فيه: (البحر المحيط ٢/١٨٥) والمغنى (١/١٠٨)٠

وكلامه يدل على أن أبا حيان وابن هشام من الذين دعالهم الله بالمسامحة ، ثم نجده يعتمد فى رد القول بالزيادة على الأمرين اللذين ذكرهما ابن هشام فى تضعيف الرأى القائل بزيادتها فى الآية بل نقل أكثر عباراته دون إشارة ، ولعله سهو منه رحمه الله ، والإنصاف أن يوضع هذا الهامش بعد الرد على القائلين بزيادة الباء ، لأن كلامه مأخوذ من كلام ابن هشام رحمه الله ٠

• انظر : لطائف المنان وروائع البيان ، للدكتور فضل عباس صـ١٠٤ ، صـ١٠٥ ٠

فنجده يرفض أن تكون الباء زائدة للتوكيد لمخالفة ذلك للصنعة الإعرابية ، ولأن التوكيد لا معنى له ، بل هو ضائع فى الآية ؛ إذ لا يمكن أن ينصرف الوهم إلى أن المأمورات بالتربص غير المطلقات ، ولو نظر النحاة إلى ما قيل بزيادته هذه النظرة لكانت لهم كلمة أخرى ٠

وهذه كلها تحليلات تدلنا على قوة رأى القائلين بمنع الزيادة ، وأن للحرف دلالات سوى التوكيد ، وأن الطريق الأوحد لفهم إعجاز القرآن ، هو الصبر على الغوص فى بحار جلاله وجماله ، وهى النصيحة التى وجهها الدكتور دراز لمن أراد الوقوف على هذا الباب من الإعجاز ٠

سبيل الوقوف على أسرار البيان :

قال رحمه الله :

" خذ نفسك أنت بالغوص فى طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح ، فإن عمى عليك وجه الحكمة فى كلمة منه ، فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون ، ولكن قل قولا سديدا هو أدنى إلى الإنصاف ٠ قل : الله أعلم بأسرار كلامه ، ولا علم لنا إلا بتعليمه ، ثم إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار قائلا : أين أنا من فلان وفلان ؟ كلا ؛ فرب صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن إليه الكبير الفاضل ٠٠ فجد فى الطلب ، وقل رب زدنى علما فعسى الله أن يفتح بابا من الفهم تكشف به ما عمى على غيرك " (١)

فحين يخفى وجه الحكمة فى آية أو نص قرآنى ، لا ينبغى أن نعجل فى الحكم عليه بشئ ، قد يظهر ما ينقضه بعد ذلك ، ولكن الإنصاف والأمانة أن يتوقف الإنسان حيث

---

(١)النبأ العظيم صـ١٣١ ٠

يقف فهمه ، وأن يعترف بعجزه وتقصيره ؛ فقد قال ملائكة السماء " سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَـا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا " (البقرة / ٣٢) ٠ ولكن هذا لايعنى أن يركن المرء إلى راحة اليأس ، بل لابـد من السعى لامتلاك البصيرة البيانية القادرة على استخراج اللؤلؤ من أصدافه مهما كلفها ذلك من عناء ، ومشقة وألم ، وليدع الله أن يزيده علما بمعرفة ما خفى عليه ، ويمنحه قدرة علـى تحصيل وفهم ومحاورة هذا العلم ، والبناء عليه ٠ وهذه هى الدعوة التى أمر الله نبيـه بـها فقـال : " وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا " (طه /١١٤) ٠ قال ابن حجر ٨٥٢ هـ " لـم يـأمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام ٠ بطلب الإزدياد من شئ إلا من العلم " (١)

دلائل ترد القول بالزيادة :

وكلام الدكتور دراز يبين لنا عن منهجه فى رد القول بالزيادة ، وهـو الانطـلاق مـن النظر فى الآية والسياق ؛ والغوص فى طلب أسراره البيانية ، دون الاكتفاء بالوقوف عنـد ظاهر العبارة ٠ هذا،ويمكن أن نذكر بعض الدلائل التى تدعم رأى الشيخ فـى رده القـول بالزيادة ٠

{ أ } : ٠ فمـن ذلك ما ذكره النقاد من أن " عذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف ، أو نقصان حـرف ، فيصير إلى الكزازة ، وتعود ملاحتـه بذلك ملوحة ، وفصاحته عيا ، وبراعته تكلفا، وسلاسته تعسفا ، وسلامته تلويا وتعقدا " (٢) ٠

فالأمر منوط بالمقام ، فإذا زيد حرف ، أو حذف فى مقام لا يستدعيه ؛ فسـد الشـعر وعادت ملاحته ملوحة ٠ وإذا كان النقاد يطلبون أن يوضع كل حرف فـى موضعـه مـن الشعر بميزان الدقة ، ــ والشعر على عظمته بيان إنسانى يعتريه ما يعترى الإنسـان مـن نقص ــ أفلا يكون من باب أولى أن يضرب القرآن المثل الأعلى فى البيان ؟ ٠

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى جـ١ صـ١٩٢ ٠

(٢) إعجاز القرآن للإمام الباقلانى صـ٢٥٩ ٠

{ ب } * ومن هذه الدلائل ما ذكره الإمام الزركشى ٧٩٤ هـ وهو أن حق الزيادة أن تكون آخرا وحشوا ، أما أن تقع أولا فلا ؛ لما فيه من التناقض ، إذ قضية الزيادة إمكان اطراحها، وقضية التصدير الاهتمام ،ومن ثم ضعف بعضهم قول من قال بزيادة "لا " فى قوله تعالى : " لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ " (القيامة /١) (١)

ولكن بعض الباحثين لم ترقه هذه الحجة ، فذكر : " أنها حجة لا سند لها من العقل ، بل من الفلسفة ؛ إذ لا يضير البيان ، أو يغض منه ـ إذا استهل الكلام بزيادة للتنبيه واسترعاء الأسماع "(٢) ٠

والواقع أن كلام الإمام الزركشى ٧٩٤هـ له سنده فى اللغة والعقل ؛ فقد ذكر الإمام عبدالقاهر ٤٧١هـ فى حديثه عن التقديم والتأخير أنه " لم يجد أهل اللغة والبيان قد اعتمدوا فيه شيئا يجرى مجرى الأصل غير العناية والإهتمام " ثم نقل كلمة سيبويه ١٨٠هـ " كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جمعيا يهمانهم ، ويعنيانهم" ٠(٣)

فإذا كان أهل البيان يقدمون مايهمهم ، وماهم ببيانه أعنى ، فهل من المعقول أن يقدموا شيئا هو على نية الطرح ، وذكره فى الكلام كحذفه؟ ، وهل إذا فعل ذلك لايكون مضيرا للبيان، أوغاضا من قيمته ؟ اللهم : لا ٠ وكل كلمة قيل بزيادتها وهى متصدرة يتوجه إليها هذا النقد ٠

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٠ للزركشى جـ٣ صـ ٨٢ ٠
(٢) مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة للأستاذ على النجدى ناصف صـ ٩٧ ٠
(٣) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر صـ ١٠٧ ٠

ودلالـــة أخرى لها شأنها في رد قضـــية الزيادة ، وهي اتفاق علماء البلاغة والإعجـاز على أن عمود البلاغة هو وضع كل لفظ في موضعه الذي إذا أســقط ، أو أبدل به غـــيره كان فساد المعنى وذهاب الرونـــق ، وأن هذه الدقـــة لم تأت على غايتـــها إلا فـــي القـــرآن الكريم " وذلك أن الله قـــد أحاط بكـــل شيء علما ، وأحاط بالكلام كله علما ، فإذا ترتبـــت اللفظـــة من القرآن ـــ علم بإحاطته أي لفظـــة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنـــى بعـــد المعنى ، وكذلك من أول القرآن إلى آخـــره ... ونحن تتبين لنا البراعـــــة فـــي أكـــثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع ؛ لقصورنا عن مرتبـــة العرب يومئـــذ في سلامة الـــذوق ، وجودة القريحـــة ".(١)

والقـــول بزيادة حرف واحد : طعـــن في أمر الإعجاز ، والأولى أن نتـــهم عقولنـــا ، وأذواقنـــا بقصورها عن مرتبـــة العرب.يقـــول أســـتاذنا الدكتور صـــبـــاح دراز :

" وعلماء الإعجاز على أن هـــذا الإعجاز يسري في السورة ، والآيـــة ، وفي الجملـــة والكلمة ، وفي الحرف القرآني ساكنا ومتحركا ، والتلاؤم بين الحرف وحركته أو ســـكونه ، وبين الإيقاع جميعا ، والنســـق والمقام ـــ كما تسري الروح في الإنسان ، والحكـــم بزيـــادة حرف يعني جواز حذفـــه ، وحذفـــه أو ســـقوطه يغـــير المعنـــى ، ويذهـــب البلاغـــة ، ويكسف نور الإعجـــاز " .(٢)

ولاشـــك أن التطبيق والتحليل لآي الذكر الحكيم هو أعظم الميادين أثـــرا فـــي الكشـــف عن أسرار الجمال الإلهي ، وهو الذي يهدينا إلى كلمة مقاربة في مثل هذه القضيـــة ، ولـــذا كان من دلائـــل الشيخ على إنكاره لقضية الزيادة - تطبيقـــه وتحليله لآيـــة ترادفت كلمـــة أكثر أهل العلم على زيادة حـــرف فيهـــا .

---

(١) المحرر الوجيز في لطائف الكتاب العزيز ، لابن عطية جـ١ صـ ٥٢ .

(٢) البلاغـــة القرآنية عند الإمام الخطابي صـ ٦٠ .

المبحـــــث الثـــالـــث

من تطبيقـــات الشـــيخ فى القضـــية

أـ الدكتور دراز يناقــش كلام العلماء فى الآيـــة

ب ــ عطـــاء الكـــاف عنـــد الشـــيخ

١ـ الطـــــــريق الأول ٠

٢ـ الطـــــــريق الثانى ٠

قــال تعــالى :

" فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " . (الشورى/١١) .

الدكتــور دراز يناقــش كــلام العلمــاء فى الآيـــة .

كثر كلام العلماء حول قولـه سبحانه فى الآيـة : " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " ، حتى أفـرد لها العلامــة الشيخ أحمد رافع الحسينى ١٣٥٥هـ(١) رسالة بعنوان : " كمال العنايـة بمـا فى ليس كمثلـه شيء من الكناية " . والدكتور دراز واحد من الذين توقفـوا أمـام هـذه الجملة القرآنيـة ليبين عما طـواه الحرف فى رحمه من أسرار الحياة البيانية ؛ ليدحـض قـول من قـال بزيادة الكـاف فى الآيـة ، ولكنـه قبل إبانتـه عن سـر الحرف وقـف مـع آراء من تحدثـوا عـن الآيـة فقـال ـ رحمـه الله ـ عـن أصحاب

الـــرأى الأول :

" أكثـر أهل العلـم ترادفت كلمتهم على زيادة الكـاف ، بل على وجـوب زيادتـها؛ فرارا من المحال العقلـى الذى يفضـى إليه بقاؤهـا على معناها الأصلى من التشـبيه ؛ إذ رأوا أنها حينئـذ تكـون نافيـة الشبيـه عن مثـل الله ، فتكون تسليما بثبوت المثـل لـه سبحانه أو على الأقـل محتملـة لثبـوته وانتفائـه ، لأن السالبة ـ كمـا يقـول علمـاء المنطق ـ تصـدق بعدم الموضوع ، أو لأن النفى ـ كما يقـول علماء النحوـ قد يوجـه إلى المقيد وقيده جميعا . تقـول : ليس لفلان ولد يعاونه ، إذا لم يكـن له ولـد قـط ، أو كان له ولـد لايعاونـه ". (٢)

---

(١)أحمد بن رافع بن محمد بن العزيز الحسينى ، فقيه حنفى وعارف بالتفسير والأدب بمصر ، ولد فـى " طهطـا " من أعمال جرجا بمصر وتخرج فى الأزهر ، ولد فى ١٢٧٥هـ وتوفى ١٣٥٥هـ من كتبة " رفع الغواشى عن معضلات المطول والحواشى " الأعلام : (١٢١/١).

(٢) النبـأ العظـيم صــ ١٣٢ .

فقوله تعالى:" لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " ظاهره إثبات المثل لله تعالى ·وهو محال ولذلك قال هؤلاء بزيادة الكاف ، وهذا ماذكره الشيخ فى تعليل القائلين بالزيادة، والواقع أن لهم دافعا آخر يبنى على ماتقدم ، وهو أن أصالة الكاف تقتضى لزوم انتفائه ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ ؛ ذلك أنه سبحانه " يكون مثلا لذلك المثل الذى تقتضيه أصالة الكاف · والمقدر حينئذ انتفاء مثل المثل "(١)

ولم يتوقف الشيخ دراز أمام هذا الرأى ، أو يتعرض له بنقد ، ويكفينا أن نذكر شيئا واحدا ينقض هذا الزعم المبنى على القول بأصالة الكاف : وهو أن الأخذ بظاهر العبارة واجب مالم تقم قرينة على خلافه ، فإذا قامت قرينة على ذلك أخذ بها· ومن هنا فلا يمكن الأخذ بظاهر الآية الذى يقتضى ثبوت مثله تعالى ؛ لأن الآية محفوفة بالدلائل والقرائن المانعة من هذا الظاهر الدالة على خلافه ، كالأدلة القطعية الدالة على عدم وجود مثل له تعالى ، ومثل دلائل الوحدانية التى أقرها المشركون مما ذكر فى الآيات قبلها مثل " لَهُ مَافِى السَّمَاوَاتِ وَمَافِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ " (الشورى /٤) ، وككون الآية مسوقة لتنزيهه سبحانه عن الحوادث التى منها ثبوت المماثله ·

أما زعمهم فهو مبنى على مفهوم ظاهر العبارة ، وكم من ظاهر عارضه القطعى فأُوِّل (٢) يقول أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى :

واضح أن المحال كان بسبب أنهم وقفوا بالتركيب عند دلالته المباشرة يعنى نفى شِبْه المثل ، ولم يجعلوا هذا المعنى المباشر طريقا واصلا بالذهن إلى معنى آخر هو لازمه؛

---

(١) كمال العناية·بما فى ليس كمثله شىء من الكنايه " للشيخ أحمد رافع الحسينى ، (د/ط) (د/ت) صـ٢٠

(٢) يراجع كمال العناية للشيخ أحمد رافع صـ٢٨، صـ٣٣،صـ٤٢،وكتاب الموافقات للإمام الشاطبى فى تعارض الظن مع القطعى م٢ جـ٣ صـ١٢ ·

لأنه يلزم من نفى شبه مثله نفـى المثـل نفسـه ؛ لأنـه لو وجـد هـذا المثـل لكـان لهـذا المثل شـبه وهو الله سبحانه ، وكان التعـبير مفيـدا نفـى مثل المثـل أعنـى الله ـ تعالى وجل سبحانه"٠(١)

أمـا أصحاب الرأى الثانـى ـ وهـم قلـة ، فقـد قـال عنهم الشـيخ :

" وقليـل منهم من ذهـب إلى أنه لابأس ببقائهـا على أصلهـا؛ إذ رأى أنها لاتـؤدى إلى ذلك المحال لانصـا ولا احتمالا ؛ لأن نفى مِثْـل المِثْـل يتبعـه فى العقل نفى المثـل أيضـا ؛ وذلك أنه لو كان هناك مثل لله ، لكان لهذا المثل مثـل قطعا وهـو الإلـه الحـق نفسـه ؛ فإن كل متماثلين يعـد كلاهمـا مِثْـلا لصاحبه ، وإذن لايتم انتفـاء مثل المثـل إلا بانتفـاء المثل وهـو المطلـوب "(٢)

وهـذا الذى ذكـر الشيخ هـو رأى كثير من البلاغيين ، وهو أحد وجـهين ذكرهمـا الإمام سـعد الدين التفتازانى ٧٩٣هـ فى توجيـه الكناية فى الآيـة ، حيث قال :" إن نفـى مثـل المثل يلزمـه نفى المثـل ؛ لأنه لوثـبت المثل له تعالى ، لكان سبحانه مثـلا لذلـك المثـل ، والفرض أن مثل المثـل منفى ، ومن المعلوم أن الله تعالى موجـود ، فلا يمكـن أن يكـون نفـى مثـل المثل مبنـيا على العـدم ، فلا يتحقـق نفى مثـل المثـل إلا بنفـى المثل مـن أصلـه"٠ (٣)

وقـد وقف الشيخ من هـذا الرأى موقف المنكر الناقـد ؛ لأنه توجيه يصحح وجـود الكـاف ولايبـين فائـدتهـا ٠ فقـال رحمـه الله :

---

(١) التصوير البيانى ، دراسة تحليلة لمسائل البيان د: محمد أبو موسى ط:دار التضامن ، الطبعة الثانيـة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م صـ ٤٠٢ ٠

(٢) النبـأ العظـيم صـ ١٣٣ ٠

(٣) المطـول للإمـام سـعد الديـن صـ ٤٠٦ ٠

" وقصارى هذا التوجيه ، لو تأملته ـ أنه مصحح لامرجح . أى أنه ينفى الضرر عن هذا الحرف ، ولكنه لايثبت فائدته ، ولايبين مسيس الحاجة إليه ؟ ألست ترى أن مؤدى الكلام معه كمؤداه بدونه سواء ، وأنه إن كان قد ازداد به شيئا فإنما زاد شيئا من التكلف والدوران ، وضربا من التعمية والتعقيد ، وهل سبيله إلا سبيل الذى أراد أن يقول : هذا فلان ، فقال : هذا ابن أخت خالة فلان ؟ فمآله إذن إلى القول بالزيادة التى يسترونها بالتوكيد الذى لاتعرف له مسمى هاهنا ؛ فإن توكيد المماثلة ليس مقصودا البتة ، وتوكيد النفى بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان "(١)

فنحن فى أمر البيان لانبحث عن حكمة تصحح ، وإنما نبحث عن سر يرجح، ويظهر أثر كل حرف فى بناء المعنى ، والوفاء بحقه ، والشيخ يرى أن هذا الرأى مما يصحح ولايرجح ، ومما ينفى الضرر ولايثبت الفائدة .

وقد استدرك أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى على نقد الشيخ فذكر :

١ـ " أن هذا التوجيه ليس مصححا فحسب ، وإنما هو بيان لطريق الكناية التى جرت فيها الدلالة ، وكيف كان نفى مثل المثل دالا على نفى المثل وليس فى هذا تكلف ولا دوران ، وليس كقوله : هذا ابن أخت خالة فلان ؛ لأن المتكلم سلك طريقا بعيدا ملبسا من غير فائدة ".

٢ـ " ليس المآل هنا إلى القول بزيادة الحرف؛ وكيف ولم تكن الدلالة هنا من طريق الكناية إلا اعتمادا على أصالة هذا الحرف ".

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٣٢ ، صـ ١٣٣ .

٣ـ " لفت الشيخ إلى أن القول بأن الكاف زائدة قول ساقط ؛ لأن تأكيد نفى المماثلة ليس مقصودا البتة ، وكلامه فى هذا مأخوذ من كلام ابن المنير ت٦٨٣(١)٠٠، ولكنه لم ينج من الزلة التى نجا منها ابن المنير ؛ لأن ابن المنير هاجم القول بأن الكاف كررت للتأكيد ، والحرف إذا كرر للتوكيد فإنما يؤكد ماكرره يعنى معناه وهو المماثلة ، وهذا خلاف الحرف المزاد للتوكيد ؛ لأنه حينئذ يؤكد ماورد مزيدا فيه ، يعنى مضمون الجملة.ولو تأمل الأستاذ عبارة النحاة لرجع عن هذا القول ، لأنهم لم يجعلوا الحرف مؤكدا معنى المماثلة ، إنما يقول النحاة : إنه يفيد تأكيد نفى المماثلة لأن زيادة الحرف بمنزلة إعادة الجملة ثانية"٠ (٢)

ويبدو أن صياغة العبارة على هذا النحوالكلامى الذى ذكره الإمام سعد الدين٧٩٣ كانت وراء رأى الشيخ فى المسألة ، كما أن بعض الشراح قد رفض جعل هذا الوجه كناية حيث قال : ٠ والصواب أن الوجه الأول ليس كناية ، بل هو المذهب الكلامى ، وهو : أن يورد المتكلم حجة على مايدعيه على طريقة أهل الكلام كقوله تعالى : " فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ " (الأنعام/٧٦) أى القمر آفل ، وربى ليس بآفل ، فالقمر ليس بربى ٠ يدل على ذلك تقريره ٠ حيث قال : ليس لأخى زيد أخ إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخا هو زيد " ٠(٣)

---

(١)أحمد بن محمد بن منصور من علماء الاسكندرية وأبنائها ، ولى قضاءها وخطابتها مرتين ، له تصانيف منها ، تفسير،" ديوان خطب " ، وتفسير حديث الإسراء توفى فى ٦٨٣هـ الأعلام (٢١٢/١)

(٢)التصوير البيانى د: محمد أبو موسى صـ ٤٠٦

(٣)حاشية السيد شريف على المطول لسعد الدين صـ ٤٠٦٠

ثم إن الدكتور دراز حين يذكر أن تأكيد المماثلة ليس مقصودا ـ وأن تأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه من الإحالة ـ لايعنى هذا أن نفهم منه أنه لم يتأمل مقصود النحاة، وأنه لو تأمله لرجع ، بل قد يفهم منه أن الشيخ لايرضى من النحاة بهذا الكلام؛ لأنهم لم يبينوا عن مرادهم من التوكيد ، ولأن المقام قد لايحتاج إلى توكيد، فهل يجدى أن نقول : إن تكرار الحرف بمنزلة إعادة الجملة حينئذ ؟ وهم قالوا بالتوكيد فى مواضع الزيادة كلها .

عطاء الكاف عند الشيخ :

بعد أن عرض الشيخ لهذين الرأيين اتجه إلى الحرف ليكشف عن عطائه وليبين " كيف كان محتفظا بقوة دلالته ، قائما بقسط جليل من المعنى المقصود فى جملته ، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى ، أو لتهدم ركن من أركانه "(١) وهذا يبين من طريقين أحدهما أدق مسلكا من الآخر:

الطريق الأول : " وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور: أنه لو قيل : ليس مثله شيء ، لكان نفيا للمثل المكافىء وهو المثل التام المماثلة فحسب ؛ إذ إن هذا المعنى هو الذى ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه ، وإذا لدب إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام : أن لعل هناك رتبة لاتضارع رتبة الألوهية ، ولكنها تليها ، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء ، أو للكواكب وقوى الطبيعة ، أو للجن والأوثان والكهان ، فيكون لهم بالإله الحق شَبَه مافى قدرته أو علمه وشرك مافى خلقه أو أمره . فكان وضع هذا الحرف فى هذا الكلام إقصاء للعالم كله عن المماثلة ، وعما يشبه المماثلة ومايدنو منها . كأنه قيل : ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلا لله ، فضلا عن أن يكون مثلا له على الحقيقة ، وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى على حد قوله تعالى :" فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا" (٢). (الإسراء/٢٣).

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٣٣ .

(٢) السابق الصفحة ذاتها .

وهـذا الوجـه مبني على فكـرة التنبيـه بالأدنى على الأعلى ، وهي من عطاء ذكـر الكاف ؛ ذلك أنه سبحانه لو قـال : " ليس مثلـه شيء " ، للزم نفي المثل التـام المماثلـة فحسب ، ولـم يلزم نفي المرتبـة الأدنـى ٠ فلما ذكرت " الكـاف تعدى النفي المثـل — إلى مايشبهـه فنفـاه ، ولزم من نفيـه نفي المثـل ٠

وهـذه هـي الفكرة التي بنى عليها ابـن المنـير٦٨٣هـ رحمه الله ٠ رأيـه فـي القـول بأصالة الكـاف ، ولعل الدكتور دراز ناظر إليه في هـذا ؛ ذلك أن ابن المنـير رد القـول بزيـادة الكـاف معلـلا لذلك بأن الذي يليـق بالمقـام هو " تأكيد نفي المماثلـة ، وجعـل الكـاف زائـدة يؤكـد المماثلـة ، وفـرق بين تأكـيد المماثلـة المنفية ، وبيـن تأكـيد نفي المماثلـة ؛ فإن نفـي المماثلة المهملـة من التأكيد أبلغ وآكـد في المعنى مـن نفي المماثلـة المقترنـة بالتأكـيد ؛ إذ يلـزم من نفي المماثلة الغير مؤكـدة — نفـي كـل مماثلة ، ولايلزم من نفي مماثلة محققة التوكيد نفي مماثلة دونها في التحقيق والتـأكيد ٠٠٠ إذ يصـح للقائـل أن يقـول : ليس زيـد شـبيها بعمـرو ولكـن مشبها له ، ولو عكـس لم يكـن صحيحا؛ وماذاك إلا أنـه يلزم من نفي أدنى المشابهـة نفي أعلاهـا ، ولايلـزم من نفي أعلاهـا نفي أدناهـا"٠(١)

فنجـده يديـر الأمر على نفي أدنى المشابهـة الذي يلـزم منـه نفـي أعلاهـا ، وعلى النهج ذاتـه سـار الدكـتور دراز ٠

ويمكـن أن نقول في سـر أصالة الكاف على هذا الوجه : إن الآيـة جـاءت فـي مقام تنزيه الله سبحانه عن أن يكون هناك شيء يشبه أن يكون مثله فضلا عن أن يكون مثله ، فالمقصود الأهم هو نفي شبه المثل٠ ويأتي نفي المثل تبعا ؛ وذلك لأن المثلية التامـة لـم يجرؤ أحـد من الخلـق على إثباتـها لغـير الله حتى تقصـد الآيـة إلى نفيـها بدايـة

---

(١)الانتصاف على الكشاف ، للإمام أحمد بن المنير، مطبوع على هامش الكشاف٠ جـ٤ صـ ٢١٣ ٠

بل إن فرعون نفسه لم يثبتها أحد له ، وإنما ادعى لنفسه أنه إله ورب ، ومع ادعائه فقد كانت عونه على طاعة قومه ، ولم يدر بخلده أنه خالق السموات والأرض ؛ لأن هذا من البدائه التي لايقبلها عقل فرعون نفسه فضلا عمن حوله يقول الإمام الرازي ٦٠٦هـ عند قوله تعالى على لسان فرعون " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ٠٠" (القصص /٣٨)٠" اعلم أنه ليس المراد منه أنه كان يدعي كونه خالقا للسموات والأرض ، والبحار والجبال ، وخالقا لذوات الناس وصفاتهم ؛ فإن العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول والشك فيه يقتضي زوال العقل ٠ بل الإله هو المعبود ، فالرجل كان ينفي الصانع ، ويقول : إنه لاتكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم ، وينقادوا لأمره فهذا هو المراد بادعائه الإلهية،لاماظنه الجمهور من ادعائه كونه خالق السماء والأرض ٠٠ وقد دللنا في سوره طه على أنه كان عارفا بالله تعالى "٠(١)

كذلك المشركون أنفسهم لم يثبتوا هذه المثلية التامة لأحد من الخلق ، فما اعتقد أحد منهم أن الأصنام هي التي خلقت السماء والأرض أو تنزل الغيث وترزق العالم وتدبر شئونه وحين سئلوا عن عبادتهم لهذه الأصنام قالوا : " مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ " (الزمر/٣) وهذا إقرار منهم بأنه ليس هناك من يماثل الله مماثلة تامة ٠ وإنما كان شركهم أن جعلوا لله أندادا في عبادته أو محبته أو خوفه أورجائه٠

وعلى هذا فإن " الكاف " لم تأت لتنفي مايمكن أن يدب في النفس من الوساوس وإنما لتنفي واقعا حقيقيا جسدته طبيعة حياتهم وعقيدتهم آنذاك ٠ فجاءت الكاف في حاق موضعها لتنفي أدنى المشابهة التي يلزم من نفيها منها نفي أعلاها بداهة ٠

---

(١) تفسير الفخر الرازي م١٢ جـ٢٤ صـ٢٥٣ ٠

ويؤيد هذه الوجهة أن ننظر إلى الآية فى ظل سياقها الذى وردت فيه فالآية من سورة مكية ، ومن دعائم السور المكية توحيد الله سبحانه وتعالى ، وفى السياق القريب للآية بعض دلائل التوحيد التى أقر بها المشركون ففى أول السورة يقول سبحانه : " لَهُ مَافِى السَّمَاوَاتِ وَمَافِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ " (الشورى/٤) وهى دلالة أقروها كما فى سورة المؤمنون " قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)٠ (المؤمنون /٨٥ ــ ٨٨) ٠ كذلك بداية الآية التى معنا " فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الشورى /١١) وهى دلالة يؤمنون بها " وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" (العنكبوت/٦١) ٠

وفى ذكر دلائل الوحدانية التى يقرها أهل الشرك دليل واضح على أن المقصد الأصلى من الآية ــ هو نفى المرتبة التى تلى المماثلة التامة ، وهى التى وقعوا فيها ، ثم يأتى نفى المماثلة التامة بعد ذلك بداهة ، لأنهم مؤمنون بذلك ، وهذا من عطاء إضافة الكاف إلى مثل ٠

يقول صاحب كمال العناية :

" إن المثل المطلق للشىء هو من يساويه فى جميع أوصافه ، ولم يتجاسر أحد من الخلائق على إثبات المثل المطلق لله تعالى ، بل من أثبت له شريكا ادعى أنه كالمثل له ٠ يعنى يساويه فى بعض الصفات الإلهية ٠ فالآية رد على من زعم التساوى من وجه دون وجه ، لاعلى من زعم التساوى من جميع الوجوه ؛ إذ لا مدعى لذلك حتى يرد عليه "٠ (١)

(١)كمال العناية ، للشيخ أحمد رافع الحسينى صـ ١٤ ٠

الطـــريـــق الثانــــــي : " وهــو أدقهــما مســلكا ، فهو أن المقصـــود الأولى من هــذا الجملة ــ نفي الشــبيه وإن كان يكفي لأدائــه أن يقــال : ليس كالله شـــيء ، أو : ليــس مثله شيء ــ لكن هــذا القــدر ليس هو كل ماترمــي إليه الآيــة الكريمــة ، بل إنها كمــا تريد أن تعطــيك هــذا الحكم تريد في الوقــت نفســه أن تلفتــك إلى وجــه حجتــــه ؛ ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امــرئ نقيصة في خلقــــه فقلــــت : فــلان لايكـــذب ولايبخل، أخرجــت كلامــك مخرج الدعوى مجــردة من دليلهــما ، فإذا قلــــت : مثــل فلان لايكذب ولايبخل كان هــذا تبرئــة له ببرهــان كلي وهــو : أن من يكــون علـــى مثل صفاتــه وشيمــه الكريمــة ، لايكون كذلــك ٠ وعلــى هـــذا المنـــهج البليـــغ وضعــت الآيــة الحكيمــة قائــلة : مثلــه تعالى لايكــون له مثل ٠ يعني : أن من كــانت له تلك الصفات الحسنى ، وذلك المثل الأعلــى ــ لايمكــن أن يكون لـــه شــبيه ولايتســع الوجود لاثنــين من جنســه ، فلا جــرم جيء بلفظين كل واحــد منــهما يــؤدي معنـــى المماثلـــة ؛ ليقــوم أحدهــما ركنا في الدعــوى ، والآخــر دعامــة لها وبرهانا ، فالتشبيه المدلــول عليه بالكاف ــ لما تصــوب إليه النفي تأدى به أصل التوحيد المطلوب ، ولفــظ " المثــل " المصرح به في مقام لفــظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب"(١)

والدلالات التي تؤخــذ من الطريقين دلالات متعانقــة ، ليس لنا الفصــل بينــها وإن اختلف وجه الدلالة ؛ فالكاف على الوجــه الأول جاءت إقصاء للعالم كلــه عن المماثلـــة ، ومايدنــو منهــا ، ولو خلــت الآيــة منــها ، لكانت الآيــة نافية للمثل المكافيء فحســب ، أمــا الوجــه الثانــي : فمقصــوده نفي الشــبيه ٠ ولو جــاءت الآية بالكــاف وحدهــا ، أو " بمثــل " وحدها،لكانت عارية عن برهان التوحيد ، ولذا جاءت الكاف التي توجه إليــها النفي فتأدى بها أصل التوحيد ، ثم حملت "مِثْل" في طياتها تنبيها على برهان هذا التوحيـــد٠ على الوجــه المعــروف من كــلام العــرب ٠

---

(١) النبــأ العظــيم صــ ١٣٤ ٠

ومدار هذا الوجه على الكناية ، ذلك أن العرب يقولون : " مثلك لايبخل " وهم يريدون الموصوف لامن يماثله ، وهذا الوجه هو الذى اعتمده الإمام الزمخشرى ٥٣٨هـ ورجحه على القول بزيادة الكاف ويبدو أن الدكتور دراز ناظر إليه فى تحليله ٠

يقول الزمخشرى :٠

" قالوا مثلك لايبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عنه ذاته ، قصدوا المبالغة فسلكوا به طريق الكناية ؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده، وعمن هو على أخص صفاته فقد نفوه عنه ، ونظيره قولك للعربى : العرب لاتخفر الذمم ٠ وهو أبلغ من قولك أنت لاتخفر ٠٠ فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قولك : ليس كالله شيء ، وبين قوله:" ليس كمثله شيء ٠إلاماتعطيه الكناية من فائدتها ، وكأنهما عبارتان متعاقبتان على معنى واحد وهو نفى المماثلة عن ذاته"(١) وعلى نهج الزمخشرى ٥٣٨هـ سار الرازى ٦٠٦هـ ، وأبو حيان (٢) ولفيف من المفسرين المتأخرين (٣)

وقد بنى الدكتور دراز تأمله العميق لدلالة الكناية فى الآية على ماذكره هؤلاء الأئمة ، وإن أفاض فى تحليل الآية ، وتفريع عطائها ، واستثارة نبع جمالها بما يكشف عن جهده وبصيرته فى فهم البيان وتحليله ، ضاربا فى ذلك المثل لمن أراد أن يصل إلى كلمة مقاربة فى البيان القرآنى ٠

---

(١) الكشاف للزمخشرى جـ٤ صـ ٢١٢ ، صـ ٢١٣ ٠

(٢) محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الغرناطى من كبار علماء العربية والتفسير والحديث ٠ ولد فى إحدى جهات غرناطة وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة وتوفى بها فى ٧٤٥هـ من كتبه (البحر المحيط) و " طبقات نحاة الأندلس "٠ الأعلام ٠(٢٦/٨) ٠

(٣) انظر البحر المحيط لأبى حيان ت عادل أحمد عبدالموجود طبدار الكتب العلمية جـ٧ صـ ١٤٨ ٠

يقـــول أســتاذنا الدكـــتور : محمــد أبو موســى :

" إن الشــيخ قــد ذكــر الآيــة وأتبعهــا بما يكشــف عن مدلــول الحروف متخــذا من دلالــة الكنايــة التى ذكــرها الزمخشــرى أســاســا لتأمــله الخصب ، الذى يريــك كيف تكــون بصــيرة البحــث قــادرة على أن تبعــث من الفكــرة القديمــة المألوفــة فكــرة جديــدة غــير مألوفــة ٠ وكــيف تــرى جــلال مقالــة القدمــاء إذا صــادفت نفســا خصــبة فيها بقيــة من طبائــع العلمــاء " ٠(١)

---

(١) التصويــر البيانــى د : محمــد أبو موســى صـــ ٤٠٤ ٠

الفصل الرابع

التناسب عند الدكتور دراز

ويضم ستة مباحث

المبحث الأول : التناسب من الفطرة إلى التأليف ·

المبحث الثانى : التناسب والسورة القرآنية فى نظر الشيخ ·

المبحث الثالث : وجهة الشيخ فى دراسة التناسب " دراسة وتطبيق" ·

المبحث الرابع : وجهة الشيخ تأصيل ونقد ·

المبحث الخامس : الدكتور دراز وموقفه من "وحدة الموضوع " فى السورة القرآنية ·

المبحث السادس : من سبل الشيخ فى استنباط المعانى ·

المبحـــــث الأول

التناســب مــن الفطــرة إلى التأليـــف

التناسب في اللغة مشتق من النسب ، ومادته : " نَسَبَ " . وهي كما يقول ابن فارس ت ٣٩٠هـ(١) كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء منه " النَّسَبُ " سمى لاتصاله ، وللاتصال به ، ومنه : " النَّسِيبُ " في الشعر إلى المرأة . وكأنه ذكر يتصل به ، ولا يكون إلا في النساء . والنَّيْسَبُ : الطريق المستقيم لاتصال بعضه من بعض (٢)

وفي لسان العرب : النَّسِيبُ : المناسب ، وتقول : ليس بينهما مناسبة أي : مشاكلة . وهذا الشعر أنسب من هذا أي : أرق نسيبا .(٣)

وهكذا تدور المادة حول التناسق ، والالتئام ، والارتباط بين شيء وآخر . والتلاوم والتناسب في عرض الأفكار الأدبية هو الذي يرفع من شأن العمل الأدبي ويهبه قبولا يعرف به طريقه إلى القلوب والمشاعر(٤) . وهو أمر مطبوع في الفطرة البيانية للإنسان ؛ فحين يعبر الإنسان عما في نفسه ـ تتبعث في تراكيبه صورة روحه ، وينبعث في هذه التراكيب خيط يجمع معانيها ، وينظم حبات عقدها ، وإذا انعدم هذا الخيط الجامع كان ذلك طعنا في ذوق الإنسان وفطنته، ودليلا على تشتت عقله وتفرق أحاسيسه .

---

(١) أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي ، كان عالما في علوم شتى وخصوصا في علم اللغة ، وألف كتابه " المجمل في اللغة "، وكتاب "حلية الفقهاء " توفي في ٣٩٠هـ " بالري "ودفن بها وفيات الأعيان (١٨١/١) .

(٢) يراجع مقاييس اللغة . لابن فارس مادة " نسب ".

(٣) لسان العرب مادة : نسب .

(٤) مذاهب النقد وقضاياه . د: عبدالرحمن عثمان . ط ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م صـ ١٥٩ .

وقـــد تمـدح أسلافـنـا بتلك المزيـــة فى كلامهــم ، كما عـــدوا فقدها مذمة تدل على ضعـــف المتكلم عن الإمســاك بأطـــراف الحديث ، والمزج بينها ، فمــن ذلك ما أورده الجاحظ ت ٢٥٥هـ (١) عن خلف الأحمر ت١٨٠هـ (٢) قـــال :

وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَوْمِ أَبْنَاءُ عَلَّةٍ .. يَكُدُّ لِسَانَ النَّاطِقِ الْمُتَحَفِّظِ (٣)

وأبناء العـلات هـم : بنو رجـل واحد من أمهات شتى . فهم لايرضون أن تكـون العلاقة بين البيتين كعلاقـــة الأخ بأخـيه لأبيه ـ وهى علاقـــة قويـــة ـ ولكنـها ليسـت العلاقة الحميمـــة التى يرضاهـا أهل الصناعـة ولا أهل الذوق الحساس ، وإنما لابـد أن يكـون كلا البيتين قـد خـرج من رحـم واحد ربـى كليهمـا (٤)

وقــد ترجم الجاحظ هذا الإحساس عند أسلافنا بعبارة نقديـــة فقـــال :

" إذا كان الشعر مستكرهـا ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لايقع بعضها مماثـلا لبعـض ـ كان بينها من التنافر مابين أبناء العلات ... وأجـود الشعر مارأيتـه سـهل المخـارج متلاحم الأجزاء فتعلـم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحـدا ، وسـبك سـبكا واحـدا . فـهو يجرى على اللسان كما يجـرى الدهـان " (٥)

---

(١) البيـان والتبيين : للجاحظ جـ١ صـ ٦٧ .

(٢) خلف بن حيان أبو محرز المعروف بالأحمر ، راوية عالم بالأدب ، شاعر من أهل البصرة . معلم الأصمعى ، ومعلم أهل البصرة له شعر ، وكتاب " جبال العرب " توفى فى ١٨٠ هـ .
الأعـلام : (٣٥٨/٢) .

(٣) البيت فى البيـان والتبين جـ١ صـ٦٧، والعمدة لابن رشـيق جـ١ صـ٢٥٧ .

(٤) انظر: قراءة فى الأدب القديم د . محمد أبو موسى طبعة دار الفكر العربى الطبعة الأولى ١٩٧٨م صـ ٦٧ .

(٥) البيـان والتبيين للجاحـظ جـ١ صـ ٦٦ .

وهـذا المزج بين المعانى يتطلب من المبين أن يكون حاذقا ، دقيق الفكر ، لطيف النظر . وخصوصا مع اختلاف المعانى ولـذا كان الفارق بين الشاعر وبين غيره " يتمثل فى القدرة الذهنية التى تجعل الشاعر يرى أبعد مما نرى وأدق . فقد يستطيع كل منا أنْ يلاحظ أن ثمة مشابهة قائمة بين بعض الأشياء ، أويدرك علاقة بينهما . ولكن إدراكه ذلك إدراك محدود ليس على نفس القدر من الدقة التى يتميز بها إدراك الشاعر الحاذق " (١)

وإذا كان نص الجاحظ ٢٥٥هـ من بواكير الفكر فى باب التناسب والنظر فى علاقات المعانى ، فقد اتسع هذا الباب على يد الإمام عبد القاهر ٤٧١هـ حيث جعل الأساس الذى أقام عليه كتابه " أسرار البلاغة " ــ هو بيان أمر المعانى كيف تختلف وتتفق ، ومن أين يجتمع وتفترق (٢) ، كما أفاض البلاغيون فى ذكر عديد من فنون التناسب والتلاؤم . منها مايتعلق بالتلاؤم بين الحروف فى الكلمة، أوبين الكلمة وجاراتها،أو بين الجملة وأخواتها .

لكن النظرة فى علاقات المعانى فى البيان القرآنى لم تتسع فى الدراسات البلاغية ، ولا فى الدراسات النقدية ، ولافى علم من علوم العربية اتساعها فى علوم القرآن ، وخصوصا بعد أن اقتصر جهد المتأخرين من علماء البلاغة على شروح كلام الإمام عبد القاهر فى الفصل والوصل ، وغيره مما ذكروه من المباحث التى عنيت بفنون التناسب ، مع بقائها مشتتة فى مواضع مختلفة من علوم البلاغة الثلاثة ، لايجمعها باب واحد .

أما ميدان الدراسات القرآنية ــ فقد كان لطبيعة نزول القرآن ؛ وطريقة جمعه وترتيبه ــ الأثر الأكبر فى اتساع النظر فى التناسب والبحث عن علاقات المعانى؛ فقد نزل القرآن حسب الوقائع والدواعى المختلفة ، وفى أزمنة متفاوتة ، ثم رتبت آياته فى سوره ، وسوره فى جملته ترتيبا يخالف ترتيب نزوله .

---

(١) الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى د : جابر عصفور طـ دار المعارف (د/ت) صـ٢٠٥

(٢) انظر : أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر صـ ٢٦ .

وأمام تلك الظواهر وجد الملاحدة مدخلا للطعن على القرآن ، واتهامه بالتفكك والجمع بين مشتم ومعرق فى السورة الواحدة ٠

وفى مواجهة تلك المطاعن نهض العلماء للرد عليها بإبراز جوانب التلاؤم ، والتناسب القرآنى ، والأسرار التى وراء جمع القرآن لأغراض مختلفة فى السورة الواحدة ٠ وكان على رأس هؤلاء : الإمامان : الخطابى ت ٣٨٨هـ ، والباقلانى٤٠٣هـ ٠

فالإمام الخطابى يورد قول الطاعنين : " إنه لو نزل القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز ، لكان ذلك أحسن نظما ، وأكثر فائدة ٠ فتكون أخبار الأمم فى سورة ، وأقاصيصهم فى سورة ، والمواعظ والأمثال فى سورة ، والأحكام فى أخرى " (١)

ويرد الإمام بأن ماجاء عليه القرآن أحسن فى الترتيب ، وأعون على الحفظ ، وأدل على المراد ، وأوفى بحاجات النفس التى تمل السير فى أمر واحد لمدة طويلة(٢)

والإمام الباقلانى : يجعل التناسب بين المعانى مع اختلاف الأغراض والموضوعات فى سور القرآن ـ وجها من وجوه إعجاز النظم فيقول : " على أن القرآن ـ على اختلاف مايتصرف فيه من الوجوه الكثيرة ، والطرق المختلفة ـ يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب ، والمتنافر فى الأفراد إلى حد الآحاد ٠ وهذا أمرعجيب تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة ، ويخرج به الكلام عن حد العادة "(٣)

---

(١) بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابى صـ ٤٠ ٠
(٢) انظر السابق الصفحة ذاتها ٠
(٣) إعجاز القرآن للإمام الباقلانى صـ ٨٩ ٠

وكــان الإمــام النيسابــورى {عبد الله بن محمد بن زياد } ت ٣٢٤هـ (١) أول مــن أظهــر علم المناســبة ، وكان يزرى على العلماء ببغداد عدم علمهم بالمناسبة بين الآيــا ت والســـور (٢) ٠

ثــم طبقت فكــرة التناســب بعنايــة عند عديــد المفسرين قديما وحديثــا ، ويــأتى على رأس هؤلاء ، الإمام الرازى ٦٠٦هـ الذى ذكــر أن القــــرآن معجــز بحســب ترتيب آياتــه ونظمها ، كما أنه معجز بحسب فصاحته وشــرف معانيه (٣) ، ثـــم الإمــام البقاعــى ٨٨٥هـ (٤) بكتابــه نظــم الدرر فى تناســب الآى والسور " ـ والكتاب كلــه لدراســة هــذا الجانب فى القــرآن الكريم ـ وفى العصــر الحديث نجد الشيخ رشيد رضــا ١٣٥٤هـ ، والشيخ الطاهــر ابن عاشور ١٨٦٧م (٥) والشيخ سيد قطـــب علــى هامــة المهتمين بهــذا الجانــب فى تفاســيرهــم ٠

---

(١) عبد الله بن محمد بن زياد أبو بكر النيسابورى من موالى عثمان، سمع " المزنى"وروى عنه الدارقطنى ولــد فى ٢٣٨هـ وتوفى فى ٣٢٤هـ وكان زاهــدا تقيا وفقيها محدثا، طبقات الشافعية (٢٠٥/١)

(٢) البرهــان فى علــوم القــرآن للزركشــى جـ ١ صـ ٦٢ ٠

(٣) انظــر تفســير الفخــر الرازى م٣ جـ٦ صـ١٤٠ ٠

(٤) إبراهــيم بن عمر بن حسن البقاعى أبو الحسن برهان الدين مؤرخ أديب مفسر أصله من " البقـــاع" وسكن دمشق ٠ له مؤلفات منها " نظم الدرر فى تناسب الآى والسور " توفى ٨٨٥هـ ٠
الأعــلام (٥٠/١) ٠

(٥) محمد الطاهر بن محمد الشاذلى بن عبد القادر بن محمد بن عاشور ٠ عالم أديب تولى القضاء والفتيا ونقابــة الأشراف بتونس ، وتوفى بها ٠ من آثاره " شفاء القلب الجريح فى شرح بردة المديـــــح " وحاشية على شرح التفتازانى على التلخيص " توفى فى ١٨٦٧م ٠
معجــم المؤلفــين (١٠١/١٠) ٠

كمـا أفرد بعض الأئمـة دراسـة التناسـب بمؤلفـات خاصـة ٠ فالإمـام الغرناطى ٧٠٨هـ (١) يضع كتابه " البرهان فى تناسب سور القرآن "(٢) والإمام السـيوطى ٩١١هـ يؤلف "تناسق الدرر فى تناسب السور"(٣)٠ ثم سار على نهجهما حديثـا الشـيخ : أبوالفضل عبد الله الغمارى فوضع كتابه : " جواهر البيان فى تناسب سـور القـرآن "(٤) ٠ كما كتب الأستاذ عبد المتعال الصعيدى كتابه : " النظم الفنى فى القرآن "(٥) وهو يبحث فـى التناسب بين عناصـر السورة ، ثم بين السـورة وأختهـا ٠

ولكـن كتاب الإمام البقاعى ٨٨٥هـ " نظـم الدرر " يعـد أشهر كتـاب فـى هـذا العلم؛ إذ بناه الشيخ على فكـرة التناسب بين الأيات والسور، كما وضع منـهجا واضـح المعالم لدراسة التناسـب فى الجانـبين ٠(٦)

هـذا بالإضافة إلى ماكتب فى علوم القرآن عن التناسب ، ومن أبرز من اهتموا بـه الإمام الزركشى ٧٩٤هـ فى " البرهان " ، والفيروز ابادى ٨٠٧هـ (٧) ٠ فـى كتابـه " بصائر ذوى التمـييز " (٨)

والدكتـور دراز واحد مـن الذين اهتموا بدراسة هذه الجانب ، وكانت لـه رؤيتـه التى استمد أصولها من تراث سلفـه ، وأجاد فى تطبيقهـا بما يكشف عن جهد عقله وثـراء ذوقـه ٠

---

(١) أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفى محـدث مؤرخ من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلـس ٠ عـاش فى " غرناطـة " وتوفى بها فى ٧٠٨هـ من كتبه " ملاك التأويل " و " صلـة الصلـة " الأعـلام (٨٣/١) ٠

(٢)الكتاب طبعته إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود بتحقيق الدكتورسعيد الفـلاح ٠

(٣) الكتاب طبعته دار الكتب العلمية بتحقيق الأستاذ عبدالقادر عطا الطبـعة الأولى ١٠٤١ هـ١٩٨١م

(٤) الكتاب نشرتـه مكتبة القاهـرة دون تاريـخ النشـر ٠

(٥) طبعـته مكتبـة الأداب سـنه ١٩٩٢ م ٠

(٦) كان التناسب عند برهان الدين البقاعى موضوعا لرسالة الدكتوراة المقدمة من د: محمود توفيـق سعد إلى قسم البلاغة والنقد بالقاهرة وقد أبان فيهاعن منهج البقاعى، وطبق على ذلك بسورة "النحل"

(٦)محمد بن يعقوب بن محمد الفيروز ابادى لغوى مشارك فى عدة علوم ٠ ولد " بكازرون " من أعمـال " شيراز " ونشأبها ثم انتقل إلى " العراق " وتوفى " بزبيد" فى علم ٨١٧ من كتبه " القاموس المحيـط " و"بصـائـر ذوى التمـييز"٠ معجم المؤلفين (١٢/ ١١٨)

(٨) الكتاب طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الطبعـة الثالثة ١٤١٦هـ ١٩٩٦ م ٠

المبحث الثانى

التناسب والسورة القرآنية عند الشيخ

أ ـ قيمة التناسب عند الشيخ

ب ـ السورة القرآنية فى نظره

قيمــة التناســب عنــد الشــيخ

جاء حديث الشيخ عــن التناســب نابعا من البحث عن الخصائص البيانية للقرآن فــى سورة ســورة منه ، وفيما بين ســورة وســورة ؛ ذلك أن السورة بناء حــى يقــوم كــل عضو فيه بوظيفــة ، ويتعــاون كله فى خدمــة غرضــه ٠ وهــذه السورة تشتمل علــى كثير من المعانى والموضوعات٠ والقرآن ينتقــل فى سوره من معنى إلى آخــر ، ومــن قضية إلى أخرى دون تفاوت أو اختلال ؛ لأنه ــ بسحره البيانى ــ يجعل المختلف مؤتلفــا، والمتبايــن متماثــلا ٠ وهذه ميزة بيانية لم يأت على غايتها إلا القــرآن ٠

التناســب معجــزة المعجــزات :

جعــل الشــيخ التناســب " معجزة المعجزات " التى تضع حدا فاصــلا بيــن نــهج الإنسان ونهج القــرآن فى الجمع بين مؤتلــف المعانى ومختلفها ؛ ذلك أن القرآن " أكــثر الكلام افتنانــا وتنويعــا فى الموضوعــات ، وهو أكثره افتنانا وتلويــنا فى الأسلوب فــى الموضوع الواحد ٠٠٠ على نحو من السرعة لا عهد لك بمثله ، ولابما يقرب منــه فــى كلام غيره قــط ٠ ومع هــذه التحولات السريعــة المستمرة التى هى مظنــة الاختــلاج والاضطراب فى داخل الموضوع الواحد أو فى الخروج عنه ــ نراه لايضطرب ولايتعــثر، بل يحتفــظ بتلك الطبقــة العليا مــن متانــة النظــم ، وجودة الســبك ، حتى يصوغ مــن هذه الأفــانين الكثيرة منظرا مؤتلفــا ٠ فأى امرىء يحسن العربية ، وينظــر فــى نظــم القرآن هذه النظرة ــ ثم لا يرى فيه من أثر القدرة البــاهرة ســرا مــن أســرار التحــدى والإعجاز(١) ٠

---

(١) النبــأ العظــيم صــ ١٤٤ ٠

والقــول بأن تناســب الآيــات والســور معجز — قول له جذوره فى تراث علمائنــا: فالإمــام الباقــلانى ٤٠٣هــ يجعل التناسب وجها من وجوه إعجاز النظم فيقول :" ومعنــى رابــع : وهــو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتــا بعيدا فى الفصــل والوصــل ، والعلــو والنزول ، والتقريــب والتبعــيد ، وغير ذلـــك ... علــى أن القــرآن علــى اختــلاف مايتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلــف والمتبا يــن كالمتناســب ، والمتنافــر فى الأفــراد إلى حــد الآحــاد" (١)

والإمــام الرازى ٦٠٦هــ يذكر فى آخــر سورة البقرة أن : " من تأمل فى لطــائف هذه الســورة ، وفى بدائــع ترتيبهــا — علم أن القرآن كما هو معجــز بحســب فصاحــة ألفاظه ، وشرف معانيــه ، فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ، ونظــم آياته — ولعــل الذيــن قالوا إنه معجز بأسلوبــه أرادوا ذلك ". (٢)

وإذا كان الإمامــان يجعلان التناسب من إعجاز القرآن ، فقد عــلابه الشيخ فجعلــه ، "معجزة المعجزات " حيث قــال : " لعمرى . لئن كــانت للقــرآن فــى بلاغـــة تعبيــره معجزات ، وفى أساليب تربيته معجزات ، وفى نبوءاتـــه الصادقـــة معجــزات ، وفــى تشريعاته الخالدة معجزات ، وفى كل ما استخدمــه من حقائق العلــوم النفســية والكونيــة معجزات ومعجزات — لعمرى إنه فى ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات"(٣)

وذلك لأن القرآن بلغ الغاية فى قوة سبكه ، ومتانة نظمه ، وعدم التفاوت فــى الانتقــال من معنى إلى غيره ، ومن غرض إلى آخر — على الرغم من نزوله على أسباب مختلفـــة، وأزمان متفاوته ، وجمعه على طريق يخالف طريــق نزولــه .

---

(١) إعجاز القــرآن للإمام الباقــلانــى صـــ ٨٩ .

(٢) تفسير الإمــام الرازى م٤ جــ٧ صـــ٤٧٠ .

(٣) النبــأ العظــيم صـــ ٢١١ .

التناســب مقياس البراعـــة

والتناســب نبع من منابــع الجمال القرآنى الذى لا يقدره قدره إلا من نظر فــى كــلام البلغاء ، ووقف على مبلغ افتنانهم فى أغراضهم ، ثم تدبر هذه الناحية فى القرآن ليتبيــن : كيف يجعل القرآن الاختلاف قواما للائتلاف ٠ ولذا جعله الشيخ مقياسا لمراتــب البراعــة فقــال :

" وهذا التأليف بين المختلفات ما زال هو العقدة التى يطلب حلها فى كل فــن وصنعــة جميلة ، وهو المقياس الدقيق الذى تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق فــى تلــك الفنــون والصناعات ؛ فإن تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثــيرة ــ أصعــب مراسا ، وأشد عناء منه فى أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد " (١)

وكلام الشيخ ينبجس من معين الإمام عبد القاهر ٤٧١ هـ فهو الــذى نبــه إلــى أن التأليف بين المختلفات هو مقياس الحذق فى الصنعة فقــال :

" وإنما الصنعة والحذق ، والنظر الذى يلطف ويدق ــ فى أن تجمع أعناق المتنــافرات والمتباينات فى ربقــة ، وتعقد بين الأجنبيات معاقد نسب وشــبكة . ومــا شــرفت صنعــة ولا ذكر بالفضيلة عمل ــ إلا لأنهما يحتاجان من دقة الفكر ، ولطــف النظــر إلــى مــا لا يحتاج إليه غيرهما ، ويحتكمان على من زاولهما والطالب لــهما مــن هــذا المعنــى ــ ما لا يحتكم ما عداهما ٠ ولا يقتضيان ذلك إلا من جهة الائتلاف فى المختلفات ٠ وذلك بين فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التى تنسب إلى الدقة ؛ فإنك تجد الصورة المعمولــة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافا فى الشكل والهيئة ، ثم كان التلاؤم فيها مع ذلك أتــم ، والائتلاف أبين ــ كان شأنها أعجب والحذق لمصورها أوجب " (٢) ٠

---

(١) النــبأ العظــيم صــ ١٦١ ٠

(٢) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر صــ١٤٨ ٠

وهذا التأليف بين المختلفات هو أحد المقاييس الفنية التى اعتمدها النقاد قديما وحديثا فـى تقدير الجمال فى العمل الفنى رسما ، وتصويرا ، وأدبا، وموسيقى (١) وقد أتـى القـرآن على المثل الأعلى فى تأليفه بين المختلفات •

التناسب زينة المعانى ووحدتها :

والتناسب زينة المعانى ، ووحدتها التى تنسق أوضاعها وتؤلف بين عناصرها ، وتجعـل بعضها آخذا بحجز بعض حتى تنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها ، كل ذلك بغير تكلـف ولا استعانة بأمر من خارج المعانى أنفسها ، وإنما هو حسن السياقة ، ولطف التمـهيد فـى مطلع كل غرض ، ومقطعه ، وأثنائه ، يريك المنفصل متصلا ، والمختلف مؤتلفا (٢) •

الإنسان وطبيعته مع المعنى :

وقد جرى الشيخ على عادته حين يريد ابراز خصيصة بيانية فى القرآن ، فإنـه ينظـر طويلا فى طبيعة النفس الإنسانية فى هذه الخصيصة ، ويتعرف طريقة سـير العقـل فيـها ويتبين حدود الفطرة التى لا تتعداها بحكم إنسانيتها ـ ليصل من خلال ذلك إلى الفرق بيـن نهج الإنسان ونهج القرآن •

وانطلاقا من هذا الأصل ، فقد عاش الشيخ مع الإنسان فى ثلاثـة مواقـف يسـتطيع من خلالها أن يبرز خصيصة التناسب القرآنى : عاش مع الإنسان حين يزاول صنعـة مـن الصناعات التركيبية ، وحين تحفزه باعثة القـول ، كما عاش معه فى رحلته مع المعنى •

---

(١) يراجـع فصـول فى علـم الجمال د : عبـد الرءوف برجـاوى ط دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م صـ٣٧ ، وكتـاب : النقـد الجمالى وأثره فى النقد العربى روزغريب ط.دار الفكر اللبنانى بيروت الطبعة الثانية ـ ١٩٨٣ م صـ ٢١ ـ صـ ٢٤ •

(٢) انظر النبأ العظيم صـ ١٤٢ ، صـ ١٥٥ •

يقــول الشيخ :

" انظــر إلى الإنسان حين يزاول صنعة من صناعاته التركيبية : ألا تراه يبدأ عملـه بتعرف أجزاء المركب ومقوماته ، والوقوف على عناصره ومتمماته قبل أن يبت الحكم فــى تحديد موقع كل جزء منها ؟ . هاتان مرحلتان تتنزل الثانية منــهما منزلــة الصــورة مــن مادتها، فلا جرم أن عكس القضية فيهما لا يكون إلا سيرا بالعقل البشرى فى غير ســبيله ، وإدلاجا به فى مزلــة لا قــرار للإقدام عليها .... تلك حدود رســمتها قوانيــن الفطــرة العامة فلا يستطيع أحد أن يتخطاها سواء فى صناعاته المادية أو المعنوية " (١)

والإنسان حين تحفزه باعثــة القــول وتــرد إليه سانحته لا يعدو فيها إحدى خطتين : فهو " إمــا " : أن يدعها كما هى سانحة منعزلــة .. حتى إذا بلغ الغايــة رجــع أدراجــه فأخذ فيها جمعا وتفريقا ، وتبويبا وترتيبا ،.. و " إمــا " : أن يأخذ فى ضم هذه النصــوص ولاء على حسب ورودها الأول فالأول . وبغير هاتين الخطتين فإنه لا ينال من أمنيته فــى إخراج بيانه بناء متماسكا جيد التنسيق والترتيب ــ إلا عكس ما تمنى (٢) .

وحين يعبر الإنسان عن معنى مــا ــ لابد من إحكام وحدته الفنية بتمام التقريب بيــن أجزائه . وذلك مطلب عسير يحتاج مهارة ، وحذقا ، ولطف حس فى إختيار أحسن المواقــع للأجزاء ، ثم اختيار أحسن الطرق لمزجها ، وهذا كله بعد التلطف فى اختيــار الأجــزاء ، والاطمئنان إلى صلتها بروح المعنى ، وأن أطرافها وأوساطها تستوى فــى تراميــها إلــى الغرض .

---

(١) النبأ العظيم صــ ١٤٦ ، صــ ١٤٧ .
(٢) السابق صــ١٥٧ . بتصرف .

وإذا كان هذا ما يتطلبه المعنى الواحد الذى تتصـــل أجزاؤه اتصالا طبيعيا ، فلا شـــك أن المعانى المختلفة فى جوهرها تتطلب اقتدارا سحريا يؤلف أمزجتها . وهذا شأن المعـانى المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد فى المجلس الواحد . فكيف لو جئ بها فى ظروف مختلفـة وأزمان متفاوتة ؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعا وأعظم اتساعا ؟ (١) .

هذا هو الإنسان ، وهذه رحلته مع صياغة المعنى ، وما يتطلبه هذا المعنى مـن اقتـدار بيانى على مزج عناصره ، لا سيما إذا تعددت الأغراض ، أو جاءت فى أزمنة متفاوتـة . وهذه الرحلة لابد من تأملها واختبارها فى أسلوب كل أديب لنرى مدى قدرته على التـأليف بين معانيه . وهذا يقتضى أن تقوم دراسات جادة حـول الشعـر والنـثر للتعـرف علـى منهـج كل أديب فى بناء معانيه ، والتأليف بين مختلفها — تمهيدا للوصول إلى الخصـائص العامـة للعرب فى تأليف معانيها . ومثل هذه الدراسات تعين على معرفـة الحدود التـى تنتهى إليها الفطرة ، ويبدأ عندهـا حـد الإعجـاز .

مباينـة القـرآن لمنهـج الإنسـان :

فإذا يممنا وجهنا شطـر القـرآن ، وجدنـا عجبا ؛ فقد نزل القرآن على نهج كفيـل — فى ظاهره — بتفكيك نظمـه ، إذ نزل على أسـباب متفاوتـه وفـى أزمنـة متطاولـة " ومن هـذه النجوم المختلفة المتفرقة تتألف سـوره ، لاعلى أساس التجانس بين أجزاء كـل مجموعـه منها ، بل على أن يأوى إلى الحظيرة الواحدة ماشتت مـن فصائـل الجنس الواحد والأجناس المختلفة ، وأمـا الطريق العجب الذى اتبع فى تأليف تلك الأبنيـة مـن أجزائها .. فهـو أن ذلك الذى نزل عليه الذكر لـم يتربص بترتيب نجومه حتـى كملـت نزولا، بل لـم يتريث بتأليف سـورة واحدة منه حتى تمت فصـولا ، بل كان كلما ألقيـت إليه آية أو آيات أمر بوضعها من فوره فى مكان مرتب من سورة معينة على حين أن هـذه الآيات والسورلم تتخذ فى ورودها التنزيلى سبيلها الذى اتبعته فى وضعها الترتيبى" (٢)

---

(١) النبـا العظـيم صـ ١٤٣ بتصـرف .

(٢) السـابق صـ ١٤٩ .

وعلى الرغم من اختلاف أسباب النزول وتفاوت أزمانه ، وطريق ترتيب الآيات والسور ـ إلا أن ذلك كله لم يستطع أن ينال شيئا من استقامة النظم فى سور القرآن .

وقد ارتكز الشيخ فى إثبات استقامة النظم فى السورة القرآنية على أمور منها :

أ ـ موقف العرب الذين تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله . ولو وجدوا فى نظم سورة منه مطمعا لكان لهم معه شأن آخر .

ب ـ أن البلغاء من بعدهم يضربون المثل بالقرآن فى جودة السبك ، وإحكام السرد ، والانتقال من فن إلى آخر .

جـ ـ دعا القارىء إلى أن يعمد إلى سورة من السور التى تتناول أكثر من قضية ، ونزلت فى أزمنة مختلفة ، ثم ينتقل بفكره مرحلة مرحلة ليرى كيف بدئت؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تلاحقت أركانها ؟ وقد ضمن له الشيخ نتيجةً بحثه: فذكر أنه لن يجد فى نظم معانيها أو مبانيها مايعرف به : أكانت السورة نزلت فى نجم واحد ، أم فى نجوم شتى . حتى إنه ليقولن : إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فإنها كانت فى تنزيلها مفرقة عن جمع(١)

ونلحظ أن الشيخ يستدل على ماذهب إليه بعدم تعرض العرب لنقد نظم القرآن وبإشادة البلغاء بجودة سبكه ، ودعوة الباحث للتجريب بنفسه . وهذه أدلة تثبت صحة ماذهب إليه ولكنها لاتضع يد الباحث على إعجاز القرآن فى هذا الجانب ـ بقدر ماتحرك العقل وتهز البصيرة ، وتلفت إلى العكوف على الدرس القرآنى قبل أن ينتقل إلى ميدان التطبيق والتحليل الذى ضرب فيه الشيخ مثلا رائعا بنظراته فى سورة البقرة .

---

(١) انظر النبأ العظيم صـ ١٥٤، صـ ١٥٥ .

السـورة القرآنـية فى نظـر الشـيخ :

شـبه الدكتور دراز السورة القرآنية تشـبيهين " شبـهها أولا : ببنـاء وضـع رسـمه مـرة واحدة ، ثم شـبهها ثانيـا : بالكائن الحى، وكـلا التشبيهين للتقريـب لأن القرآن الكريم ليس صنعة الله تعالى،وإنما هوصفته المقدسة، وكلامه القديم. قـال رحمه الله :

" أجـل إنك لتقـرأ السورة الطويلـة يحسبها الجاهل أضغاثا مـن المعـانى حشـيت حشـوا ، فإذا هـى لو تدبرت بنيـة متماسكـة قـد بنيت من المقاصـد الكليـة علـى أسس وأصـول ، وأقيم على كل أصل منها شعب وفروع ، فـلا تزال تنتقل بين أجزائـها كما تنتقـل بين حجرات وأفنيـة فى بنيان واحد قد وضـع رسمه صورة واحدة "٠ (١)

ثـم يقـول : " ولماذا نقـول : إن هـذه المعانى تتنسـق فى السورة كمـا تتنسـق الحجرات فى البنيان ؟ لا ، بل إنها تلتحـم فيها كما تلتحم الأعضاء فى جسم الإنسان ؛ فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعى من أنفسهما كما يلتقـى العظمان عند المفصل ، وفوقـهما شبكـة من الوشائـج تحيط بها عن كثـب ، كما يشـتبك العضوان بالشـرايين والعـروق والأعصاب ، ومن وراء ذلك كله يسـرى فى السورة اتجاه معين فـى السـورة وتـؤدى بمجموعها غرضا خاصـا ، كما يأخـذ الجسم قواما واحـدا ، ويتعاون بجملتـه علـى أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفـه العضويـة " (٢)

وكـرر الشيخ التشبيه الثانى فى نهاية عرضه لسورة البقرة فشبهها بـالصورة الحيـة التى تنادى كل ذرة فى خليتها ، وكل خلية فى عضوها، وكل عضو فى جهازها ـ بأنه أخـذ مكانه المقسوم وفقا لخط جامع مرسوم ، رسمه رب النفوس ومزكيها ٠ (٣)

---

(١) النبأ العظـيم صـ ١٥٥ ٠
(٢) السـابق الصفحـة ذاتها ٠
(٣) انظر السـابق صـ ٢١١ ٠

نظـــرة فى التشـــبيهين :

تلحـظ أن الشـيخ شـبه السورة بالبناء المعمـــارى الكـامل فـــى دقـــة الهندسـة والتصميم ، والترتيب ، والتكامل ، ثـم أضــرب عنه إلى التشبيه الثانى ، ولعل إضرابـــه راجع إلى أن فى البناء ثباتـا لايتناسـب مع الحـياة التى تجرى فى بناء السورة القرآنيـــة، وهـو صنعـــة إنسانيـــة ، أما الكائــن الحى ، فهو صنعـــة إلهيـــة وحياته تــلازم حيـاة السورة ، ولأن صـورة الكائن الحى هـــى المثل الأعلى الذى يطمح إليه النقاد فـــى بنـاء العمـل الأدبـى ، والمقياس الذى يقيسـون به براعـــة الشاعر فى شعره ، والنـــاثر فـــى نثـره ؛ إذ يطلـب النقـاد أن يتحقـق فى العمل الأدبى الوحدة التى تربـط بين عنـاصره " كما يرتبـط الجـذر والساق والأغصـــان والأوراق ، فيؤدى كل عنصر منها وظيفة حقـة غير منفصلـة عن الوظيفـة التى يقوم بأدائهـا عنصـر آخـر ، بحيـث تسير هـذه الوظائف فى اتجاه واحد ، وتؤدى إلى غايـة واحدة : هـى الأثر الكلى الموحد الذى تولده القصـيدة فى نفس القارىء" (١)

ولهذيـن التشبيهين دلالتهما على مطالعـة الشيخ لحركة الحياة الثقافية والنقدية قديمـا وحديثا ؛ ذلك أن الدعوة إلى أن يكـون العمل الأدبى كالكائــن الحى ــ دعوة قديمة حديثـة فقـد ذكـر ابن رشـيق ٤٦٣ نقـلا عن الحاتمى ٣٨٨هـ (٢) " أن القصيدة مثلها مثـل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الأخر وباينه فـى صحة التركيب ؛غادر بالجسم عاهـة تتخوّن محاسنه وتُعفّى معالم جماله " ٠ (٣)

---

(١) قضايا النقـد والبلاغـة د : زكـى العشماوى صـ ١٠٧ ٠

(٢) محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى أبو علي؛أديب نقاد من أهل بغداد،نسبته إلى جده حاتم له " الرسالة الحاتمية " و " حلية المحاضرة " توفـى فى ٣٨٨ هـ ٠ الأعـلام (٣١٢/٦) ٠

(٣) العمـدة لابن رشـيق القيروانى جـ٢ صـ ١١٧ ٠

وكلمة الحاتمي تمثل إحدى النظريات الرائدة في نقدنا العربـي ، أخذهـا الغـرب ثـم أعادها إلينا تحت مسمى الوحدة العضوية أو الفنية (١) ٠

وقـد اتفق النقـد الحديث مع ما دعـا إليه الحاتمي ، وردده الغرب ، فقد ذكر العقـاد ١٩٦٤ م (٢) " أن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تامـا يكمل فيـه تصويـر خـاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها ، واللحـن الموسـيقى بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة ـ أخـل ذلك بوحدة الصنعة وأفسـدها ٠ فالقصيدة الشعرية كالجسم الحـي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغني عـن غيره إلا كما تغني الأذن عن العين ، أو القدم عن الكف ، أو القلـب عن المعـدة ٠ أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها ٠ ولا قوام لفـن بغير ذلك ، ومتـى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها ـ فاعلم أنه ألفاظ لا تنطوي علـى خـاطر مطرد أو شعور كامل الحياة " (٣)

وليس المقصود بهذه الوحدة العضوية ـ أن تتوالى أبيات في موضوع بعينـه ، ولكنـها أبعـد من ذلك غورا ؛ إذ لابد أن تصـور الأبيات في قصيدتها حدثـا وجدانيـا تامـا تتدرج فيه ، بل تتخلق تخلقا ناميـا على نحو ما يتخلق الجنين تخلقا كاملا (٤) ٠

---

(١) انظـر بحوث في النقد التراثي للأستاذ هلال ناجي ٠ دار الغرب الاسلامي بيروت الطبعـة الأولى ١٩٩٤هـ صـ١٦ ـ صـ١٨ ٠

(٢) عبـاس محمود العقاد إمام في الأدب ، مصري من المكثرين في كتابته وتصنيفه مع الإبداع ، أصله مـن دمياط ولد في " أسوان " وتعلم في مدرستها الإبتدائية وشغف بالمطالعـة وانقطع للكتابة في الصحـف والتأليف ٠ من كتبه " مراجعات في الأدب والفنون " " ساعـات بين الكتب " توفي في ١٩٦٤م الأعلام (٣/ ٢٦٦) ط دار العلم للملايين

(٣) الديوان في الأدب والنقد ، للعقاد مطبوع ضمن مجموع الأعمال الكاملة للمؤلف ط:دار الكتاب العربي بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م جـ٢٤ صـ٥٨٥ ٠

(٤) انظر : في النقد الأدبي الحديث د : شوقي ضيف ط:دار المعارف الطبعة الثانية : ١٩٧٧م صـ١٦٠

وإذا كان النقـاد يرون فى صـورة الكائـن الحى ـ المثل الأعلى للعمـل الأدبـى ،
فقد أتى القـرآن على هذا المثـل الأعلى ، وبلغ الغايـة فـى البنـاء البيانـى لسـوره
الكريمة ، وهو ما آمـن به الدكتـور دراز .

....

المبحـــث الثالـــث

وجهة الشيخ في دراسة التناسب " دراســة وتطبيق "

أ ـ وجهتــه في دراســة التناسب بين عناصــر الســورة

ب ـ من تطبيقات الشيخ على هذا الجانــب

وجهتـه فى دراسـة التناسب بين عناصر السورة

تجمع السورة القرآنية معانى مختلفة ، وتسبح آياتها فى موادين متعـددة ، ممـا يغـرى الناظر العجل بأنه لا يوجد رباط يجمع معانيها ، وينظم حبات عقدها ، ولكن هـذه النظـرة تتلاشى مع أول خطوة فى طريق تأمل هذا الكون البيانى العجيب الماثـل فى سورة سـورة من القرآن ٠

وقد وضع الشيخ أصولا محددة لمن أراد الوقوف على التناسب بين عناصر السـورة ، وطبق على ذلك بسورة البقرة ٠ وأول هذه الأصـول :

إحكـام النظر فى عناصـر السورة وضبط مقاصدها :

فلا ينبغى أن يبتدئ الباحث بالنظر فى الوشائج اللفظية والمعنوية التى تربط بين أجـزاء السورة قبل أن يحكم النظر فى السورة كلها ، ليحصى أجزاءها ، ويضبط مقاصدها ٠ وهـو ما يعينه فى الوقوف على تلك الصلات الجزئية ٠

يقـول الشيخ :

" إن السياسة الرشيدة فى دراسة النسق القرآنى ـ تقضى بأن يكون هذا النحو مـن الدرس هو الخطوة الأولى فيه ٠ فلا يتقدم الناظر إلى البحث فى الصلات الموضعيـة بيـن جزء جزء منه ـ وهى تلك الصلات المبثوثة فى مثانى الآيات ، ومطالعها ، ومقاطعـها ـ إلا بعد أن يحكم النظر فى السورة كلها بإحصاء أجزائها ، وضبط مقاصدها على وجه يكـون معوانا له على السير فى تلك التفاصيل عن بينة " (١) ٠

---

(١) النبأ العظيم صـ١٥٨ ، صـ ١٥٩ ٠

ذلك أن البحث عن تلك الوشائج اللفظية ، أو المعنوية قبل إحكام النظر فـــى السـورة ، وضبط مقاصدها ـ إنما ينطلق من نظرة جزئية لا ترى إلا ما بين يديها فحســب ، دون أن ترفع عينها وتدبرها لمقاصد السورة وأغراضها • وربما جرها ذلك القصور فى النظر إلــى قـــول يتجافى مع هذه المقاصد ، ولا يسير معها فى طريق واحد •

فمثل الناظر فى التناسب "مثل الناظر فى علم التشريح : لا يبحث فى العلاقة بين جـــهاز وجهاز حتى يتعرف أعضاء كل جهاز على حدته ، ولا يبحث فى الأربطة والوشائج التـــى بين هذه الأعضاء قبل أن يدرس تركيب العضو ، ويستبين أنسجته وخلاياه " (١) •

والبحث عن العلاقات الجزئية قبل فهم السورة وضبط ومقاصدها ـ إنما هو سير بـالعقل إلى غير طريقه ، وانطلاق به إلى عكس منهجه فى الفهـم • وما أشـــبه البـاحث حينئـذ " بالجائع الذى لا يجد كسرة يسد بها رمقه ، ثم يضيع وقتــه فــى البحـث عــن الأزهــار والرياحين ، أو كالمدين المستغرق فى ديونه ، ثم ينفق ماله على الفقــراء قبـل أن يـؤدى حــق الغرماء " (٢) •

فلابد إذن من ضبط المقاصد ، واستيعاب حركة الســياق فــى الســورة ؛ لأن الســياق صاحب الكلمة العليا فى عطاء النص ، فإذا نحــاه الباحث عن علاقـــات المعــانى ، فـــهو ضـــال لا محالـــة ، وهو أبعد ما يكون عن أروع مناحى الجمال والعطاء فى النظم : وهـو عطاء السورة ، وشخصيتها ، وجوها الذى يضفى على عناصرها سمتها الخاص •

---

(١) النقد الفنى لمشروع ترتيب القرآن حسب نزوله • د : محمد عبد الله دراز • بحث نشر بمجلة الأزهر جـ٢٢ عدد رمضان ١٣٧٠ هـ صـ٧٩١ •

(٢) السابـــــق الصفحة ذاتها •

ولأن النظر القاصر ينأى بصاحبه عن أروع مناحي الجمال في النظم ــ نجد الشيخ يضع بين يدي الباحث في التناسب ــ نظرة لتقدير الجمال وإدراك ألوان التناسب فيقول :

" عندما نريد أن نقدر جمال لوحة مرسومة لا ينبغي أن نحصر نظراتنا في جزء ضيق منها ؛ حيث لا نجد إلا ألواناً متنوعة تتجاور أوتتنافر ، بل يجب أن نرجع للوراء قليلا " ليتسع مجال الرؤية ، وتحيط بالكل في نظرة شاملة تستطيع وحدها أن تلاحظ هذا التناسق بين الأجزاء ، والتوافق في التركيب . فبمثل هذه النظرة ينبغي دراسة كل سورة من سور القرآن لنقدر أبعادها الحقيقية " (١).

وضرورة إستيعاب اللوحة في نظرة شاملة لتقدير جمالها الفني-هو ما نبه إليه النقد الحديث . يقول الدكتور العشماوي : " إن جمال الكائن الحي لا ينبع من النظر إلى جزئية واحدة منه ؛ فنحن لا ندرك جزئيات الكائن الحي على انفراد ، وإنما ندركه إدراكا كليا . فلا تتبع أحاسيسنا نحو المرأة - مثلا ــ من أنفها ، أو من عينها ، بل من كل العناصر مجتمعة ومكونة كلا لا يمكن تحليله إلا على وجه التقريب " (٢) .

والنص الأدبي في ذلك كاللوحة الفنية ، لايجوز الفصل بين عناصره ، أو شكله ومضمونه وإنما لابد من نظرة مستوعبة لا تتوقف عند جزء واحد منه يقول الدكتور شوقي ضيف :

" من الخطأ ان نفصل بينها { عناصر العمل الأدبي } فنقول : شكل مضمون ، أو لفظ ومعنى ؛ فهما جميعا تعبير عضوي لا ينفصم فيه اللفظ من المعنى ولا القالب عن المضمون ، وهو تعبير ينطبق عليه ما ينطبق على الكائنات العضوية من قوانين . ومعروف أن تلك الكائنات لا ينفصل فيها المضمون عن القالب ؛ فكلاهما ــ إن صح أنهما شيئان ــ يعبرعن وجودها ووظيفتها الحيوية " (٣) .

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم د : دراز صـ ١١٩ .
(٢) قضايا النقد والبلاغة د : محمد زكي العشماوي صـ ١٠٦ .
(٣) في النقد الأدبي الحديث : د : شوقي ضيف صـ٧٩ ، وما بعدها .

ثانيـا : توسيع النظـر في علاقات المعاني :

يقـوم الأصل الثاني عند الشيخ ـ على توسيع النظر في علاقات المعـاني ، فالعلاقـة بين الجزءين لا تقتضي بالضرورة الاتحاد ، أو التماثل ، أو التداخل ، أو ما إلى ذلـك مـن الصلات المتجانسة فحسب كما ظن بعض الباحثين في المناسبات يقـول الشيخ :

" وكلمـة أخرى تمس إليها حاجة الباحث في النسق إذا أقبـل علـى تلـك المناسـبات الموضعية بين أجزاء السورة:وهي أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما ، أو تماثلهما ، أو تداخلهما ، أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية فحسب " (١) .

فالقرآن يجمع بين الأجناس المختلفة ، ولكنه حين يجمع بينها " لا يدعها حتـى يبرزهـا في صورة مؤتلفة ، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قواما لائتلافها ... وعلى هذه القـاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها فيخرج بذلك محاسنها ومساويها في أجلـى مظاهرها ، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في نفسها من غير تضاد فيجعلها تتعـاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعـض مسـاق التنظـير ، أو التفريـع ، أو الاستشـهاد ، أو الاستنباط .. ، وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي ، أو تجاور شيئين فـي الوضع المكاني ـ دعامة لاقترانهما في النظم " (٢) .

وهذه النظرة الواسعة لعلاقات المعاني تلفت إلى دراسة واسعة رحيبة عن منهج القرآن فـي تأليف المعاني المختلفة ، كما أنها تعفي الباحث من التكلف أو التعسف حين تخفى المناسـبة. وكثير من هذه العلاقات التي ذكرها الشيخ نص عليها علماء البلاغة عنـد حديثـهم عـن الجامع في باب الفصل والوصل وهو ما يتضح عند التأصيل لوجهة الشيخ .

---

(١) النبأ العظيم صـ١٦٠ .
(٢) السـابق صـ ١٦١ .

ولعل إغفال تلك النظرة الواسعة كان وراء ما ذكره بعض العلماء من " أن القرآن ليس فيه شئ من حسن التخلص ، بل هو مبنى على الاقتضاب الذى هو مذهب العرب فى الكلام " (١) يقول الدكتور دراز " وفريق آخر متى لم يجد هذه الصلة من وجه قريب ـ أسرع إلى القول بأن فى الموضع اقتضابا محضا جريا على عادة العرب فى الكلام " (٢) .

والقول بأن الاقتضاب مذهب العرب قول ينبغى أن نتحرى الدقة فى إطلاقه ؛ لأنه اتهام خطير ، ورمى للفطرة والعقل العربى بأنه يجمع أخلاطا من المعانى دون مراعاة لصلة أو لحمة نسب بينهما ، وهو أمر ينقضه ما نجده فى كلامهم ، وما جاء على ألسنة نقادهم ، فقد كان الشاعر يعير بين أقرانه إذا لم تكن العلاقة بين معانيه علاقة الأخ الشقيق .

وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَوْمِ أَبْنَاءُ عَلَّةٍ .. يَكُدُّ لِسَانَ النَّاطِقِ الْمُتَحَفِّظِ (٣)

فإذا كانوا لم يرتضوا من الأديب علاقة بين أبياته إلا أن تكون علاقة الأخوين الشقيقين، أفيجوز بعد ذلك أن نقول : إن مذهبهم الاقتضاب .

وإذا كانت قيمة العمل الأدبى تقاس فى نظرهم بمقدار التوفيق والتأليف بين المعانى ، ومزجها إلى درجة الأخوة ، أفلا يكون من باب أولى : القول بأن : القرآن بلغ الغاية فى هذا الجانب بدلا من القول بأنه جرى على مذهبهم فى الاقتضاب .

ولكن الإمام العزبن عبد السلام ت ٦٦٠ هـ(٤) يذهب إلى أنه لا يشترط التناسب إلا فى أمر متحد أما إذا اختلف الكلام فلا يشترط فيه ارتباط . يقول الإمام :

---

(١) هذا رأى أبى العلا ابن غانم نقله الزركشى فى البرهان جـ١ صـ٧٠ ، ونقله السيوطى فى الإتقان جـ٣ صـ٣٣٧ .

(٢) النبأ العظيم صـ ١٦٠ .

(٣) البيت لخلف الأحمر وسبق تخريجه صـ٢٤٨ .

(٤) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم عز الدين الدمشقى ثم المصرى شيخ الشافعية ولد فى ٥٧٨هـ وتفقه فى الدين وفاق أقرانه ، وجمع من فنون العلم المعجب العاجب من كتبه " الإشارة إلى الإيجاز فى بعض ألوان المجاز " توفى فى ٦٦٠ هـ . طبقات الشافعية (٢/ ٨٧٣)

" مـــن محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض ، بشرط أن يقع فى أمر متحـــد ، فـــإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحـــد الكلامين بالآخـــر ، ومن فعل ذلك فــهو متكلف لما لم يقدر عليه إلا بربـــط ركيك يصان عن مثله حســن الحديـــث فضـــــلا عـــن أحسنه ، والقرآن نزل على الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فى نيف وعشرين سنة فـــى أحكام مختلفـــة شـــرعت لأسباب مختلفة ، وماكان كذلك لايتأتى ربـــط بعضه ببعض"(١)

ولاريـــب أن هـــذه النظـــرة تضـــع الباحث أمام طريق لايستطيع مجاوزته ، وهـــو التماس المناسبات بين المعانى المتقاربـــة أو المتحدة فحسب ، أما إذا اختلفت المعـــانى فـــلا مجال للبحث ، بل هو تكلف ٠ وهذا تضييـــق لدائـــرة البحث فى علاقـــة المعانى ٠

يقـــول الدكتـــور دراز عـــن هـــذا الـــرأى :

" وهـــو تضييق لدائـــرة البحث فى المناسبات بالتماسها بين المعانى المتجـــاورة خاصـــة ، فإذا أضيف إلى ذلك التزام طريق معين فى المناسبة وهو أن تكـــون من قبيـــل التجـــانس المعنوى زادت المسألة ضـــيقا وحرجـــا "(٢)

ثم إن حصر البحث فى دائـــرة ماتقارب من المعانى دون غيره ـــ هـــو فـــى حقيقتـــه هضم لحق المعنى القرآنى ، وتقطيع لأرحامه ، وتجريد من خصيصة التناسب التـــى هـــى إعجاز الإعجاز ٠

يقـــول الشـــيخ : " ولو أنه من أجل المحافظة على استقلال المعـــانى ذهـــب يفرقـــها ويقطع أرحامها ، ويزيل التداعى المعنوى والنظمى من بينـــها ، إذا لجـــرده مـــن خاصتـــه الأخرى وهى أنه لاينتقل فى حديثه انتقالا طفريا يخرجه إلى حد المفارقات الصبيانية التـــى تجمع شتى الأحاديث على غير نظام، والتى لاتدع نفس السامع تستشرف إلى اختتام كـــلام، وافتتاح كلام ، كيف وهـــو القـــول الرصـــين " (٣)

---

(١) الإشارة إلى الايجاز فى بعض ألوان المجاز، للعز بن عبد السلام ط دار الحديث القاهرة (د/ت)ص٢١١

(٢) النبـــأ العظـــيم صـــ ١٦٠ ٠

(٣) الســـابـــق صـــ ١٦١ ٠

ويمكـــن أن يرد على الإمام العز بن عبد السلام ٦٦٠هـ بأمور أخرى منهـا:

•أن اختلاف أسباب النزول لايستلزم بالضرورة عدم تأتـى الارتبـاط بين الأيـات ، فقـد نزلت آيات من القـرآن فى أزمان متفاوتـه وعلى أسباب مختلفـة ، ومع ذلـك يجمعـها موضوع واحد ، كآيات الصوم فى سـورة البقـرة مثلا ــ فقد نزلت فى أزمـان متفاوتـة، وعلى أسـباب مختلفة ، فهل يعد البحث عن المناسبة بين هذه الأيات تكلفا ؟.

• بل قـد تنزل الأيـة الواحدة على مرتين ، من ذلك قوله تعالى : " وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَـيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَـيْطِ الْأَسْـوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ،، " (البقـرة /١٨٧)، فقـد ورد فى سـبب نزولها ، أنه كان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم خيطا أبيض، وخيطـا أسـود فى رجلـه ، فلا يزال يأكـل ويشرب حتى تتبين له رويتها ، فـأنزل الله " مِـنَ الْفَجْـرِ" (١) فهل يعـد البحث عن التناسب بين عناصر الأية الواحـدة تكلفـا لتعـدد أواختلاف أسـباب نزولهـا ؟،

• وإذا كان البحث عــن التناسب مع اختلاف الأسباب وتنوع الموضوعات ــ تكلفا ، فلمـاذا لم يتحد القرآن بآيـة ، وإنما تحدى بالسورة كاملة ؟ لابـد أن للسورة خصوصية تنفرد بـها: وهـى أنها تشتمـل على خصائص بيانية ونظمـية لاتتحقـق فى الأيـة مفـردة ، يقـول صاحـب التحريـر والتنويـر :

" وإنما كان التحدى بسـورة لأن من جملـة وجـوه الإعجـاز أمـورا لاتظـهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفى فى غرض من الأغراض ، وإنما تـنزل السـورة من القـرآن فى أغراض خاصة ، فـلا غنى عن مراعـاة الخصوصيات المناسبة لفواتـح الكلام وخواتمـه ،،، وأحكام الانتقال من غرض إلى آخر ،، ونحو ذلك مما يرجـع إلـى نكت مجمـوع نظـم الكـلام "(٢)

---

(١) أسـباب النزول للإمـام الواحدى صـ ٥٥ ،

(٢) التحرير والتنويـر للطاهـر بن عاشـور جـ١ صـ ٣٣٧ ،

• وكذلك مجرد تقسيم القرآن إلى سور له دلالته فى مراعاة التناسب ؛ فقد ذكر الزمخشرى ٥٣٨هـ فى سر هذا التقسيم حكما عديدة منها : " أن هذا التفصيل بسبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض ، وبذلك تتلاحظ المعانى ، ويتجاوب النظم " (١)

وأغلب الظن أن القول بأن : الاقتضاب مذهب العرب فى الكلام ، وأن القرآن جاء على نهجهم ــ لم يكن حكما قائما على النظر فى كلام العرب ، بقدر ما كان تبريرًا يخرج به بعض العلماء من البحث عن التناسب بين آيات وأحكام يبدو فى ظاهرها عدم التلاؤم . وهذا كله جاء من تضييق دائرة التناسب ، وحصر علاقات المعانى فى دائرة التجانس أو التقارب وهو الأمر الذى حرص الدكتور دراز على نقضه ، واستبداله بمفهوم واسع لعلاقات المعانى .

ثالثا : تجاوز دائرة الآية فى ميدان التناسب :

إذا كان الأصل الثانى مبنيا على توسيع النظر فى أنواع العلاقات ، فإن الأصل الثالث من أصول وجهة الشيخ قائم على توسيع النظر فى مقدار الجزئيات التى يقع بينها التناسب ، فليس بالضرورة أن تكون المناسبة بين آية وأخرى ، بل قد تكون المناسبة بين طائفة من المعانى وطائفة أخرى .

يقول الشيخ :

" على أن روعة النظم القرآنى ــ كما علمت ــ لاتقوم دائما على حسن التجاور بين الآحاد ، بل ربما تراه قد أتم طائفة من المعانى ، ثم عاد إلى طائفة أخرى تقابلها فيكون حسن الموقع فى التجاور بين الطائفتين موجبا لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منهما ، أو بين الأواخر كذلك ، لابين الأول من هذه والأخر من تلك (٢)

---

(١) الكشاف للإمام الزمخشرى جـ١ صـ ٩٧ .

(٢) النبأ العظيم صـ ١٦٢ .

وهـذا الأصـل الثالث هـو فى حقيقـته ثمـرة من ثمـرات إحكـام النظـر فـى السورة القرآنيـة والوقوف على عناصرها . وقـد علـق أستاذنا الدكتور صبـاح دراز على هـذا النـص قـائـلا :

" وهـذه الفقرة ـ كما قلـت ـ من إلهامات الدكتور دراز ـ رحمه الله ـ ارتسـمت على صفحة قلبه، بما قد يعنى بعض العلماء أنفسهم فى الوصول إلى بعضه دهرا دهيرا"(١)

وهـذا الأصـل يختلف عـن مفهـوم عطف القصـة على القصة ، ذلك الباب الـذى فتحـه الإمـام الزمخشرى ٥٣٨هـ ويقصد بـه " عطـف مجموع جمل على مجمـوع جمل أخرى للاتفـاق فى الغرض العام ، وإن لم يكن هناك تناسب بين مفردات الجمـل ، أواتفاق فى الخبريـة والإنشائية (٢) يعنى أنه يكفى التناسب فـى المعنـى بيـن مضمـون القصتين دون اشتراط للتناسب بين جملها ومفرداتهـا .

أما الأصـل الذى ذكره الشيخ ، فهـو يتسـع ليشمل عطف القصة علـى القصـة ، وغيره ؛ لأنه يعنى أن يقع التناسب بين طائفتين من المعانى سواء ورد ذلـك بـالعطف ، أوبغـيره .

وهـذا الأصل يحل كثيرا من الإشكالات فى موضـوع التناسـب ؛ فحيـن لاتظـهر المناسبة بين آيتين ـ فلا ينبغى التكلـف أو التعسف فى إثبات العلاقـة ، بـل لابـد مـن التوقف أمام السياق الذى وردت فيه الآيتان ، فقـد تنتمـى كل آيـة منهما إلى طائفـة مـن المعانى ، ولاتتضـح المناسبة إلا فى ضـوء استحضار كل منهما فـى طائفتـها المنتميـة إليها .

---

(١) أسـرار الفصـل والوصل فى البلاغـة القرآنـية د: صباح دراز مطبعة الأمانـة الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م صـ ٧٠ .

(٢) الواو ومواقعهـا فى النظـم القرآنى د : محمـد الأمـين الخضرى صـ ٣٣٤ .

مــن تطبيقــات الشــيخ على وجهــته :

بين الشـيخ أصـول وجهـته في دراسـة التناسب بين عناصر السورة الواحدة ، ثـم طـبق على ذلك في سـورة البقـرة ــ وهـي أطول سـور القرآن ــ ليكشـف عن أثـر هـذه الوجهـة في الوقـوف على علاقـات المعاني ، ويمكـن من خـلال التطبيـق أن نتبين مـدى المواءمـة بين أصول وجهته وبين تطبيقهـا ٠

فقـد بـدأ بضبط مقاصـد السورة بعد النظر في جميع أجزائها ، وهي تتألف عنده من مقدمة وأربعـة مقاصـد ، وخاتمـة ٠

* المقدمـة *: في التعريف بشأن هـذا القـرآن وبيان أن مافيه من الهدايـة بلـغ حـدا من الوضوح لايتردد فيه ذو قلـب سليم ، وإنما يعرض عنه من لاقلـب لـه أو كان في قلبـه مرض (١-٢٠) ٠

* المقصد الأول * : في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام وهو يبدأ من قوله تعـالى * يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُـدُوا رَبَّكُـمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُـونَ * (البقرة/٢١) ٠ وهـو دعـوة للناس إلى عبادة الله وترك الإشراك به ، والإيمان بكتابه الذى نزلـه علـى عبده ، وترهيب من أليم عذابه ، وترغيب في جزيـل ثوابـه (٢١ــ٤٠) ٠

* المقصد الثانـي * : وهو في دعوة أهل الكتاب خاصة إلى ترك باطلهم والدخول فـي هذا الدين وهو يبدأ عند قوله تعالـى : * يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُـرُوا نِعْمَتِـىَ الَّتِـى أَنْعَـمْتُ عَلَيْكُـمْ وَأَوْفُـوا بِعَهْـدِى أُوفِ بِعَهْدِكُـمْ وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ * (البقـــرة /٤٠) ٠

وهـذا المقصـد ينقسـم إلى أربـع حلقـات :

الأولى : فى ذكر سالفة اليهود (٤٩ ـ ٧٤) وهى تبدأ من قوله تعالى " وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ.." (٤٩) وتنتهى عند قوله تعالى : " وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " (٧٤) وفيها يفصل الله نعمه على سلفهم ، ويبين ماقابلوا به هذه النعم من الكفر والجحود: فاستحقوا بذلك لعنة الله وباءوا بغضب منه ٠

" الثانية : فى ذكر اليهود المعاصرين لبعثة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٧٥ ـ ١٢١) وهى تبدأ من قوله تعالى : " أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَاعَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ " (٧٥) ٠

وفى هذه الحلقة يذكر الله سبحانه أحوال هؤلاء المعاصرين لبعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث حرفوا الكلم عن مواضعه ، واجترأوا على كل موبقة ضد الإسلام ، حتى إنهم طمعوا فى تحويل الرسول نفسه إلى اتباع أهوائهم ، وانتهى الحديث فى هذه الحلقة عند قوله تعالى : " الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ " (١٢١) ٠

الثالثة : فى ذكر قدامى المسلمين من لدن سيدنا إبراهيم٠ وهى تبدأ من قوله تعالى: " يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ " (١٢٢)

وهذه الحلقة دعوة لبنى اسرائيل إلى طريق سلفهم الصالح بأسلوب قصصى جذاب يعرض فيه ذلك التاريخ المجيد لسيدنا إبراهيم وأبنائه ومن اقتدى بهم فى العصور الذهبية التى لايختلف أحد من أهل الكتاب ولا المشركين فى تعظيمها ، ومحبتها ، ومحبة الإنتساب إليها ٠ وينتهى الحديث فى هذه الحلقة عند قوله تعالى : " تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَاكَسَبَتْ وَلَكُمْ مَاكَسَبْتُمْ وَلَاتُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (١٣٤)٠

الرابعة : في ذكر حاضر المسلمين زمن البعثة : (١٣٥ـ ١٦٢) وهي تبدأ من قوله تعالى : " وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا .. " (١٣٥) ، وتنتهي عند قوله : " خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ " (١٦٢) . وفيها يمسح الله ـ عز وجل ـ غبار الشبهة عن بعض مايثيره أهل الكتاب،ويدعو المؤمنين إلى الثبات على الحق

{ المقصد الثالث } : عرض شرائع الدين تفصيلا (١٧٨ـ ٢٨٣) وهو يبدأ من قوله تعالى : " لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ " (١٧٨) وهو عرض للشرائع الخاصة بالفرد والأسرة والمجتمع . وينتهي الحديث في هذا المقصد عند قوله تعالى :" وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ "(٢٨٣)

{ المقصد الرابع } : ذكر الوازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ، ويعصم عن مخالفتها وذلك في آية واحدة (١٨٤) .

{ الخاتمة } : في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة ، وبيان مايرجى لهم في آجلهم وعاجلهم (٢٨٥ـ ٢٨٦) .

وضبط مقاصد السورة قبل النظر في العلاقات الجزئية بين معانيها ـ هو الأصل الأول في وجهة الشيخ ، وهو يعين الباحث في رحلته مع التناسب ؛ لأن هذه المعاني تخدم المقاصد وتبرزها ، والمقاصد بدورها تفرغ على المعاني من روحها مايجعلها متوائمة متلائمة .

وهـذه المقاصد التى ذكرها الدكتور دراز قريبة جـدًا مما ذكـره الإمـام الـرازى ٦٠٦ فى تفسـيره ، ويمكن مـن خلال متابعـة كلام الرازى أن تظهر العلاقة القوية بيـن تصور كل منهما للعناصر التى كونت سـورة البقـرة .

فقـد وقـف الإمـام الرازى أمام قوله تعـالـى :" يا أيها الناس اعبدو ربكم الـذى خلقكم " (٢١) وهى الآيـة التى يبـدأ بها المقصـد الأول عنـد دراز ـ فقـال : " لما قـدم الله أحكـام الفرق الثلاثـة أعـنى : المؤمنين والكفار والمنافقين ـ أقبل عليـهم بالخطاب .ـ والآيات المتقدمـة كانت فى حكايـة أحوالهـم ، وأما هـ ذه الآيـات فإنـها أمر وتكليف "(١) ثم قـال :" واعلم أن قوله" ياأيها الناس اعبدوا ربكـم " ، يقتضـى أن الله أمر كـل الناس بالعـبادة " (٢)

أمـا المقصـد الثانى بحلقاته التى ذكرها الدكتور دراز ـ فهو قريب أيضـا ممـا ذكره الرازى فقد وقـف الرازى عند قـوله تعالى : " يابنى اسرائيل اذكروا نعمتـى التـى أنعمت عليكم واوفـوا بعهـدى " (٤٠) وهى الآية التى يبتدىء بها المقصد فقـال :" اعلـم انه سبحانـه وتعالـى لما أقـام دلائـل التوحيد والنبـوة والمعاد أولا ، ثم عقبـها بذكـر الإنعامـات العامـة على كل البشـر ـ عقبها بذكر الإنعامات الخاصـة علـى أسـلاف اليهود كسـرًا لعنادهـم ولجاجهـم بتذكيرهم النعـم السالفـة ، واسـتمالة لقلوبهـم بسببها، وتنبيهـا على نبـوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم شرع فى تعديـد تلـك النعم على سـبيل التفصيـل . ومن تأمـل وأنصف علم أن هـذا هو النهايـة فى حسـن الترتيب لمن يريـد الدعـوة ، وتحصيل الاعتقاد فى قلـب المسـتمع ".(٢)

---

(١) تفسير الفخر الرازى م١جـ٢صـ٩١ .

(٢) السـابق م٢جـ٣ صـ٣١ .

أمـا الحلقـة الثانيـة من هـذا المقصـد وهى التى تذكر اليهود المعاصرين للنبـى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقـد ذكر الإمام الرازى ٦٠٦ هـ المناسبة بينها وبين ما قبلـها عند قولـه تعالى : " أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ " (٧٥) حيث قال : " اعلم أنه سـبحانه لمـا ذكر قبائح أسلاف اليهود إلى ههنا ـ شرح من هنا قبائح أفعال اليهود الذين كانوا فى زمـن سيدنا ـ محمد صلى الله عليه وسلم " (١)

كما وقف الإمام الرازى عند الحلقة الثالثة التى ذكرت قدامى المسلمين من لـدن سـيدنا إبراهيم فقـال : " اعلم أنه سبحانه لما استقصى فى شرح وجوه نعمه على بنى اسـرائيل ، ثم فى شرح قبائحهم ٠٠ ، وختم هذا الفصل بما بدأ به وهو قولـه : " يَـا بَنِـى إِسْـرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ " (١٢٢) إلى قولـه : " وَلَا هُـمْ يُنْصَـرُونَ " (١٢٣) ـ شرع سبحانه ها هنا فى نوع آخر من البيان وهو أن ذكر قصة إبراهيـم عليـه السـلام ، وكيفية أحواله ٠ والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضله جميع الطوائـف والملل " (٢) ٠

أما الحلقة الرابعة : فقد ذكر الرازى ٦٠٦ هـ أنها لحكاية أنواع من شـبه المخـالفين الطاعنين فى الإسلام وهى تبدأ من قولـه تعالى : " وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَـهْتَدُوا ٠٠ " (١٣٥) (٣) ٠

أماالمقصـد الثالث : وهو فى بسط شرائع الدين تفصيلا ، ويبدأ عند الدكتور دراز مـن قـوله تعالى : " لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْـرِبِ " (١٧٨) ـ فـهو كذلك عند الإمام الرازى ، ولكنه يبدأ عنده من قوله تعالى :" يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُـوا مِـنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ " (١٧٢) حيث يقول فى هذه الآية " إن الله سبحانه وتعـالى تكلم من أول السورة إلى هنا فى دلائل التوحيد والنبوة، واستقصى فى الـرد علـى اليـهود والنصارى ، ومن هنا شرع فى بيان الأحكـام " (٤)

---

(١) تفسـير الفخر الرازى م٢ جـ٣ صـ١٤٢ ٠
(٢) المسـابق م ٢ جـ٤ صـ ٣٧ ٠
(٣) انظر السابق م ٢ جـ٤ صـ ٨٩ ٠
(٤) المسـابق م ٣ جـ٥ صـ ١٠ ٠

وهذه الآية التى ذكرها الإمام الرازى ، والآيات التى بعدها هى عند الدكتور دراز من المدخل إلى المقصد الثالث ، وليست البداية الفعلية للمقصد .

ويبقى المقصد الرابع " وهو يتمثل فى آية واحدة " لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ..." (٢٨٣) . وقد توقف عندها الرازى ٦٠٦هـ فقال :" إنه تعالى لما جمع فى هذه السورة أشياء كثيرة من علم الأصول وهو دليل التوحيد والنبوة ، وأشياء كثيرة : ببيان الشرائع والتكاليف ــ ختم الله تعالى هذه السورة بهذه الآية على سبيل التهديد" (١)

وهكذا يبدو التشابه واضحا بين ماذكره الدكتور دراز ، وماذكر الإمام الرازى ٦٠٦، ولكن الإختلاف يبدو بينهما من جانبين :

الأول : أن الإمام الرازى ٦٠٦هـ كان بصدد تفسير السورة ، والتناسب جانب من الجوانب التى اهتم بها ، ولكنه لم يقم تفسيره عليها . أما الدكتور دراز فقد أقام دراسته على هذا الجانب ولم يعن بغيره مما يهتم به المفسرون .

الثانية : أن ضبط مقاصد السورة يمثل فى نظر الدكتور دراز الخطوة الأولى فى دراسة التناسب والأساس الذى ينطلق منه إلى الوقوف على علاقات المعانى بين عناصر المقصد الواحد ، ثم بين المقصد وأخيه .

وفى ضوء وجهة الشيخ يمكن أن نتبين طريقته فى الربط بين عناصر المقصد الواحد ، ثم الربط بين المقاصد .

---

(١) تفسير الفخر الرازى م٤ جـ٧ . صـ ١٣٥ .

أولا : الربــط بيــن عناصــر المقصــد الواحــد ٠

١ــ روح القطعة القرآنيــة وتَنزُّل المعانى فيها وفــق حــاجــات النفــس ٠

قد تدورقطعة قرآنية حول غاية واحدة تكون بمنزلة الماء الــذى يســرى فــى ضلــوع المعانى يؤلف بينها ويصل أرحامها ٠وتتنزل المعانى داخل القطعــة وفــق حاجات النفــس واستشرافها النابع من إلقاء المعنى إليها فى صورة تغرس فى الروح متابعة قافلة المعانى٠

وقــد ارتكــز الشيخ على ذلك فى إبراز علاقات المعانى بين عناصر مقدمة الســورة الكريمة فمقدمـــة سورة البقرة للتعريف بشأن القرآن وبيان أن مافيه من الهدايــة قــد بلــغ حــدا لايتردد فى قبوله ذو قلب سليم ٠فلننظر كيف ابتدأت السورة :" الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُـدًى " (١ــ٢) فكان تقديم هــذه الأحرف الثلاثه (الٓمٓ) بين يدى الخطــاب مــع غرابة نظمها ، وموقعها ـــ من شأنه أن يوقــظ الأســماع ويوجه القلوب إلى مــايلى هــذا الأسلوب الغريــب ٠ ثم ألحقت بهذه الأحرف الثلاثــة جمل ثلاث : أولاهـــن : لإعــلان السامع أن ماسيتلى عليه الآن هو خير كتاب أخرج للناس " ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ " ، وأما الأخريــان: فيدعما هذا الحكــم بالحجة والبرهــان ؛ فهو الحــق الذى لاباطــل فيه ، ثم هــو بعد ذلــك الهدى المبين الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور " لَا رَيْبَ فِيهِ هُـدًى " وكــان موقــع هذه الجمل الثلاث بعد تلك الأحرف الثلاثة موقع التنويه بالمقصود بعد التنبيه إليــه (١)

ولاريــب أن أول ماتستشرف إليه النفس بعد سماع هذا الوصف البليغ للقرآن وهدايتــه ـــ هــو معرفة أثره الذى سيحدثــه فى الناس ومدى إجابتهم له ، فمست الحاجــة إلــى أن ينساق الحديث إلى هــذه الحقيقــة العجيبة : وهى انقسام الناس فى شأنه إلى فئــات ثــلاث مؤمنــة ، وأخرى كافرة ، وثالثة مترددة ٠ وأراد القــرآن أن ينتقل مـــن الحديــث عــن الكتاب إلى الحديث عن الناس ، فمزج بينهــا مزجا عجيبا : إذ عمــد إلى الطائفة المؤمنــة فجعل الحديث فيها من تمام الحديث عن القرآن فقال : " هُدًى لِّلْمُتَّقِيـــنَ "{٢}٠ فكــانت لام الجر هى المعبرة السرية التى انزلق عليها الكلام وانصب انصبابا واحدا إلى نهاية الحديـــث عن المــؤمنين (٢)

---

(١) انظر النبــأ العظــيم صــ ١٦٤ ٠

(٢) انظــر الســابق صــ ١٦٥ ٠

وكان قصر الهداية على المؤمنين بعد وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذى لاريب فيه مما يثير سؤالا وهو : إذا كان القرآن هكذا ، فلم لاينفذ إلى قلب كل من يسمعه ؟ كما كان هذا القصر - أمام جهد النبى - صلى الله عليه وسلم -، وحرصه على هداية الناس أجمعين - مظنة لابتها له قائلا : يارب لم لايهتدى الناس أجمعون ؟ فوجب أن تقرر الحقيقة ، فيرد النقص إلى قابلية القابل ، لا إلى فاعلية الفاعل. وهكذا انتقل الحديث عن المؤمنين إلى الكفار " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ".{٦} إجابة لهذا السؤال الذى نطقت به الحال وهو مايسميه علماء البلاغة : الاستئناف البيانى ، ثم عطف الطائفة الثالثة على أختها " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ " {٨} ؛ لأنهم فى التجافى عن الهدى مشتركون . تشابهت قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم (١)

وكان وصف الطائفتين الأخيرتين بأوصاف تحقيقية - لايشفى العجب من أمرهم ، إذ اختلافهم فى القرآن يعد شاذاً محتاجا إلى وصف تمثيلى ، لذلك ضرب الله لكل طائفة مثلا يناسبها : " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا .." {١٧} ، " أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ .." {١٨} ولاريب أن وصف هذه الطوائف راجع فى المآل إلى الثناء على القرآن ، وأنه لايكون إلا حقا لاريب فيه .(٢)

٢ : آية تربط بين حلقتين من حلقات القصد :

قد ينقسم المقصد إلى حلقات تدور كل حلقة حول فكرة معينة ، ثم تختم الحلقة الأولى بآية تربطها بأختها فتمتزج الحلقتان على نحو لايحس معه المرء بالانتقال من حلقة إلى أخرى أمام هذا التلطف والإبداع فى الانتقال .

---

(١) انظر النبأ العظيم صـ ١٦٥ ، صـ ١٦٦ .
(٢) انظر السابق صـ ١٦٨ .

ويبدو ذلك واضحا فى ربط الشيخ بين الحلقة الأولى والثانية من المقصد الثانى من السورة .

فالحلقة الأولى : تدور فى ذكر سالفة اليهود منذ بعث فيهم موسى (٤٩ـ ٧٤) "
والحلقة الثانية : تذكر اليهود المعاصرين للبعثة المحمدية ، وتبين أنهم فريقان : علماء يحرفون كلام الله ويتواصون بكتمان ماعندهم من العلم ، وجهلاء أميون : هم أسارى الأمانى والأوهام ، ثم ثنت ببيان منشأ اجترائهم على كل موبقة : ألا وهو غرورهم بزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة ، ثم ردت هذا الزعم دحضا وإبطالا ، وأتبعت ذلك ذكر سائر هناتهم التى كان خاتمتها أنهم كانوا يطمعون فى تحويل الرسول نفسه إلى اتباع أهوائهم . لكن الراسخين فى العلم يؤمنون بهذا الذى جاء به ، والكافرون هم الخاسرون {٧٥ـ١٢١}.(١)

وقد أراد القرآن أن يصل حاضر اليهود بماضيهم " فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال فى هذه الآية التى ختم بها القسم الأول : " ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً .." {٧٤} . فقوله : " مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ " كلمة حددت مبدأ تاريخ القسوة ، ولم تحدد نهايته ، كأنها بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار، وتركته يتخطى العصور والأجيال فى خيال السامع حتى يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر ثم لم يلبث هذا الظن أن ازداد قوة بصيغة الجملة الإسمية فى قوله : " فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ " دون أن يقول : فكانت كالحجارة " (٢)

---

(١) انظر النبأ العظيم صـ ١٨١ ـ صـ ١٨٣ .
(٢) السابق صـ ١٨٠ .

٣ـ الإجمـــال والتفصـــــيل :

قـد تجمع آيـة واحدة عناصر المقصـد فى إيجاز ، ثم تكـون الآيات بعدها تفصيـلا لمـا ورد فى الآيــة ٠

ويبـدو ذلك واضحا فى نظـرة الشيخ فى المقصـد الثالث : وهو عــرض شـرائع الدين تفصـيلا (١٧٨ـ ٢٨٣) ٠ فقـد بدأ هـذا المقصـد بقـوله تعالى : " لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُـمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِـنَّ الْـبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَـالَ عَلَـى حُبِّـهِ ذَوِى الْقُرْبَـى وَالْيَتَـامَى والْمَسَـاكِينَ وَابْـنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُـونَ بِعَهْدِهِـمْ إِذَا عَـاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُـمُ الْمُتَّقُـونَ " { آيـة / ١٧٧) ٠

فهـذه الآيـة بمنزلة فهرس موجـز للجانـب التشـريعى والـتربوى الـذى ستبدأ السورة فى تفصـيليه من هنا إلى قبيل نهايتها ذاكرة ألوانا من الأحكـام تتعلـق بـالفرد والأسـرة والمجتمـع ٠

وحـين ننظر فى هـذه الآيـة نجد أنه يبرز بين عناصرهـا صفـــة مـيزت فـى إعرابها تمييزا ، فكان ذلك تنويهـا بشأنهـا " الصَّابِرِيـنَ " ٠ وستكون هذه الصفة بشـعبها الثلاث أول ماتعنى السورة بتفصيله تفصيلا مرتبـا على عكس ترتيبـه فى الآية : الصـبر حـين البأس ، الصبر فى الضراء ،٠ الصبر فى البأسـاء ٠

الصبر حين البأس : ليس صبرا على الجروح والقروح فى الحرب ، وليـس صـبرا فـى البطش والفتك بالأعداء، وإنما هو ضـبط النفس حين البأس كفـا لها عن الاندفـــاع وراء باعثـة الانتقـام ، وردعا لها عن الإسراف فى القتل وقوفا بـها عنـد حـد التمـاثل " القصاص " {١٧٨ ـ ١٧٩ }٠

الصبر فى الضراء : وليس هو الصبر على الأمراض والآلام ، ولكنه الصبر على الظمأ والمخمصة فى طاعة الله (١٨٣ـ ١٨٧) ، ويمتد الحديث من " الصوم "المؤقت عن بعض الحلال إلى الصوم الدائم عن السحت والحرام ٠ {١٨٨}

الصبر فى البأساء : والصبر هنا ليس الصبر الاضطرارى على الفقر والأزمات، وإنما الصبر الاختيارى على التضحية بالأموال انفاقا لها فى سبيل الله ٠ والمثال الذى يختاره التنزيل الحكيم مثال يجمع بين الصبر فى البأساء والضراء جميعا ؛ إذ يجمع بين الجهاد بالنفس،والجهاد بالمال : " الحج إلى بيت الله الحرام) {١٩٧ـ١٩٨}(١)

ثم تمضى السورة فى تفصيل بقية الصفات المذكورة فى آية البرة مرتبة إياها عكس ترتيب ذكرها فى الآية ٠

وهذا الفهرس الذى اهتدى إليه الشيخ ، والذى ستقوم السورة بتفصيل عناصره ـ يلفت إلى ضرورة مراجعة الأمر فى مسألة التناسب بين آيات الأحكام المختلفة ؛ حيث ذكر بعض المفسرين أنه لاحاجة إلى التناسب بين آيات الأحكام ، فها هو ذا الشيخ رشيد رضا ١٣٥٤هـ يقف عند قوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " {البقرة /١٨٣} فيقول " الكلام فى سرد الأحكام فلا حاجة للتناسب بين كل حكم ومايليه" (٢)٠ وهو رأى يتعارض مع كون ترتيب الآيات توقيفيا ؛ فلم توضع آية فى مكانها إلا لسر ٠ وفرق كبير بين خفاء المناسبة وبين نفى الحاجة إليها٠

ولكن الذى يشغل الذهن فى آية البر : هو السر فى تفصيل السورة لهذه الصفات مرتبةً على عكس ترتيبها فى الآية ، ولم يشر الشيخ نفسه إلى سر ذلك ٠

---

(١) انظر النبأ العظيم صـ ١٩٧ ٠

(٢)تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا جـ٧ صـ ١١٥ ٠

ولعل السر فى ذلك ـ والله أعلم ـ أن الآية لما ميزت صفة " الصبر " وابتدأ الحديث بها مفصلا ـ عادت السورة إلى الصفات التى قبلها على عكس ترتيبها حتى تنتهى فى رحلتها إلى الإيمان الذى ابتدأت به آية البر " وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ". فقد ابتدأت الآية به لأنه الأصل الذى تقبل به هذه الأعمال ، ولكنه لايكون إيمانا مطلقا إلا بها . فكأنه عاد بالثمرات إلى أصلها الذى لايكتمل إلا بها .

ومما يغرى بهذا الفهم : أن سورة البقرة قد ختمت بالحديث عن الإيمان الذى بدأت به آية البر : " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ .." {آية/٢٨٥} فجاءت المواءمة بين الطرفين . وهذه المناسبة أوضح من المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها؛ ففى مطلع السورة " الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ " { آية /٣} مجملا ، بينما جاء فى آية البر مفصلا " مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ" وجاء فى آخر السورة : " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ .." فكان التفصيل فى آخر السورة مناسبا للتفصيل فى آية البر، وكان قوله : " آمَنَ الرَّسُولُ" ثمرة لما تقدم ، كما كان الإيمان نهاية الرحلة فى آية البر.

٤ـ قد تكون المفاجأة فى الانتقال مقصودة لمغزى :

وقد تكون المفاجأة فى الانتقال من حلقة إلى أخرى فى المقصد ـ أمرا مقصودا له مغزاه النفسى ، ولكن هذا لايعنى أن يقتضب الكلام اقتضابا ، وإنما يتلطف فى الانتقال على وجه يبرز قصد المفاجأة .

ونلحظ ذلك في الانتقال من الحديث عن الطلاق وتوابعه من العدة والرجعة، والحديث عن الخلع ، والرضاع ، والخطبة ، والصداق ، والمتعة حتى انتهى الحديث عند قوله تعالى: " وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَافَرَضْتُمْ" { آية /٢٣٧} ثم انتقل إلى قوله تعالى : " حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى " { آية /٢٣٨} ، فما العلاقة بين الأمرين ؟

فنحن نحس بنقلة مباغتة يحسبها الناظر اقتضابا ، وماهي باقتضاب ؛ لأن من تابع سير قافلة المعاني وقطع معنا ثلثي الطريق الذى رسمته آية البر " الصبر ، والوفاء بالعهد " سيستشرف معنا إلى ثلثه الباقي " إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاء " ، وسوف يرى أن هذه الحلقة جاءت في حاق موضعها ، ومهد لها في ختام الحلقة الثانية بقوله: " وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَاتَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ٠٠) { آية ٢٣٧) فهذه معبرة ذهبية جاءت وقت الحاجة إليها ، وكل حرف فيها ينادى بأنها كلمات حبيب مودع أقام بيننا فترة ليفصل في شئوننا ، ثم هو يطوى صحيفة أحكامه فيقول : لقد كفاكم هذا حديثا عن حقوق الزوج والولد ٠ فاسمعوا الآن إلى حقوق الله والوطن ٠

حافظوا على الصلوات ، أنفقوا في سبيل الله ، جاهدوا في سبيل الله ٠ (١)

ولكن استشراف النفس إلى ثلث الطريق الباقي لاينفى أنها نقله خاطفة تهتزلها النفس وتفجأ بها ٠ وقد أقر الشيخ بهذا ، ولكنه ذكر لذلك مغزى عميقا لايصل إليه إلا من أنعم الله عليه فقال رحمه الله :

" إن لذلك مغزى عميقا في تربية النفوس المؤمنة ٠٠إن هذه النقلة تصور لنا ما يجب أن يكون عليه المؤمن إذا سمع نداء الواجب الروحي وهو منهمك في معترك الحياة ٠ فكأننا بهذا الأسلوب الحكيم ينادينا : إنه ليس من شأن المؤمن أن يحتاج إلى كبير معالجة للتسامى بروحه فوق مشاغل الأهل والولد ، وإنما شأنه أن ينتشل نفسه من غمراتها انتشالا فوريا؛ ليسرع إلى تلبية ذلك النداء الأقدس ، قائلا للدنيا كلها: دعينى أتعبد لربي "٠ (٢)

---

(١) انظر النبأ العظيم صـ ٢٠٢ ، صـ ٢٠٣ ٠

(٢) السابق صـ ٢٠٦ ٠

ثانيا : الربط بين المقاصد

كان ربط الشيخ بين مقاصد السورة إنطلاقا من أصله الثالث القائم على أن روعة النظم القرآن لاتقوم دائما على حسن التجاور بين الآحاد ٠

ويمكن من خلال تحليله لسورة البقرة أن نتبين كيفية وقوفه على علاقات المعانى بين المقاصد ٠

١ـ تمهيد نهاية المقصد لما يليه من المقاصد ٠

قد يكون الاتصال بين المقصدين مبنيا على تمهيد نهاية المقصد الأول لما سيبدأ به المقصد الثانى ، وقد اعتمد الشيخ على ذلك فى الربط بين المقصدين الأول، والثانى من السورة ٠

فالمقصد الأول كان لدعوة الناس كافة إلى الإسلام ، والمقصد الثانى كان لدعوة أهل الكتاب خاصة إلى ترك باطلهم والدخول فى هذا الدين الحق ٠ وحين أراد القرآن الانتقال من المقصد الأول إلى الثانى ـ مهد لذلك بأن ختم المقصد الأول بالحديث عن المخالفين فقال : " وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " {آية /٣٩}٠ فكان ذكر الكافرين المكذبين تمهيدا إلى نداء فريق منهم ودعوتهم إلى الإسلام وهو المقصد الثانى للسورة " يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ " { آية /٤٠}٠ (١)

---

(١) انظر النبأ العظيم صـ ١٧٧ ٠

٢ـ حلقة من المعانى يتلون كل طرف منها بلون المقصد الذى يليه فيلتقى المقصدان :

قد يكــون الوصل بين المقصدين بطائفة من المعانى تنتمــىلمقصد منــهما ، ولكــن الحديث فيها يتلون كل طرف منه بلون المقصد الذى يليه فيلتقى المقصدان علــى أمــر قــد قـــــدر .

ويتضــح ذلك فى العلاقـــة بين المقصدين الثانـــى والثالث ؛ فالمقصـــد الثانى كـــان لدعوة أهــل الكتاب إلى الإســـلام ، والمقصـــد الثالث : لبســط شرائع الدين تفصيــــلا . وكانت الحلقـــة الرابعـــة من المقصـــد الثانى : " ذكــر حاضر المسلمين وقت البعثـــــة " "١٣٥ـــ ١٦٢" هــى سبيل الوصل بين المقصدين ؛ إذ هى مناجاة من الله لنبيه والمؤمنيـــن فى خاصة شأنهـــم ، وفيما يعنيهم من أمــر دينهم . ولكنـــه جعل النجوى ذات طرفيـــن ، لون كل طرف منها بلون المقصد الذى يليـــه فالتقـــى المقصدان : حيث بدأهـــا بأن قـــص على المؤمنين مقالة أعدائهـــم فى بعض حقائـــق الإسلام " وَقَالُــوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـارَى تَهْتَـدُوا . . " { آيـــة /١٣٥) ، " سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَاوَلَّاهُـــمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِـــى كَانُوا عَلَيْهَا " { آية /١٤٢) . وعمد القرآن إلى هذه الحقائق التى تماروا فيها فمسح غبـــار الشبهة عن وجههـــا ، فكانت هذه البدايـــة نهاية لمعركـــة طويلـــة حورب فيها الباطل فـــى كل ميدان ، ثم انســـاق الحديث فجعل يثبت أقـــدام المؤمنين على تلـــك الحقـــائق النظريـــة والعملية ويحرضهم على الاستمساك بها فى غير آيـــة . وبذا كانت الآيات مؤذنـــة ببدايـــة مقصـــد جد يـــد بعدهـــا يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصـــلة (١)

ثم أضاف القرآن إلى الحلقة السابقة شيئا آخر وثق الصلة بيـــن المقصديـــن ، ووطـــد عرى المودة بينهما ، وذلك عند البداية الفعلية للمقصد الثالث حيث قال : " لَيْـــسَ الْـبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُـــمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـــرِ . . "

(١) انظـــر النبـــأ العظـــيم صـــ ١٨٨ .

فهذه الآية جمعت بين المقصدين على نحو تظهر فيه براعة التخلص ، يقول الشيخ:

" انظر إلى حسن التخلص فى ربطه بين المقصـد القديم والمقصد الجديد على نحو بـه يتصـلان لفظا ، وبه ينفصلان حكمـا .. فهو فى جمعهما لفظا كأنه يضع إحدى قدميـك عند نهاية الماضـى ، وثانيتهـما عند أول المستقبل ، ولكنه فى تفريقهمـا بـأداتى النفـى والاستدراك كأنمـا يحـول قدمـيك جميعا إلى الأمام " لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ .." { آيـة /١٧٧) .

....

المبحث الرابع

وجهة الشيخ " تأصيل ونقد "

يمكن القول بأن أصول وجهة الشيخ فى دراسة التناسب كانت ثمرة نظره الطويل فى تراث سلفنا ، لاسيما فى ميدان التفسير ، وعلوم القرآن ، وإعجازه وإن اتضحت أنفاس علماء بأعينهم فيما كتب و على رأس هؤلاء الأئمة الباقلانى ٤٠٣هـ ، والرازى ٦٠٦هـ ، والشاطبى ٧٩٥هـ ، والبقاعى ٨٨٥هـ .

أولا : قبل مناقشة هذه الأصول نشير إلى أن الدكتور دراز قد انطلق فى بحثه عن التناسب من واقع رغبته فى الوقوف على الخصائص البيانية للقرآن فى سورة سورة منه ، وفيما بين سورة وسورة. كما وقف من قبل على بعض خصائص القرآن فى قطعة قطعة منه .

وقد دعا الإمام الباقلانى إلى هذا المسلك من قبل ، وجعله الأساس فى كيفية الوقوف على خصائص المباينة التى باين بها القرآن أسلوب البشر ، وتأثره الدكتور دراز فيما دعا إليه .

ففى الحديث عن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن يطلب الإمام الباقلانى من الناظر أن يجيل النظر فى القرآن فى كلمة كلمة منه ، وفى آية آية ، وسورة سورة ، حتى ينتهى إلى النظر فى القرآن كله للوقوف على خصائص المباينة.

فقد ذكر قوله تعالى : " وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ " { يس /٣٧ـ٣٨} ثم قال : " هل تجد كل لفظة ، وهل تعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع وتتضمن شرط القول البليغ؟ فإذا كانت الآية تنتظم من البديع ، وتتألف من البلاغات فكيف لاتفوت حد المعهود ، ولاتحوز شأو المألوف " (١) .

---

(١) إعجاز القرآن للإمام الباقلانى صـ ٢٢٩ ، صـ ٢٣٠ .

ثم يوجه النظر إلى ضرورة النظر فى السورة كاملة فيقول :

" ثم اقصد إلى سورة تامة فتصرف فى معرفة قصصها ، وراع مافيها من براهينها وقصصها . تأمل السورة التى يذكر فيها " النمل " وانظر فى كلمة كلمة ، وفصل فصل : بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده فقال : " وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ " { آية /٦} ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام ، وأنه رأى نارا فقال لأهله امكثوا " إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ " { آية/٧} (١)

ثم علق على ماذكره فى سورة النمل قائلا " ثم انظر فى آية آية ، وكلمة كلمة . هل تجدها كما وصفنا لك ، من عجيب النظم وبديع الرصف ؟ فكل كلمة لو أفردت كانت فى الجمال غاية ، وفى الدلالة آية . فكيف إذا قارنتها أخواتها ، وضامتها ذواتها ، تجرى فى الحسن مجراها ، وتأخذ فى معناها .. ، ثم من قصة إلى قصة ، ومن باب إلى باب ، من غير خلل يقع فى نظم الفصل إلى الفصل ، وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف ، وبليغ التنزيل " (٢)

وقد ارتكز الدكتور دراز فى بحثه عن الخصائص البيانية على مادعا إليه الإمام الباقلانى٤٠٣هـ إلا أنه يلحظ فى كلام الإمام أمور منها :

* أن كلامه يعد تنبيها على خلو القرآن من التفاوت والخلل فى النظم. وهو مفهوم لا يضع يد الباحث على خصائص المباينة التى انفرد بها أسلوب القرآن فى هذا الجانب .

---

(١) إعجاز القرآن للإمام الباقلانى صـ ٢٣٠ .

(٢) السابق صـ ٢٣١ .

• كما أنه يحيل ـ غالبا ـ على ذوق القارىء ، وما أكثر ماتقرأ عنده : " فتصرف في كذا "، وانظر في كذا"،و " تأمل " ، و "راجع " ٠ والإمام الباقلاني حين يقول هذا يقوله عن خبرة ، ويدرك الأسرار التي يوجه أنظارنا إليها ، كما يحسن الظن بالقارىء فيحسبه على درجة ذوقية تمكنه من فهم مايقول ـ أما الأن وقد فسدت الأذواق ، فإن القارىء يقع في إشكال ٠ وهو : تحويل تلك الخبرة المستترة وراء الكلمات إلى قواعد علمية تضع يده على ما أراد أسلافنا من أحكام يبدو في ظاهرها الغموض ٠

ومن ثم يمكن القول بأن : جهد الإمام كان في توجيه نظر القارىء إلى إمكانية الوقوف على إعجاز القرآن من خلال النظر في القرآن في سورة سورة منه ، والتعرف على كيفية الوصل بين المختلفات ٠ أما كيف يحدث ذلك ؟ وما المنهج الذي ينبغي أن يسلكه الباحث في تناسب القرآن ؟ كل ذلك لم يذكره الإمام ، وإنما أفاض فيه من جاء بعده من الأئمة الذين سار الدكتور دراز على نهجهم ، وارتوى من نبعهم ، وإن ظلت له شخصيته التي برزت من خلال التطبيق ٠

ثانيا : ذكر الدكتور دراز أن الأصل الأول في دراسة التنسق القرآني ـ هو ضرورة إحكام النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها ، وضبط مقاصدها ، قبل البحث عن العلاقات الجزئية : وهذا الأصل قد نبه إليه الأئمة من قبل٠

وقد نص هو على ذلك فقال :

" قال الأئمة : إن السورة مهما تعددت قضاياها، فهي كلام يتعلق آخره بأوله، وأوله ، بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة ، وأنه لاغنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لاغنى عن ذلك في أجزاء القضية "(١).ونبه إلى أن هذا الكلام مستنبط مما ذكر الإمام الشاطبي ٧٩٥هـ في الموافقات ٠

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٥٩ ٠

لكـن كلام الإمـام الشاطـبى عن ضرورة النظر فى السورة وإحكام مقاصدهــا قبـل البحث فى نظمها ــ لم يكـن مقصودًا لذاتــه ، ولم يبن الإمام مسألته عليه ، وإنمـــا كـان الحديث عن مسألة فى الأدلـة الشرعية ، وكيفيـة فهـم المكلف لها من الكلام ، وأن ذلـك لايكـون إلا بـرد آخـر الكلام إلى أوله ، وأوله إلى آخـره ٠ ثم عرض إلى أن السـورة قد تنزل فى قضايا متعددة كسورة " البقرة " مثلا٠ومثل هذه السور لها اعتباران فى النظر :

" اعتبار من جهـة تعدد القضايا فتكـون كل قضـية مختصـة بأمرها ، ومن هنـا يلتمس الفقـه على وجه ظاهر ، واعتبار : من جهـة النظم الذى عليه السورة ، ولايلتمـس منه فقه على وجه ظاهر ، وإنما يلتمس منه ظهـور بعض أوجه الإعجاز ٠ فاعتبار جهـة النظـم فى السورة لاتتم به فائـدة إلا بعـد استيعاب جميعها بـالنظر٠ فالاقتصـار علـى بعضها غير مفيد غايـة المقصـود " (١)

وكما دعـا الإمـام الشاطبى إلى ضرورة إستبصار السورة ، واستيعاب مقاصدهـا ــ دعا الإمـام البقاعـى ٨٨٥هـ إلى ذلك أيضا ، ــ وإن انفرد بأن تفسيره بأكمله قائم علـى دراسة التناسب بين الآيـات والسـور ٠

يقـول البقاعـى : ــ

" تتوقف الإجادة فى علم المناسبة على معرفة المقصود من السورة، ونفيد معرفة ذلـك المقصود من النظر فى جميع جملها " (٢) ، ثم ذكر قاعدة شيخه : الحرَّالى ت ٦٣٨(٣) ٠

---

(١) الموافقات للإمام الشاطبى م٢جـ٣صـ٣٣ ٠

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآى والسور : لبرهان الدين البقاعى تخريج : عبد الرازق غالـب ، ط:دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥ م جـ١ صـ ٥ ٠

(٣) على بن أحمد بن الحسن الحرالى مفسر من علماء المغرب أصله من " حرالة " ولد ونشأ فى "مراكش" وتوفى فى " حماة " بسورية من كتبه " مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل " فى التفسير ٠و"الوافى" فرائض ٠ توفـى فى ٦٣٨ ٠ الأعـلام (٦٢/٥) ٠

وهـى " أن الأمـر الكلى المفيد لمعرفـة المناسبات بين الآيـات هـو أن ننظـر إلـى الغرض الذى سيقت له ، ومايحتاج إليه الغرض من المقدمات ، وننظر فـى مراتـب تلـك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب ، وننظر انجرار الكلام فى المقدمات إلى ماتستتبعه من استشراف نفس السامـع إلى الأحكام واللوازم التابعـة له " (١)

ثـم يضيف الإمـام البقاعى شيئا آخـر فى الوصول إلى مقصـود السـورة وهـو : اسم السورة ، إذ يـرى " أنه مترجـم عن المقصود من السورة ؛ لأن اسم كل شيء تلحـظ المناسبة بينه وبين مسماه ، عنوانه الدال إجمالا على تفصيل مافيه " (٢)

وفكـرة المقصود كما يقـول الدكتور محمود توفيق سـعد : " ترتكز علـى سـيطرة المغزى أو المقصد على كل عنصر من عناصر السورة بحيث يتشكل كل عنصر ويتحـرك وفق املاءات هذا المقصـد ، فيكون كل شـيء من السورة محسوبا بدقـة متناهية معجـزة فى شكلـه وموقعـه وحركته نحو الغايـة فيعطـى نوعا من التجاوب والتفـاعل البديـع المعجـز " (٣)

والإحالة إلى نظر الباحث فى الوصول إلى مقصد السورة يعنى أنه أمـر لايقوم علـى أسس علمية ، وإنما مرجعه الذات . وهذا يعنى أنه ربما لاتنضبط وجهات النظر فى معرفـة المقصود مما ينعكس بدوره على معرفة المناسبات . وهذا النقد كما يوجه للإمـام البقـاعى ٨٨٥هـ ـ يوجه أيضا للدكتور دراز فى ضبطه لمقاصد سورة البقـرة ؛ فقد إسـتنبطها بنظره هـو . ولايعنى هذا أن السـورة لم تشتمل على غير ماذكر . ولكن هـذا النقد

---

(١) نظم الدرر للبقاعـى جـ١ صـ ٥ .

(٢) السابق صـ١٢، ودلالة البرهان القويم على تناسب آى القرآن العظيم للبقاعى . مخطوط بجامعة الإمام محمود بن سعود . قسم المخطوطات رقم ٤٧٢٤ جـ١ صـ ٢ .

(٣) التناسب عند برهان البقاعـى د : محمود توفيق سعد صـ ٢٠٤ .

ـ على كل حال ـ ليس نقدا يعيب أحدا منهما ؛ لأن تعدد وجهات النظر في الدراسات القرآنية يثرى بلا شك ، فما يفوت هذا قد يدركه غيره (١)

ويمكن القول بأن الدكتور دراز يلتقى بشيخه البقاعى فى هذا الأصل الأول، إلا فيما ارتآه البقاعى من كون اسم السورة مترجما عن مقصودها ـ وهو مالم يقل به الدكتور دراز ، ولعله نظرته أقرب ؛ لأن ماذكره البقاعى يخالف منهجه الذى رسمه أولا من ضرورة النظر فى جميع عناصر السورة ـ وهو أدق ـ كما أن الاعتماد على اسم السورة قد يحول دون إدراك مقصدها ، لاسيما فى السور التى سميت بحروف المعجم . ولو قال : إن اسم السورة يعين على معرفة مقصودها لكان أدق .

ويمكن متابعة الإمام فى سورة واحدة لنرى أثر اعتماده على اسم السورة فى الترجمة عن مقصودها . ولتكن سورة " البقرة " باعتبارها مما يتصل بهذا البحث . يقول الإمام البقاعى:" مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع فى كل ما قال ، وأعظم مايهدى إليه الإيمان بالغيب ، ومجمعه الإيمان بالآخرة ، فمداره الإيمان بالبعث الذى أعربت عنه قصة البقرة التى مدارها الإيمان بالغيب ، فلذلك سميت بها السورة " . (٢)

فمدار الأمر فى سورة البقرة على البعث الذى أعربت عنه سورة البقرة ، ولذلك سميت بها السورة. ووافقه الرأى الدكتور إبراهيم الهدهد ، فرجح رأيه على رأى الدكتور دراز فى ضبط مقاصد سورة البقرة ، ذاكراً عدة استنباطات ترجح رأى البقاعى منها :

---

(١) انظر التناسب عند البرهان البقاعى د : محمود توفيق سعد صـ ٢٠٥ .

(٢) نظم الدرر للبقاعى جـ١ صـ ٢٤ .

* مطلع السورة " الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ " { آية /٢} ، ومداره البعث ، ومنها: اختصاص اليهود بأدلة البعث وهم أكثر الناس ريبة فى البعث " ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " { آية /٥٦} ، ومنها اختصاص السورة بقوله تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ " { آية /٢٤٣} ، واختصاصها كذلك بقصة الرجل الذى مر على قرية فداخله الريب فى أمر البعث ، وقصة سيدنا إبراهيم ٠ (١)

ويمكن أن نتتبع بعض الآيات التى ذكر فيها البعث لنرى هل تصلح دليلا يدعم القول بأنه مقصود السورة ٠ نقرأ قوله تعالى : " ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " { آية /٥٦}

يقول الإمام البقاعى ٨٨٥هـ " هذه الآية وماتقدمها من قوله تعالى : " وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا " { آية /٤٨} فيه تنبيه للعرب من غفلتهم فى إنكار البعث ، وإرشاد إلى سؤال من يغرهم من أهل الكتاب " (٢) ، وعدها الدكتور الهدهد مما يؤيد رأى البقاعى ٠

وحين نعود بالآية إلى سياقها نجد أن الحديث عن البعث قد ذكر ضمن صنوف النعم التى امتن الله بها على بنى إسرائيل التى بدأت من قوله تعالى : " وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ " { آية /٤٩}٠ فأشرب السياق الحديث عن البعث طعم الامتنان والتفضل ، ولم يظهر أن المقصود من آية البعث هو التدليل عليه ٠ ويؤيد هذا الفهم: ختام الآية بقوله " لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " أى ٠ تلك النعمة ٠ ولو كان المقصود التدليل على البعث أو إثارة الوعى لكان الأولى بالمقام أن يقال:

---

(١) انظر علاقة المطالع بالمقاصد، للباحث إبراهيم الهدهد رسالة دكتوراة مقدمة لقسم البلاغة والنقد بالقاهرة مخطوط رقم ٢٩٧٨ بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة بإشراف الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى ٠

(٢) نظم الدرر للإمام البقاعى جـ١ صـ ١٣٨ ٠

" لعلكم تعقلون " ، أو " تتفكرون " ، كما أن ذكر البعث جاء مؤخرًا بعد عدد كبير من النعم . فالسياق دال على أن الغرض ليس إثبات البعث ، وإنما الشكر على نعمة الله .

أما قصة البقرة : التى ذكر الإمام أنها مترجمة عن مقصود السورة ، فهو يقول فيها : " قسمت القصة شطرين تنبيها على النعمتين . نعمة العفو عن التوقف فى الأمر ، ونعمة البيان عن القاتل بالأمر الخارق . . . ولو رتبت ترتيبها فى الوجود لم يحصل ذلك " (١)

وهذا يعني أن فى القصة تقديما وتأخيرًا ، وأن الأصل أن يقدم الجزء الأخير ، وهو القتل ثم تؤخر قصة البقرة " ولكنه قدم نبأ موسى عليه السلام على ذكر تدارئهم في القتيل ابتداءً بأشرف القصدين "(٢)

فعلى الرغم من أن الجزء الثاني يتحدث عن إحياء الموتى الدال على المقصود الأعظم ــ لكنه أخر ، وقدم نبأ موسى ابتداء بأشرف القصدين . كما أن إحياء القتيل لم يكن القصد منه التدليل على البعث بداية ؛ لأنهم بعد قتله لم يكن يشغلهم أمر البعث ، وإنما هو فى موقف ينفى كل واحد عنهم التهمة عن نفسه ويلقيها على غيره . فكان الهدف الأول من إحيائه هو إخباره بقاتله وإزالة لشكوك الحائمة حول مقتله إبرازًا لقدرة الله على إظهار الحق ؛ ودلالة على طبيعة بنى إسرائيل وجبلتهم الموروثة ، ثم يأتى التدليل على البعث من ايحاءات القصة وظلالها (٣)

---

(١) نظم الدرر للبقاعى جـ١ صـ ١٧١ .

(٢) السابق الصفحة ذاتها .

(٣) انظر فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب . ط : دار الشروق الطبعة الثالثة والعشرون ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م جـ١ صـ ٧٧ .

ومن هنا يمكن القول بأن الاعتماد على ترجمة اسم السورة عن مقصودها . قد يؤدى إلى عدم الدقة فى تحديد المقصود .

ويظهر ذلك جليا فى السور المسماة بحروف المعجم فسورة " يس " ـ مثلا ـ يقول فيها الإمام البقاعى ٨٨٥هـ " مقصودها إثبات الرسالة التى هى روح الوجود " وقلب جميع الحقائق ... وهى قلب القرآن . ولما كان القلب من الإنسان فى نحو ثلث بدنه الأعلى ، وكانت " الياء " بهذا المحل من حروف " أبجد " فإنها " العاشرة " و " السين " بذلك المحل من حروف " أ ب ت " .. فإنها الثانية عشرة ، وعلا هذان الحرفان بما فيهما من الجهر عن غاية الضعف ، ونزلا بما لهما من الهمس عن نهاية الشدة .. كان ذلك إشارة إلى أن القلب الصحيح هو الزجاجي الشفاف الجامع بين الصلابة والرقة " (١)

وهذا تكلف فى إثبات العلاقة بين اسم السورة ومقصودها ، ولم يقع هذا التكلف إلا لإيمان البقاعى بأن اسم السورة مترجم عن مقصودها . وليس بالضرورة أن تكون العلاقة بين اسم السورة وبين مقصودها علاقة تطابق ، ولكن الذى لاشك فيه أن اسم السورة يعين على الوصول إلى مقصد السورة ، وأن الأساس فى الوصول إلى هذا المقصد هو النظر فى جميع عناصر الصورة،وضبط أجزائها وهو ما آمن به الدكتوردراز .

---

(١) نظم الدرر جـ٦ : صـ ٢٣٩ .

ثالثا : أمـا الأصل الثانـى المبنى على توسيع النظر فى علاقــات المعانى ، فهذا مما أفاض فيه علماء البلاغة وعلـوم القـــرآن ٠

فقـــد ذكـر علماء البلاغـة ألوانا لاتحصــى من العلاقات التى تناسـب بيـن المعانى ٠ وهـو تناسب "لا يخـرج عما أودعـه الله فى الإنسان مما يدركه عقلــه ، أو ينبـض به قلبـه ، أو يرقــى إلى وهمـه ، أو يحلق به خياله "٠ (١)

فالإمـام السكاكـى ٦٢٦هـ يذكـر فى باب الفصـل والوصل ـ أن الجـامع بيـن الشـيئين : عقلــى ، ووهـمى ، وخيالــى ٠

فالجامـع العقلــى : أن يكـون بينهـا اتحاد فى التصـور مثل : الاتحاد فى المخبر عنه ، أو فى الخبر ، أو فى قيـد من قيودهـما ، **أو تماثـل ، أو تضايف :** كالعلاقة بيـن العلـة والمعلـول ، والسبب والمسـبب ، أو السفل والعلو ، والأقل والأكثر ٠ فإن العقــل يأبى ألا يجتمعا فى الذهـــن ٠

والجامـع الوهمى : أن يكـون بين تصـوراتهما **شـبه تماثل :** كلون البياض مــع الصفــرة ، فإن الوهـــم يبرزهـما فى معـرض المتمــاثلين ٠ **أو تضـــاد :** كالســواد والبياض، والهمس والجهـر ، **أو: شـبه تضـاد :** كالذى بين السماء والأرض والســهل والجبل ، فإن الوهـم ينزل المتضاديـن والشبيهين منزلة المتضايفين فيجتهـد فى الجمــع بينهـا فى الذهـن ٠

والجامـع الخيالى : أن يكون بين تصوراتهما تقارن فى الخيال سابق لأسباب مؤديـة إلى ذلك ٠(٢)

---

(١) أسـرار الفصـل والوصـل د : صـبـاح درار صـ ٥٨ ٠

(٢) انظر مفـتاح العلـوم للإمام السكاكـى صـ ٢٥٤ صـ ٢٥٥ ٠

" وهـذا الجامـع الخيالـي تتسـع دروبـه ، ومذاهـبه ، وصـوره حتى يلتئم الوجـود فى النفس الشاعرة التى تدرك خافى العلاقات بين الأشياء وتنظر إليها برؤية خاصة ومـذاق معين ، والخيال بألوانه التى فصلها القدماء والمحدثون من هبات الله للبشرية ، وهو قـــوة مبدعة ملهمة تختلف فى إنسان عنه فى آخر ٠٠ وماالعبقرية إلانفاذ فى القوة الباطنية ، وحـدة فى الخيال ، وتوقـد يلتحـم بالوجود فى إلهـام مقـدس "٠ (١)

والإمـام الزركشى ٧٩٤هـ : يذكـر أن الارتبـاط بين الأيات قد يكـون ظـاهرًا، أوغير ظاهر ٠ وحين لاتظهر المناسبة : فإمـا أن تكـون الآيـة معطوفـة على ماقبلـها، أو، لا ٠ فإذا عطفت فلابـد من جهـة جامعـة ، أمـا : القسـم غير المعطـوف فلابـد من دعامـة تؤذن باتصـال الكلام ، وهى قرائـن معنوية مؤذنـة بالربط ، والأول : مزج لفظى ، وهـذا : مزج معنوى تنزل الثانيـة مـن الأولـى منزلة جزئـها الثـانى ، ولـه أسباب منها : التنظـير ، أو المضـادة ، أو الاستطراد ، أو غير ذلك ٠ (٢)

ويذكـر للدكتور دراز أنه تجاوز بهذه العلاقات إطار النظر فى العلاقـة بين الجملتيـن ـــ وهو مايختص به الفصل والوصل ، كما تجاوز إطار النظر فى العلاقـة بيـن آيـة وأخرى ـــ وهو ماذكره الزركشى ـــ إلى النظر فى علاقات المعانى بيـن طائفـة وأخـرى انطلاقا من أصله الثالث القائم على أن حسن التجاور لايكون دائما بين الآحاد ، كما أضـاف إلى هذه العلاقات أن الاقـتران الزمانى أو المكانى بين المعانى قـد يكون دعامة لاقترانـها فى النظم ٠

---

(١) أسـرار الفصل والوصـل ٠ د: صبـاح دراز صـ ٦٢ ٠

(٢) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشـى جـ١ صـ ٦٦ ـــ صـ ٧٦ ٠

رابعـا : أمـا كلامـه عن الأصـل الثالث فهـو كما قال أستاذنا الدكتور: صـبـاح دراز " مـن إلهامات الشـيخ وإبداعـاته " (١) وهو يختلـف عن مفهـوم عطف القصـة علـى القصـة ، لأن كـلام الدكتور دراز يدل على أن هذا التناسب يقع بعطف وبغير عطف .

فقـد يقـع التناسـب بين غرضـين أو طائفتـين من المعانى على أسـاس مـن الاستئناف البيانـى الذى يثـيره الغرض الأول وذلك كالانتقـال من الحديث عن المؤمنيـن إلى الحديـث عن الكفار فى بدايـة سـورة البقـرة .

فقـد كان قصر الانتفـاع بهدايـة القـرآن على المؤمنين وحدهـم حريـا فـى بادىء الرأى أن يعـد مـن المفارقات التى تثير فى نفس السامع أشـد العجب ؛ إذ كيـف تكون الحقائـق القرآنيـة بهـذه المرتبـة من الوضـوح ثم لاتنفـذ إلى كل قلب يسـمعها، كما كـان موقف النبى الرحـيم فى جـده البالغ فى دعـوة أمـته وحرصه الشديد علـى هدايتهم ـ مصـورا له فى عـين مـن يراه بصـورة الطامع فى إيمان الناس أجمعيـن ، المبتهـل إلى ربـه طالبـا هدايتهـم.(٢)

وجـب إذن أن تقـرر الحقيقـة بصورة حاسـمة لكل طماعية ، وأن تبين مع ذلـك الموانع الطبيعية من عمـوم هداية القرآن بأسلوب ينزه القرآن نفسه عن شائبـة القصـور " إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَرُوا سَـوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَايُؤْمِنُـونَ " { آية /٦} وهكـذا انتقل الحديث إلى الكافرين على وجه يبنى فيه بعض الكلام على بعض إجابة للسؤال الـذى نطقت به الحال وهو مايعرف عند علماء البلاغة بالاستئناف البيانـى (٣)

---

(١) أسـرار الفصل والوصـل فى البلاغـة القرآنية د : صـباح دراز صــ٧٠ .
(٢) انظر النبـأ العظيـم صــ ١٦٦ صــ ١٦٦ .
(٣) انظـر السـابق صــ ١٦٦ .

ونلحظ أن هـذا الاستئناف البيانى لم يكـن نتاج جملـة أثارت سـؤالا فجـاءت الجملة الثانيـة جوابـا له ـ كما هـو معروف فى علـم البلاغـة ـ ، وإنما كـان نتـاج غرض كامـل هـو الحديث عن هـذا الكتاب الكريـم ، وقصـر هدايتـه على المتقـين على الرغـم من وضوح حقائقـه ، ثم جاء الحديث عن الكفار استجابـة لهذا السؤال الـذى وشى به الغرض الأول ، فارتبـط الغرضان بهـذا الاسـتئناف البيانـى ٠

ولاشـك أن هـذه لمحـة ذكـية من الشـيخ تلفتنا إلى إتسـاع مفهوم الإسـتئناف البيانـى ليتعدى الحديث عن ارتبـاط الجملتين إلى الحديث عن ارتباط الأغراض ٠ وهـو كثير جـدا فى القـرآن الكريـم٠

وقد أفاد الأستاذ الدكتور:محمد أبوموسى من هذه اللمحة التى ذكرها الشيخ،حيث قال : " وكمـا تجـد الجملـة فى هـذا الاستئناف تسـتدعي جملة فتتولـد منها ، كذلك تجـد الغرض من أغراض الكـلام يستدعي غرضـا آخـر فيتولـد منـه ، وحينئـذ لايقـع الاستئناف البيانى على جملة ، وإنما يقـع على جملـة من الجمـل تطـول أو تقصـر حسب وفائها بالغرض المستدعي ، وتجدك فى هـذه الحالة بين جزئيـن كبيرين من أجـزاء الكـلام تتعـاون فيه الجمل الأولى التى قـد تطول أو تقصر ، فتحرك النفس نحو موقـف جديد ، وتستشرف أفقـا آخـر من آفـاق المعاني.والبواعـث هنا تولدهـا جملـة مـن الكلام ، وهذا مذهـب واسع في الكلام ، وأكثر الأغراض المستأنفة والتى تقول : إن الكـلام بـدأ يطـرق بابا جـديـدا من أبـواب المعانى ترجع إلى هـذا النوع ، وهو شائع جـدا فى القرآن الكريم " (١) وهذا مما يدل على قيمة الأصل الثالث وفائدته فى ميدان التناسب ٠

---

(١)دلالات التراكيب :دراسة بلاغية:د : محمد أبو موسى ط:دار التضامن الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ١٩٨٧ صـ٣١٧ : وقد نبه إلى ضرورة مراجعة كلام الدكتور دراز فى الآيات التى ذكرهـا ٠

المبحـــث الخـــامـــس

الدكتور دراز وموقفه من " وحدة الموضوع " فى السورة القرآنية ٠

نســب أستاذنا الدكتور : محمــد رجــب البيومــى إلى العلامــة الدكتور دراز القــول بأن أساس التناســب فى الســورة هو " وحــدة الموضــوع " فقــال :

" أما الذين رفضــوا القــول بعــدم الوحدة الموضوعــية من العلماء ، فقــد شــد أزرهــم ماقــرأوه للنيسابــورى ، والبقاعــى فى ذلك ، وذهــبوا يدبجون المقالات والكتب فى إثبات هــذه الوحدة الموضوعية عن ذكــاء يلتمس الفرص القريبة والبعيــدة ، ويتكلــف للجزئيات الكثيرة دائــرة كبرى تنتمــى إليها ٠ وهــو جهــد مشكــور يدل علــى صبر مطمئن ، وإن كنا لانذهــب مذهــبه ؛ إذ ثبــت لدينا كثير مــن التكلــــف فــى رصــده وتثبيتــه ، وسنختار منهم أســتاذينــا المغفــور لهما : الدكتــور محمــد عبــد الله دراز ، والشيخ عبد المتعــال الصــعيدى " ٠(١)

ثــم نقــل من كلام الدكتور دراز مايدل على أنه من القائلين بالموضوع الواحد فــى السورة وهو قــوله : " أجــل : إنك لتقــرأ السورة الطويلــة المنجمة يحســبها الجــاهل أضغاثا من المعانى حشيت حشــوا ، وأوزاعــا من المعانى جمعت عفوا ، فإذا هــى لــو تدبرت بنيــة متماسكــة قــد بنيت على أسس وأصــول ، وأقيم على كل أصل منها شــعب وفصول ٠٠ ، فلا تزال تنتقــل بين أجزائهــا كما تنتقــل بين حجرات وأفنية فى موضــوع واحد قــد وضــع رســمه صــورة واحــدة " (٢)

بعد ذلك عرض لتقسيم الدكتور دراز لسورة البقرة وعلق على هذا التقســيم قــائلا :

" لكننا فى حــل من أن نقــول إن محاولــة هــذه التحديد لم تكن موضــــع اتفــاق بيــن الدارســين ؛ إذ إنها تجاهلت عناصر أخرى جاءت بها ســورة البقــرة ، دون أن يطمئــن دارس محايد إلى اندراجها فيما حــدد الأستاذ من المقاصد إلا بتكلــف كبير ، وقــد أتــاح الدكتور بذلك لكل مبتدىء أن يعمــد إلى ســورة مــن الســور الكريمــة فيختــار بعــض عناصرها المتقاربة ، ويهمل مالاسبيل إلى انضمامه ، ثم يخرج على الناس يــهتف بوحــدة الموضوع فى الســورة القرآنيــــة " (٣)

---

(١) البيان القرآنى د٠ محمد رجب البيومــى صــ ١٩٠ صــ ١٩١ ٠

(٢) النص فى النبأ العظيم للدكتور دراز صــ١٥٥ونقله الدكتور البيومى صــ١٩٢ ، وليس فى نــص الدكتور دراز لفــظ " موضوع واحــد "

(٣) البيان القــرآنى صــ١٩٤صــ١٩٥ ٠

وبهذا يضعنا الدكتور البيومي أمام أمور محددة وهي :

١- أن الدكتور دراز من القائلين بوحدة الموضوع في السورة القرآنية .

٢- أن هذه نظرة لاتعتمد على أسس موضوعية ، وتجاهلت عناصر أخرى جاءت بها سورة البقرة .

٣- أنه يتيح لكل مبتدىء أن يخرج على الناس يهتف بوحدة الموضوع في السورة القرآنية .

ولابد من وقفة أمام كل أمر من هذه الأمور لمحاولة استبصاره.

فالأمر الأول : وهو نسبته القول بوحدة الموضوع إلى الدكتور دراز ، ففي كلام الدكتور دراز نفسه مايدل على غير هذا ، فقد نص صراحة على أن السورة الواحدة تشتمل على موضوعات كثيرة فهو يقول :

" فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظامه البياني التأليفي في القطعة منه ، حيث الموضوع واحد بطبيعته ، فهلم إلى النظر في السورة منه؛ حيث الموضوعات شتي، والظروف متفاوتة ، لترى في هذا النظام ماهو أدخل في باب الإعجاب والإعجاز"(١)

ويقول في موضع آخر : " قبل أن نترك هذا الفصل ينبغي أن نركز بعض الجهد على نقطة غفل عنها جميع المستشرقين ، فضلا عن بعض علماء المسلمين، وهي طريقة القران في معالجة أكثر من موضوع داخل السورة القرانية الواحدة"(٢)

كما أن ماذكره في قيمة التناسب القرآني ، وأنه العقدة التي يطلب حلها إلى الآن في كل فن ، والمقياس الدقيق الذي تقاس به براعة الكاتب ودقة ذوقه(٣) كل هذا لايمكن القول به ، وهو يؤمن بأن أساس التناسب في السورة هو . " وحدة الموضوع " .

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٤٤ .

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم صـ ١١٨ .

(٣) النبأ العظيم صـ ١٦١ .

والأمر الثاني : وهو نقده لهذا الاتجاه الذى سلكه الشيخ بأنه لايستند إلى أسس موضوعية ، فهذا ليس نقدا يعيب ، بل هو يفتح الباب أمام كل فاقه بصير ليكشف جانبا من جوانب الجمال القرآني مادام يملك سبل الذوق ، والفهم ، والاقتدار ٠

أما الأمر الثالث : وهو أن الدكتور دراز يتيح لكل مبتدىء أن يهتف بوحدة الموضوع فى السورة، فالواقع أن مثل الدكتوردراز ينزه عن هذا، لأنه لم يقل بوحدة الموضوع فى السورة ، وإنما دعا إلى دراسة التناسب فى السورة القرآنية للوقوف على الخصائص البيانية التى انفرد بها القرآن فى سورة سورة منه، وحين دعا إلى ذلك ـ أوجب على الناظر إحكام النظر فى سائر عناصر السورة وضبط مقاصدها ، ورد أولها إلى آخرها ، وآخرها إلى أولها قبل النظر فى هذا التناسب ، هذا مع اعترافه بصعوبة اكتشاف العلاقة بين الأفكار بعضها وبعض (١) وطبيعة النظم القرآنى وأنه كلام الله المعجز سيظل دائما خصبا يسع عديد الآراء الصائبه ، مع تغير الزمان والمكان ٠

---

(١)انظر مدخل إلى القرآن الكريم د: دراز صـ ١٢٢ ٠

المبحث السادس

من سبل الشيخ فى استنباط المعانى

أ ـ تحليل البناء اللغوى للنص تحليلا مبنيا على التذوق

ب ـ السياق ٠

جـ ـ الجمع بين النصوص المتشابهة والتماس مابينها من اختلاف

لاريب أن الوقوف على علاقات المعانى ولحم النسب التى بينها ـ يكون بعد تذوق هذه المعانى ، واستبصارها ، وتحديد مسارها داخل النص ٠ وهذا التذوق والاستبصار له سبله العديدة التى يرتكز عليها الناظر فى تعامله مع النص ، حتى يتسنى له سبر أغواره وضبط مقاصده ، وتتبع حركة معانيه ٠ وهو مايسهل الوقوف على الوشائج وصلات الرحم التى تربط بين هذه المعانى ٠

وقد انطلق الدكتور دراز فى تذوقه واستبصاره للمعانى داخل النص من عدة سبل أهمها :

أولا : تحليل البناء اللغوى للنص تحليلا مبنيا على التذوق :

فهو يقف مع دلالة اللفظ ، ثم مع دلالات وخصوصيات النظم الذى ضمه فى بنائه ، ثم يكون النظر فى النظم سبيله إلى الغوص على المعانى التى يحويها والعلاقات التى تربط بينها ، فيتكشف له بذلك سر حسن الإختيار وحسن الموقع وهما عماد المفاضلة فى أمر البيان ٠

وهذا النهج القائم على تحليل البناء اللغوى تحليلا مبنيا على التذوق ـ هو النهج الذى أرسى دعائمه الإمام عبد القاهر ٤٧١هـ حين جعل النظم أساس المفاضلة وبين أنه يحمل من الخصائص ماينزل به إلى حد العجز ، أو يرفعه إلى حد الإعجاز ٠ ثم رفض التعويل على الإشارات العامة أو المبهمة فى حسن النظم ، واشترط وضع اليد على هذه الخصائص وعدها واحدة واحدة٠(١)

---

(١) انظر دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر صـ ٣٦، صـ ٣٧ ٠

وهـذا المنهـج التحليلـي هـو أبر المناهج رحما بالنص ؛ لأنـه قادر علـى سبر أغواره، واستكشـاف أسراره التي أودعها القائـل في خصائص نظمـه وبناء لغتـه الـذي هو في الحقيقـة بناء نفسه مردودًا في هذه اللغـة . كما أنه قادر على إثارة أفكار مختلفة في نفس قارئـه .

يقـول الأسـتاذ الدكتـور محمـد أبو مـوسـى :

" أعتقـد أن منهج تحليل اللغـة الذي يعلمه عبد القاهـر هو السبيل إلى منـح النـص القدرة على إثارة أفكـار في نفس دارسه . وآفـة المعرفـة الفهـم السطحي ، وسخاؤهـا كله يتجلـى لك إذا أبرزت مـكنون ضمائرهـا". (١)

وقـد تجلـى أثر هـذا السبيل في نظرات الدكتور دراز في " فاتحـة الكتاب " فـهو يقـول - رحمـه الله - : " يجمـل بنا أن نقف وقفـة يسيرة مع هـذه الحبـات الدريـة التي يتألف منها هـذا الجناح الأول من السـورة لكي نمتـع عقولـنا وقلوبـنا بتـذوق معانيها ، واجتـلاء جمال مواقعهـا . لنبدأ بهـذه الصفات الحسـنى " رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ " { الفاتحة /١-٣} . شذرات ثلاثـة انتظمت أركـان العقيدة القرآنيـة الثلاثـة في ترتيب بالغ الغاية في الدقـة والإحكام : المبدأ ، فالواسـطة ، فالجزاء . " رَبِّ الْعَالَمِينَ " ليس إله قبيلـة ، أو شعب ، ليس إله خير أو شـر ، لكنـه رب كل شـيء: بارئه ومصوره ، منقلـه في أطواره ، مبلغـه غايته وبالجملة مربي كل شـيء بأنواع التربية الظاهرة والباطنة ، وهـذا هـو التوحـيد الخالص وهو ركن المبدأ " (٢)

---

(١)مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني د: محمد أبو موسى صـ ٥٣ .

(٢)نظرات في فاتحة الكتاب المبين د: محمد عبدالله دراز . بحث نشر بمجلة " المجلة" عـدد رقم ٧ ذو الحجـة ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م صـ ١١ .

ونلحظ أن الشيخ لايذكر المسميات أو المصطلحات البلاغية ، وإنما يعمد إلى أسرارها ، وينفذ إلى الدلالات الغائرة فى بواطن الألفاظ ، فقد اختار الشيخ تفسير دلالة " رَبِّ " على معنى " المربى " الذى يتولى كل شيء بأنواع التربية الظاهرة والباطنة ولم يذكر أنها بمعنى " المالك — وهى من دلالاتها ؛ يقال : " رب الشيء " أى مالكه — وهذا لأن الدلالة الأولى أنسب بالمقام ؛ " إذ المراد أنه مدبر الخلائق ، وسائس أمرها ، ومبلغها غاية كما لها ، ولأنه لوحمل على معنى " المالك " لكان قوله بعد ذلك : " مَالِكِ " كالتأكيد وهو خلاف الأصل " (١)

وكذلك قوله : " وبالجملة فهو مربى كل شيء" . هو ثمرة التعريف " بأل " الاستغراقية فى " الْعَالَمِينَ " ، وثمرة التعبير بالجمع دون الإفراد .

يقول الزمخشرى : " فإن قلت لم جمع ؟ قلت : ليشمل كل جنس مما سمى به".(٢)

" الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ " { الفاتحة /٢} .

يقول الشيخ : " ليس رحمانا رحيما فحسب ولكنه هو " الرحمن الرحيم " . ليس من جملة الراحمين ، وإنما هو المصدر الوحيد للرحمة ، ثم هو ليس ذا رحمة واحدة، ولكنهما رحمتان مفسرتان فى القرآن : رحمة وسعت كل شيء ، ورحمة يختص بها من يشاء .

فالرحمة الأولى: وسعت الإنسانية جميعا ، لاأقول : وسعتها بنعمة الوجود والحياة والرزق المادى فحسب ، ولا أقول : وسعتها بنعمة الهداية النظرية وكفى ، ولكن بنعمة الهداية السماوية نفسها : بإرسال الرسل إلى كل الأمم : " وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" { النحل /٣٦} .

هذه الرحمة الأولى : الرحمة الإنسانية العامة التى هو بها " رحمن " ...،

ورحمة أخرى خصوصية إضافية يمنحها لمن يستحقها : تلك هى رحمة الاصطفاء والاجتباء : " اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ " { الحج /٧٦}.

---

(١)التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ١ صـ ١٦٨ .

(٢)الكشاف للزمخشرى جـ١ صـ ١٠ .

وهـذه هـي الرحمـة التي هـو بها " رحـيم " على هاتـين الرحمتين يقوم ركـن النبوات ٠ فهـو رحمـة عامـة للمرسـل إليهـم،ورحمـة خاصة للمرسلين ومن اهتـدى بهديهـم ٠ وهـذا هو الواسـطة بين المبدأ والمعـاد " ٠(١)

وهذا التحليل الرائع والدلالات المتراحبة هو بيان لسر التعريف فى" الرَّحْمَنِ الرَّحِيـمِ"، ودلالتـه على القصر ، ثم هـو بيان لسر الجمع بين الوصفين الجليلين مع دلالـة كـل واحد منهـا على الرحمة ، لأن لكل لفظ دلالـة يخالف بها الأخرى ٠ وجعل " الرحمـة " المتعلقـة باسمه " الرَّحْمَـنِ " عامة لجميع الخلائـق ، والمتعلقـة باسـمه " الرَّحِيـمِ " خاصة بمن اصطفـاه الله واجتباه – مبنى على ماذكـره الإمام الطبرى ٣١٠هـ – من التفرقـة بين " الرَّحْمَـنِ " و " الرَّحِـيمِ " حيث حكى بسـنده عن العزرمى أنه قـال :
" الرَّحْمَـنُ " بجميع خلقـه ٠ " الرَّحِيـمَ " بالمؤمنـين ٠

ثـم علـق على الكـلام السـابق قائـلا " المعنى الذى فى تسميته بـالرحمن دون المعنى الذى فى تسميته بالرحيم ٠٠ وهو أنه بالتسـمية " بـالرحمن " موصـوف بعمـوم الرحمة جميع خلقه ، وبالتسمية " بالرحيم " موصوف بخصوص الرحمة ببعض خلقه"٠(٢)

وهـذه الآيـة تمثل الواسـطة بين المبدأ والجزاء " ركـن النبوات " ٠ ولعل اختيـار الشيخ " للنبـوات " دون غيرها من مظاهـر الرحمة ؛ لأنهـا رحمة عامة للمرسل إليـهم ، ورحمة خاصة للمرسـلين ومـن اهتدى بهديهـم " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِـينَ " { الأنبيـاء /١٠٧}٠

---

(١) نظرات فى فاتحـة الكتاب صـ ١١ ، ١٢ ٠

(٢) جامع البيان فى تأويل آى القرآن للإمام الطبرى جـ١ صـ ٤٣ ٠

" مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ " { الفاتحة /٣}٠

" إليه وحده ترجع الأمور، بيده تقرير الأمور؛ يقف الخلق جميعا بين يديه مسئولين فيدينهم ويجزيهم بما كانوا يعملون ٠٠ وهذا هو الركن الثالث الأخير: ركن المعاد والجزاء " (١)

وبعد أن حلل الشيخ دلالات هذه الشذرات الثلاثة وأبان عن سر ترتيبها فيما بينها ـ يتجه إلى بيان سر موقعها جملةً مما حولها فيقول : " فلننظر إلى موقعها مما حولها لنرى كيف وقعت بين قضيتين " الْحَمْدُ لِلَّهِ " و " إِيَّاكَ نَعْبُدُ " فكانت تأييدا لما قبلها ، وتمهيدا لما بعدها ٠ فمنزلتها من قضية " الحمد " منزلة البرهان من الدعوى ، ومنزلتها من قضية العبادة منزلة القوة المحركة من الحركة المطلوبة"٠(٢)

فهذه الأوصاف الثلاثة تنزل من قضية الحمد منزلة الأدلة على وجوب استحقاقة الحمد ـ سبحانه وتعالى ـ ،كما أنها قوة تحرك القلب والنفس إلى عبادته ، وقد ذكر الزمخشري ٥٣٨هـ السر في ذكر هذه الصفات بعد قوله تعالى:" الْحَمْدُ لِلَّهِ " فقال : " وهذه الأوصاف التي أجريت على الله ـ سبحانه ـ من كونه : ربا مالكا للعالمين لايخرج منهم شيء من ملكوته وربوبيته ، ومن كونه منعما بالنعم كلها٠٠، ومن كونه مالكا للأمر كله والعاقبة يوم الثواب والعقاب ٠ بعد الدلالة على اختصاص الحمد به ، وأنه حقيق به في قوله : " الْحَمْدُ لِلَّهِ " ـ دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله "٠ (٣)

(١) نظرات في فاتحة الكتاب صـ١٢ ٠
(٢) السابق صـ١٢ ٠
(٣) الكشاف للإمام الزمخشري جـ١ صـ١٢صـ١٣ ٠

وكلام الدكتور دراز تلخيص دقيق لما ذكر الزمخشرى ؛ فقد جمع زبدة كلامه فى جملة موجزة:" فكانت تأييدا لما قبلها ... ومنزلتا منزلة البرهان من الدعوى"

كما أن قوله : " إن منزلتها من قضية العبادة منزلة القوة المحركة من الحركة المطلوبة " قريب " مما ذكر السكاكى ، ولعل الشيخ ناظر إليه .

يقول السكاكى: " فإنه متى افتتح الكلام على الوجه الذى عرفت مجريا على لسانه " الحمد لله " أفلا يجد محركا للإقبال على من يحمد من معبود عظيم حقيق بالثناء والشكر . ؟ ثم إذا انتقل إلى قول : " رَبِّ الْعَالَمِينَ " واصفا له بكونه ربا مالكا للخلق لايخرج شيء عن ملكوته وربوبيته أفترى ذلك المحرك لايقوى ؟ ! ثم إذا قال: " الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ " فوصفه بما ينبىء عن كونه منعما على الخلق بأنواع النعم .. أفلا تتضاعف قوة ذلك المحرك عند هذا ؟ ثم إذا آل الأمر إلى خاتمة هذه الصفات " مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ " المنادية على كونه مالكا للأمر كله فى العاقبة يوم المحشر ـ فماظنك بذلك المحرك ؟ أيسع ذهنك ألا يصل إلى حد يوجب عليك الإقبال على مولى شأن نفسك معه منذ افتتحت التحميد ـ ماتصورت فتستطيع أن لاتقول : إياك يامن هذه صفاته نعبد ونستعين لاغيرك " (١)

وقد قدم الدكتور دراز خلاصة هذا الكلام حين ذكر أن منزلة الآيات من قضية العبادة منزلة القوة المحركة من الحركة المطلوبة .

ثانيا : السياق :

وهو من أهم السبل التى أفاد منها الشيخ فى تفرس المعانى ، واستبصارها، والكشف عن أسرارها، وتحديد وجهتها ـ فقد اتخذه نهجا بيانيا يستملى منه ملامح المعنى، ويحدد صورته الدقيقة ، ويوضح الخيوط التى تربط بين أجزائه ، وألوان الدلالات الخفية التى تسبح وراء المعانى الظاهرة .

---

(١) مفتاح العلوم للإمام السكاكى صـ٢٠٢صـ٢٠٣ .

والسياق أبرز الروافد رحما بالمعنى ، وأعظمها أثرًا فى تحديده وبيان مغزاه، سواء أكان المعنى قرآنيا ، أو نبويا ، أو إنسانيا ، فانتزاع الآية من سياقها الذى وردت فيه كانتزاع الشجرة من أرضها التى نبتت فيها : وهو موت لامحالة ؛ لأن حياة هذه الشجرة وعطاءها — مرتهن ببقائها فى هذه الأرض التى تمدها بماء الحياة • ومثل ذلك نزع الجملة النبوية ، أو الإنسانية ومحاولة فهمها بعيدًا عن أرضها التى نبتت فيها •

والسياق نوعان :

" سياق مقالى : ماثل فى تركيب النص وقرائنه البيانية الملفوظة ، والملحوظة ، والعلائق بين عناصر بنيته فى ظرفها الخاص المحدود ، وظرفها العام الممدود عبر التاريخ الوجودى للنص فى جنسه القولى "• (٢)

" وسياق مقامى : وهو واقع حضارى اجتماعى للنص ماثل فى عالمه الخارجى الذى ينبعث فيه ، وهو ليس جزءًا من البنية اللغوية للنص • وإن كان أفقا حضاريا تتشكل البنية اللغوية على نحو خاص يتناغى معه •• ولكل مقام مقال"•(٣)

---

(١) مفتاح العلوم للإمام السكاكى صـ٢٠٢،صـ٢٠٣ •

(٢) فقه بيان النبوة منهجا وحركة د: محمود توفيق سعد • مطبعة الأمانة — الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م صـ١٠ •

(٣) السابق صـ ١٤ •

وهـذا السـياق المقالـى كان أحـد الأسس التى ارتكـز عليها الشيخ فـى اسـتنباط ماذكـره فى المثلين الوارديـن فى سـورة البقـرة فى قـوله تعالى :" مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّـذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَاحَوْلَـهُ ذَهَـبَ اللَّهُ بِنُورِهِـمْ وَتَرَكَهُـمْ فِـى ظُلُمَـاتٍ لَايُبْصِرُونَ * صُـمٌّ بُكْـمٌ عُمْىٌ فَهُـمْ لَايَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّـمَاءِ فِيـهِ ظُلُمَـاتٌ وَرَعْدٌ وَبَـرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُـمْ فِى آذَانِهِـمْ مِنَ الصَّوَاعِـقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيـطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُـمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَـمَ عَلَيْـهِمْ قَـامُوا وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ لَذَهَـبَ بِسَـمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِـمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَـى كُـلِّ شَـىْءٍ قَدِيـرٌ"{البقرة/١٧ـ٢٠}٠

فجمهـور المفسرين على أن هذين مثلين ضربهـما الله للمنافقين زيادة فـى الكشـف والبيان عن حقيقتهـم(١) ٠ ولكن الدكتور دراز يستمد من السياق المقالى وخصائص النظم مايدل على أن المثل الأول للكفار ، والثانـى : للمنافقـين فيقـول : " إذا رجعـت بنفسـك إلى أجزاء المثلـين سترى معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الإنطباق على الأوصاف التـى ذكرها الله للكافرين ، وأن الذى ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثـانى وحـده؛ فهؤلاء القوم الذين ذهـب الله بنورهـم وتركهـم فى ظلمات لايبصرون ٠٠ أليسـوا هـم أولئك القـوم الذين ختم الله على قلوبهـم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ٠ وهـذه الظلمات المسـتقرة التى ليس فيها بصيص من نور وليس فيها تذبذب ولاتقلب ـ هل تـرى فيها تصوير النفاق ووجوهـه المختلفة باخـتلاف الأحـوال ؟ "٠ (٢)

---

(١) انظر الكشاف للزمخشرى جـ١ صـ ٧٢ـ ٨٢، ومفاتيح الغيب للإمام الرازى جـ٢ صـ٨٠ـ٩٠ وتفسير ابن كثير الطبعة الأولى جـ١ صـ ٩٣ ، والتحرير والتنوير لابن عاشور جـ١ صـ ٣٩، وتفسير المنار للشيخ رشيد رضا جـ٢ من صـ١٤٠ ـ صـ١٥٠ وغيرهـا ٠

(٢) النبـأ العظـيم صـ ١٦٨ ٠

فالشيخ يربط بين عناصر الصورة ، وبين طبيعة النفس التى تصورها . فهى نفس مظلمة ختم على قلبها وسمعها وأبصارها . وهى سمات ملازمة لها ، ذكرها القرآن فى مواطن كثيرة منه .

" وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا " { الإسراء/٩٧}، " مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ " { هود/٢٤} ، " وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ " { الأنعام /٣٩} فهذه كلها سمات تكررت فى القرآن وصفا للكافرين وهى توائم ماتقدم فى سورة البقرة وتؤيده .

أما المثل الثانى فهو يوائم حال المنافقين ؛ " حيث يتعاقب فيه الظلام والنور، والوقوف والمسير ، وكذلك نرى قوما لهم أسماع وأبصار لم يذهب الله بها ولوشاء لذهب . وهذا مناسب لقوله فى المنافقين : " فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ " فوصفهم بالمرض ، ولم يصفهم بالختم الكلى على القلوب والحواس " (١)

وبناء على هذا الاستبصار لخصائص الصورة التى حددها النظم، والمواءمة بينها وبين طبيعة النفوس التى كشفت عنها ـ فسر الشيخ المثل الأول على وجه غير الذى ذهب إليه المفسرون الذين جعلوه مثلا للمنافق الذى تكلف النطق بكلمة الإسلام خداعا فلم ينتفع بها إلا يسيرا فى دنياه ثم قضى أجله ومضى إلى عمله فإذا هو فى الظلمات والخسران المبين . (٢)

---

(١) النبأ العظيم صـ ١٦٨، صـ١٦٩ .

(٢) تراجع الآية عند المفسرين فى المراجع السابقة .

وجعلــه الشــيخ مثــلا للمصريــين المختــوم على قلوبهــم حيــث مثلهــم القــرآن " بقــوم كانــوا يسيرون فى ظلام الليل فقــام فيهم رجــل استوقــد لهــم نــارًا يــهتدون بضوئهــا فلما أضــاءت ماحولــه لم يفــتح بعض القوم أعينهــم لهذا الضــوء الباهر بــل لأمــر ماسلبوا أبصارهــم ، وتعطلــت سائــر حواســهم عند هــذه المفاجــأة .. فذلــك مثل النور الذى طلــع به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على تلك الأمــة الأمية فتفتحــت له البصائــر المستنيرة هنا وهناك ؛ ولكنه لم يوافــق أهــواء المستكبرين .. الذين ألفــوا العيش فى ظلام الجاهلية .. فلم يفتحوا له عينا ، بل خروا عليه صما وعميانا" (١)

والشــيخ لاينكــر تأويل المفسرين ، ولكنه يذكر أن الوجه الذى ذكــره يجمــع إلــى الصحة العقليــة واللغويــة ـ أنه مستنبط من نظم القرآن نفسه ، وأقرب لأســلوبه وأليــق بجزالــته . وهو يوضح لنا كيف استنبط هــذا المعنى من نظم القــرآن فيقــول :

" لقــد نظرنا إلى المثلين فرأينا الأســلوب فيهما يتجــه اتجاها متوازيا ؛ وجدنــا فــى صدر كل منهما حديثا عن شيء مفــرد ، وفى عجز كل منهما حديثا عــن جماعــة ، ثــم نظرنا إلى المثل الثانى فرأينا الضمير المجموع فيه ليس راجعا إلى مرجع الضمير المفـــرد بل هــو راجع باتفاق المفسرين ـ إلى أمر مفهوم من فحوى الكلام هو القوم الذيــن نــزل عليهم الصــيب ". (٢)

وهــذا التوازى فى اتجاه الأسلوب فى المثلين ـ جعل الشيخ يعود إلــى المثــل الأول متسائلا : لماذا لايكون سائرًا على النهج ؟ فيكون الضمير المجموع فيه راجعا إلــى القــوم الذين استوقدت النار من أجلهم ، ويدعــم هذا الرأى بقــولــه :

---

(١) النــبأ العظــيم صــ ١٦٨ ـ صــ ١٦٩ .

(٢) الســابق صــ١٦٨ .

" أليس السامع متى انتهى إلى كلمة " ماحوله " يزداد شعورا بأن هنالك قوما مشبها بهم ؟ إذ سرعان مايتنقل الذهن من المكان إلى السكان ، وهذه الخطوة لم تلبث أن لحقتها الخطوات التالية : وهى أن النور الذى ذهب الله به ؛ إذا كان هو نور أولئك القوم ولم يكن ضوء النار التى استوقدها المستوقد ، فهى إذن لم تطفأ ولم يذهب ضوؤها ، فما يكون مضرب المثل بهذا الضياء الذى بقى هو وذهب غيره ؟ ألا يكون هو ضوء الهداية الحقيقية التى أبى الله إلا أن يتم بها نوره ولو كره الكافرون ؟ ثم من يكون مضرب المثل بمستوقد النار ؟ ألا يكون هو الهادى الأعظم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ".(١)

واستنباط الشيخ مبنى على قياس المثل الأول على الثانى . وأظن أن طبيعة المثل قاضية بما استنبط الشيخ ، وإن لم يسترشد بالمثل الثانى ـ ؛ لأن ضرب المثل يقصد منه تشبيه قصة بقصة ، ووجود القوم الذين استوقدت النار من أجلهم يستدل عليه بجملة من الضمائر والأوصاف فى الآيات " بِنُورِهِمْ ، ـ تَرَكَهُمْ ـ ، لَايُبْصِرُونَ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَايَرْجِعُونَ ".

كما أن صحة استنباط الشيخ مرتهنة ببقاء النار موقدة ـ وهو مالم يقل به المفسرون ، فهم على القول بانطفائها ، وجعل ذلك مثلا لانطماس البصائر . والنظم يجعل رأى الشيخ أقرب ؛ وذلك أن الله عز وجل . قال : " بِنُورِهِمْ " فأضاف النور إليهم. ولو كان المقصود انطفاء النار ، لقال : " بنورها " أو " بالنور " . وإسناد النور إليهم دليل على بقاء النار موقدة. وهو مادفع الشيخ لتأمل سر بقائها .

---

(١)النبأ العظيم صـ ١٧٠ .

كمـا أن معهـود القـرآن يؤيـد وجهـة الشيخ ؛ فالقـرآن يضرب النور والضيـاء مثـلا للهدى والإيمان ، والظلمـة والعمى مثـلا للجهل والكفران " أو مـن كـان ميتـا فأحييناه وجعلنا له نـورا يمشى به فى الناس كمـن مثله فى الظلمات ليس بخارج منـها كذلك زين للكافرين ماكانوا يعملـون " {الأنعام/١٢٢} ٠

بـيد أن اتفـاق التفاسير على جعل مستوقد النار مثـلا للمنافـق جعل الشيخ يتـهيب من أن يضربه مثـلا لرسول الله ــ صلى الله عليه وسـلم ــ دون أن يجد شاهدا يؤيد ذلـك الإطلاق من الكتاب أو السـنة يقـول الشيخ : " ومابرحـت هذه المخالفة التى تحيـك فـى الصدور وتبعد اطمئنان القلب ، حتى ظفرنا بشاهده الصريح الصحيح فى حديث رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث يقـول : " إنما مثلى ومثل الناس كمثل رجل استوقد نـارا فلما أضـاءت ماحولـه جعل الفراش وهذه الدواب التى تقـع فى النار تقع فيـها فجعـل ينزعهن ويغلبنـه فيتقحمن فيها فأنا آخـذ بحجزكـم وأنتم تقتحمون فيها " (١)٠٠ نعم إن التمثيل فى الحديث من وجـه غير الوجـه ا الذى فى الآيـة ، ولكـن هذا لايضيـــر؛ إذ المثـل الواحد يضرب لمعان متعددة باعتبارات مختلفـة " (٢)

أمـا السـياق المقامـى : فهـو يشـمل العلم بسـبب نـزول الآيـة ، أو ورود الحديث ، أو مناسـبة العمل الأدبى ، كما يشمل إدراك الواقع الذى قيل فيه النص ، ودراسة جوانبه المختلفـة التى تسهـم فى تجليـة غوامض النص ، وتحديد مساره ودلالتـه ؛ لأن المتكلم لايضع أمارات تفهيم غرضه كلها فى كلامه ، بل إن كثيرا من هذه الأمـارات قـد يكون خارج النص ، ولكن استحضاره واجب عند الفهـم والإسـتبصار ٠

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى كتاب الفضائل باب" شفقته ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أمته ومبالغته فى تحذيرهـم ٠

(٢) النبـأ العظـيم صـ ١٧١ ٠

فالعـلم بسـبب نزول الآيـة ـ مثلا ـ " يتضمـن العلم بتلك القرائن التـى لـم ينقلها القـرآن في نص الآيـة اعتمادا على وجودها بين الأقوال والأحوال التى صا حبـت، أو تقدمـت نزول الآيـة ، والوقوف على تلك الأحوال والأقوال لابـد منه فى فهم القـرآن على وجـه صحيح ؛ فهى التى يفصل بها مافيه من إجمال ، وتدفـع ماقد يحوم حوله مـن تناقض أو لبس أو إشكال ، وهـذه الفائـدة الجليلـة ٠٠ تتبعها فائد تـان أخريـان ٠٠ فالباحث في وجـوه إعجاز النظم القرآنى لايقـف على درجته مـن البلاغـة إلا بمعرفـة مطابقته لمقتضيات الأحوال ، ولايعرف مقتضيات الأحوال ، بدون معرفة الأحـوال التـى تقتضيها ، ولايعرف هذه الأمور إلا بمعرفـة أسباب النزول "٠ (١)

وهكـذا لاينبغـى أن ينطلق الناظر إلى استنباط المعنى القرآنى قبل أن يقـف علـى سبب نزوله؛ فهو الذى يبين مغزى النص ووجهتـه للمفسر ، كما يبيـن مـدى المطابقـة لمقتضى الحال للباحث فى وجوه إعجاز القرآن النظمى ٠ وإذا لم يضع الباحث هذا الرافـد فى اعتباره عند الفهم والاستبصار للمعنى ، فالضلال واقع لامحالة ٠ وكثير ممن وقع فـى الضلالة ، وقع لأنه ترك هذا الرافد ودار فى فلك النص مفصوما عن معينه الذى خرج منه وبابه الذى نزل فيه ٠ " فما حكـم الخوارج بخلود مرتكب الكبيرة فى العذاب إلا لجهلـهم بالأسباب التى نزلت فيها آيات الوعيد فحملوها على عمومهـا " ٠ (٢)

لكـن السؤال الذى يـرد : هـو أن كثيرا من الآيات تنزل على غير سـبب، وإنمـا تأتي ابتداء لتحليل شيء ، أو تحريمه ، أو لمعالجة أمر من أمـور الحيـاة ٠ فمـا واجـب الباحث عن المعـنى حـينئذ ؟ ٠

---

(١)أسباب النزول بحث : للدكتور دراز قدمه لهيئة كبار العلماء صـ٢٧ ٠

(٢) السابق صـ ٩٢ ٠

لابد للباحث حينئذ من دراسة واقع التنزيل ؛ " لأن دراسة الواقع المعيش زمن التشريع لرصد حركة الحياه فيه ، وما كان غالبا على أمر هذا الزمن ، وماكان غير غالب ــ يمكّن من إدراك الأحكام فى ضوء ذلك ، ويمكّن من اصطفاء السبيل الأقوم إلى استنباط المعنى من النص "٠ (١)

وكما يعين العلم بأسباب النزول وواقع العصر على استبصار المعانى وتوجيه مغزاها ، فهو يعين أيضا على الوقوف على علاقات هذه المعانى ، وأسرار التناسب بينها ، بل ربما تخفى المناسبة فلا يظهرها إلا إدراك سبب النزول ٠ ويمكن أن نذكر من كلام الشيخ ما يبين عن إفادته من أسباب النزول ووقائع العصر فى إدراك التناسب بين المعانى ٠

ففى سورة البقرة حين ذكر الحج فى قوله تعالى : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ " { البقرة /١٨٩ } ــ لم تتصل أحكام الحج به ولاء ، بل فصل بين اسمه وأحكامه بست آيات فى أحكام الجهاد بالنفس والمال فى قتال الأعداء {١٩٠ــ ١٩٥}٠

" وهى فاصلة يحسبها الجاهل رقعة غريبة فى ثوب المعنى الجديد ، ولكن الذى يعرف تاريخ الإسلام وأسباب النزول يعرف ما لهذه الفاصلة من شرف الموقع وإصابة المحز ــ لا لمجرد الاقتران الزمانى بين تشريع الحج وبين غزوة الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة ، ولكن لأن أداء المناسك فى ذلك العام كان عزما لم ينفذ ، وأملا لم يتحقق ؛ إذ أحصر المسلمون يومئذ عن البيت ، وهموا أن يبطشوا بأعدائهم الذين صدوهم عنه لولا أن نهاهم الله عن البدء بالعدوان فانصرفوا راجعين مستسلمين لأمر الله ، منتظرين تحقيق وعد الله ٠ كذلك فلينصرف القارئ أو المستمع ها هنا وهو متعطش لإتمام الحديث عن الحج على أن يعود إليه بعد فاصل ، كما انصرف المسلمون إذ ذاك عن مكة وهم إليها متعطشون على أن يعودوا إليها من عام قابل ٠ هكذا كانت هذه الآيات الفاصلة تذكارا خالدا لتلك الأحداث الأولى " (٢) ٠

---

(١) سبل الاستنباط من الكتاب والسنة دراسة أصولية بيانية ناقدة : د: محمود توفيق سعد مطبعة الأمانة الطبعة الأولى ١٤١٣ ــ ١٩٩٢ صــ ٢٨٣ ، صــ ٢٨٤ ٠

(٢) النبأ العظيم ص ١٩٨ ، ١٩٩ ٠

فالذى يدور فى فلك الآيات مقصومة عن سياقها المقامى تتراءى لـه وكأنها مقحمة فى غير موضعها ، ولكن استحضار تاريخ الأحداث ، وأسباب النزول يكشف لنا أواصر الرحم القوية بين هذه المعانى ، والدقة المتناهية فى وضع هذه الآيات فى موضعها ؛ ذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما صُدَّ عن البيت هو وأصحابه، نحر الهدى بالحديبية،ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه ، ثم يأتى القابل ـ على أن يخلوا له مكة ثلاثة أيام يطوف بالبيت ويفعل ما يشاء ، فلما كان العام القابل تجهز رسول الله هو وأصحابه لعمرة القضاء ، وخافوا ألا تفى قريش بذلك ، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ، وكره أصحابه قتالهم فى الشهر الحرام فى الحرم ، فأنزل الله " وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ . . " (١) { البقرة/١٩٠ } .

ثالثا : الجمع بين النصوص المتشابهة ، والتماس ما بينها من اختلاف للوقوف على أسرار المعانى :

الجمع بين الظاهرة الأسلوبية ونظائرها ـ سبيل مهم من سبل فهم المعانى ، ففى القرآن مثلا كثير من الآيات التى تتشابه فى موضوعها ونظمها ، ثم يكون بينها من الاختلاف مايلفت النظر ، فقد يذكر فى آية مايحذف من أختها ، أويقدم فيها مايؤخر فى أخرى إلى غير ذلك من ألوان الاختلاف،والجمع بين الآيات والوقوف على مابينها من اختلاف قد يزيل إبهاما ، أويفصل إجمالا ، أو يزيل إشكالا ، كما يبرز خصائص كل نظم ، ويعين على كشف العلاقة بينه وبين الغرض الذى جاء له ، والسورة التى ذكر فيها .

---

(١)أسباب النزول للإمام الواحدى صـ ٥٧ ، صـ ٥٨ .

وقد ارتكز الشيخ على هذا الرافد في بعض تحليلاته ، ومن ذلك وقفته مع قوله تعالى في سورة الملك : " إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ "، { الملك /٧} فقد جمع الآيات التي تشبهما من السور المختلفة . ثم قال :

" في هذه الآية نجد تصويرا مروعا لدار العذاب الجثماني يصف شهيقها، وغليانها ، واضطرابها . وقد جاء ذكر الشهيق ، وفي سورة الفرقان ذكر " الزفير" وفي سورة " الأنبياء " جاء ذكر " زفير أهلها " ، وفي سورة : هود : ذكر " زفيرهم وشهيقهم معا " . ومن تأمل مواقع هذه الأوصاف المختلفة تبين له وجه اختلافها ؛ فالشهيق : حركة النفس أخذاً و اجتذاباً، والزفير : حركة النفس طردا ودفعا . والذي يحسه المقبل على النار عن بعد إنما هو زفيرها وقذفها بالحرارة واللهب . وهذا هو الذي ورد في سورة الفرقان " إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا " { الفرقان/١٢}. فإذا اقترب منها ودخل بابها ، كان أعظم إحساسه بحركة اجتذابها وابتلاعها كما في سورة الملك . فإذا استقر المقام فيها كان تصوير حاله في تعذيبه أهم من تصوير النار نفسها . وهنا يجتمع له كلا الأمرين ،غير أن الزفير أسبق وأوضح تعبيرا عن الألم ولذلك أفرد في سورة الأنبياء " لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ " . { الأنبياء /١٠٠} ، وقدم في سورة هود " لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ" { هود /١٠٦} . (١)

والجمع بين الظواهر الأسلوبية المتشابهة في القرآن للفهم والاستنباط والتحليل — هو المنهج الذي سلكته الدكتورة بنت الشاطيء في تفسيرها البياني ، ونسبته إلى شيخها الأستاذ أمين الخولي في إهدائها الجزء الثاني من تفسيرها إليه (٢)

---

(١) تفسير سورة الملك للدكتور دراز مخطوط لوحة رقم {٧} .

(٢) التفسير البياني د: عائشه عبد الرحمن الجزء الثاني ط دار المعارف الطبعة الخامسة — الإهداء.

والواقـــع أن منـــهج الفهـــم والاســـتنباط بدلالـــة الجمع بين النصـــوص منـــهج لـــه أصوله القديمـــة الممـــتدة إلى عهـــد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ " فقد أشكل علـى سيدنا عمر بن الخطاب قولـــه تعالـــى : " قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ . " { النساء/١٧٦}. وراجع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فـــى ذلـك فقـــال له : تكفـيك آيـــة الصـــيف . فدلـــه على الرجـــوع إلى قوله تعالى : " وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ " {النساء/١٢}. فإن الفرق بينهـــما دال على أن الكلالـــة من لاولـــد له ولا والـــــد وإن عـــــلا . وهـــذا مافهمـــه الصدّيـــق وخفى على عمر حتى دلـــه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلـــــم ــ وهـــداه إلى الجمـــع بين النصـــوص واســـتنباط المعانى من بينها " (١)

ويتمـــثل جهـــد الشـــيخ أمـــين الخولـــى فى اســـتخدام هـــذا المنهج فـــى الدراســـة البيانـــية للقـــرآن . والدكـــتور دراز من الذيـــن أسهـــموا فى تقويـــة هـــذا المنـــهج فـــى بعض تحليلاتـــه ، وكان رافـــدا مهما من روافـــده فى اســـتبصار المعانى .

ولاينســـى الدكتور دراز ــ رحمه الله ــ أن يبين ضرورة أن يكون فـــهم المعـــانى واستبصارها فى ضـــوء استحضار خصائص اللغة ومقاصد الشريعة . فلابد فـــى المعنـــى المستنبط من احتمال اللغة له ، وعدم تعارضـــه مع مقاصد الشـــريعة ، وهـــو مـــايقتضى البصر باللغة والشريعة . وقـــد نبه هو إلى ذلك عند جعله " الذى استوقد نارا " مثلا للنبـى ــ صلى الله عليه وســـلم ــ فقـــــال :

" وهـــذا الباب من أبواب البحث والاستنباط الذي لايمس أصلا من أصـــول الديـــن ، ولايحل حراما ، أو يحرم حلالا ــ لن يزال مفتوحا لكل مسلم أعطاه الله فهما فى كتابه علـى شريطة القصد والأناة فى سير العقل ، ومع الاستضاءة فى هذا السير بمصباحين من اللغـــة والشـــرع ". (٢)

---

(١) سبل الاستنباط من الكتاب والسنة د : محمود توفيق سعد صـــ ١٩ .

(٢) النبـــأ العظـــيم صـــ ١٧١ .

خاتمـــــة

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على خاتم النبين ، ورحمـــة لله للعالمين سيدنا محمد وعلى آلـــه وصحبه والتابعين ٠

وبعـــــد :

فقد صحبت هذه الدراسة جهد الدكتور : محمد عبد الله دراز ، وأبانت عن رأيـــه فـــى عديد من قضايا البيان القرآنى التى تعاقبت عليها أقلام العلماء منذ أمد بعيد ، وكـــانت لـــه فى هذه القضايا رؤيته التى استوقد مصابيحها من نور سلفه ، وخلع عليها رداء شــــخصيته التى عكست اقتدار عقله ، وثراء ذوقه ، وغزارة علمه ٠

وقد جاء البحث بعد المقدمـــة فى تمهيد وأربعة فصول

أبان التمهيد عن طبيعة عصر الشيخ ، وما مر به من تطـــورات سياســـية ، واجتماعيـــة ، واقتصادية ، وثقافية ، كما أبان عن نشأة الشيخ ، وتعليمه ، وتراثه العلمــــى ، ثـــم ســـمات الشخصية التى تركت هذا التراث ٠

أما الفصل الأول : فكان لدراسة قضية الإعجاز اللغوى عند الشيخ ، فبدأ بلمحة عن تاريخ الإعجاز وما قدمه كل قرن لخدمة القضية ، وثنى بالفرق بين الإعجاز والتحدى ، وبين الإعجاز ودلائل إثبات كـــون القرآن من عند الله ، ثم درس الإعجاز اللغوى بين الذوق والمعرفـــة ، وبين وقفات الشيخ مع الحائرين فى أمر الإعجاز ، ثم الجديد فى لغة القرآن ، كما أبرز جهد الشيـــخ فى الحديث عن خصائص البناء الصوتى للقرآن ، وخصائص البناء المعنوى للقرآن فى قطعة قطعة منه ٠ وتوصلت الدراسة فى هذا الفصل إلى أمور منها :

١ـ أن جهد الشيخ كان امتدادا لجهود علماء البلاغة القرآنية الذين بحثوا فى القـرآن عن البلاغـة الغائبة فى بيان البشر ، وهى التى علا بها القرآن وانفرد من أساليب البشر وكان على رأس هؤلاء : الإمام الخطابى والإمام الباقلانى ، وقد سلك الشيخ السبيل الذى مهد له علماؤنا من قبل ٠ فكان ابنـا بـارا من أبناء المدرسة القرآنية التى تفتح أبوابها لكل باحث يتعشق العيش فى ظلال القرآن ٠

٢ـ يمثل الإعجاز فى نظر الشيخ ـ حجـة القرآن من نفسه لنفسه ، وهو يؤمن بأنـه سر الإعجاز سر لاسبيل إلى كشفه ، أو الإحاطة بنفسه ، أو نقله من نفس إلى نفس

٣ـ أدار الشيخ دراسة للإعجاز على فكرة مباينة أسلوب القرآن لأساليب البشر ، وشغل بالبحث عن الخصائص البيانية التى انفرد بها أسلوب القرآن ٠

٤ـ ذهب الشيخ إلى إعجاز البناء الصوتى للقرآن ٠

٥ـ ذكر بعض خصائص البناء المعنوى للقرآن فى قطعة قطعة منه ٠

٦ـ أفـاد الشيخ من كثير من علماء الإعجاز والتفسير وعلـوم القرآن ، واتضح تأثره بالإمام الباقلانى ٠ فى عديد من القضايا القرآنية ٠

الفصل الثانى : " قضية الإيجاز عند الدكتور دراز " ٠ وقد بين مفهوم الإيجاز فى مدرسة الإمـام السكاكى ، وعند الدكتور دراز ، ثم بين دلائل إيجاز القرآن عند الشيخ ، ومناقشة الشيخ لمدرسة السكاكى ، وبعد ذلك كان التأصيل والنقد لوجهة الشيخ ٠ وكان من أهم ما توصل إليه البحث فى هذا الفصـل :

١ـ أن مدرسة الإمام السكاكى لم تـول حذف الحرف اهتماما واضحا، كما ظلت مباحث الإيجـاز مفرقـة فى مباحث علوم البلاغة لم يجمعها باب واحد بخالفة بذلك منهج الإمام عبد القاهر

٢ـ أن مفهـــوم الإيجاز عند الشيخ يخالف مفهومه في مدرسة السكاكي ، إذ لم يعتد الشيخ بمتعـــارف الأوساط ، أو أداء أصل المعنى مقياسا للحكم على الكلام بالإيجاز أو الإطناب ، وإنــــما اتخذ من الوفاء بحق المعنى أساسا في حكمه ٠ وهو مقياس يدخل الإطناب في الإيجاز ، ويجعل مفهوم الإيجاز منطبقا على القرآن كله ٠

٣ـ كـــان للشيخ جهده الواضح في مناقشة الأسـس التي أقامت عليها مدرسة السكاكي نظرتها في الإيجاز والإطناب ، فقرب المسافة بين الإيجاز والإطناب وجعلهما فضيلة واحدة ، كما أنكر المساواة بمفهومها الذي استقر في هذه المدرســة ٠

٤ـ أن جهد الشيخ ومفهومه لهما جذورهما في التراث البلاغي والنقدي ٠

أما الفصل الثالث " إنكار الزيادة في القرآن عند الدكتور دراز " ـ فقد أبـان عن اختلاف العلـــماء في زيادة الحرف في القرآن وفي اللغـــة ، ثم وضح موقف الدكتور دراز الذي أنكر الزيادة كـــما أنكر إطلاق لفظها على حرف قرآني ، محللا ومستشهدا لما يقول ٠

وتوصلت الدراســـة في هذا الفصل إلى أمـــور :

١ـ على الرغـــم من اختلاف العلماء حـــول إثبات الزيادة أو إنكارها في القرآن ـ فهم متفقون على تنزيـــه القرآن عن العبث والحشو ، ويقصد القائلون بوقوع الزائد : أنه زائـــد في الصناعة الإعرابية ولـــه فائـــدة لا تتأتى بدونـــه ، ويرد المنكرون بأن الإفادة تنقض الزيادة ٠

٢ـ أن الدكتور دراز من المنكرين لوقوع الزائد في القرآن ، ولجواز إطلاق لفظها على حـــــرف قرآني ٠ وهو اتجاه لـــه وجاهته وحججه الدامغـــة ، وأصالته في الدرس القرآني والبلاغي ٠

٣ـ حيـن رد الشيخ على القائلين بالزيادة ـ عمد إلى التطبيق ليكشف عن عطاء حرف ترادفـت كلمة أكثر أهـل العلم على زيادته ، إيمانا منه بأن ميدان التطبيق ومتابعة حركة السياق هو طريـق الهدى الذى يوقف الباحث على عطاء القرآن ويهديه إلى كلمة مقاربة فى أمر هذا البيان .

ويبقى الفصل الأخير : " التناسب عند الدكتور دراز " . وقد بدأ بلمحة تاريخية عن التناسـب ثم أبرز قيمة التناسب ، ونظرة الشيخ للسورة القرآنية ، ووجهته فى دراسة التناســب بيــن عناصر السورة ، وتطبيقه على سورة البقرة ، ويأتى بعد ذلك تأصيل ونقد لوجهة الشيـــخ ، ثم بيان لموقفه من وحدة الموضوع فى السورة القرآنية ، وأبرز سبله فى استنباط المعانى.
وتوصلت الدراســة فى هذا الفصل إلى أمور منها :

١ـ عـد الشيخ التناسب بين عناصـر السورة مــن الخصائص البيانية التى انفرد بها القرآن . وكان ذلك انطلاقا مما ذكره الإمام الباقلانى فى الوجـــه الرابع من وجوه إعجـــاز النظم القرآنى ، ثم أفاد الشيخ من كثير مما كتب علماء التفسير والمناسبة والبلاغـــة .

٢ـ وضع الشيخ أصولا لدراسة التناسب بين عناصر السورة ، فدعا إلى إحكام النظر فى الســورة وضبط مقاصدهـــا ، وإلى توسيع النظر فى أنواع العلاقات ، وفى مقدار الجزئيات التى يقع بينها التناسب .

٣ـ اتساع مفهوم الاستئناف البيانى ، وبيان أثره فى الربط بين أغراض القرآن ، فقد حدد البلاغيون المتأخرون مفهوم الاستئناف البيانى : بأن تثير الجملة الأولى سؤالا تتولد منه الجملة الثانية . وبرز من خلال التطبيق إمكان اتساع المفهوم بأن : يثير الغرض سؤالا يتولد منه الغــــرض الثانى وكثير من أغراض القرآن يتولد بعضها من بعض على هذا الأساس .

٤ــ الإجمال والتفصيل أحد الفنون التى تربط بين المعانى ، ويمكن أن يتسع مفهومه فى ضوء دراسة تستقصى مواضعه وفنونه فى القرآن الكريم ، ذلك أن البلاغيين حددوا مفهومه : بأن يلقى المعنى بصورة مجملة ، ثم يلقى بصورة مفصلة ليتمكن فى نفس السامع. وأوقفنا الشيخ على صورة أخرى لهذا الفن فى القرآن حيث جاءت " آية واحدة " فصلت فيما يقرب من نصف سورة البقرة وهو ما أوضحه الشيخ فى وقفته مع " آية البر "

٥ــ ضرورة الإفادة من الروافد العديدة للبلاغة ، من القرآن والسنة وكلام علماء التفسير ، والحديث ، والفقه ، واللغة والأدب ، وشراح الشعر ، ــ فى صياغة مباحث البلاغة حتى تكون صورة هذه المباحث مكتملة المعالم ، ولأن علوم الدين واللغة موصولة الرحم • والتناسب واحد من هذه المباحث التى تحتاج إلى جمع الفنون البلاغية التى تبحث فى علاقات المعانى مثل : مراعاة النظير ، حسن التخلص ، والفصل والوصل ••• إلخ ثم إضافة ما كتبه المفسرون فى علم المناسبة ودراسة ذلك كله فى باب علاقات المعانى الذى فتحه الإمام عبد القاهر •

٦ــ اعتمد الشيخ سبلا عدة فى تذوق واستبصار المعانى ،وكان من أبرز هذه السبل • تحليل البناء اللغوى للنص ، والسياق ، والجمع بين النصوص المتشابهة والتماس ما بينها من اتفاق وافتراق للوصول إلى المعنى •

٧ــ كما أثارت دراسة جهد الشيخ بعض القضايا التى لا تزال بحاجة إلى بحث منها :

{ أ} : دراسة خصائص المعنى القرآنى • فقد ذكر الشيخ بعض هذه الخصائص ، ولا زال الموضوع فى حاجة إلى بحث جاد وعميق •

{ب} : الاستفـــهام المقدر فى الاستئناف البيانى . فقد ذكر المتأخرون أن السؤال المقدر يكون عن علـة عامـة ، أو عن علة خاصـة ، أو عن غير علة . وذكر الدكتور دراز أن هذا الاستفهام المقدر قد يحمل الدلالة على التعجب ، أوالتضرع والابتهال ، أو غير ذلك مما اتضح فى وقفته عند الانتقال من الحديث عن المؤمنين إلى الحديث عن الكفار فى مطلع سورة البقرة ، وهذا يفتح بابا من البحث حول معانى الاستفهام المقدر فى القرآن الكريم .

{جـ} : مفهوم الإجمال والتفصيل ومنهجه فى القرآن الكريم .

إلى غير ذلك من البحوث التى أشير إليها فى مواضعها من البحث .

وبعــــــد

فلست أدعى أنى بلغت الغاية فى الوفاء بحق هذه الدراسة ، وإنما هـى محاولـة جـادة بذلت وسعها ، واستفرغت جهدها فى استبصار جهد الشيخ وإبراز ملامح فكره فى قضايـا البيان القرآنى ، وأدعوه سبحانه أن يغفر ما زل به اللسـان والقلـم ، وأن يرحـم ضعفـى وتقصيرى وهو حسبى ونعم الوكيل .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
والتابعين إلى يوم الديـن . والحمد لله رب العالمـين

ثـبت بالمصـادر والمراجـع

١ـ الإتقـان فى علوم القرآن : للإمام السيوطى ٠ ت : محمد أبو الفضل إبراهـيم ، ط : دار التراث بالقاهـرة {د/ت} ٠

٢ـ الأدب العربى المعاصر فى مصر ٠ د: شوقـى ضيف ، ط : دار المعـارف ٠ الطبعـة العاشـرة ٠ { د/ت}٠

٣ـ أسـباب النزول : للإمام الواحدى ٠ ت : كمال بسيونى زغلول ، طبعة دار الكتـب العلميـة بيروت {د /ت} ٠

٤ـ أسرار البلاغة : للإمام عبد القاهر الجرجانى ٠ ت : الشيـخ : محمود شاكـر: ط : دار المدنـى بجدة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م ٠

٥ـ أسرار الفصل والوصل فى البلاغـة القرآنية ٠ د: صـبّاح دراز ٠ مطبعة الأمانـة، الطبعـة الأولى ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م ٠

٦ـ الأسس الجمالية فى النقد الأدبى عرض وتفسير ومقارنـة : د:عـزالدين إسـماعيل ٠ ط : دار الفكـر العربى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ٠

٧ـ أسس النقد الأدبى عند العرب : د: أحمد بدوى ٠ ط : نهضة مصر للطباعـة والنشر، سـبتمبر ١٩٩٦م ٠

٨ـ الإشارة إلى الإيجازفى بعض أنواع المجاز : للعز بن عبدالسلام ، ط: دار الحديـث القاهـرة {د/ت} ٠

٩ـ أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن : محمد الأمين الشنقيطى ، ط: دار إحـياء التراث بيروت ٠ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م٠

١٠ـ إعجاز القرآن : للإمام الباقلانى ٠ شرح وتعليق : د: محمد عبد المنعـم خفاجـى ٠ ط : دار الجيل بيروت ٠ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م

١١ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعى٠ ط : دار الكتب العلميـة بيروت ٠ الطبعـة التاسعة ١٣٩٣هـ ـ١٩٧٣م٠

١٢ــ الإعجاز البيانى ،د: عائشـــة عبد الرحمن ، ط : دار المعارف ، الطبعة الثانيـــة ١٤٠٤هــ ــ ١٩٨٤م ،

١٣ــ الإعجـــاز البلاغى دراســـة تحليليـــة لتراث أهل العلم " ، د: محمـــد أبو موسى ، مكتبـــة وهـــبة الطبعة الأولى ، ١٤٩٠هــ ــ ١٩٨٤م ،

١٤ــ الإعجاز القرآنى وجوهـــه وأسراره ، د: عبد الغنى بركة ، ط : مكتبة وهـــــبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هــ ــ ١٩٨٩م ،

١٥ــ الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء ، خير الدين الزركلى ط: دار العلم للملايين الطبعة الثالثة ، والطبعة الخامسة {د/ت} ،

١٦ــ أمالى ابن الشجرى : هبة الله بن على العلوى ، ت : د : محمود الطناحـــــــــى ط : مكتبة الخانجى الطبعة الأولى ١٤١٣هــ ــ ١٩٩٢م ،

١٧ــ الإمام الباقلانى وكتابه إعجاز القرآن ، د: عبد الرءوف مخلوف، منشـــــورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٨م ،

١٨ــ الانتصاف على الكشاف، للإمام أحمد ابن المنير السكندرى، على هامش الكشاف ط : دار الريان للتراث ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هــ ــ ١٩٨٧م،

١٩ــ الإيضاح فى علوم البلاغة : للخطيب القزوينى ، ت : د: محمد عبدالمنعم خفاجى ط : دار الجيل بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هــ ــ ١٩٩٣م ،

٢٠ــ البحر المحيط ، لأبى حيان الأندلسى ، ت: عـــــادل أحمـــد عبـــــد الموجـــود ط : دار الكتب العلمية ، بيروت {د/ت} ،

٢١ــ بحوث فى النقد التراثى ، هلال ناجى.دار الغرب الإسلامى بيروت ، الطبعـــــة الأولـــى ١٩٩٤م ،

٢٢ــ بحوث قرآنية ولغوية ، الشيخ عبد الرحمن تاج . ط: المكتب الثقافى للطباعـــــة والنشـــر {د/ت} ،

٢٣ــ البرهان فى وجوه البيان ، لابن وهب ،ت : د: حنفى محمد شرف ط: مكتبـــــة الشـــباب {د/ت} ،

٢٤ـ البرهان فى تناسب سورة القرآن للإمام ابن الزبير الثقفى ٠ ت : د٠ سعيد الفلاح،
جامعــة الإمام محمد بن ســعود ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م٠
٢٥ـ البرهان فى علوم القرآن ٠ بدر الدين الزركشى ٠ت : مصطفى عبد القــادر عطا
ط : دار الفكر ٠ بيروت ٠ الطبعة الأولى ٠ ١٤٠٨هـ ـ١٩٨٨م٠
٢٦ـ البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابى ٠ د: صبــاح دراز٠ مطبعة الأمانة، الطبعــة
الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م٠
٢٧ـ البيان والتبيين: للجاحظ ٠ت : عبد السلام هارون ٠ مكتبة الخانجى ٠ الطبعـــة
الخامسة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م٠
٢٨ـ بيان إعجاز القرآن للإمام الخطابى ٠ ضمن ثلاث رسائل فى إعجـــاز القــرآن
ت:د :محمد زغلول سلام ط: دار المعارف الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ ١٩٦٨م٠
٢٩ـ البيان العربى دراسة تاريخية فنية فى أصول البلاغة العربية ٠د: بدوى طبانـــة٠
مطبعة الرسالة٠ الطبعة الثانية ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م٠
٣٠ـ البيان القرآنى ٠ د: محمد رجب البيومى ط: مجمع البحوث الاسلامية ٠ الســنة
الثالثــة الكتاب الواحد والثلاثون ، ربيع الثانى ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م٠
٣١ـ تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ٠ت: السيد أحمد صقر ٠ ط: دار الكتب العلميـــة
١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م٠
٣٢ـ تاريخ الأدب الحديث٠ د: حامد حفنى داود٠ دار الطباعة المحمدية٠الطبعة الأولى
١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م٠
٣٣ـ التاريخ الإسلامى٠د: محمود شاكر ٠ط: المكتب الاسلامى ـ الطبعة الأولـــى
١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م٠
٣٤ـ التحرير والتنوير ٠ لابن عاشور ٠ط: دارســحنون بتونس {د/ت} ٠
٣٥ـ تربية الذوق البلاغى عند الإمام عبدالقاهر ٠ د: عبدالعزيز عرفة٠ط: دار الطباعة
المحمدية الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ٠
٣٦ـ التصوير البيانى "دراسة تحليلية لمسائل علم البيان" د: محمد أبو موسى ٠ ط:دار
التضامــن ٠ الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م٠

٣٧ــ التصوير الفنى فى القرآن الكريم • سيد قطب . ط : دار المعارف ــ الطبعة العاشرة {د/ت}•

٣٨ــ التفسير البيانى للقرآن • د: عائشة عبد الرحمن ط: دار المعارف ،الطبعة الخامسة ١٣٩٧هــ ١٩٧٧م•

٣٩ــ تفسير القرآن العظيم • للإمام ابن كثير • ت: طه عبد الرءوف سعد مكتبة الإيمان الطبعة الأولى ١٤١٧هــ ــ ١٩٩٦م•

٤٠ــ تفسير المنار: للشيخ رشيد رضا •ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة التراث للجميع ١٩٩٠م•

٤١ــ تناسق الدرر فى تناسب السور، للإمام السيوطى •ت: عبد القادر عطا•ط: دار الكتب العلمية بيروت • الطبعة الأولى ١٤٠٦هــ ــ ١٩٨٦م•

٤٢ــ ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن• الخطابى والرمانى والإمام عبدالقاهر • ت: محمد زغلول سلام ط: دار المعارف • الطبعة الثانية: ١٣٨٧هــ ــ ١٩٦٨م•

٤٣ــ حاشية الدسوقى على مختصر السعد • للإمام الدسوقى ، مطبوعة بهامش شروح التلخيص ط : دار السرور بيروت {د/ت}•

٤٤ــ حاشية الميرسيد شريف • للسيد شريف • مطبوعة على هامش المطول، نشر المكتبة الأزهرية للتراث ١٣٣٠هــ •

٤٥ــ حول إعجاز القرآن• د: على العمارى •هدية مجلة الأزهرعدد شوال ١٤١٩هــ•

٤٦ــ الحيوان• للجاحظ •ت : محمد باسل عيون• ط:دار الكتب العلمية • بيروت الطبعة الأولى ١٤١٩هــ ــ ١٩٩٨م•

٤٧ــ جامع البيان فى تأويل آى القرآن • للإمام الطبرى• طبعة دار المعرفة • بيروت {د/ت}•

٤٨ــ جواهر البيان فى تناسب سور القرآن عبد الله محمد الغمارى• مكتبة القاهرة مطبعة محمد عاطف {د/ت}•

٤٩ــ الخصائص •للإمام ابن جنى• ت: محمد على النجار• ط•دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٢هــ ــ ١٩٥٢م•

٥٠ـ خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية . د : عبد العظيم المطعني .
مكتبة وهبة . الطبعة الأولى . ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
٥١ـ دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية . د: محمد عبدالله دراز،
طبعة دار القلم . الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
٥٢ـ دراسات جديدة في إعجاز القرآن . د: عبد العظيم المطعني. مكتبة وهبة
الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٩م.
٥٣ـ دستور الأخلاق في القرآن . د: محمد عبد الله دراز . ترجمة د: عبدالصبور شاهين
مؤسسة الرسالة الطبعة التاسعة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
٥٤ـ دفاع عن البلاغة . أحمد حسن الزيات . مطبعة الرسالة ١٩٤٥
٥٥ـ دلائل الإعجاز . للإمام عبد القاهر، ت: الشيخ محمود شاكر .ط: دار المدني بجدة
الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .
٥٦ـ دلالة الألفاظ عند الأصوليين " دراسة بيانية ناقدة : د: محمود توفيق سعد ، مطبعة
الأمانة الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
٥٧ـ دلالات التراكيب د: محمد أبو موسى. الناشر مكتبة وهبة الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ
١٩٨٧م .
٥٨ـ الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان .د: محمد عبد الله دراز ط: دار القلم
١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .
٥٩ـ الدين والأخلاق والقومية : د: محمد عبد الله دراز . تقديم الدكتور سيد بدوي
ط : دار الأنصار (د/ت) .
٦٠ـ الديوان في الأدب والنقد : للعقاد . مطبوع ضمن مجموع الأعمال الكاملة، ط:دار
الكتاب اللبناني . بيروت . الطبعة الأولى : ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٦١ـ الرسالة الشافية في إعجاز القرآن. عبد القاهر الجرجاني ـ ملحق بكتاب دلائل
الإعجاز ت الشيخ شاكر ، ط: دار المدني الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
٦٢ـ رؤية جديدة للإيجاز والإطناب د: عبد الغني بركة ، الطبعة الأولى : ١٤٠٤هـ
١٩٨٧م .

٦٣ـ سـبل الاستنباط من الكتاب والسنة ،د: محمود توفيق سعد ، مطبعة الأمانـــة ، الطبعـة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٦٤ـ سـر صناعة الإعراب لابن جنى . ت: أحمد فريد .المكتبة التوفيقـة {د/ت}.

٦٥ـ سـر الفصاحة . لابن سنان الخفاجي . ط: دار الكتب العلمية بيروت . الطبعــة الأولــى {د/ت} .

٦٦ـ سعد زغلول يفاوض الاستعمار . طارق البشرى . ط : الهيئة المصرية العامــة للكتــاب { د/ت}.

٦٧ـ سيد قـطب من القريـة إلى المشنقـة د: عادل حمودة .دار سينا للنشر. الطعبــة الأولـــى ١٩٨٧م.

٦٨ـ سـير أعلام النبلاء . للإمام شمس الدين الذهبى ، طبعـة مؤسسة الرسالــة. الطبعـة الثالثة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٦٩ـ شروح التلخيص .ط: دار السرور بيروت لبنان {د/ت}.

٧٠ـ شرح المفصل .لابن يعيش . طبعة:مكتبة المتنبى القاهرة {د/ت}.

٧١ـ الشفا بتعريف حقـوق المصطفى . القاضى عياض . ت: محمد على النجـــار ط : عيسى الحلبى وشركاه . {د/ت}.

٧٢ـ الصبغ البديعى فى اللغة العربية .د: أحمد موسى . ط: دار الكتاب العربـــى ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م .

٧٣ـ صحيح الإمام البخارى ط: دار احياء الكتب العربية . عيسى الحلبى {د/ت}.

٧٤ـ صحيح الإمام مسـلم ط : إحياء التراث العربــى . بيروت . الطبعــة الأولــى ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

٧٥ـ الصناعتين الكتابة والشعر . لأبى هلال العسكرى ت: د: مفيد قميحة . ط : د ار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

٧٦ـ الصورة الفنية فى التراث النقـدى والبلاغــى .د : جابــر عصفـور. ط: دا ر المعــارف {د/ت}.

٧٧ـ طبقات الشافعية لابن كثير ت : د. أحمد عمر هاشم ، د. محمد زينهم مكتبة الثقافية الدينية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٧٨ـ طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحى ت : محمود شاكر . ط : دار المدنى بجدة ١٩٧٤هـ .

٧٩ـ الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبى . ترجمة د . عبد الصبور شاهين تقديم د. محمد عبدالله دراز " والشيخ محمود شاكر ، ط : دار الفكر المعاصر . بيروت . الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٨٠ـ العالم الإسلامى فى الحرب العالمية الأولى . د: سعيد رزق حجاج . مطبعة الأمانة الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

٨١ـ العقد الفريد . لابن عبد ربه الأندلسى . ت محمد سعيد . ط : دار الفكر بيروت . {د/ت}.

٨٢ـ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق ت : محى الدين عبدالحميد. ط : دار الجيل بيروت . الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٩م.

٨٣ـ الفائق فى غريب الحديث ، للزمخشرى ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ،على محمد البيجاوى ط : دار المعرفة بيروت ، الطبعة الثانية {د/ت}.

٨٤ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى : ابن حجر العسقلانى .ط : دار الفكر .بيروت ١٤١٦ـ ـ ١٩٩٦م.

٨٥ـ فصول فى علم الجمال . د : عبد الرءوف برجاوى . دار الآفاق الجديدة.بيروت الطبعة الأولى . ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٨٦ـ فقه بيان النبوة منهجا وحركة . د: محمود توفيق سعد . مطبعة الأمانة الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٨٧ـ فى الأدب المعاصر .د: إبراهيم عوضين. الطبعة الأولى. ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م.

٨٨ـ فى ظلال القرآن . سيد قطب . ط:دار الشروق ، الطبعة الثالثة والعشرون ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م .

٨٩ـ في فلسفة النقد، د : زكي نجيب محمود ، ط : دار الشروق ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٩٠ـ في النقد الأدبي الحديث ، د : شوقي ضيف ط : دار المعارف ، الطبعة الأولى {د/ت}.

٩١ـ قراءة في الأدب القديم ، د: محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ ـ ١٩٨٩م .

٩٢ـ قضايا النقد والبلاغة بين القديم والحديث ، د : محمد زكي العشماوي، ط : دار الشروق الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٩٣ـ قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية إلى عهد السكاكي د : على العماري أميرة للطباعة ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٩٤ـ الكتاب ، لسيبويه ، ت : عبد السلام هارون ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٧م

٩٥ـ الكشاف للزمخشري، ط: دار الريان للتراث ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٩٦ـ كمال العناية بما في ليس كمثله شيء من الكناية، للشيخ أحمد رافع الحسيني { د/ط} { د/ت}.

٩٧ـ كنز العمال ، للعلامة البرهان فوري ، ضبطه الشيخ بكري حياني، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٩٨ـ لسان العرب ، لابن منظور الإفريقي ت : عبد الله علي ، ومحمد أحمد حسب الله ط : دار المعارف { د/ت}.

٩٩ـ لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن ، د : فضل عباس حسن ، ط: دار النور للطباعة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٨٩م

١٠٠ـ المؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية صفر ١٤٠٦هـ .

١٠١ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لابن الأثير ، ت : محي الدين عبد الحميد ط : المكتبة العصرية ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

١٠٢ـ المحرر الوجيز في لطائف الكتاب العزيز : لابن عطية الأندلسي ، ت : عبدالسلام عبد الشافي ط : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٠٣ـ مدخل إلى القرآن الكريم ، د: محمد عبد الله دراز ، ط : دار القلم ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٠٤ـ مدخل إلى كتابى عبد القاهر الجرجانى ، د : محمد أبو موسى . مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

١٠٥ـ مدخل القرءات القرآنية فى الإعجاز البلاغى ، د : محمد إبراهيم شادى ، مطبعة السعادة الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م .

١٠٦ـ مذاهب النقد وقضاياه ، د : عبد الرحمن عثمان {د/ط} ١٣٩٥ـ ١٩٧٥م.

١٠٧ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل ، شرحه ووضع فهارسه : الشيخ أحمد شاكر، وأكمله الدكتور الحسينى هاشم. الطبعة الرابعة {د/ت}.

١٠٨ـ مصر فى الحرب العالمية الأولى. د : لطيفة محمد السيد ، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.

١٠٩ـ المطول فى شرح تلخيص المفتاح. لسعد الدين التفتازانى ، ط المكتبة الأزهرية ١٣٣٠هـ .

١١٠ـ معترك الأقران فى إعجاز القرآن ، للإمام السيوطى ، ط: الكتب العلمية. الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١١١ـ المعجزة الكبرى ، للشيخ : محمد أبو زهرة ، ط : دار الفكر العربى ، بيروت. {د/ت}.

١١٢ـ مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة ، للأستاذ : على النجدى ناصف ، ط: دار المعارف {د/ت}.

١١٣ـ معجم الأدباء ، لياقوت الحموى ، ط : دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

١١٤هـ معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، عمر رضا كحالة، مكتبة المتنبى القاهرة {د/ت}.

١١٥ـ مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام، ت: محى الدين عبد الحميد ، ط : المكتبة العصرية ، بيروت ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١١٦ـ مفاتيح الغيب : للإمام الرازى ، تقديم : خليل محى الدين ، ط : دار الفكر بيروت ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ،

١١٧ـ مفتاح العلوم ، للإمام السكاكى ، ت : نعيم زرزور ، ط : دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ،

١١٨ـ مفهوم إعجاز القرآن حتى القرن السادس الهجرى : أحمد جمال العمرى، ط :دار المعارف {د/ت} ،

١١٩ـ المقتضب، للإمام المبرد ،ت : د محمد عبد الخالق عضيمة ، ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٣٩٩هـ ،

١٢٠ـ مقاييس اللغة ، لابن فارس ، ت : عبد السلام هارون، ط : دار الفكر ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م،

١٢١ـ من أسرار التعبير القرآنى، د : محمد أبو موسى ط : مكتبة وهبة، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م ،

١٢٢ـ من الإعجاز البلاغى للقرآن ، د : صباح دراز ط : دار التوفيقية للطباعة بالأزهر { د/ت}،

١٢٣ـ مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب، للشيخ أمين الخولى ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م ،

١٢٤ـ من بلاغة القرآن ، د: أحمد بدوى ،ط: مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الثانية {د/ت}،

١٢٥ـ الموافقات للإمام الشاطبى ت : الشيخ عبد الله دارز ،ط : دار الكتب العلمية بيروت ، {د/ت}،

١٢٦ـ موسوعة التاريخ الإسلامى، د : أحمد شلبى ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الثامنة ١٩٩٠م،

١٢٧ـ النبأ العظيم ، د: محمد عبد الله دراز ط : دار القلم،الطبعة السابعة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ،

١٢٨ـ نتائج الفكر : للإمام السهيلى: ت : عادل أحمد عبد الموجود، وعلى محمد عوض ط: دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م،

١٢٩ـ نظرات فى الإسلام ،د: محمد عبد الله دراز ، المكتب الفنى للنشر ، الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م .

١٣٠ـ نظرية عبد القاهـر فى النظم ، د : درويش الجندى ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠م

١٣١ـ نظم الدررفى تناسب الآى والسور :برهان الدين البقاعى ، خرجه ووضع حواشـيه: عبد الرازق غالب ، ط : دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

١٣٢ـ النقـد الأدبى الحديث ، د: محمد غنيمى هلال، ط : نهضة مصر أبريل ١٩٩٦م.

١٣٣ـ النقد الجمالى وأثره فى النقد العربى : روز غريب ، ط : دار الفكر اللبنانـى بيروت ، الطبعـة الثانيـة ١٩٨٣م.

١٣٤ـ النقد المنهجى عند العرب د : محمد مندور ، ط : نهضة مصر ١٩٩٦م.

١٣٥ـ النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين ،د: محمد رجب البيومى ، سلسلة البحوث الإسلامية ،السنة الثالثة عشرة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

١٣٦ـ الوافـى بالوفـيات ، صلاح الدين الصـفدى ت : س ديدر ينغ ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

١٣٧ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ، ت : إحسان عباس ، ط:دار الثقافـة بيروت لبنان {د/ت}.

الرسـائل العلميـة ، والمخطوطـات :

١٣٨ـ الإعجـاز البلاغى للقرآن الكريم فى تراث الرافعى (دكتوراة " إعدا د : الباحـث: د/فتحـى عبد القادر فريد بإشراف الأستاذ الدكتور: أحمد موسى مخطوط رقم ٧٤٨ بكلية اللغة العربية بالقاهـرة " قسـم البلاغـة " .

١٣٩ـ التناسب عند برهان الدين البقاعى ، " دكتوراة " مقدمة من الباحث :دمحمود توفيق سعد، بإشراف الأستاذ الدكتور الكردى، مخطوط رقم ١٨٨٢م بمكتبة كلية اللغـة العربية القاهـرة " قسـم البلاغـة " .

١٤٠ـ علاقة المطالع بالمقاصد فى القرآن الكريم.دراسة بلاغية نظرية تطبيقية " دكتوراة " مقدمة من الباحث :د.إبراهيم الهدهد : بإشراف الأستاذ الدكتور: محمد أبو موسى . مخطوط رقم ٢٩٨٧ـ بمكتبة كلية اللغة العربية القاهرة " قسم البلاغة " .

١٤١ـ الواو ومواقعها فى النظم القرآنى " دكتوراة " مقدمة من الباحث:د.محمد الأمين الخضرى بإشراف : الأستاذ الدكتور الكردى . مخطوط . رقم ١٨٩٧ بمكتبة كلية اللغة العربية القاهرة " قسم البلاغة " .

١٤٢ـ دلالة البرهان القويم على تناسب آى القرآن العظيم . للبقاعى .مخطوط بجامعة الإمام محمد بن سعود . قسم المخطوطات رقم ٤٧٢٤ .

١٤٣ـ تفسير سورة الملك .د : محمد عبد الله دراز " مخطوط " .

١٤٤ـ تفسير سورة القلم . د : محمد عبد الله دراز " مخطوط " .

المجلات والدوريات

١٤٥ـ مجلة الأزهر جـ ٢٣ عدد جمادى الأولى ١٣٧١هـ .

١٤٦ـ مجلة الأزهر جـ١ غرة المحرم ١٣٧٢هـ ـ سبتمبر ١٩٥٢م.

١٤٧ـ مجلة الأزهر عدد رجب ١٣٧٧هـ .

١٤٨ـ مجلة الأزهر جـ٨ عدد شعبان ١٤٠٣هـ . مايو ١٩٨٣م .

١٤٩ـ مجلة رسالة الباكستان . السنة التاسعة عدد رقم١٩١ جمادى الأخرة١٣٧٧هـ يناير ١٩٥٨م .

١٥٠ـ مجلة لواء الإسلام عدد رقم ٩جمادى الأولى ١٣٧٥هـ ديسمبر ١٩٥٥م.

١٥١ـ مجلة لواء الإسلام عدد رقم١١ رجب ١٣٧٧ فبراير ١٩٥٨م.

١٥٢ـ مجلة المجلة عدد رقم ٤ رمضان ١٣٧٦هـ أبريل ١٩٥٧م.

١٥٣ـ مجلة المجلة عدد رقم ٧ ذو الحجة يوليو ١٩٥٧م .

١٥٤ـ مجلة المقتطف عدد مارس ١٩٤٠ م

الفهارس العامة

فهـــــرس آيات القرآن الكريم

م	رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
		سورة الحج	
١	٧٥	" الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير "	٣١٣
		سورة المؤمنون	
١	٨٧،٨٤	" من قوله تعالى : " قل لمن الأرض ومن فيها " إلى قوله : أفلا تتقون "	٢٤١
		سورة الفرقان	
١	١٢	" إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا "	٣٢٥
		سورة الشعراء	
١	٢٠٨	" وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون "	١٤٨
		سورة النمل	
١	٧،٦	" وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم • إذ قال موسى لأهله .. "	٢٩٣
٢	٣٣	" قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين "	١٩٥، ١٤٠
		سورة القصص	
١	٣٢	" اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم يدك إلى جناحك "	١٦٨
٢	٣٨	" وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري .. "	٢٤٠
٣	٧٢،٧١	" قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون • قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا "	٢٠٣
		سورة العنكبوت	
١	٣٣	" ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا .. "	٢١٢
٢	٦١	" ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر .. "	٢٤١

م	رقم الآية	اسم السورة	رقم الصفحة
		سورة الروم	
١	٤٨	" اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ"	٢٠٤
		سورة فاطر	
١	٤٣	" وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ... "	١٨٨
		سورة يس	
١	٣٨،٣٧	" وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا .."	٢٩٢
		سورة الصافات	
١	١٠٤،١٠٣	" فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ "	٢٢٠
		سورة الزمر	
١	٣	" أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا"	٢٤٠
٢	٣٦	" أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ .."	٢٢٦
٣	٥٣ـ٥٥	من قوله تعالى :" قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ " إلى قوله تعالى: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ "	١١٣،١١٢
		سورة فصلت	
١	٢٦	" وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ"	١٠٢
		سورة الشورى	
١	٤	" لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ "	٢٤١،٢٣٤
٢	١١	" فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا "	٢٤١،٢٣٣
٣	٢٨	" وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ"	٩٠
٤	٤٠	" وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا "	٢١١

فهـــــرس الأحـــاديث النـــبوية

فهـــــــرس الأبــيات الشعريـــة

فهـــرس الأعـــلام

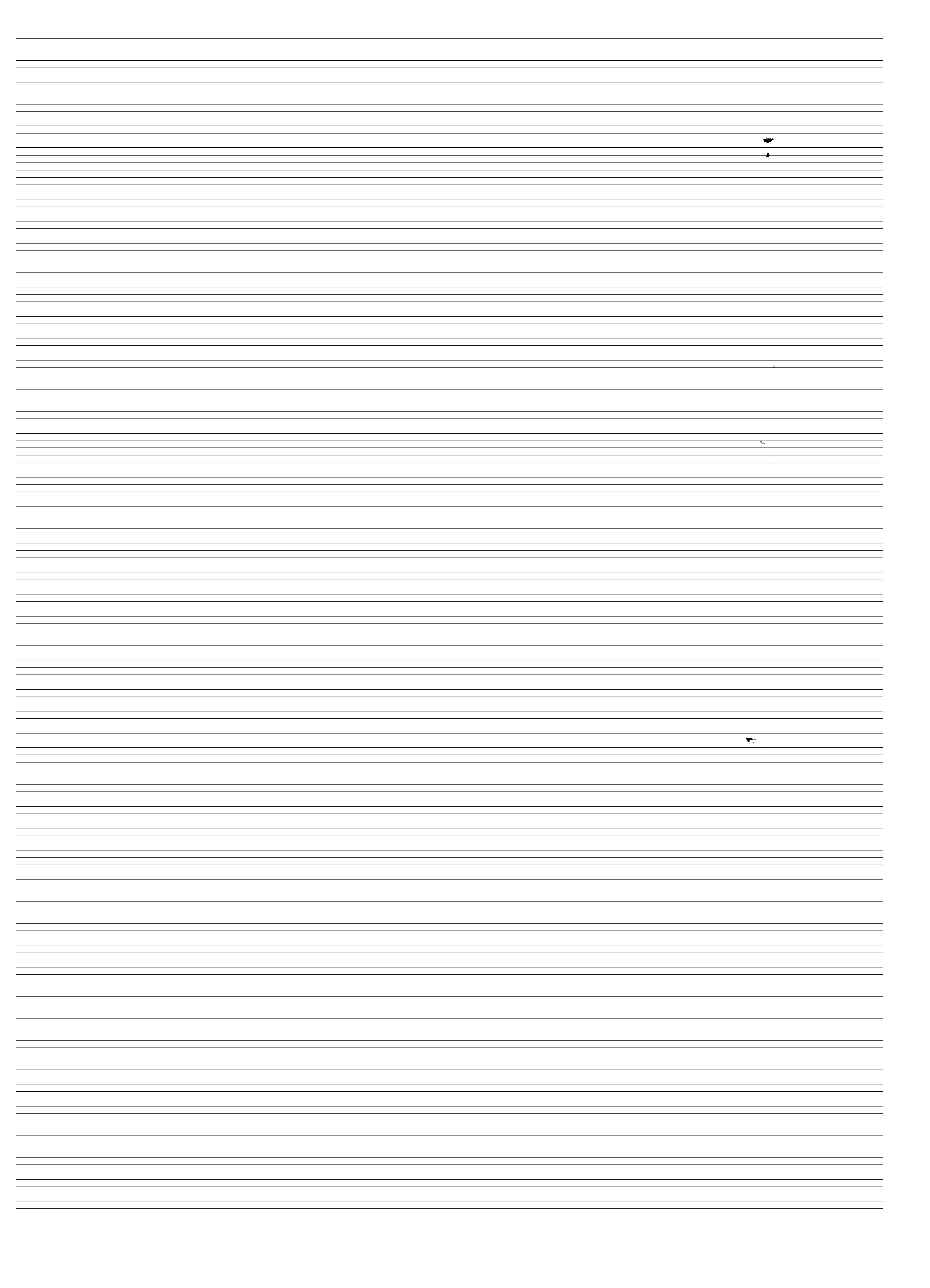
فهـــرس الموضـــوعـــات

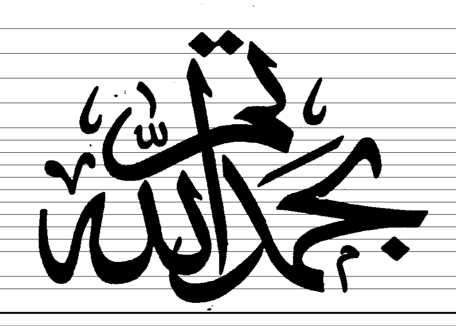
الموضـــــــوع	رقـــم الصفحـــة

الموضــــــــــوع	رقــم الصفحــة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــو ع	رقــم الصفحــة





مكتبة بستان المعرفة

لطبع ونشر وتوزيع الكتب

كفر الدوار – الحدائق – بجوار نقابة التطبيقيين

☎ ٠٤٥/٢٢٢٤٢٢٢٨ الإسكندرية: ٠١٢٢٣٥٢٤٨١٤